

حكايات الدجال والعلوم الاجتماعية

فصلية علمية محكمة - تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

حكايات الدجال والعلوم الاجتماعية

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

ابن الخطيب الأندلسي
من الانقلاب إلى الاغتيال

(٧٦٠ - ٧٧٦ هـ)

(١٣٥٩ - ١٣٧٤ م)

د. رابح عبد الله المغراوي
قسم التاريخ - جامعة محمد الأول
المملكة المغربية

Ibn Al-Khatib From coup d'etat to
Assassination Omened Ministry
(760 - 776 A.H)
(1359 - 1374 A.D)

مجلس
النشر
العلمي



Academic
Publication
Council



(يونيو) ٢٠٠٦ م - ١٤٢٧ هـ

الرسالة ٢٤٧

الحوادث السياسية والعسكرية

ISSN: 1560 - 5248

ISSN: 1560 - 5248

الرسالة ٢٤٧ - الحولية ٢٦

Monograph 247 - Volume 26

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م (يونيو)

1427 A.H - 2006 (June)

حواصت الآداب والعلوم الاجتماعفة

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

تصدر عن مجلس النشر العلمف - جامعة الكويت

فصلفة علمفة محكّمة تتضمن مجموعة من الرسائل
وتعنى بنشر الموضوعات التي تدخل فف مجالات
اهتمام الأقسام العلمفة لكلففف الآداب والعلوم
الاجتماعفة:

الآداب:

اللغة العربفة وآدابها، اللغة الإنجلفزفة وآدابها،
التارفخ، الفلسفة، الإعلام.

العلوم الاجتماعفة:

الاجتماع، الجغراففا، علم النفس، العلوم السفسافة.

الحولفة السادسة والعشرون
الرسالة السابعة والأربعون بعد المئفففف

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

هيئة التحرير

د. نسيمه راشد الغيث

رئيسة التحرير

أ. د. أحمد محمد عبد الخالق

قسم علم النفس

أ. د. عبدالله سيد عبد المجيد هدية

قسم العلوم السياسية

أ. د. محمد أحمد الدالي

قسم اللغة العربية وآدابها

د. يعقوب يوسف الكندري

قسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية

د. عبید سرور العتيبي

قسم الجغرافيا

د. حسين علي المسري

قسم التاريخ

د. الزواوي بغورة بن السعدي

قسم الفلسفة

د. أنتوني جوهي

قسم اللغة الإنجليزية

د. هشام محمود إبراهيم مصباح

قسم الإعلام

هيفاء حمد المشاري

مديرة التحرير

الهيئة الاستشارية

أ. د. إبراهيم السعافين

قسم اللغة العربية - جامعة الشارقة

أ. د. حياة ناصر الحجي

قسم التاريخ - جامعة الكويت

أ. د. أحمد عثمان

قسم الدراسات اليونانية واللاتينية
جامعة القاهرة

أ. د. عبدالقادر الفاسي الفهري

قسم اللغة العربية - جامعة محمد الخامس

أ. د. إسماعيل صبري مقلد

قسم العلوم السياسية - جامعة أسبوط

أ. د. ماري تيريز عبدالمسيح

قسم اللغة الإنجليزية - جامعة القاهرة

أ. د. إمام عبدالفتاح إمام

قسم الفلسفة - جامعة عين شمس

أ. د. محمد غانم الرميحي

قسم الاجتماع - جامعة الكويت

أ. د. حمدي حسن أبو العينين

عميد كلية الإعلام - جامعة مصر الدولية

أ. د. محمد محمود إبراهيم الديب

قسم الجغرافيا - جامعة عين شمس

أ. د. محمود السيد أبو النيل

قسم علم النفس - جامعة عين شمس

قواعد النشر في

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

١ - حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، تنشر البحوث من الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والأجنبية في الموضوعات الأدبية والاجتماعية والإنسانية.

٢ - تنشر الحوليات البحوث والدراسات الأصلية، باللغتين العربية والإنجليزية، على ألا تتجاوز صفحات متن أي بحث ٢٠٠ صفحة، ولا تقل عن ٥٠ صفحة (في المتن أيضاً).

٣ - قواعد تسليم البحوث:

أ - يقدم البحث مطبوعاً من ثلاث نسخ، على ورق (A4)، وعلى مسافتين، وبنت (١٤)، مع القرص المرن الخاص به.

ب - يرفق الباحث ملخصاً للبحث مطبوعاً باللغتين العربية والإنجليزية؛ في حدود ١٥٠ كلمة للغة العربية، و ٢٠٠ كلمة للغة الإنجليزية.

ج - يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة، مطبوعة باللغتين العربية والإنجليزية، تشمل أهم مؤلفاته وأبحاثه.

د - يقدم الباحث إقراراً كتابياً بأن البحث المقدم لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها.

هـ - تقدم الخرائط، والأشكال، والرسوم بأصولها الصالحة للطباعة، أما الصور الفوتوغرافية فتطبع على ورق لماع، مع ضرورة تقديم الشريحة الأصلية للصور الملونة.

و - في حال رغبة الباحث نشر الصور، أو الخرائط، أو الأشكال البيانية ملونة، يلتزم دفع تكاليفها.

٤ - يراعي الباحث عند كتابة هوامش البحث ومصادره ومراجعته ما يلي:

أولاً - الهوامش:

أ - توضع الهوامش في نهاية كل فصل، أو في نهاية البحث في حالة عدم وجود فصول.

ب - ترتب أرقام التوثيق بطريقة متسلسلة حتى نهاية كل فصل، أو حتى نهاية البحث في حالة عدم وجود فصول.

ج - تثبت الهوامش عند ذكرها لأول مرة كاملة كالتالي:

اسم المؤلف، عنوان الكتاب (بالبنط الأسود)، رقم الطبعة / رقم الجزء، مكان النشر، اسم الناشر، سنة النشر / رقم الصفحة.

مثال:

- أحمد محمد عبد الخالق، معجم ألفاظ الشخصية، الطبعة الأولى، دولة الكويت، مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، ٢٠٠٠م، ص ١٥.
- في حالة تكرار الهامش مرات متتالية، يذكر باختصار كالتالي:
* المرجع السابق، ص ٢٦.
- وفي حالة وجود فاصل هامش مختلف يذكر كالتالي:
* أحمد عبد الخالق، معجم ألفاظ الشخصية، ص ٣٥.

ثانياً - المصادر والمراجع:

يرتب ثبت المصادر والمراجع ترتيباً ألفبائياً، بحسب الأسماء المشهورة للمؤلفين. ويتبع في إثباتها ما يلي:
اسم المؤلف، عنوان الكتاب (بالبنط الأسود)، اسم المحقق أو الشارح أو المترجم، رقم الطبعة، اسم الناشر، مكان النشر، السنة.

مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٦٥م.

٥ - شروط قبول الأبحاث في الحوليات:

- أ - لا تقبل الحوليات البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.
- ب - أصول البحوث المقدمة للنشر لا ترد ولا تسترجع، سواء أنشئت أم لم تنشر.
- ج - لا يجوز نشر البحوث في جهات أخرى بعد موافقة الحوليات على نشرها، وإذا ثبت ذلك، فستتخذ إدارة الحوليات الإجراءات القانونية المتبعة بهذا الشأن.
- د - يمكن للباحث نشر بحثه في جهات أخرى، بعد الحصول على إذن كتابي مسبق من رئيس التحرير، وبعد انقضاء ثلاث سنوات - على الأقل - على نشره في الحوليات.

هـ - تمنح المجلة للباحث خمسين نسخة من بحثه المنشور، كإهداء.

٦ - ترسل البحوث وجميع المراسلات الخاصة بالحوليات إلى:

رئيسة تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص ب: ١٧٣٧٠ الخالدية

رمز بريدي: 72454

الكويت

ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

<http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/AASS/>

E-mail: aotfoa@kuc01.kuniv.edu.kw

الرسالة ٢٤٧

ابن الخطيب الأندلسي
من الانقلاب إلى الاغتيال
(٧٦٠هـ - ٧٧٦هـ)
(١٣٥٩م - ١٣٧٤م)

د. رابح عبدالله المغراوي
قسم التاريخ - جامعة محمد الأول
المملكة المغربية

المؤلف:

أ. د. رابح عبدالله المغراوي

- حصل على الدكتوراه في تاريخ المغرب والأندلس في العصر الوسيط - جامعة محمد الأول، المغرب سنة ١٩٩٦ م.
- أستاذ تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة المغربية.
- عضو مؤسس لمجلة «المنعطف» المغربية، وعضو هيئة تحريرها.

الإنتاج العلمي:

الأبحاث:

- ١ - «خصائص منهجية التأريخ عند عبدالرحمن بن خلدون». مجلة المنعطف، عدد: ٣-٤، سنة ١٩٩٢.
- ٢ - «تجربة التغيير المرابطية: من ظهور الحركة إلى قيام الدولة؛ محاولة لقراءة جديدة». مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الأول، وجدة، عدد: ٥، سنة ١٩٩٥.
- ٣ - «تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣هـ - ٧٧٦هـ)»، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة ١٤٠، الحولية العشرون، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- ٤ - قضية بيعة الصبي بين الفقه والتاريخ، وكتاب: إعمال الأعمال لابن الخطيب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة ٢٠٠، الحولية الثالثة والعشرون، ٢٠٠٣م.

المحتوى

المخلص:	١١
مقدمة:	١٣
الفصل الأول: ابن الخطيب بين الانقلاب والانتقال إلى المغرب.	١٥
المبحث الأول: حاله بين الانقلاب والانتقال إلى المغرب.	١٧
- المطلب الأول: أثر الانقلاب على ابن الخطيب.	١٧
- المطلب الثاني: ابن الخطيب وعبوره إلى العدو.	٢٤
المبحث الثاني: حال ابن الخطيب اللاجئ في المغرب.	٣٣
- المطلب الأول: عناية السلطان وظهير الإنز بالرحلة.	٣٤
- المطلب الثاني: اختيار سلا محلا للإقامة.	٣٨
- المطلب الثالث: لزوم مقبرة شالة والمطالبة بأملاكه.	٤٢
- المطلب الرابع: استجابة السلطان وفشل المهمة.	٤٧
- المطلب الخامس: وفاة زوجته.	٥٤
- المطلب السادس: اضطراب المغرب وموقع ابن الخطيب.	٥٦
- المطلب السابع: ابن الخطيب على عهد أبي زيان.	٦٠
- المطلب الثامن: مراسلات ابن الخطيب وتصانيفه.	٧٢
المبحث الثالث: عبور الملك المخلوع إلى الأندلس واستعادة ملكه.	٩٣
- المطلب الأول: حيثيات العبور وملابساته.	٩٣
- المطلب الثاني: الطريق إلى غرناطة وماجرياتة.	١٠٥
هوامش الفصل الأول.	١١٧
الفصل الثاني: ابن الخطيب بين العودة والفرار.	١٢٩
المبحث الأول: عودة ابن الخطيب إلى وطنه.	١٣١
- المطلب الأول: دعوة الاستصحاب والاستعفاء.	١٣١
- المطلب الثاني: مسألة الانتباز عن سلطانه.	١٣٣
- المطلب الثالث: الاستدعاء لنقل ولد السلطان.	١٣٨

- المطلب الرابع: تحرك ابن الخطيب لاستصحاب ولد السلطان. ... ١٤٢
- المطلب الخامس: ابن الخطيب والاضطرار إلى البقاء. ١٥١
- المبحث الثاني: تمديد مدة المكث والتذمر من ذلك. ١٧٣
- المطلب الأول: إنهاء المهمة وامتداد المدة. ١٧٣
- المطلب الثاني: استحكام النزعات الصوفية. ١٧٥
- المبحث الثالث: اليأس من الخلاص وإعمال الفرار وآثاره. ٢١٧
- المطلب الأول: اليأس من الخلاص ونشدان الراحة واستنجاز الوعد. ٢١٧
- المطلب الثاني: الفرار عن الأندلس وماجرياتة. ٢٢٣
- المطلب الثالث: تداعيات عملية الفرار. ٢٣٥
- المطلب الرابع: ابن الخطيب عقب هلاك السلطان عبد العزيز. ٢٤٦
- المطلب الخامس: محاكمة ابن الخطيب واغتياله. ٢٥٥
- هوامش الفصل الثاني ٢٦٥
- المصادر والمراجع ٢٧٥

الملخص

تستهدف هذه الدراسة تناول جوانب مهمة من حياة علم من أعلام الأندلس الألفية، خاتمة الشعراء والأدباء، وصفوة الكبراء والنبهاء، العلامة الكبير، والمؤرخ القدير، والحاجب الأثير، والوزير الظهير، والسياسي الخبير، لسان الشعر والأدب في زمانه، ومظنة التاريخ والسياسة في عصره، وحجة بني وطنه في الطب والتصوف والفلسفة وغيرها من المواهب والمهارات والكفاءات، أنجبه آخر موكب في آخر قافلة من قوافل الحضارة الأندلسية المعطاء المتميزة، موكب مملكة غرناطة الذاتية، ودولة بني نصر المستأصلة: إنه لسان الدين بن الخطيب.

استفتحتُها بحادث الانقلاب المباغت عليه وعلى سلطانه محمد الخامس الغني بالله، باعتباره نقطة تحول حقيقية بالنسبة لابن الخطيب، شكلت منعطفاً واضحاً في حياته اللاحقة، تمثل في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال التي صدرت عنه وأملتها ممارساته السياسية، باعتباره الشخصية المتصدرة في المقام الأول، وباعتباره أيضاً شخصية بارزة لها وزنها في الداخل والخارج معتدة بكفاءاتها وخبراتها المختلفة، حددت في نهاية المطاف مصيره المأساوي المؤلم، وكشفت عن أعظم الدروس والعظات الدالة على ورطة الانغماس في مستنقع السياسة والسلطان، المنذرة حقاً بسوء العواقب وفجيعه الحدثان.

أما منهج البحث فقد تغى الاستقراء والاستنتاج والاستنباط، فأنتج ذلك تغطية متفردة، دقيقة ومفصلة، تستند إلى حشد المعطيات، وتحليل النصوص، واستنتاج العبارات، بما لا شيء فوقه، بحيث يعدّ في هذا الباب مرجعاً فيه الكفاء والغناء، وبخاصة لمن أراد أن يصوغ عملاً أدبياً درامياً يستوعب حياة الرجل ومحيطه بجميع أبعاده ومؤثراته الفاعلة والمتفاعلة.

المقدمة

تستهدف هذه الدراسة تناول جوانب مهمة من حياة علم من أعلام الأندلس الآفلة، خاتمة الشعراء والأدباء، وصفوة الكبراء والنبهاء، العلامة الكبير، والمؤرخ القدير، والوزير الظهير، والسياسي الخبير، لسان الشعر والأدب والتاريخ والسياسة والطب والتصوف والفلسفة وغير ذلك، في آخر موكب من آخر قافلة من قوافل الحضارة الأندلسية المعطاء المتميزة.

استفتحتها بحادث الانقلاب عليه وعلى سلطانه محمد الخامس الغني بالله، باعتباره نقطة تحول حقيقية، شكلت منعطفاً واضحاً في حياته اللاحقة، تمثل في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال، حددت في نهاية المطاف مصيره المأساوي المؤلم، وكشفت عن أعظم الدروس والعظات الدالة على ورطة الانغماس في مستنقع السياسة والسلطان، المنذرة حقاً بسوء العواقب وفجعية الحدثان.

انطلاقاً من هذا الاختيار سأضرب صفحاً عن تناول حياة لسان الدين بن الخطيب قبل حادث الانقلاب، وذلك لسببين اثنين:

١ - لأن الرجل تُرجم له في العديد من الكتب والدراسات القديمة والحديثة بما فيه الكفاء الذي يغني عن التكرار والاجترار^(١).

٢ - لأنني عرضت لمعظم جوانب حياته بشيء من الإفاضة والتفصيل في رسالتي للماجستير: "لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون: دراسة تاريخية مقارنة" فلا فائدة من الإعادة المملة.

كما أنني لن أعرج على سرد مصنفاته وتواليايفه ووصفها، باستثناء تلك التي صنفها في هذه المرحلة التاريخية من حياته، فقد أغنت عن ذلك أيضاً دراسات مهمة ومتعددة، بما في ذلك ثبت ابن الخطيب نفسه لنتاجه في كل من كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة"، وكتاب "نُفاضة الجِرابِ في عُلالة الاغتراب" وكتاب "رَيْحَانَةُ الْكُتَّابِ ونجعة المنتاب".

بيد أنني وعلى النقيض من ذلك، أجدني مقتنعاً باعتماد منهج السبر والتقصي، عند تناول الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته، بغية تقديم تغطية متفردة، مفصلة ودقيقة، تستند إلى حشد الشواهد، وتحليل النصوص، واستنطاق العبارات، واقتناص الإشارات، وذلك للأسباب التالية:

- ١ - لأنها في تقديري تسجل بداية التحول العاصف، والمنعطف الجارف، ذي الأثر الواضح على حياة ابن الخطيب ومصيره، على المستوى الروحي، والثقافي، والسياسي.
 - ٢ - لأنها من الناحية الدياكرونية والتاريخية، تشكل كتلة متماسكة الجزئيات، وسلسلة ملتحمة الحلقات، يصعب الإخلال بوحدة من وحداتها، أو حلقة من حلقاتها، ابتغاء تصورهما واستيعابها، وقد تسلسلت الأسباب وتعاقبت النتائج.
 - ٣ - لأنها من أغنى فترات العمر التي عاشها ابن الخطيب على الإطلاق خبرة معاشية ووجدانية، ومعاشية سياسية واجتماعية، وخصوبة إنتاجية ومعرفية، على كافة الأصعدة، وفي جميع المجالات.
 - ٤ - لأنها تعد حقيقة مرجعاً فيه الكفاء والغناء لمن أراد أن يصوغ عملاً أدبياً فنياً درامياً جاداً يستوعب حياة ابن الخطيب ومحيطه بجميع أبعاده ومؤثراته الفاعلة والمتفاعلة بشكل حيوي، مفصل ودقيق.
- هذا ويجدر التنبيه على ملاحظة منهجية من الأهمية بمكان تتمثل في أنني في تغطيتي لأنشطة ابن الخطيب المعاشية سيكون عمدي من الناحية الوثائقية ابن الخطيب نفسه لأهميته وغناه من جهة، ولأن المظان الأخرى كانت في الأعم الأغلب عالية على ما ذكره ابن الخطيب في مصنفاته المختلفة مرددة لذلك بصيغ متباينة.

الفصل الأول ابن الخطيب بين الانقلاب والانتقال إلى المغرب

المبحث الأول حاله بين الانقلاب والانتقال إلى المغرب

مقدمة:

كان هذا عقب نجاح الانقلاب^(٢) على السلطان محمد الغني بالله الذي تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من سنة ٧٦٠هـ - ١٣٥٩م بمؤامرة وتدبير كل من الزوجة الثانية للسلطان الهالك أبي الحجاج، وصهرها زوج ابنتها ابن عم زوجها، الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج، أرادت أن يكون الأمر بعد أبي الحجاج يوسف لابنها الأمير إسماعيل.

المطلب الأول أثر الانقلاب على ابن الخطيب

المقصد الأول - النكبة والفتنة:

أما آثار الانقلاب على صاحبنا لسان الدين بن الخطيب فلا ينبغي أن تفوت دون تقصي حقيقتها وبيان وقائعها في جليتها، نذكرها بنصوصها ثم نعقب عليها بصفة الإجمال.

عرض ابن الخطيب لهذا أيضاً في أكثر من موضع، فعرض له في كتابه " اللوحة البدرية " الذي بُني على الإيجاز والاختصار في قوله، وقد أشار إلى تاريخ وصول موكب سلطانه المخلوع إلى حضرة فاس قاعدة أريكة السلطان المريني، وما صاحبه من وجوه المبرة والتكريم: " وَكَانَ وَصُولُهُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ مُصْحَبًا مِنَ الْبَرِّ، وَكَرَامَةً الْقُدُومِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، فِي السَّادِسِ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمٍ فَاتَحَ عَامَ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعُمِائَةٍ، وَرَكِبَ السُّلْطَانُ إِلَى تَلْقَائِهِ، وَنَزَلَ إِلَيْهِ عِنْدَمَا سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَبَالَغَ فِي الْحِفَايَةِ بِهِ،

وَقَدْ كُنْتُ قَدْ لَحِقْتُ بِهِ مُقْلِتًا مِنْ شَرِكِ النَّكْبَةِ الَّتِي اسْتَأْصَلَتِ الْمَالَ، وَأَوْهَمَتْ سُوءَ الْحَالِ بِشَفَاعَةِ السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ^(٣).

كما عرض لحاله عقب الانقلاب بصفة التفسير والتفصيل في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" الذي بُني على الاستيعاب والتطويل حيث قال: "وَكُنْتُ عِنْدَ الْحَادِثَةِ عَلَى السُّلْطَانِ، سَاكِنًا بِجَنَّتِي الْمُنْسُوبَةِ إِلَيَّ مِنَ الْحَضَرَةِ، مُنْتَقِلًا إِلَيْهَا بِجُمْلَتِي، عَادَةً الْمُتَرْفِينَ إِذْ ذَلِكَ مِنْ مِثْلِي، فَتَخَطَّانِي الْحَتْفُ، وَنَالَتْنِي النَّكْبَةُ، فَاسْتَوْصَلَتِ النِّعْمَةُ الْعَرِيقَةَ، وَالْجِدَّةُ الشَّهِيرَةَ، فَمَا أَبْقَتْ طَارِفًا وَلَا تَلِيدًا، وَلَا ذَرَتْ قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا"^(٤).

أورد هذا عند الترجمة للسلطان محمد الغني بالله، ولما عرف بنفسه في آخر كتاب الإحاطة، أَلَمَ بهذا الحادث أيضاً، وقد فصل فيه بعض ما أُجْمِلَ فِي النَّصِّ آيَفَ الذِّكْرِ، قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْمَكَانَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عَلَى عَهْدِ السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ: "إِلَى أَنْ كَانَتْ عَلَيْهِ الْكَائِنَةُ، فَافْتَدَى فِي أَحْوِهِ الْمُتَغَلَّبُ عَلَى الْأَمْرِ، فَسَجَّلَ الْاِخْتِصَاصَ، وَعَقَدَ الْقِلَادَةَ، ثُمَّ قَطَعَ الْإِبْقَاءَ، وَعَكَسَ الْاِخْتِصَاصَ، وَحَلَّ الْقِلَادَةَ، لَمَّا حَمَلَهُ أَوَّلُ الشُّخْنَاءِ، مِنْ أَعْوَانِ ثَوْرَتِهِ عَلَى الْقَبْضِ عَلَيَّ، فَكَانَ ذَلِكَ، وَقَبْضَ عَلَيَّ، وَنُكِتَ مَا أُبْرِمُ مِنْ أَمَانِي، وَاعْتَقَلْتُ بِحَالِ تَرْفِيهِ، وَبَعْدَ أَنْ كُبِسَتِ الْمَنَازِلُ وَالْأُورُ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْحَرَسِ، خُتِمَ الْإِغْلَاقِ، وَأُبْرِدَ إِلَيَّ مَا نَأَى، فَاسْتُخْصِلَتْ نِعْمَةٌ لَمْ تَكُنْ بِالْأُنْدَلُسِ مِنْ ذَوَاتِ النَّظَائِرِ، وَلَا رَبَاتِ الْأُمُثَالِ، فِي تَبْحَرِ الْغَلَّةِ، وَفَرَاهَةِ الْحَيَوَانِ، وَغِبْطَةِ الْعَقَارِ، وَنَظَافَةِ الْآلَاتِ، وَرِفْعَةِ الثِّيَابِ، وَاسْتِجَادَةِ الْعُدَّةِ، وَوُفُورِ الْكُتُبِ، إِلَى الْأَنْيَةِ وَالْخُرْثِيِّ، وَالْفُرْشِ، وَالْمَاعُونِ، وَالزُّجَاجِ، وَالْمُحْكَمِ، وَالطَّيِّبِ، وَالذَّخِيرَةِ، وَالْمَضَارِبِ، وَالْأَقْبِيَةِ، وَاكْتِسَحَتِ السَّائِمَةُ، وَثِيرَانُ الْحَرْثِ، وَظَهَرُ الْحُمُولَةِ، وَقَوَامُ الْفِلَاحَةِ، وَأَزْوَادُ الْخَيْلِ، فَأَخَذَ الْجَمِيعُ الْبَيْعَ، وَتَنَاهَبَتْهَا الْأَسْوَاقُ، وَصَاحَبَهَا الْبَحْسُ، وَزَرَأَتْهَا الْخَوْنَةُ، وَشَمَلَ الْخَاصَّةُ وَالْأَقَارِبُ الطَّلَبَ، وَاسْتُخْلِصَتِ الْفَرَى وَالْجَنَّاتُ، وَأُعْمِلَتِ الْحَيْلُ، وَدُسَّتِ الْإِخَافَةُ، وَطُوِّقَتِ الذُّنُوبُ"^(٥).

وَأَلَمَ بهذا الحادث أيضاً في "إعمال الأعلام"، وتفرّد النص بتفاصيل نذكره لأجلها، يقول: "وَكُنْتُ لَيْلَتَنِي سَاكِنًا بِقَصْرِ ابْتِنَيْتُهُ بِالشَّرِيعَةِ الْقَدِيمَةِ مِنْ شَرْقِي الْمَدِينَةِ، كُنْتُ أَسْكُنُهُ أَكْثَرَ فُصُولِ السَّنَةِ... وَتَعَجَّلَ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي بَثُّ فِيهِ ثِقَاتُ الْوَلَدِ

الْقَائِمِ بِدَارِ الْمَلِكِ، فَاسْتَصَحَبْتَنِي إِلَيْهِ بِأَمَانِهِ، فَابْتَدَأَ الْأَمْرَ فِي مَنْ حَيْثُ وَقَفَ أَبُوهُ [يَقْصِدُ السُّلْطَانَ الْمُتَوَكِّلَ]، إِذْ كَانَ يُشَاهِدُ لُطْفَ مَحَلِّي مِنْهُ، وَتَرْفُوعِي عَنْ حَظِّ الْخِدْمَةِ فِي مُدَّةِ أَحْيِهِ بَعْدَهُ [السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْغَنِي بِاللَّهِ]، وَالصَّبِيَّ مَغْلُوبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلِلْعَصَابَةِ الدَّلِيلَةِ التَّصَرُّفُ فِي مُلْكِهِ، فَزَابَهُمْ مَحَلِّي مِنْهُ، وَقَالُوا: إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْكَدْحُ الْمُعْتَمَدُ وَالْخَطَرُ الْمُزْتَكَبُ، لِأَنْ يَجْعَلَ الْمَلِكُ ثَانِيَةً فِي يَدِ هَذَا الرَّجُلِ، يَأْخُذُ مِنَّا تَأْرَ دَوْلَتِهِ، وَيَقْضِي حَسِيْفَةَ سُلْطَانِهِ، فَفَرَّزُوا لَهُ، وَقَدْ امْتَنَعَ أَخُوهُ [مُحَمَّدُ الْغَنِي بِاللَّهِ] بِوَادِي آشٍ، وَأَجَارَهُ أَهْلُهَا أَنَّنِي أَخْطَبُ فِي حَبْلِهِ، وَأَعْمَلُ الْحِيلَةَ فِي جَبْرِهِ، وَتَقْبِضُ عَلَيَّ، وَأَنْتَهَبَ قَلِيلٌ مَا يُغْلَمُ لِي وَكَثِيرُهُ، وَتَافَهُهُ وَخَطِيرُهُ، وَأَعْمَلُ التَّدْبِيرَ فِي الْإِرَاحَةِ مِنِّي، وَالْإِخْتِيَالِ فِي تَسْبِيبِ هَلَاقِي، مَعَ أَنَّ أَطْلَافَ اللَّهِ لَمْ تُخْلِنِي حَالِ الشَّدَّةِ مِنْ تَرْفِيلِ اغْتِقَالٍ وَتَخْلُصِ جَفْوَةٍ مَقَالٍ" (٦).

كما أشارت مصادر تاريخية لاحقة إلى هذه الحادثة، فجلّت عن أمور يُهْمُ ذكرها، فجاء في كتاب العبر لابن خلدون ما أفاد وأكد أن ابن الخطيب كان معتقلاً، حينما أشار إلى افتكاك أسره بشفاعة سلطان المغرب أبي سالم، حين قال: "... وَأُطْلِقَ مِنْ اغْتِقَالِهِمُ الْوَزِيرَ الْكَاتِبَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ، كَانُوا اعْتَقَلُوهُ لَأَوَّلِ أَمْرِهِ، لَمَّا كَانَ رَدِيفاً لِلْحَاجِبِ رِضْوَانَ، وَرُكْنًا لِنُؤْلَةِ الْمُخْلُوعِ، فَأَوْصَى الْمَوْلَى أَبُو سَالِمٍ إِلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِهِ، وَأُطْلِقُوهُ" (٧).

وقال الناصري صاحب الاستقصا: "... ثُمَّ عَمَدَ شَيْعَةُ إِسْمَاعِيلَ الثَّائِرِ إِلَى الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ، فَأَوْدَعُوهُ السِّجْنَ بَعْدَ أَنْ أَعْرَوْا بِهِ تَأْيِيرَهُمْ، وَاكْتَسَحُوا دَارَهُ، وَاصْطَلَمُوا نِعَمَهُ، وَأَتْلَفُوا مَوْجُودَهُ، وَكَانَ شَيْئاً يَجِلُّ عَنِ الْحَصْرِ" (٨).

هذه هي كل النصوص التي تروي قصة حال ابن الخطيب عقب حدوث الانقلاب على السلطان محمد الغني بالله، وهي نصوص تكشف عند الاستنتاج والتحليل، عن حقائق تاريخية، كلها متعلقة بابن الخطيب على وجه الخصوص والدقة، نذكرها من خلال النقط الآتية:

- ١ - أن ابن الخطيب ليلة قيام الثورة على السلطان، كان هو الآخر منتقلاً عن الإقامة المجاورة لقصر الحمراء، إلى جنته الموسومة بـ "جنة ابن الخطيب" التي تحتضن قصره الكائن بالشرقية القديمة شرقي حضرة غرناطة، كان يقيم به أكثر فصول السنة على عادة الكبراء والوجهاء.
- ٢ - أنه لو كان مجاوراً للقصر ما كتبت له السلامة والنجاة، ولكن مصيره القتل كما حدث لنظيره الحاجب أبي نعيم رضوان الذي أهلكته الفتنة، ومزقته المثلثة، بين حرمه وذرايه حيث كان مقيماً لرسم حفظ الأمانة^(٩).
- ٣ - أنه في البداية عومل معاملة حسنة، فأقبر في منصبه، وقلد الأوسمة التي كانت له، والمهام التي نيظت به على عهد الملك السابق.
- ٤ - أنه سرعان ما سحبت منه هذه الامتيازات لدواعي الريبة، رجماً بالظنة التي راشته سهامها، وبرت سنانها، حاشية السلطان الجديد، فاتهم بالسعي لتمكين السلطان المخلوع من ملكه مرة ثانية.
- ٥ - أنه سرعان ما اعتقل وأقيم تحت الإقامة الجبرية، والحراسة الدائمة خشية الفرار واللاحق بسلطانه المخلوع، الذي كان معتصماً بوادي آش يتربص الفرصة للعودة إلى أريكته.
- ٦ - أنه أعمل التدبير في اغتياله، واستئصال شأفته، ولو لم تسرع بالتطور مجريات الأحداث، وينتقل السلطان المخلوع إلى حضرة فاس حضرة بني مرين لكان ابن الخطيب في خبر كان.
- ٧ - أنه أصابته النكبة، وأدركته الفتنة التي لا فتنة بعدها، حين استخلصت أمواله، واستصفيت أملاكه، وسيقت إلى الأسواق وبيعت بأبخس الأثمان، وكذلك فعل بأموال أقاربه وشيعته.
- ٨ - أن ثروة ابن الخطيب كانت طائلة قلما تجمعت لأحد من ذوي الثراء والجاه والجدّة، بما دل على أنها ثروة ضمت الطارف والتلاد، وإرث الآباء والأجداد.

المقصد الثاني- الخلاص من شرك النكبة:

لما كان لابن الخطيب مركزه الأثير، وشأنه الخطير على صعيد وطنه، وعلى

صعيد دول الجوار، وخاصة دولة بني مرين، بسبب إيصال الأيدي، والتحام
الوشائج، سياسياً، وعسكرياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً، لم يترك شأنه هملاً،
ولا مصيره سدى، خاصة بعد أن تأكد قصد سلطانه المخلوع، وقد أيس من استرجاع
دسته، تحويل وجهته شطر المغرب.

يدل على هذا ما تنطق به النصوص التي نجلبها، وما يعقبها من استنتاجات، قال
ابن الخطيب في الإحاطة: "وَوَصَلَتِ الشَّفَاعَةُ فِي مُكْتَنَبَةٍ بِخَطِّ مَلِكِ الْمَغْرِبِ، وَجَعَلَ خَلَاصِي
شَرْطًا فِي الْعُقْدَةِ، وَمُسَالَمَةِ الدَّوْلَةِ، فَانْتَقَلَتْ صُحْبَةُ سُلْطَانِي الْمَكْفُورِ الْحَقِّ إِلَى الْمَغْرِبِ^(١٠).

وقال في إعمال الأعلام: "وَجَرَتْ بَيْنَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ، وَبَيْنَ الْمُتَصَرِّفِ إِلَيْهِ مُلْكُ
الْمَغْرِبِ يَوْمَئِذٍ السُّلْطَانِ الْمُؤَلَّى الْمُقَدَّسِ أَبِي سَالِمٍ^(١١) رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ
الْمُفَاوِضَةُ فِي اسْتِجْلَابِ الْمُسْتَقَرِّ بِوَادِي آشَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقَصْدِ ابْتِغَاءِ الْهُدْنَةِ، وَرَفْعِ
الْفِتْنَةِ، فَلَمَّا تَمَّ ذَلِكَ جَعَلَ الْحَدِيثَ فِي أَمْرِي عُمْدَةً، وَالْإِشَارَةَ بِخَلَاصِي، وَبَعَثَ اللَّهُ لِي
مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُهُ فِي الْكُونِ جِدًّا وَحَمِيَّةً، فَتَمَّ بَعْدَ لَجَاجٍ، وَإِثَارَةٍ عَجَاجٍ،
وَاسْتِخْلَاصِي لِلَّهِ، فَفُكَّتْ عَنِّي بَنَانُ النُّكْبَةِ، وَفُتِحَتْ بِالْفَرَجِ أَقْفَالُ الشَّدَّةِ^(١٢).

وقال في الإحاطة أيضاً: "وَلَطَفَ اللَّهُ بِأَنْ تَعَطَّفَ السُّلْطَانُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى شَفَاعَةِ
بِي بِخَطِّهِ، وَجَعَلَ أَمْرِي مِنْ فُضُولِ قُضْدِهِ، فَفُكَّتْ عَنِّي أَصَابِعُ الْأَعْدَاءِ، وَاسْتِخْلِصْتُ
مِنْ أُنْيَابِهِمْ^(١٣).

وقال ابن خلدون في العبر: "وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ [خَبَرُ الْأَنْفِلَابِ] بِالسُّلْطَانِ الْمُؤَلَّى أَبِي
سَالِمٍ، امْتَعْضَ لِمَهْلِكِ رِضْوَانٍ، وَخَلَعَ السُّلْطَانُ رَاعِيًا لِمَا سَلَفَ لَهُ مِنْ جَوَارِهِمْ، وَأَرْعَجَ
لِحِينِهِ أَبَا الْقَاسِمِ الشَّرِيفَ مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ لِاسْتِقْدَامِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَعَقَدَ مَعَ أَهْلِ
الدَّوْلَةِ إِجَارَةَ الْمَخْلُوعِ مِنْ وَادِي آشَ إِلَى الْمَغْرِبِ^(١٤).

وجاء في الاستقصا قوله: "...وَاتَّصَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالسُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ، وَكَانَتْ لَهُ
مُصَافَاةٌ مَعَ ابْنِ الْأَحْمَرِ مِنْ لَدُنْ كَانَ بِالْأَنْدَلُسِ، فَكَاتَبَ إِسْمَاعِيلَ الثَّائِرَ وَشِيعَتَهُ
يَأْمُرُهُمْ بِتَخْلِيَةِ طَرِيقِ الْغَنِيِّ بِاللَّهِ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَيَشْفَعُ فِي تَسْرِيحِ ابْنِ الْخَطِيبِ
وَتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ^(١٥).

ويستشف من النصوص المذكورة المعاني الآتية:

- ١ - أن افتكك ابن الخطيب وخلاصه من براثن النكبة، ومخالب الداهية، تم بواسطة شفاعة من مستوى عال تمثلت في تدخل السلطان أبي سالم إبراهيم الذي لم يمر على اقتعاده أريكة الملك إلا قليل.
 - ٢ - أن الشفاعة تمثلت في رسالة سلطانية كتبت بخط الملك، أو موقع عليها بخطه على ما جرت عليه العادة آنئذ لإضفاء المصادقية والشرعية على المكتوب، وكذلك التنويه بأهمية الموضوع وما يتعلق به.
 - ٣ - أن الشفاعة لم تقتصر على الرسالة وما أحيط بها من العناية والاحتفاء، بل شفعت بمراعاة حاملها وناقلها، حيث انتخب لها رجل في مستواها، هو من خاصة السلطان ومقربه.
 - ٤ - أن مسألة خلاص السلطان الموثوب به ووزيره لسان الدين بن الخطيب، كان شرطاً جوهرياً في عقد اتفاقية الأمن والسلام بين الدولتين المجاورتين، يعصم الدولة الأندلسية من خطر عدوان الدولة المرينية.
 - ٥ - أن مسألة خلاص ابن الخطيب كانت من الشروط الأساسية التي لا تتم ولا تصح اتفاقية الصلح إلا بها، علماً بأنها لم تتضمن إلا شرط السماح للأمير محمد الغني بالله للحاق ببر عدوة المغرب، وشرط افتكك ابن الخطيب من أسره والسماح له بالانضمام إلى موكب سلطانه.
 - ٦ - أن معاهدة لا تتضمن إلا هذين الشرطين لتؤكد على المكانة التي كان ابن الخطيب يحظى بها حيث ساوت بينه وبين سلطانه في المكانة والشأن.
 - ٧ - أن هذه الاتفاقية لم تتم ببسر وسهولة، وإنما تمت بعد مفاوضات عسيرة، ومجادة مريرة، خاصة من جهة الإنقلابيين، لأنها ليست في صالحهم، وقد خسروا مساندة دولة جارة هي من أعظم دول المنطقة لها ماض عريق في علاقتها بالأندلس.
- ومن هذا المنطلق لا نشك في أن الموافقة من الجهة الأندلسية كانت على مضض وكراهية، كما نؤكد على أنه لو لم تتم لما استرجع الغني بالله ملكه، ولكان شأن تاريخ هذه المرحلة شأنًا آخر.

ملاحظة:

وردت الإشارة في نص ابن خلدون عند إلماعه ببواعث هبوب السلطان أبي سالم لمساندة الأمير محمد الغني بالله على الجواز إلى المغرب إلى امتعاضه لموت رضوان وخلع السلطان رعيّاً لما سلف له في جوارهم^(١٦).

ويوافق شطر هذه العبارة الأخير ما ذكره الناصري: "وَكَاثَتْ لَهُ مُصَافَاةٌ مَعَ ابْنِ الْأَحْمَرِ مِنْ لَدُنْ كَانَ عِنْدَهُ بِالْأَنْدَلُسِ"^(١٧).

بيد أن نصّاً آخر لابن خلدون، اعتمد عليه الناصري بعده، يجعلنا لا نظمئن إلى صحة هذه البواعث أو على الأقل لا نظن أنها من البواعث الوحيدة، يقول ابن خلدون: "وَلَمَّا هَلَكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِيْنَانَ أَمَّلَ أَخُوهُ الْمَوْلَى أَبُو سَالِمٍ مُلْكَ أَبِيهِ، وَطَمَعَ فِي مَظَاهِرَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَخِيهِ. وَاسْتَدْعَاهُ أَشْيَاعٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ، وَوَصَلَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ بِمَكَانِهِ مِنْ غَرْنَاةٍ، وَطَلَبَ الْإِنْدَنْ مِنْ رِضْوَانٍ فِي الْإِجَارَةِ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَأَخْفَظَهُ ذَلِكَ، وَنَزَعَ إِلَى مَلِكِ قَشْتَالَةَ مُتَطَارِحًا بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ أَنْ يُجَهِّزَ لَهُ الْأَسْطُولَ لِلْإِجَارَةِ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ، وَتَقَبَّلَ شَرْطَهُ"^(١٨).

أما ابن الخطيب فقد تردد في نصوصه بين الإغفال والتلميح غير المبين، ونعني بالإغفال اكتفاءه بالإشارة إلى فراره إلى ملك قشتالة يستنجد به، ونعني بالتلميح المبهم ما ذكره عند الترجمة لأبي سالم في الإحاطة تحت عنوان "دخوله غرناطة" يقول متحدثاً عن ظروف دخوله إلى المغرب طالباً للأمر: "...حَرَكَهُ الْاسْتِدْعَاءُ، وَأَقْلَقَتْهُ الْأَطْمَاعُ، وَهَبَّ بِهِ السَّائِلُ، وَعَرَّضَ بِغَرَضِهِ إِلَى صَاحِبِ الْأَمْرِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَرَفَقَ عَنْ صَبُوحِهِ، فَشَكَا إِلَى غَيْرِ مُصْمِتٍ، فَخَرَجَ مِنَ الْحَضْرَةِ لَيْلًا مِنْ بَعْضِ مَجَارِي الْمِيَاهِ.. وَلَحِقَ بِمَلِكِ قَشْتَالَةَ.. فَطَرَحَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ.. فَقَبِلَ سَعَايَتَهُ، وَجَهَّزَ لَهُ جَفْنًا مِنْ أَسَاطِيلِهِ.." ^(١٩).

والذي ينخل من هذه النصوص درءاً للتعارض، الاحتمالات الآتية:

- ١ - أنه ربما نزح الأمير أبو سالم إلى ملك قشتالة خلسة، وقد يئس من تعاون قصر الحمراء معه، حرصاً على العلاقة وحفظاً للمودة.

٢ - أنه ربما عرض أبو سالم الأمر على الحاجب رضوان، والأمير محمد الخامس، فأشاروا عليه بالخروج على تلك الصفة الموهمة بالفرار، دون إشعار، إيهاماً للقصر المريني، ودفعاً للمكروه المتوقع إن لم ينجح سعي الحصول على الملك. وهذا الاحتمال هو الذي نرجحه، لأنه الأوفق لسياسة مملكة غرناطة آنئذ، المبرر للموافقة الفورية لإجابة طلب الأمير محمد الغني بالله القاضي بالتماس التدخل من أجل تسهيل عبوره إلى المغرب.

ثم إنه لو جَدَّ قصر الحمراء في الحيلولة دون خروج أبي سالم لأمكنه ذلك، ولما وصل إلى ملك قشتالة.

يؤكد هذا الأمر النص الذي جلبه ابن خلدون، يكشف من خلاله دواعي استجابة أبي سالم لطلب عبور السلطان الأندلسي المخلوع إلى المغرب، الذي سنذكره قريباً.

وظاهرة اللجوء السياسي، وإيواء الأعياص من الأمراء في دول المنطقة، وخاصة المغرب والأندلس، كورقة مدخرة لتنصيب الأمراء وعزلهم، مسألة معلومة، وقضية سياسية كبيرة، كان لها الأثر الكبير في التوجيه العميق لصيرورة كثير من الأحداث السياسية بين البلدين^(٢٠).

المطلب الثاني

ابن الخطيب وعبوره إلى العدو

المقصد الأول - محطات العبور:

جاء حول ملابسات لحوق ابن الخطيب بسلطانه والركب المرافق له وانتقالهم جميعاً إلى المغرب نصوص عدة تتفاوت شكلاً ومضموناً، إيجازاً وتفصيلاً، الأمر الذي جعلنا نظفر بتغطية خبرية مواكبة للحدث قلّ نظيرها، وعزّ مثيلها.

جاء في الإحاطة قول ابن الخطيب يصف التحاقه بالسلطان، كاشفاً عن المسلك الذي قطعه الموكب والمراحل التي طواها، مشيراً إلى تاريخ الرحيل: "وَلَحِقْتُ

بِالسُّلْطَانِ بِوَادِي آش^(٢١)، فَذَهَبَ الْبَأْسُ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ، وَكَانَ رَجُلٌ جَمِيعُ ثَانِي عِيدِ النَّخْرِ، فَكَانَ النَّزُولُ بِفَحْصٍ "أَلْفَنْتَ"^(٢٢)، ثُمَّ الْإِنْتِقَالُ إِلَى "لُوشَة"^(٢٣)، ثُمَّ "أَنْتَقِيرَة"^(٢٤)، ثُمَّ إِلَى "نُكُون"^(٢٥)، ثُمَّ إِلَى "مَرْبَلَة"^(٢٦)، يَضُمُّ أَهْلُ كُلِّ مَحَلٍّ مِنْ هَذِهِ مَائَتًا لِلْحُسْرَةِ، وَمَنَاخَة لِلْفُرْقَةِ، وَكَانَ رُكُوبُ الْبَحْرِ ضَخْوَة الرَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَالِاسْتِقْرَارُ بِمَدِينَةِ "سَبْتَة"^{(٢٧)(٢٨)}.

وقال في اللوحة البدرية: "فَأَنْصَرَفَ [محمد الغني بالله] ثاني يَوْمِ عِيدِ النَّخْرِ الْمَذْكُورِ، وَتَبِعَهُ الْجَمْعُ الْوَافِرُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ [مدينة وادي آش] خَيْلًا وَرَجُلًا إِلَى "مربله" مِنْ سَاحِلِ إِجَارَتِهِ... وَكُنْتُ قَدْ لَحِقْتُ بِهِ مُفْلِتًا مِنْ شَرِكِ النُّكْبَةِ "^(٢٩).

كما قال في إعمال الأعلام: "... وَخَرَجْتُ لَا أُمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَفَضْلَ رَبِّي، مَلْطُوفًا بِي، بِاسْتِصْحَابِ أَهْلِي وَوَلَدِي"^(٣٠).

وَأَلَمْ ابْنَ خَلْدُونُ بِهَذَا قَائِلًا: "... وَلَحِقَ الرَّسُولُ أَبُو الْقَاسِمِ بِسُلْطَانِهِ الْمَخْلُوعِ بِوَادِي آش لِلْإِجَازَةِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَجَارَ لِذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَتِهِ"^(٣١)

تكشف هذه النصوص عن الأمور الآتية:

أولاً - اختيار مدينة وادي آش لأهميتها:

اختيار مدينة وادي آش على الرغم من وقوعها على الجهة الشرقية، من العاصمة غرناطة، وبعدها عن الجهة الغربية القريبة من فرضة المجاز إلى الدولة المرينية، وأعتقد أن الغني بالله لم يفعل ذلك اعتباطاً ومصادفة، وإنما اختار ذلك تدبيراً وخطاً للاعتبارات التالية:

وتتمثل أهميتها في القيم الحضارية المختلفة الذي تنطوي عليها والتي نبينها بعد جلب نصين مهمين في شأنها:

قال الحميري يصفها: "مَدِينَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ غَرْنَاطَةِ، كَبِيرَةٌ خَطِيرَةٌ، تَطَّرِدُ حَوْلَهَا الْمِيَاءُ وَالْأَنْهَارُ، يَنْحَطُّ نَهْرُهَا مِنْ "جَبَلٍ شَلِير"، وَهُوَ فِي شَرْقِيهَا، وَهِيَ عَلَى ضَفَّتِهِ، وَلَهَا عَلَيْهِ أَرْحَاءٌ لَاصِقَةٌ بِسُورِهَا، وَهِيَ كَثِيرَةُ الثُّوتِ وَالْأَغْنَابِ وَأَصْنَافِ الثَّمَارِ

وَالزَّيْتُونِ، وَالْقُطْنُ بِهَا كَثِيرٌ، وَكَانَ بِهَا حَمَامَاتٌ، وَلَهَا بَابَانِ شَرْقِيٌّ عَلَى النِّهْرِ، وَغَرْبِيٌّ عَلَى الْخَنْدَقِ، وَقَصَبْتُهَا مُشْرِفَةً عَلَيْهَا، وَعَلَيْهَا سُورٌ حَجَارَةٌ، وَهُوَ فِي رُكْنِهَا الَّذِي بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْقِبْلَةِ" (٣٢).

ووصفها ابن الخطيب أيضاً في مقامته الأدبية الشهيرة "مغيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" بقوله: "... مَدِينَةُ الْوَطَنِ، وَمُنَاحٌ مِّنْ عَبَرٍ أَوْ قَطَنٍ... وَضَعُ سَدِيدٌ، وَبَاسٌ شَدِيدٌ، وَمَعْدِنٌ حَدِيدٌ، وَمَحَلٌّ عُدَّةٍ وَعَدِيدٌ... كَثِيرَةُ الْجَدَاوِلِ، مُخْضَرَّةُ الْجَوَانِبِ، إِلَى الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ، وَالْكُرُومِ الْآثِيرَةِ، وَسَنَدُهَا مَعْدِنُ الْحَدِيدِ وَالْحَرِيرِ، وَمَعْقِلُهَا أَهْلُ اللَّتَاجِ وَالسَّرِيرِ، وَهِيَ دَارُ أَحْسَابٍ، وَإِرْثٍ، وَاكْتِسَابٍ، وَأَدَبٍ وَجِسَابٍ، وَمَاؤُهَا مُجَاجُ الْجَلِيدِ، وَهَوَاؤُهَا يُذَكِّي طَبْعَ الْبَلِيدِ" (٣٣).

والنصان يكشفان أن المدينة كانت تنطوي على الامتيازات والمحاسن الآتية:

- أ - مكانها القريب من غرناطة قاعدة الحضرة الأندلسية، بحيث لا تبعد عنها إلا قرابة العشرين ميلاً.
- ب - استبحار عمرانها، حيث كانت من كبريات المدن الأندلسية الآهلة القليلة آنئذ، حيث إن ابن الخطيب جعلها أهلاً للنتاج والسريير كناية لصلوحها قاعدة وعاصمة للدولة الأندلسية.
- ت - غناؤها وثراؤها، فهي أرض ماء ونماء، وخُضرة ونُضرة، وفاكهة مشتهاة، ومعادن مُجتابة، وهذه هي العناصر الرئيسية لعمران الاستقرار لأية مدينة.
- ث - حصانتها ومنعتها، لأنها تتوفر على مقوماتها الضرورية، التي جعلت منها معقلاً أندلسياً مهماً، ونعني بها السور والخندق والقصبة.
- ج - توفرها على بيوتات ذات أحساب وأنساب، وأخلاق وآداب، تُجِلُّ أَهْلَ الْهِمَمِ، وَتَرْعَى الْعُهُودَ وَالذِّمَمَ.

هذه هي المبررات الحقيقية في تقديرنا التي رجحت لدى الأمير محمد الغني بالله، وقد فاجأه الانقلاب، اختيار وادي آش.

ثانياً - أهمية المسلك :

إن اختيار هذا المسلك دون غيره يؤكد أن الأمير المخلوع في بداية شأنه كانت الآمال مترجحة لديه أن يستعيد ملكه بسرعة، وقد اختار الموقع الاستراتيجي المهم لذلك، ولما باءت بالفشل مساعيه، وظن أن النجاة من الهلاك حتما ستجافيه، حوّل وجهه إلى أبي سالم سلطان المغرب وقد سلفت له أياديه.

ثالثاً - دوافع الاستجابة:

إن دوافع مبادرة السلطان أبي سالم السريعة للاستجابة وهو الجديد على عرش الدولة المرينية فيفسرها مؤسسة مشيخة الغزاة وظاهرة اللجوء السياسي التي ألمعنا إليها، كما يؤكد ذلك هذا النص الطريف والمهم الذي جلبه ابن خلدون، يقول: "... وَكَانَتْ بَيْنَهُ [ابن الخطيب] وَبَيْنَ الْخَطِيبِ بْنِ مَرْزُوقٍ مَوَدَّةٌ اسْتَحْكَمَتْ أَيَّامَ مَقَامِهِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ غَالِبًا عَلَى هَوَى السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ، فَزَيَّنَ لَهُ اسْتِدْعَاءَ هَذَا السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ مِنْ وَادِي آش، يُعِدُّهُ زُبُونًا عَلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، وَيَكْفِي بِهِ عَادِيَةَ الْقَرَابَةِ الْمُرْشَحِينَ هُنَاكَ مَتَى طَمَحُوا إِلَى مُلْكِ الْمَغْرِبِ ^(٣٤).

رابعاً - خط العبور:

إن النصين المذكورين يدلان - فضلاً على ما ذكرنا- على خط عبور الركب السلطاني، وهو خط توخّى الانتقال عبر مدن كبيرة وشهيرة نسبياً، مثل لوشة، وأنتقيرة، وذكوان، ومربلة، التي لها أهميتها هي الأخرى من الناحية الاستراتيجية ^(٣٥).

ودفعاً لغوائل الليل والنهار، وعوناً على التزود والامتيار، وضمناً للاستمرار في الوجهة، وحثاً للسير نحو العدو.

خامساً - تعاطف الأهالي:

أكد النص أيضاً على أن أهالي المدن المذكورة تعاطفت مع الملك المخلوع وساندته، حتى إن كثيراً من الأعيان صحبوا الركب السلطاني، والذين لم يقدرُوا على

ذلك، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وتأثراً رثاء لحاله، وتشيعاً لجنابه، وكان ذلك من مؤشرات شرعيته وشعبيته، ومن مبشرات أوبته إلى ملكه.

سادساً - تاريخ الانتقال:

كان تاريخ الانتقال من وادي آش ثاني يوم عيد الأضحى الذي ربما وافق ١٢ من ذي الحجة، وبهذا يكون السلطان محمد الغني بالله قد تربص بوادي آش قرابة شهر ونصف.

سابعاً - سرعة الانتقال:

إن رحلة الوجهة إلى العدو كانت حثيثة، سريعة تؤكد على العزم بعد اليأس، حيث كان تاريخ ركوب البحر ضحوة الرابع والعشرين من الشهر من ميناء مَرَبْلَة "ساحل إجازته" وقد وصفه ابن الخطيب بالجفاء والصعوبة^(٣٦).

ملاحظة:

من اللافت للملاحظة، المستدعي للتساؤل أن الركب السلطاني اختار هذا الموقع الصعب نقطة للجواز، فضلاً على كونه بعيداً عن "سبته فرضة المجاز إلى عدوة المغرب، مؤثراً إياه على ميناء جبل طارق، وهو المعبر القريب. والجواب سهل وبسيط، وهو أن الأسطول القشتالي في هذه الآونة التاريخية كان يسيطر عليه^(٣٧).

ولما كان موضوع انتقال الملك المخلوع قد تولى رعايته سلطان الملك، لم يجر بشأنه التفاوض مع ملك قشتالة، ولم يعتمد عليه

ثامناً - تاريخ الإبحار:

كان تاريخ ركوب ابن الخطيب والموكب السلطاني البحر ضحى يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة، فتكون المسافة ما بين وادي آش إلى ساحل مَرَبْلَة قد قطعت في حوالي اثني عشر يوماً، وهي مدة وجيزة كما يبدو. وفي نفس اليوم كان الوصول إلى سبته، قال ابن الخطيب: "وكان ركوب البحر

ضحوة الرابع والعشرين من الشهر، [شهر ذي الحجة] والاستقرار بمدينة سبتة^(٣٨).

المقصد الثاني - انتقال الركب إلى فاس ومراسيم الاستقبال:

لم يمكث ابن الخطيب والركب السلطاني بقاعدة سبتة مدة طويلة، بل أغذ السير إلى حضرة فاس قاعدة ملك بني مرين، حيث كان تاريخ الوصول كما سجله ابن الخطيب يوم الخميس السادس من محرم الحرام مفتتح عام أحد وستين وسبعمائة^(٣٩).

فتكون الرحلة من سبتة إلى فاس استناداً إلى التاريخين المذكورين قد استغرقت عشرة أيام تقريباً.

أما عن مراسم الاستقبال ومظاهر الاحتفاء، فقد أجملها ابن الخطيب في العبارات الآتية: "وكان الرحيل إلى باب السلطان تحت بر لا تسعه العبارة، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإمام أَلَمَّ عَاقَهُ عَنِ الإِضْحَارِ وَالتَّغْنِي عَلَى البُعْدِ، يومَ الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده، في مركب هائل، واحتفال رائع، فعورض فيه النزول عن الصهوات، والبر اللائق بمناصب الملوك والوصول إلى الدار السلطانية، والطعام الجامع للطبقات، وشيوخ القبيل، وقمت يومئذ فوق رأس السلطان، وبين يدي مؤمله، فأنشدته مُعَرِّياً بِنَصْرِهِ كالوسيلة بقولي:

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبَرَةٍ ذَكَرُ وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزُّهْرُ
فهاج الامتعاض، وسالت العبرات، وكان يوماً مشهوداً، وموقفاً مشهوراً، طال به الحديث، وعمرت به النوادي^(٤٠).

وقال ابن خلدون، وقد ألم بهذا الحدث، وكان أحد شهوده، بما أكد على الصدق والوثوقية: "وَقَدِمَ [الْعَنِي بِاللَّهِ] عَلَى السُّلْطَانِ بِفَاسَ، فَأَجَلَ قُدُومَهُ، وَرَكِبَ لِلْقَائِهِ، وَدَخَلَ بِهِ إِلَى مَجْلِسِ مُلْكِهِ، وَقَدْ اخْتَفَلَ بِزِينَتِهِ، وَعَصَّ بِالمَشِيخَةِ وَالْعَلِيَّةِ، وَوَقَفَ وَزِيرُهُ ابْنُ الْخَطِيبِ، فَأَنشَدَ السُّلْطَانُ قَصِيدَتَهُ الرَّائِيَّةَ يَسْتَصْرِحُهُ لِسُلْطَانِهِ، وَيَسْتَجِثُّهُ

لِظَاهَرَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ، وَاسْتَعْطَفَ وَاسْتَرْحَمَ، بِمَا أَبْكَى النَّاسَ شَفَقَةً وَرَحْمَةً، وَنَصُّ الْقَصِيدَةِ^(٤١).

ثم أورد القصيدة بتمامها، وهي طويلة تتألف من خمسة وسبعين بيتاً^(٤٢).
والنصان ينطويان على المعاني الآتية:

١ - أن اللقاء بين السلطان أبي سالم وحاشيته من جهة، والسلطان محمد الغني بالله وبطانته من جهة ثانية، تم بظاهر حضرة فاس، وكان العزم منعقداً أن يكون اللقاء في مكان أبعد من ذلك لولا العائق، مبالغة في التجلة، وإمعاناً في المكرمة.

٢ - أن رحلة ركب السلطان النازح من بدايتها إلى نهايتها تمت تحت رعاية السلطان أبي سالم برا وإحساناً، وتيسيراً وتأميناً، عن طريق رعاياه، والقائمين على أمره في جميع النقاط التي يمر بها الركب.

٣ - أن مراسيم الاستقبال كانت عظيمة، دلت عليها المظاهر الآتية:

أ - ركوب السلطان أبي سالم بنفسه للقاء الركب، إجلالاً لقدومه، ومواساة لمحنته، وعزاء لمصيبته.

ب - أن ركوب السلطان المستقبل كان في ركب هائل، وزينة رائقة، احتفالاً بالركب الوافد، واحتفاء بالسلطان الواجد.

ت - أن السلطان ومن ضمّه موكبه المستقبل، لما طالع الركب الوافد ترجلوا نازلين عن صهوات الجياد، ولاشك في أن هذا الرسم كان غاية في التعبير عن الإجلال والتقدير.

ث - أن هذا الركب الوافد أُدخل، بعد اللقاء مباشرة إلى الدار السلطانية، مؤثراً إياه ببنية مجلسه، وعظيم مشوره، المزدان بزينته.

ج - حضور كافة رجال الدولة، من مشيخة القبائل، ووزراء وكتاب الدولة، وقضاة وأعيان الإيالة، وما إلى ذلك، قال ابن الخطيب: " ... وَالْمَشُورُ يَوْمَئِذٍ قَدْ جَمَعَ الدُّنْيَا بِمَا حَمَلَتْ، وَأَشْيَاخُ الْمَغْرِبِ وَأَعْلَامُهُ قَدْ اجْتَمَعَتْ وَاخْتَفَلَتْ " ^(٤٣).

ح - إعداد مأدبة الطعام اللائق بالمقام المستوعب للأنام على شرف السلطان النازح، ومن صاحبه، تنويها وإكراماً عادة لدى المغاربة عريقة وسجية فيهم أصيلة.

٤ - قيام لسان الدين بن الخطيب على رأس سلطانه، وسط الحشد الهائل لإلقاء قصيدته الشهيرة الرائعة التي كانت بحق نفثة مكلوم، وبث مهموم، وبكاء مغموم، وصرخة مظلوم، نثر من خلالها كنائنه، فاسترحم واستعطف، واستنجد واستنهض، فكان أثرها بالغاً، وصادها واسعاً.

وبعد هذا الاحتفال المشهود، تفرق الجمع، ومضى كل إلى غايته، وصرف السلطان اللاجئ إلى مُتَبَوِّئِهِ الذي أعد له.

ولقد كان من حيث الأبهة، لا يقل عن الذي اغتصب منه، لا ينقصه سوى تاج الملك، وصولجان الأمر والنهي.

قال ابن خلدون وكان شاهد عيان: "... وَأَنْصَرَفَ ابْنُ الْأَحْمَرِ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَدْ فُرِشَتْ الْقُصُورُ، وَقَرَّبَتْ لَهُ الْجِيَادُ بِالْمَرَاجِبِ الْمَذْهَبَةِ، بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْكِسَى الْفَاجِرَةِ، وَرَتَّبَتْ لَهُ وَلَوَالِيهِ مِنَ الْمَغْلُوجِي، وَبِطَانَتِهِ مِنَ الصَّنَائِعِ، وَأَنْحَفَظَ عَلَيْهِ رَسْمُ سُلْطَانِهِ فِي الْمَرْكَبِ وَالرَّجُلِ، وَلَمْ يَقْعُدْ مِنْ أَلْقَابِ مُلْكِهِ إِلَّا الْآلَةَ أَدْبَا مَعَ السُّلْطَانِ^(٤٤).

كان هذا هو الحال الذي استقر عليه السلطان اللاجئ، إلى أن آل الأمر إلى الانتقال إلى الأندلس لاسترجاع ملكه المغتصب.

فكيف كان حال ابن الخطيب بعد استقراره هو الآخر نازحاً، ذلك ما سنبينه من خلال الفصل الآتي:

المبحث الثاني حال ابن الخطيب اللاجئ في المغرب

مقدمة:

لاشك في أن المصيبة المباغطة التي دهمت ابن الخطيب، كانت صدمة بالغة الأثر، وصعقة لا تبقي ولا تذر، لمن تدبر الأمر مدققاً، واستكنه الواقع محققاً، فالرجل أصبح في زمن كلمح بالبصر، مجرداً من جاهه، وماله، ووطنه، لولا أن تداركه رحمة من الله بشفاعة سلطان المغرب لكان في عداد الهالكين.

والناس في مثل هذا تتباين مواقفهم، وتبلى سرائرهم، وتمتحن بصائرهم، وتشذ عرائكهم، ويختبر إيمانهم، وكل امرئ ميسر لما خلق له، مهدي لما قدر له. فإذا كان السلطان قد أنهض الحادث عزمته، بما أطمعه سلطان المغرب وبما أمله، وجعل وكده في ارتجاع العرش الذي فقده.

فإن ابن الخطيب كما نص في كثير من عباراته، كان على العكس من ذلك، فقد صرف الحادث وجهه وأيأسه، وسد في عينه باب الأمل وأوصده، ولفحه لهيب الزجر وأحرقه، ونبه غافله واعظ الإيمان وأيقظه، وهو الرجل العالم والفقير الذي دنا من أجله، وقد أوشك أن يتم الخامس من عقده.

فهل هذا التوجه مجرد دعوى أم حقيقة؟

ذلك ما سنحاول بيانه من خلال رصد أعماله المختلفة، وفحص أقواله المتباينة، وكذلك أقوال المؤرخين والأدباء، سواء الذين عاصروه، أو الذين جاءوا من بعده، بدءاً من لجوئه الاضطرابي، ونزوحه الاختياري، مروراً برجوعه المكروه، وانتهاء بفراره المؤثر.

وأبدأ أولاً برصد مواقفه المختلفة على أرض المغرب عقب لجوئه الأول، كما أفصح عنها ابن الخطيب نفسه من خلال كتابه "نفاضة الجراب" الذي وللأسف الشديد لم يصلنا صدره الذي ضاعت بضياعه تفاصيل تاريخية لها علاقة بما نحن بصدد.

المطلب الأول

عناية السلطان وظهير الإذن بالرحلة

على الرغم من ضياع صدر كتاب "نفاضة الجراب" الذي توفر دون شك على تفاصيل تهم هذه المرحلة التي نحن بصدد الكشف عنها فقد وجدنا ولحسن الحظ نصاً طريفاً أورده صديقه ابن خلدون في تاريخه على الرغم من إجماله، أبان عن المحطات المكانية الكبرى، والرغبات النفسانية القصوى، التي تمحور حولها سلوك ابن الخطيب في هذه المرحلة، يقول ابن خلدون: "... وَأَزْغَدَ [السُّلْطَانُ أَبُو سَالِمٍ] عَيْشَ ابْنِ الْخَطِيبِ فِي الْجَرَايَةِ وَالْإِقْطَاعِ، ثُمَّ اسْتَأْنَسَ^(٤٥)، وَاسْتَأْذَنَ السُّلْطَانُ فِي التَّحَوُّلِ^(٤٦) بِجِهَاتٍ مُرَاكَّشٍ، وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِ^(٤٧) الْمَلِكِ بِهَا، فَأَذِنَ لَهُ وَكَتَبَ إِلَى الْعُمَالِ بِإِتْحَافِهِ، فَتَبَارَزُوا^(٤٨) فِي ذَلِكَ، وَحَصَلَ مِنْهُ عَلَى خَطٍّ، وَعِنْدَمَا مَرَّ بِسَلَا فِي^(٤٩) قُفُولِهِ مِنْ سَفَرِهِ، دَخَلَ مَقْبَرَةَ الْمُلُوكِ بِشَالَةَ، وَوَقَفَ عَلَى قَبْرِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ، وَأَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ عَلَى رَوِيِّ الرَّاءِ يَرِثِيهِ، وَيَسْتَجِيرُ بِهِ فِي اسْتِرْجَاعِ ضِيَاعِهِ... فَكَتَبَ السُّلْطَانُ أَبُو سَالِمٍ فِي ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِالشَّفَاعَةِ فَشَفَعُوهُ، وَاسْتَقَرَّ هُوَ بِسَلَا مُنْتَبِذًا عَنْ سُلْطَانِهِ طَوْلَ مَقَامَتِهِ^(٥٠) بِالْعُدُوَّةِ^(٥١).

والنص يفصح عن الأمور التالية:

١ - عناية السلطان أبي سالم الفاتكة بابن الخطيب، إذ لم يميزه في التنويه والتكريم عن سلطانه، فعمه بره، وشمله خيره، فأكد ابن الخطيب نفسه هذا من خلال قوله: "وَبَالِغَ مَلِكُهُ [ملك المغرب السلطان أبو سالم] فِي بَرِّي، رَاعِيًا فِي حُلَّةٍ رَعِيي، مَنْزِلًا رَحْبًا، وَعَيْشًا خَفْضًا، وَإِقْطَاعًا جَمًّا، وَجَرَايَةً مَا وَرَاءَهَا مَرْمَى، وَجَعَلَنِي بِمَجْلِسِهِ صَدْرًا"^(٥٢).

٢ - استئذان ابن الخطيب السلطان أبا سالم للقيام برحلة في ربوع بلاد المغرب الجنوبية، مراکش وما حولها، لمطالعة آثار الأول، وصنائع الدول، وزيارة الصلحاء والعلماء والأدباء والوجهاء، والوقوف على أحداث النبهاء.

وقد حفظ ابن الخطيب نص الظهير الذي رخص له السلطان أبو سالم بموجبه

إعمال الرحلة المراكشية بناء على رغبته، نذكره لأهميته في هذا الباب، قال ابن الخطيب مفاخراً ومترجماً لهذا الظهير: "وَلَمَّا قَضَى اللَّهُ بِالْأَنْصِرَافِ إِلَى الْعُدْوَةِ الْغَرْبِيَّةِ، صَدَرَتْ عَنْ سُلْطَانِهَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَالِمٍ مَنْشُورَاتٌ رَفِيعَةٌ مِنْهَا وَقَدْ تَشَوَّفْتُ إِلَى مُطَالَعَةِ بِلَادِهِ الْغَرْبِيَّةِ، وَجِهَاتِهَا الْمُرَاكُشِيَّةِ، بِقَصْدِ لِقَاءِ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ، وَزِيَارَةِ مَلَاجِدِ السَّادَةِ" (٥٣).

أما الظهير، وما جاء فيه من إطراء وتقدير، فيكشف عنه نصه الذي نجتزئ منه العبارات والفقرات الآتية: "هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ، أَشَادَ بِالتَّنْوِيهِ الْفَسِيحِ الْمَجَالِ، وَالْإِكْرَامِ السَّابِغِ الْأَذْيَالِ... حَكَمَ بِإِعْمَالِهِ، وَإِمْضَاءِ أَمْرِهِ... عَبْدُ اللَّهِ الْمُسْتَعِينُ بِاللَّهِ إِبْرَاهِيمُ... لِلشَّيْخِ الْفَقِيهِ الْأَجَلِّ... جَدَّدَ لَهُ الْخُطُوبَةَ الَّتِي يُضْفِي لِبَاسُهَا... وَلَمَّا وَقَدَ عَلَى بَابِهِ الْكَرِيمِ عَائِذَا بِجَوَارِهِ... فَسَحْنَا لَهُ فِي مَيْدَانِ الْبِرِّ وَالْتَرَحُّيبِ فَبَلَغَ مَدَاهُ... وَأَذِنَّا لَهُ تَفَنُّنًا فِي إِسْدَاءِ النِّعَمِ الثَّرَّةِ... فِي زِيَارَةِ التُّرْبَةِ الْمُقَدَّسَةِ بِشَالَةِ الْمُعْظَمَةِ... وَقَدْ أَدْنَا لَهُ فِي مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْجِهَاتِ مِنْ حَضَرَتِنَا الْعَلِيَّةِ، إِلَى مُرَاكُشِ الْمَخْرُوسَةِ لِلِقَاءِ الْأَغْلَامِ، وَاجْتِلَاءِ الْمَعَاهِدِ الْكَرَامِ، وَالْآثَارِ الْبَاقِيَةِ عَلَى الْأَيَّامِ، كَيْفَ أَحَبَّ، وَعَلَى مَا شَاءَ مِنْ إِزَاحَةِ أَوْ إِمْلَامٍ، مُضْحَبًا بِمَنْ يُنَوِّهُ بِهِ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الْخُدَّامِ... فَلْيُعْلَمَ ذَلِكَ مَا لَهُ فِي بَابِنَا الْكَرِيمِ مِنَ الْاِعْتِنَاءِ... وَيَجْرِي فِي جَمِيعِ مَآرِبِهِ وَأَحْوَالِهِ عَلَى النَّهْجِ السَّوَاءِ مُرَاعَى حَالِ إِيَابِهِ إِلَى مَقَرِّهِ مِنْ حَضَرَتِنَا الْعَلِيَّةِ... وَكُتِبَ بِالْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ ... فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ لِرَبِيعِ الثَّانِي عامٍ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَلِيُعْتَمَدَ لَوْزِيرِنَا الشَّيْخِ الْأَجَلِّ... أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ ابْنِ الْعَبَّاسِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ، عَلَى أَنْ يُدْخِلَهُ إِلَى الْمَسَاكِينِ الْعَلِيَّةِ بِقَصْبَةِ مُرَاكُشِ حَرَسِهَا اللَّهُ، لِيُشَاهِدَ الْآثَارَ السُّلْطَانِيَّةَ" (٥٤).

وإذا علمنا أن تاريخ دخول ابن الخطيب وركب سلطان الأندلس المخلوع نازحاً إلى حضرة فاس، كان تاريخه هو يوم الخميس السادس من محرم الحرام عام ٧٦١هـ، يكون ابن الخطيب بناء على تاريخ صدور الظهير المذكور لم يتلبث إلا قليلاً، أقل من شهرين، ليشروع في رحلته، وهذا أمر يدعو إلى الإعجاب، فالرجل يعرف نفاسة الفرصة، وجلالة الغرّة، ويكشف عن سر طالما تشوف إلى حقيقته الباحثون،

ونعني به سر غزارة عطاء ابن الخطيب، لقد كان عارفاً بالزمن، ملتهب العزم، متوقد الذكاء.

ولاشك في أن المنزع الحديث الذي أولد الفكرة في ذهن ابن الخطيب، وحرك الرغبة في القلب الكئيب، ونشط جوارح الرجل الغريب، لا يبعد عن الدواعي الآتية:

أ - مشاعر الحزن والحنين، والجزع للمصاب، التي ربما كانت هاجساً مقلقاً، لا يرد وسواسه إلا بعمل يلهي وينسي، ولم يجد ابن الخطيب أنجع لدائه من الرحلة والتجوال دواء وبلسماً، وهو الطبيب الماهر في وصفات العلاج من الأسقام البدنية والنفسية.

ب - التصفية والتخلية الروحية من خلال الفرار، مما علق بالنفس من رواسب أرضية، وأدران دنيوية، إعمالاً للتوبة، وسيراً على طريق الأوبة، ولا يصدر هذا إلا عن مثله، وهو صاحب النفس المرهفة، والحبواء اللوامة، المستشعرة للذنب والخطيئة، الحريصة على النجاة من عقوبة الآخرة، كما دلت قرائن النصوص المتكررة. ولا أدل على ذلك عزاء وسلوا من الوقوف على متوفيات الرجال الذين عركتهم الخطوب، وعصفت بهم رياح شمال وجنوب، أمثال السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، الذي اعتلى قُفَّةَ الأطلس، الذي لا يوافي إلا بعد مشقة ولغوب.

ولقد أثار لدى ابن الخطيب عبرة، وأسأل عبرة، حيث قال في حقه: "... لا تَتَمَّالَكَ الْعَيْنُ أَنْ تَنْتَبِرَ سُلُوكُ دُمُوعِهَا، وَلَا الْقُلُوبُ أَنْ تَأْخُذَ الْحَسْرَةَ بِكُظْمِهَا، لِمَا عَضَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ الْجَلَّالَ مِنَ الْخَطْبِ الَّذِي عَوَّضَهُ مِنْ نَضْرَةِ النَّعِيمِ، وَوُجُوهِ الْغَرَانِقَةِ الْغُرِّ، وَالتَّوَكُّؤِ عَلَى النَّمَارِقِ الْمَصْفُوفَةِ، وَالزَّرَابِيِّ الْمَبْتُوثَةِ، فِي الْمُنْتَبَأِ الْكَرِيمِ، اسْتِنْقَالَ طَلْعَةِ الْبَدْرِ، وَاسْتِحْجَاءِ هَبَّةِ النَّسِيمِ بِقُنَنِ الْجِبَالِ الْعُجْبِ، وَسَكْنَى الْمَحَلِّ الْحَشِينِ، وَمُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ عِنْدَ فِرَاقِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ وَتَوَقُّ، وَكَتَبْنَا مِمَّنْ قَدَرَ قَدْرَهُ، وَلَمْ يَأْمَنْ مَكْرَهُ، فَقَعَدْنَا وَقَرَأْنَا وَأَفْضَنَّا فِي التَّرْحُمِ وَدَعَوْنَا" (٥٥).

وكذلك أمثال المعتمد بن عباد، وعبد الله بن بلقين الأميرين المخلوعين الأسيرين، حيث قال في حق ابن عباد: "وَقَفْتُ عَلَى قَبْرِ الْمُعْتَمِدِ بِاللَّهِ بِمَدِينَةِ

أَغْمَاتٍ، فِي حَرَكَه رَاحَةً أَعْمَلْتُهَا إِلَى الْجِهَاتِ الْمُرَاكَشِيَّةِ بَاعِثُهَا لِقَاءَ الصَّالِحِينَ، وَمُشَاهَدَةَ الْآثَارِ عَامَ وَاحِدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَهُوَ بِمَقْبَرَةِ أَغْمَاتٍ، فِي نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ، قَدْ حَفَّتْ بِهِ سِدْرَةٌ، إِلَى جَنْبِهِ قَبْرٌ اعْتِمَادِ حَظِيَّتُهُ مَوْلَاةَ رُمَيْكِ، وَعَلَيْهَا هَيْئَةُ التَّغْرِبِ، وَمُعَانَاةُ الْحُمُولِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَلَا تَمْلِكُ الْعَيْنُ دَمْعَهَا عِنْدَ رُؤْيَيْتِهِمَا، فَأَنْشَدْتُ فِي الْحَالِ^(٥٦).

والنص يشير إلى جملة من بواعث الرحلة كما ألمعنا، مثل ابتغاء الراحة، ولقاء الصالحين، التماساً للدعاء والبركة على عادة المغاربة والأندلسيين، ولقد تكررت الإشارة إلى ذلك في أكثر من موضع مثل قوله: "وَزُرْتُ أَجْدَاثَ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ، خَتَمْتُهَا بِقَبْرِ الْوَلِيِّ الْمُتَبَرِّكِ بِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ الْهَرَمِيرِيِّ"^(٥٧). وقوله: "... وَأَنْتَحَيْنَا طَرِيقَ السَّاحِلِ لِنَسْتَنْدِرَكَ بِمَدِينَةِ أَسْفِي زِيَارَةَ مَنْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَعِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ"^(٥٨).

ت - الرغبة في اكتساب العلوم، واحتجان المعارف، باعتباره مؤرخاً وأديباً، قد ظفر بالفرصة اليتيمة، والمناسبة الثمينة، التي ربما لا يوجد الزمان بمثلاً، من خلال معرفة البلاد جغرافياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعمرانياً، تلك المعرفة التي لم يبخل بها على من لم يشاهد، ف سجلها في كتابه في أجمل وصف وأدق تصوير على عادته، فأصبح بمرور الزمان من أثنى الوثائق التاريخية والأدبية في التراث المغربي والأندلس على السواء.

إن هذا السلوك ليكشف بوضوح عن همة الرجل، وتعشقه للثقافة والمعرفة، فلم تسجنه الفتنة، ولم تبدل حسه المصيبة، ولم تغر ماء ورونقه الحادثة، بل صقلت موهبته، وهذبت أداته، وبصمت أدبه، حيث لازته عن غيره من الآداب. والذي يطالع حياة الرجل القلقة، ونتاجه الزاخر، يحтар في تفسير هذه المعادلة الفذة، ولا يسعه إلا أن يرجعها إلى طبيعة عمق الرجل، ونفاسة معدنه، وغناء أدواته.

ث - بناء علاقات، وتأسيس صلات ذات أمشاج مع رجال الدولة الزناتية، وعمداء الإيالة المرينية في كافة ربوع المغرب، وخاصة المناطق السياسية الاستراتيجية الحساسة مثل الجنوب، بترخيص ظهريين من السلطان أبي سالم، وهذا الأمر يضمن الاستقرار عند الرجفان، ويلبسه ثوب الأمان عند الخلعان، ويمد له الأيدي بالإحسان، ويربي من رصيد شهرته وهي عمر ثان، ويؤنسه في غربته وهو النائي عن الأوطان.

المطلب الثاني اختيار سلا محلاً للإقامة

لم يتردد ابن الخطيب في اختيار مدينة سلا غِبَّ قُفُوله من رحلته المراكشية الممتعة لا ريب، موطناً بديلاً، وحلاً أثيراً، فما هو معيار اختياره لهذه المدينة دون غيرها؟

المقصد الأول - معرفة سابقة:

لتردده عليها أكثر من مرة، إذ لم يكن هذا النزول بكرةً، ولا زيارة بدعاً، حيث ترجع ذكرياته بها استناداً إلى أحد نصوصه إلى سنة ٧٥٢هـ - ١٣٥١م، حينما بعث سفيراً من قبل السلطان أبي الحجاج (٧٣٣هـ - ٧٥٥هـ) (١٣٣٣م - ١٣٥٤م) إلى نظيره السلطان أبي عنان، ولعلها السفارة الأولى، والمشاهدة الأولى، وكان غرضها حضور مراسيم تشييع جنازة أبيه السلطان أبي الحسن بعد نقله من متوفاه، والتعبير له عن مشاعر التعزية، وأداء فروض الولاء والإخاء، كما جرت العادة، ومعلوم أن مقبرة الملوك والأمراء من بني مرين كانت بشالة من سلا، قال ابن الخطيب في حق السلطان أبي الحسن: "وَحَضَرْتُ مُوَارَاتَهُ عَلَى بُعْدِ الدَّارِ، وَشَحِطَ الْمَزَارِ، فِي غَرَضِ الرِّسَالَةِ عَنِ السُّلْطَانِ، الَّذِي عَصَبَ بِي خُطَّةَ الْوِزَارَةِ وَالْكِتَابَةِ بِالْأَنْدَلُسِ، الْمُؤَلَّى أَبِي الْحَجَّاجِ بْنِ نَصْرِ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَخَذْتُ بِالْحَطِّ الرَّغِيبِ مِنْ بَرَكَتِهِ مَشْهُدِهِ، وَتِلَاوَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عَلَى مَلِكِهِ، وَتَأْيِيدِهِ حَقَّهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ بِإِعْلَاءِ دَرَجَتِهِ، وَإِكْرَامِ نُزُلِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، وَالتَّرَدُّدِ عَلَى رُكْنِي تَرْبِيَّتِهِ^(٥٩)".

والنص يوحي بأن ابن الخطيب ربما مكث أياماً هنالك، بما أكسبه معرفة بالبلد وأهله، كما دل على ذلك نص آخر جاء في ثنايا الترجمة للسلطان أبي سالم حينما ألمَّ بذكر قرار التغريب إلى الأندلس المتخذ في شأنه وشأن أخ آخر له من قبل أخيهما السلطان أبي عنان، وهو أخف الأضرار، دفعاً للشغب.

والطريف في النص أن ابن الخطيب نفسه باشر عملية الإركاب، ربما باعتباره وزيراً وكتاباً يملك صلاحية ذلك، إذ كان مثل هذا القرار لا يمضي دون مفاوضة

ومشاورة، خاصة وأن مُمثل السلطة الأندلسية بين ظهرائهم، وإلا فلماذا اختير التغريب في هذا التوقيت؟ وما فائدة مباشرة ابن الخطيب إقلاع السفين؟

يقول ابن الخطيب: "... فَأَبْقَى [أَبُو عِنَانٍ] وَأَغْضَى، وَاجْتَنَبَ الْهَوَى، وَأَجَابَ دَاعِيَ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فَصَرَفَهُمَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ، بَاشَرْتُ إِرْكَابَهُمَا الْبَحْرَ بِمَدِينَةِ سَلَا ثَانِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنْصَرَفْتُ مِنْ بَابِهِ، وَصَدَرْتُ عَنْ بَحْرِ جُودِهِ... فِي غَرَضِ السَّفَارَةِ عَنِ السُّلْطَانِ بِالْأَنْدَلُسِ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ. وَنَزَلَ مَرْبَلَةً مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى نَظَرِهِ، وَأَصْلًا السَّيْرِ إِلَى غَرْنَاطَةَ^(٦٠).

والنص يكشف فضلاً عن ذلك حقيقة تاريخية مهمة، يعز وجودها في مصدر تاريخي آخر، باستثناء رسالة وردت في ريحانة الكتاب ألمعت إلى هذا أيضاً^(٦١)، وهي أن "مربله" في هذه المرحلة التاريخية كانت مصروفة إلى الإيالة المرينية باعتبارها موقعاً استراتيجياً حيوياً، إلى جانب مواقع أخرى داخل الأندلس مثل "رندة".

وهذه الحقيقة التي قد لا يتفطن لأهميتها الناظر، هي التي تفسر سر اتخاذ "مربله" فرضة للمجاز إلى المغرب، دون أي موقع آخر آمن من غيره من الناحية السياسية، وإن كان أبعد عن الأمن من الناحية الجغرافية والبحرية، حيث كان أقصى وأبعد.

المقصد الثاني - شاعرية الاسم:

فهي "سلا" التي توحى بالسُّلُو، وتشى بالعزاء، وقد كان ابن الخطيب كما هو معلوم في أمس الحاجة إلى من يحسن عزاءه، ويطفئ كمدّه.

ولذلك لم تكن "سلا" التي استهل بها قصيدته الباكية الشاكية، التي نفثها صدره أمام الملأ، وهو النازح الكسير، لفظة اضطرت إليها الضرورة الشعرية، أو كلمة أخطأ التقدير موضعها، وإنما كانت دلالة أحسن الوجدان موقعها، وأعذب الجرس موردها، وحلّى الحزن مأخذها.

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخَبَّرَةٍ نِكْرُ وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

ولا أدلّ على هذه الرمزية الواعية المشار إليها من قول ابن الخطيب في معيار الاختيار:

وَصَلْتُ حَثِيثَ السَّيْرِ فِيمَنْ فَلَا فَلَا فَلَا خَاطِرِي لَمَّا نَأَى وَأُنْجَلَى أَنْجَلَى
وَلَا نَسَخْتُ كَرْبِي بِقَلْبِي سَلْوَةً فَلَمَّا سَرَى فِيهِ نَسِيمٌ سَلَا سَلَا^(٦٢)

المقصد الثالث - طبيعة المدينة:

احتلت هذه المدينة موقعاً ممتازاً، وتوافرت على موارد طبيعية مهمة، واحتضنت مرافق جمّة، واحتوت على خيرات ثرة، جعلت ابن الخطيب يؤثرها بالاستقرار، ويفضلها على غيرها من الديار.

وعلاقة ابن الخطيب بـ "سلا" من حيث الوصف والكتابة عنها علاقة حميمة، حيث عقد بينها وبين مالقة مقارنة في رسالة طريفة عنوانها: "مفاخرة بين مالقة وسلا" أو "مفاخرات مالقة وسلا" بناء على طلب أحدهم سأل أن ينصب ميزان النصفة في المفاضلة بينهما.

وبعد أن حدد معيار التفاضل على سلا، قال في أدب منبهاً على خطأ من يفاضل بين ما تبين وتباعد: "... وَلَسَلَا الْفَضْلُ لَكِنْ عَلَى أَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَأَشْكَالِهَا، إِذْ لَا تُنْكَرُ فَضْلَ اعْتِدَالِهَا وَأَمْنِهَا مِنَ الْفِتَنِ، وَأَهْوَالِهَا عِنْدَ زَلْزَالِهَا، وَمَقْنِ الْمُلُوكِ الْكِرَامِ بِجِبَالِهَا^(٦٣).

وكذلك ألم ابن الخطيب بوصف "سلا" في مقامته الشهيرة "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار" جمع من خلاله محاسنها ومساوئها، في أسلوب مسجع بليغ، لعله أطرف وأوفى وصف حظيت به "سلا" عبر التاريخ، من جملة ما جاء فيه قوله: "... ذَاتُ الْوَسَامَةِ وَالنَّصَارَةِ، وَالْجَامِعَةُ بَيْنَ الْبَدَاوَةِ وَالْحَضَارَةِ، مَعِينُ الْقُطَنِ وَالْكَتَّانِ، وَالْمَدْرَسَةُ وَالْمَارِسْتَانِ، وَالزَّائِيَةُ كَأَنَّهَا الْبُسْتَانِ، وَالْوَادِي الْمُتَعَدِّدُ الْأَجْفَانِ، وَالْقَطْرُ الْأَمِينُ عِنْدَ الرَّجْفَانِ، وَالْعَصِيرُ الْعَظِيمُ الشَّانِ، وَالْأَسْوَاقُ الْمُتَّارَةُ حَتَّى بَرَقِيقِ الْحُبْشَانِ، اِكْتَنَفَهَا الْمَسْرَحُ، وَالْخَضْبُ الَّذِي لَا يَبْرَحُ، وَالْبَحْرُ الَّذِي يَأْسُو وَيَجْرَحُ، وَشَقَّهَا الْوَادِي يُنَمِّمُ مَحَاسِنَهَا وَيُشْرَحُ... وَهِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِهَا أَوْفَى، وَمَغَارِمُهَا

لَاخْتِرَامِ الْمُلُوكِ الْكِرَامِ أَرْفَقُ، وَمَقْبَرَتُهَا الْمُنْصَدَّةُ عَجَبٌ فِي الْإِنْتِظَامِ، مَعْدُودَةٌ فِي الْمَدَافِنِ الْعِظَامِ، وَتَنَاتَى بِهَا لِلْعِبَادَةِ الْخُلُوةُ، وَتُوجَدُ عِنْدَهَا لِلْهُمُومِ سَلْوَةٌ^(٦٤).

والنص يكشف عن القيم الآتية:

- ١ - أن المدينة كانت على درجة كبيرة من الحضارة التي تبعث على الحضارة والجمال.
- ٢ - أنها جمعت بين مظاهر المدنية، ومظاهر البداوة.
- ٣ - أنها توفرت على مؤسسات التعليم، والاستشفاء والعبادة.
- ٤ - أنها توفرت على الأسواق المتعددة كناية عن الخيرات والمنتجات المتنوعة مثل القطن والكتان والزيتون وزيته.
- ٥ - أنها تمتاز بالخصوصية والغناء، وربما كان ذلك في أغلب فصول السنة وأيامها.
- ٦ - أنها جمعت بين البحر والنهر، الأمر الذي حولها إلى ميناء متعدد الأجفان والقوارب.
- ٧ - أنها امتازت بالأمن والأمان على سائر الأوطان.
- ٨ - أنها ليست مثقلة بالمغارم والضرائب من قبل الملوك والأمراء تشريفاً لها وتقديراً.
- ٩ - أنها احتضنت مقبرة عظيمة الشأن، آية في الانتظام.
- ١٠ - أن جوها مبعث على الخلوة للعبادة، ومجل للهموم، مذهب للأحزان.

خلاصة:

وَبَعْدُ: أَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَبْرَرَاتُ الْجَامِعَةُ بَاعِثًا قَوِيًّا رَجَحَ لَدَى ابْنِ الْخَطِيبِ اتِّخَاذَهَا مَأْوًى، وَاصْطِفَاءَهَا مَهْوًى يَتَطَارَحُ فِيهِ، وَهُوَ الَّذِي فَتَنَهُ الْإِبْتِلَاءُ، وَشَتَّتْ هَمَّهُ الْإِنْتِزَاعَ، وَأَكَّدَ عَزْمَهُ عَلَى الْأُوبَةِ الْفِرَارِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِلْتِجَاءِ؟

قال ابن الخطيب مؤكداً على العلاقة القلبية الحميمة التي ألفت بينه وبين هذه المدينة: "ثُمَّ تَرَجَّحَ لَدَيَّ السُّكُونُ إِلَى الْعَافِيَةِ، وَالتَّمَتُّعُ بِالْبَقِيَّةِ، فَجَنَحْتُ إِلَى السُّكْنَى بِمَدِينَةٍ سَلَا، حَيْثُ طَنَبَتِ الْحُرْمَةُ رِوَاقَهَا، وَأَقَامَتِ الْحَسَنَةُ بِسَبَبِ الضَّرِيحِ الْمُقَدَّسِ

أَسْوَاقَهَا، تَجْرِي عَلَيَّ بِهَا النَّعْمُ، وَيُظِلِّلَنِي الْمَجْدُ وَالْكَرَمُ، فَلَا أَعُدُّ مِنْ عُمْرِي إِلَّا أَيَّامَ مَقَامِي بِهَا، وَسُكْنَايَ فِيهَا، تَفَرُّعًا إِلَى مَا أُرِيدُهُ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ، وَعَافِيَةٍ شَامِلَةٍ، وَجَنَّةٍ عَاجِلَةٍ" (٦٥).

وقال أيضا: "وَأَسْتَقَرَّتْ بِي الدَّارُ بِمَدِينَةِ سَلَا مُرَابِطًا، مُسْتَمْتِعًا بِالْبَقِيَّةِ، تَحْتَ نِعْمَةٍ كَبِيرَةٍ وَإِعْفَاءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ" (٦٦).

وقال أيضا: "... ثُمَّ أَسْعَفَ [السُّلْطَانُ أَبُو سَالِمٍ] قَصْدِي فِي تَهْنِيءِ الْخُلُوةِ بِمَدِينَةِ سَلَا، مُنَوِّهَ الصُّكُوكِ، مُهَنِّئًا الْقَرَارِ، مُتَفَقِّدًا لِلَّهِ وَالْخَلْعِ، مُحَوِّلَ الْعَقَارِ، مُؤَفُّورَ الْحَاشِيَةِ، مُحَلِّ بَيْنِي وَبَيْنَ إِصْلَاحِ مَعَادِي" (٦٧).

وهذه النصوص جميعها تتفق من حيث التأكيد على الغاية الأثيرة، والرغبة الأكيدة، التي أصبحت ديدن ابن الخطيب وهاجسه، وهي:

الاستقلال من أعباء السياسة، والتفرغ لإصلاح الحال، والتزود للمعاد، خاصة وأن كل الشروط المعنوية، والمادية المساعدة على ذلك متوافرة وزيادة، حتى أنها تركت بصمة في أعماق ابن الخطيب، ما انفك يذكرها، ويؤثرها طوال حياته، فهو لا يعد من عمره إلا الأيام التي قضاها في سلا، كيف لا والحرية دائمة، والعافية شاملة، والعبادة مرضية، حتى كأنه في جنة عالية، هذه هي السعادة المعاشية، لمن تشوف إلى معرفة المعاني الحقيقية.

المطلب الثالث

لزوم مقبرة شالة والمطالبة بأملأكه

المقصد الأول - لزوم مقبرة شالة:

مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ وَالْعَجِيبَةِ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ، الَّتِي انْبَرَى ابْنُ الْخَطِيبِ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا عَقِبَ الرَّجُوعِ مِنَ الرَّحْلَةِ الْمَرَاكَشِيَّةِ، الْإِنْتِقَالِ إِلَى مَقْبَرَةِ شَالَةَ حَيْثُ قَبْرُ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ الْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُحْتَرَمِ مِنْ قَبْلِ جَمِيعِ الْمُؤَرِّخِينَ، الْمُنْخَرَطِ فِي

سلك الملوك الصالحين، أبي الحسن علي بن يعقوب، حيث عزم على ملازمة تربته ملازمة تبرك واستجداء على عادة المغاربة والصوفية الفقراء.

ولقد كان لابن الخطيب اعتقاد كبير في ذلك، سيستشف ذلك من كتاباته، كما كان له اعتقاد كبير في السلطان أبي الحسن المريني، لما يعرفه عنه من عدالة وصلاح. قال ابن الخطيب في "نفاضة الجراب" يصف رحلته تحت عنوان: "فصل في ذكر العودة إلى مدينة سلا": "ثُمَّ كَانَ الْإِرْتِحَالُ إِلَى التُّرْبَةِ الْمَوْلَوِيَّةِ الْمُحْتَرَمَةِ بِشَالَّةَ، فَأَلْقَيْتُ بِهَا الْبَرْكَ، وَحَطَطْتُ الرَّحْلَ، وَفَصَّلْتُ الْخُطَّةَ" (٦٨).

ولفظ "العودة" المذكور في عنوان الفصل يؤكد أن "سلا" كانت منطلق الرحلة ونهايتها، فيكون ابن الخطيب بذلك قد استقر بأهله وولده بسلا أولاً، ثم وفد على السلطان أبي سالم يعرض عليه نيته في الرحلة، ويستأذنه ليتخذ بهذا الشأن الإجراءات اللائقة، من إصدار الظهير المرخص، ومخاطبة العمداء والأعيان في حقه، وإعداد الزاد والراحلة، وتعيين الربعة المرافقة وما إلى ذلك، فما جدوى هذا التصرف الغريب من ابن الخطيب، وهو الذكي اللبيب؟

المقصد الثاني - المطالبة بأملاكه:

لا نعدم النصوص التي تفسر ذلك، وهي نصوص غاية في الوضوح، كشفت عن خبرته بالعوائد، ومراسيم اللياقة في التعاطي مع الملوك، وذكائه في إبداع الوسائل والأساليب التي لا تخطئ الغاية إلى ما تعنو الوجوه إليه.

إنه الاستشفاع لدى السلطان أبي سالم بأنجع الوسائل، وأفضل الأوضاع، من خلال تحريك مشاعر الأبوة الحانية الراقدة تحت الثرى، وإيقاظ أحاسيس الرحمة تجاه هذا الموتور بين الورى.

يكشف عن ذلك المشهد الدرامي الذي تصوره الرسالة الغربية التي بعث بها ابن الخطيب من مقبرة "شَالَّة" إلى السلطان أبي سالم في فاس.

فما مضمون الرسالة؟

وما عناصرها الدرامية؟

ذلك ما يتكشف من خلال نصوصها المقتبسة الآتية:

قال مخاطباً: "...ابنُ الخطيب، من الضريح المقدس بشالة، وقد حطَّ رَحْلَ الرِّجَاءِ فِي القُبَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَتَذَمَّمَ بِالتُّرْبَةِ الرَّكِيَّةِ، وَقَعَدَ بِإِزَاءِ لَحْدِ المَوْلَى أَبِيكُمْ سَاعَةَ إِيَابِهِ مِنَ الوجْهِه المُبَارَكَةِ... وَقَدْ عَزَمَ أَلَّا يَبْرَحَ طَوْعاً مِنْ هَذَا الجِوَارِ الكَرِيم... حَتَّى يَصِلَهُ مِنْ مَقَامِكُمْ مَا يَنَاسِبُ هَذَا التَّطَارُحَ عَلَى قَبْرِ هَذَا المَوْلَى العَزِيز... ثُمَّ عَلَيْكُمْ، وَالتِّمَاسِ شِفَاعَتِهِ فِي أَمْرِ يَسْهُلُ عَلَيْكُمْ، لَا يَجُزُّ إِنْفَازَ مَالٍ، وَلَا اقْتِحَامَ خَطَرٍ، وَلَا التَّهْجُمَ عَلَى حُطَّةٍ، إِنَّمَا هُوَ إِعْمَالُ لِسَانٍ، وَحُطُّ بَنَانٍ، وَصَرْفُ عَرْمٍ وَإِحْرَارُ فَحْرٍ وَأَجْرٍ... وَذَلِكَ أَنَّ العَبْدَ عَرَفَكُمْ يَوْمَ وَدَاعِكُمْ أَنَّهُ يَنْقُلُ عَنْكُمْ إِلَى المَوْلَى المُقَدَّسِ وَالدِّكْمِ بِلِسَانِ المَقَالِ مَا يَخْضُرُ مِمَّا يَفْتَحُ اللّهُ فِيهِ، ثُمَّ يَنْقُلُ عَنْهُ لَكُمْ بِلِسَانِ الحَالِ مَا يَتَلَقَّى عَنْهُ مِنَ الجَوَابِ... وَصَدَرَ عَنْكُمْ مِنَ البِشْرِ وَالْقَبُولِ وَالْإِنْعَامِ مَا صَدَرَ...

إِنِّي لَمَّا فَرَعْتُ مِنْ مُخَاطَبَتِهِ بِمَرَأَى مِنَ المَلَأِ الكَبِيرِ، وَالجَمْعِ الغَفِيرِ، أَكْبَبْتُ عَلَى اللَّحْدِ الكَرِيمِ دَاعِياً وَمُخَاطِباً، وَأَصْغَيْتُ بِأُذُنِي عَنْ قَبْرِهِ، وَجَعَلْتُ فَوَادِي يَتَلَقَّى مَا يُوجِيهِ إِلَيْهِ لِسَانُ حَالِهِ فَكَأَنِّي بِهِ يَقُولُ: "قُلْ لِمَوْلَاكَ؛ يَا وَلَدِي... أَسَلَّمُ عَلَيْكَ... وَمِثْلَكَ مَنْ ذَكَرَ فَتَذَكَّرَ... وَهَذَا ابْنُ الخطيبِ وَقَفَ عَلَى قَبْرِي وَتَهَمَّ بِِي... وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَلِيبُ المَالِ، كَثِيرُ العِيَالِ، ضَعِيفُ الجِسْمِ، قَدْ ظَهَرَ فِي عَدَمِ نَشَاطِهِ أَثَرُ السِّنِّ، وَأَمَّلَ أَنْ يَنْقَطِعَ بِجَوَارِي... وَقَدْ كُنْتُ تَشَوَّقْتُ إِلَى اسْتِخْدَامِهِ فِي الحَيَاةِ حَسَبَمَا يَعْلَمُهُ حَبِيبُنَا الخَالِصُ المَحَبَّةِ... أَبُو عبدِ اللّهِ بْنِ مَرْزُوقٍ، فَاسْأَلْهُ يَذَكِّرُ... فَأَنَا اليَوْمَ أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ حَدِيمِي بَعْدَ المَمَاتِ... وَلَهُ يَا وَلَدِي وَلَدٌ نَجِيبٌ يَخْدُمُ بِبَابِكَ، وَيَتُوبُ عَنْهُ فِي مُلَازِمَةِ بَيْتِ كُتَّابِكَ، وَقَدْ اسْتَقَرَّ بِدَارِكَ قَرَارُهُ... هَذِهِ رَغْبَتِي مِنْكَ وَحَاجَتِي^(٦٩)

وبعد ذلك يعرض ابن الخطيب طلبته، ويكشف رغبته فيقول: "... أَمْلِي مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَيَّنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ حَدِيمٌ بِكِتَابِ كَرِيمٍ يَتَضَمَّنُ الشَّفَاعَةَ فِي رَدِّ مَا أُخِذَ مِنِّي... وَمِنْ المَعْلُومِ أَنِّي لَوْ طَلَبْتُ بِهِذِهِ الوَسَائِلِ مِنْ صُلْبِ مَالِهِمْ مَا وَسِعَهُمْ بِالنَّظَرِ العَقْلِي، إِلَّا جَفَظَ الوجْهِ مَعَ هَذَا القَبِيلِ، وَهَذَا الوَطَنِ، فَالْحَيَاءُ وَالجِشْمَةُ يَأْبِيَانِ العُدْرَ عَلَى هَذَا فِي كُلِّ مِلَّةٍ وَنَحْلَةٍ. وَإِذَا تَمَّ هَذَا الغَرْضُ، وَلَاشَكَّ فِي إِثْمَامِهِ، تَقَعُ صَدَقَتُكُمْ عَلَى هَذَا القَبْرِ

الكَرِيمِ بِي، وَتُعِينُونِي عَلَى خِدْمَةِ هَذَا الْمَوْلَى وَزِيَارَتِهِ، وَتَقْقِدِهِ وَمَدْحِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ فِي جَوَارِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ... إِلَى أَنْ أَحْجَّ بَيْتَ اللَّهِ بِعِنَايَةِ مَقَامِكُمْ، وَأَعُوذُ دَاعِيًا مُنِيبًا، مُسْتَدْعِيًا لِلشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَأَتَعَوَّضُ مِنْ ذِمَّتِي بِالْأَنْدَلُسِ ذِمَّةً بِهَذَا الرِّبَاطِ الْمُبَارَكِ تَرْتِهَا ذُرِّيَّتِي (٧٠)

ثم ذكر تاريخ كتابة الرسالة، وهو الحادي عشر من رجب عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة.

كانت غاية ابن الخطيب الأساسية واضحة إذاً، فهو يرغب في تدخل السلطان أبي سالم شقيقاً لدى سلطان الأندلس باسترجاع ماله.

ولكن الرسالة أفصحت ضمناً عن رغائب أخرى هي:

- ١ - الرغبة في تعيين أحد أبنائه ضمن سلك كتّاب دولته.
- ٢ - رغبة ابن الخطيب بعد تحقق هذا الغرض أن تقع الصدقة من السلطان أبي سالم على قبر والده صاحب الضريح، ويعين ابن الخطيب على خدمته وزيارته وتفقدته، ومدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - في جواره.
- ٣ - الإعلان عن رغبة الانقطاع للعبادة بهذا الجوار.
- ٤ - الإعلان أيضاً عن الرغبة في زيارة الديار المقدسة بقصد الحج ولقاء أهل المشرق والمغرب.
- ٥ - كما كشف نص الرسالة أن السلطان صاحب الضريح المخاطب، كان قد تشوف إلى استخدام لسان الدين بن الخطيب في حياته قبل مماته بشهادة ابن مرزوق.

هذا من جهة الإفصاح عن الأغراض، أما العناصر الدرامية فنذكرها في الآتي:

- أ - اختيار المقبرة المقفرة محلاً، والأحداث البالية أناساً، والأحياء البرزخية أنساً، والصمت الرهيب كأساً، وهذه كلها أمور تلقي بظلال الرهبة والخشوع، والعبرة والرجوع، وتلهم القوة الروحية عند انكسار القلوع، ولعل هذا ما يفسر سر قوة خطاب ابن الخطيب، ويسر النجاح في سعيه الأريب.

ب - الاهتمام إلى الاستشفاع بهذه الكيفية وسيلة، وأعني بها الاستشفاع بالسلطان الهالك أبي الحسن. لقد كان يكفيه، لو أراد، وهو الماهر في دياجة الرسائل الدبلوماسية أن يتوجه بالطلب إلى السلطان أبي سالم مباشرة، بيد أنه أثر الاستشفاع بوالده الهالك، طلباً لشحن المهمة، وإيقاد العزم لدى السلطان أبي سالم.

ت - الاهتمام إلى المناجاة والمونولوج الداخلي أداء، ونعني به، تجريد حوار بينه وبين السلطان الهالك أبي الحسن، الذي هو في حقيقة الأمر حوار بين ابن الخطيب ونفسه، فهو صاحب السؤال وهو صاحب الجواب. لكن الطريف في هذا الحوار، يكمن في براعة الطريقة، حيث أجرى ابن الخطيب مطالبة على لسان السلطان أبي الحسن، هذا الذي يعرضها بدوره على ابنه السلطان أبي سالم، وهكذا يتحول الميت إلى حي يسأل الحي، وهذا غاية في البلاغة والتأثير، ولا أحسن من هذه الطريقة في فن الأدب، ولا أجمل من هذه الوسيلة من ذي أدب، ولا أبلغ من هذا السنن لمن تشوف لمثله من ذي أرب، خاصة إذا علمنا أنه ربما سبق هذا رسالة على النمط التقليدي أبطأ مفعولها.

ث - مخاطبة الميت، وهذا أمر مستغرب ينغلق فهمه على من لم يدرك سر عالم الأرواح من منظور الدين والعقيدة، فالأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، فالتواصل بين الأرواح أحياء وأمواتاً، اعتقاد وحقيقة لا تُنكر في الثقافة الإسلامية، يقول الإمام ابن حزم الأندلسي: "طَالَ تَعَجُّبِي فِي الْمَوْتِ، وَذَلِكَ أَنِّي صَحَبْتُ أَقْوَاماً صُحْبَةَ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ مِنْ صَدَقِ الْمَوَدَّةِ، فَلَمَّا مَاتُوا رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ فِي النَّوْمِ، وَلَمْ أَرِ بَعْضَهُمْ، وَقَدْ كُنْتُ عَاهَدْتُ بَعْضَهُمْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى التَّزَاوُرِ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِنْ أَمَكَّنَ ذَلِكَ، فَلَمْ أَرَهُ فِي النَّوْمِ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَنِي إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ، فَلَا أَدْرِي أَمْ نَسِيَ أَمْ شُغِلَ؟!"

ولاشك في أن اعتقاد الصلاح في هذا السلطان من قبل ابن الخطيب هو الذي جعله يتصوره حياً في قبره بناء على ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

المطلب الرابع استجابة السلطان وفشل المهمة

المقصد الأول - استجابة السلطان:

لم يسع السلطان أبا سالم، وقد ورد عليه هذا الكتاب الغريب العجيب مبنى ومعنى، إلا الاستجابة الفورية، وكتب له كتاباً يعلمه بذلك في تاريخ الرابع والعشرين من رجب سنة إحدى وستين وسبعمائة هـ، فكان بين رسالة ابن الخطيب، ورسالة أبي سالم ثلاثة عشر يوماً فقط.

من ضمن ما جاء فيها بعد الثناء عليه بما يليق قوله: "... فإنه وَرَدَ عَلَيْنَا خِطَابُكُمْ الْحَسَنَ عِنْدَنَا قَصْدُهُ، الْمُقَابِلَ بِالْإِسْعَافِ الْمُسْتَعْدِبِ وَرُدُّهُ، فَوَقَفْنَا عَلَى مَا نَصَّه، وَاسْتَوْفَيْنَا مَا شَرَحَهُ وَقَصَّه، فَأَثَرْنَا حُسْنَ تَلَطُّفِكُمْ فِي التَّوَسُّلِ بِأَكْبَرِ الْوَسَائِلِ إِلَيْنَا... وَفِي الْحِينِ عَيْنًا لِكَمَالِ مَطْلَبِكُمْ، وَتَمَامِ مَأْرِبِكُمْ، وَالتَّوَجُّهِ بِخِطَابِنَا فِي حَقِّكُمْ، وَالْاعْتِمَالِ بِوَفْقِكُمْ، خَدِيمِنَا أَبَا الْبَقَاءِ بْنِ تَاسْكُورْت، وَأَبَا زَكْرِيَا بْنِ فَرْقَاجَةَ، أَنْجَدَهُمَا اللَّهُ وَتَوَلَّاهُمَا.

وَأَمْسَ تَارِيخُهُ أَنْفَصَالًا مُودَّعِينَ إِلَى الْغَرَضِ الْمَعْلُومِ، بَعْدَ التَّأَكُّيدِ عَلَيْهِمَا فِيهِ، وَشَرْحِ الْعَمَلِ الَّذِي يُؤَفِّيهِ، فَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْ ذَلِكَ، وَابْسُطُوا لَهُ جُمْلَةَ أَمَالِكُمْ، وَإِنَّا لَنَحْتَسِبُ ثَوَابَ اللَّهِ فِي جَبْرِ أَحْوَالِكُمْ، وَبَرِّءٍ اغْتِيلَا لَكُمْ^(٧١).

ويبدو أن تحقق رجاء ابن الخطيب بالسرعة التي تمناها مثله، قد تعثر بأسباب الظروف السياسية المضطربة التي ستعرفها الأندلس بسبب الانقلاب الثاني الذي حدث على الأمير إسماعيل بن يوسف المتوثب على أخيه المخلوع اللاجئ بالمغرب، حدث هذا بتاريخ الثامن من شعبان عام واحد وستين وسبعمائة هـ، على يد ابن عم أبيه الرأس المدبر للانقلاب الأول الأمير أبي عبد الله محمد بن إسماعيل المنبوز بـ "البرميخو" [الأشقر].

أكد هذا نص الرسالة التي بعثها ابن الخطيب إلى السلطان أبي سالم بغرض

تهنئته بفتح تلمسان، حيث وصل خطاب السلطان المخبر بذلك يوم الخميس السابع عشر من شعبان عام واحد وستين وسبعمائة هـ.

وهذا يعني أن بين تاريخ ورود الرسالة السلطانية، وحدث الانقلاب في الأندلس تسعة أيام، وقد تضمن نص رسالة ابن الخطيب المهني إشارة تذكير لهذا السلطان، يلح عليه فيها بإنجاز وعده، وتأكيد حرصه، بين يدي إشفاعه بقصيدته النونية الطنانة في مدح السلطان، بفتح تلمسان، والتي مطلعها:

أَطَاعَ لِسَانِي فِي مَدِيحِكَ إِحْسَانِي وَقَدْ لَهَجْتُ نَفْسِي بِفَتْحِ تِلْمَسَانَ
حيث قال قبلها: " .. وَإِحَالَهُ مَوْلَايَ عَلَى اللَّهِ فِي نَفْسٍ جَبَرَهَا، وَوَسِيلَةَ عَرَفَهَا
مَجْدُهُ فَمَا أَنْكَرَهَا، وَحُرْمَةَ بِضَرْيَحِ مَوْلَايَ وَالِدِهِ شَكَرَهَا، وَيَطْلُعُ الْعَبْدُ مِنْهُ عَلَى كَمَالِ
أَمَلِهِ، وَنُجْحِ عَمَلِهِ، وَتَسْوِيعِ مُقْتَرَحِهِ، وَتَتْمِيمِ جُذْلِهِ " (٧٢).

ولقد أكد هذا أيضاً نص آخر ورد في ثانيا ترجمة السلطان أبي سالم في الإحاطة، حيث قال وقد أشار إلى مناسبة هذه الرسالة المذكورة، وما ورد فيها من تهنئة، وتوسل: " وَكُنَّا قَدْ اسْتَعْتْنَا الْقَرَارَ إِلَى إِيَالَتِهِ، وَأَنْتَهَى بِنَا الْإِرْعَاجُ إِلَى سَاحِلِ سَلَا مِنْ سَاحِلِ مَمْلَكَتِهِ، فَخَاطَبْتُهُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مُقِيمٌ بِثَرَبَةِ أَبِيهِ، مُتَذَمِّمٌ بِهَا فِي سَبِيلِ اسْتِحْلَاصِ أَمْلاَكِي بِالْأَنْدَلُسِ فِي غَرَضِ التَّهْنِئَةِ وَالتَّوَسُّلِ " (٧٣).

والقصيدة التي مدحت السلطان، ونوهت بفتح تلمسان، لم تخل هي الأخرى من الإشارة إلى حال ابن الخطيب الإنسان، وتعري بجلي البيان، ما تلجج في الوجدان حيث قال مخاطباً السلطان أبا سالم بضمير الغائب على عادة الشعراء أحياناً مشيراً إلى الاغتراب الذي حير الألباب.

وَحَوْلَنِي الْفَضْلَ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ تَخَوَّنَنِي صَرْفُ الْحَوَاثِ فَإِنْتَنَى
وَأَزْعَجَنِي مِنْ مُنْشَأَى وَمُبَوَّئِي بِلَادِي الَّتِي فِيهَا عَقَدْتُ تَمَائِمِي
تَحَدَّثَنِي عَنْهَا الشَّمَالُ فَتَنَّتَنِي وَشَيْكَا وَأَعْطَانِي فَأَفْعَمَ أَعْطَانِي
يُقَبِّلُ أَرْدَانِي وَمِنْ بَعْدُ أَرْدَانِي وَمَعْهَدِ أَحْبَابِي وَمَأْلَفِ جِيرَانِي
وَجَمَّ بِهَا وَفَرِي وَجَلَّ بِهَا شَأْنِي وَقَدْ عَرَفْتُ مَنِّي شَمَائِلَ نَشْوَانِ

وَأْمَلُ إِلَّا أَسْتَفِيقَ مِنَ الْكَرَى إِذَا الْخُلُمُ أَوْطَانِي بِهَا تُرْبُ أَوْطَانِي^(٧٤)

إن التواريخ التي حددت بشكل مفصل بعض الحوادث والرسائل المتبادلة بين ابن الخطيب والسلطان أبي سالم، ونعني بالتحديد المفصل ذكر اليوم والشهر والسنة، توحى بتعارض الوقائع تعارضاً يقتضي التأريخ رفعه، دفعاً للبس، وترتيباً للأحداث، وتيسيراً للمتابعة، وكشفاً للخبيئة، وهذا أمر ممكن، ولكن ليس قبل عرض الحقائق الآتية:

١ - أن السلطان أبا سالم خرج في حملة عسكرية لاسترجاع تلمسان كما تؤكد النصوص الآتية:

أ - أَوَّلُ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ عَامَ وَاحِدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، تَحَرَّكَ الْحَرَكَةَ الْعُظْمَى إِلَى تِلْمَسَانَ^(٧٥).

ب - يقول ابن خلدون الذي ضبط تاريخ فتح تلمسان: "وَدَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَى تِلْمَسَانَ ثَالِثَ رَجَبٍ"^(٧٦).

٢ - أن تاريخ رسالة الاستشفاع الأولى التي بعثها ابن الخطيب من شالة كانت بتاريخ الحادي عشر من رجب عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة، فيكون بينها وبين فتح تلمسان ثمانية أيام فقط.

٣ - أن نص جواب السلطان أبي سالم على رسالة ابن الخطيب وتجريد بعثة سفارية إلى الأندلس في شأن استخلاص أملاك ابن الخطيب كان بتاريخ الرابع والعشرين من رجب عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة.

٤ - أن تاريخ الانقلاب الثاني في الأندلس الذي أطاح بالأمير يوسف بن إسماعيل المتوثب على أخيه المخلوع اللاجئ بالمغرب، على يد ابن عم أبيه الرأس المدبر للانقلاب الأول، الأمير أبي عبد الله محمد بن إسماعيل المنبوز بـ "البرميخو" كان بتاريخ الثامن من شعبان عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة.

٥ - أن تاريخ وصول خبر فتح تلمسان عن طريق الرسالة التي بعث بها السلطان أبو سالم يخبر بذلك، وانبراء ابن الخطيب إلى الكتابة إلى السلطان مهنتاً بالفتح،

ومتوسلاً في استخلاص أملاكه مرة ثانية كان في تاريخ السابع عشر من شعبان عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة.

خلاصة واستنتاج:

إن استقراء النصوص من أجل ترتيب العلائق بين مضامينها، بناء على قضيتنا المحورية، قضية المطالبة باسترجاع ممتلكات ابن الخطيب، يقتضي الاستنتاجات الآتية:

١ - احتمال عدم علم ابن الخطيب بموعد حركة السلطان أبي سالم إلى تلمسان، وفي هذه الحال إذا كان لا يعلم وبعث برسالته، وتوصل بها السلطان أبو سالم في الموضع الذي تكون قد وصلته فيه سواء في طريقه أو في تلمسان، فيفهم أن قنوات التواصل آنذ كانت موصولة في حركة دائبة، تؤكد على أهمية العلاقات والأحداث.

وهذه نكتة تنبئ عن قيمة الفعل والزمن عند القوم في ذلك الأوان، وخاصة عند أولي الفضل والنهي من ذوي الشأن.

٢ - احتمال علمه بموعد حركته، وإذا كان كذلك فإن بعثه برسالته يؤكد أن الوقائع والأحداث الجسام التي تهم السلطان لم تكن لتعوق عن التواصل لعرض الحاجات، لذلك لم ينتظر ابن الخطيب عودة السلطان؛ لأن الأمر عنده سيان.

وإني إذ أرجح الاحتمال الأول لعدم ورود أية إشارة إلى هذا الفتح سواء في رسالة ابن الخطيب، أو في رسالة الرد من السلطان أبي سالم، لفي أمر مريع، ولبس أكيد. فإذا كان خلو كتاب ابن الخطيب من الإشارة مبرراً، فما هو مبرر خلو كتاب السلطان من الإشارة إلى ذلك؟! اللهم إلا إذا كان السلطان عدّ الرد على ابن الخطيب أمراً خاصاً، والإخبار بالفتح شأنًا عاماً. ولكن إذا كان منطلق رسالة رد السلطان أبي سالم على خطاب ابن الخطيب، ورسالة الأخبار عن الفتح مكاناً واحداً وهو تلمسان، فلماذا تأخر الإخبار عن الفتح، وأسرعت رسالة الرد على الاستشفاع والمسافة ربما كانت واحدة أو متقاربة؟

المخرج الوحيد من هذا اللبس الحرج هو تقدير أن الفتح كان في التاريخ المذكور، وأن استقرار الأمر واستتباب الأمن، ربما تأخر عن ذلك، وهذا يقع في سياسة الدول، والله أعلم.

٣ - أن ابن الخطيب والسلطان أبا سالم حينما جاء خبر الفتح وبعث خطاب التهئة والتوسل، يُحْتَمَلُ أن يكونا على علم بحادث الانقلاب الثاني الذي وقع في الأندلس بتاريخ الثامن من شعبان عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة، كما يحتمل أن لا يكونا على علم بذلك.

جاء نص لابن الخطيب في "نفاضة الجراب" قد يقوي من احتمال عدم العلم، يقول تحت عنوان: "فصل في إدالة الدولة بالأندلس ثانية": "وَلَمْ يَكِدِ الرَّسُولُ يَتَوَسَّطْ سَفَرَهُ، حَتَّى أَظَلَّ مَا كَانَ مِنْ اسْتِلْحَامِ سُلْطَانِ الْأَنْدَلُسِ إِسْمَاعِيلِ ابْنِ الْأَمِيرِ أَبِي الْحَجَّاجِ بْنِ نَصْرِ الْبَاغِي عَلَى أَخِيهِ أَحَانَهُ اللَّهُ" (٧٧).

ولسنا ندري أي رسول يقصد ابن الخطيب هنا؟ أهو رسول شفاعة السلطان أبي سالم إلى الأندلس؟ أم هو رسول الرسالة الثانية إلى السلطان أبي سالم إلى تلمسان كما قدرنا؟

وسواء أكان رسول الشفاعة أم رسول الرسالة الثانية، فالحادث يقتضي التأكيد على مسألة غُلِمَ تَارِيخُهُ أَمْ جُهِلَ، وهذا يؤكد أيضاً تمسك ابن الخطيب بحقه مهما كانت الظروف مستقرة أو مضطربة.

والإلحاح على الإسراع حرص على عدم الفوت، وضياع الحق، وتبدد الأملاك عن طريق الاستخلاص والاستصفاء جرياً على مستقر العادة.

وعلى الرغم من الإلحاح المصير، والسؤال المتكرر، يبدو أن الاستجابة من قبل الأندلسيين أمطلت وربما أعرضت وتخلت، يدل على هذا أنه وحتى غاية العشرين من شهر محرم من عام اثنين وستين وسبعمائة هـ، لم يحصل ابن الخطيب على شيء، وأن المطالبة من سلطان المغرب متواصلة، أكد على هذا أيضاً النص الذي نذكره، قال ابن الخطيب: "وَفِي الْمَوْفَى عَشْرِينَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ [محرم]، حَرَجَ مُوسَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ

اليرنياني من مَشِيخَةِ الْخُدَّامِ، وَمُصْطَفَى الْأَوْدَاءِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ بِهَدِيَّةٍ مِنْ كُرَاعٍ وَآلَةٍ عَلَى سَبِيلِ الْمُلَاطَفَةِ، وَصَدَرَتِ الْمَخَاطَبَةُ فِي شَأْنِي مِنْ بَعْضِ فُصُولِهِ: " فَإِنْ كُنْتُمْ تَبْخُلُونَ بِمَالِهِ فَعَرَّفُونَا بِمِقْدَارِ ثَمَنِهِ، لِيَصِلَهُمْ مِنْ قَبْلِنَا " وَلِلَّهِ أَمْرٌ هُوَ بِالْغَةِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، نَسْأَلُهُ الرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالشُّكْرَ عَلَى السَّلَافِ وَالرَّاهِنِ مِنْ آلَائِهِ " (٧٨).

ويستشف من النص المقاصد الآتية:

- ١ - الاستمرار والإلحاح في الطلب.
- ٢ - اعتماد أسلوب الملاطفة المعتمد على الملاطفة بالمهاداة.
- ٣ - تشديد اللهجة في الخطاب نوعاً ما، وهذا يؤكد على أن الصبر قد نفذ، والسييل قد بلغ الرُّبَى، بسبب تكرار الطلب دون جدوى، دلّ على هذا التشديد التعريض بيخلهم.
- ٤ - التحدي بأداء ثمن الأملاك إن وافوه بقيمتها.
- ٥ - أن الأملاك المطالب بها ربما كانت خاصة لتمسك ابن الخطيب بأعيانها، وإلا كان السلطان أبو سالم كافيه تعويضها عوض أداء ثمنها.
- ٦ - الأمل وعدم اليأس من ابن الخطيب بعد اللأى في المطالبة، يستشف هذا من عبارات التسليم بقضاء الله وقدره.

المقصد الثاني - فشل المهمة، وخيبة الأمل:

ويعود من الأندلس الرسول الذاهب في شأن ابن الخطيب، خالي الوفاض مرة ثانية، الأمر الذي أثار حفيظة ابن الخطيب، وأفقده صوابه، وألهب انفعاله، وأنطقه بهذه المقطوعة، بعد قوله: " وَكَتَبْتُ لَمَّا صَدَرَ الرَّسُولُ مُوسَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَلَمْ تُقْضَ حَاجَتِي:

يَبْتَغِي الْجَبْرَ لِمَهْيُضِ الْكَسِيرِ	يَا بَنِي السَّادَةِ الْكِرَامِ نِدَاءٌ
تِ أَمَا فِي كِلَيْهِمَا مِنْ مُجِيرِ	أَنَا بِالْحَيِّ مُسْتَجِيرٌ وَبِالْمَيِّ
نَ وَلَا فِي عَصَاةٍ مِنْ تَأْثِيرِ	لَيْسَ مُوسَى هَذَا بِصَاحِبِ فِرْعَوُ
صَارِمَ الْحَدِّ مُحْكَمَ التَّدْبِيرِ	فَانْصُرُونِي وَعَيَّنُوا لِي رَسُولًا

أَوْ أَرِيحُوا بِالْيَأْسِ قَلْبِي فَإِنِّي قَدْ تَخَبَّطْتُ فِي عَذَابٍ كَبِيرٍ
والأبيات فضلاً على كونها نفثة حانق، وصرخة غاضب، ربما كشفت عن
الدلالات الآتية:

- ١ - أن استرجاع الحق عامة وحق ابن الخطيب خاصة في مثل هذه الحال، وفي مثل
ذلك الزمان رهين بيد الرجل القوي الشخصية الذي يمتلك القدرة على التأثير
حساً ومعنى، وابن الخطيب يعني ويعقل ما يقول، وهو الدبلوماسي المحنك،
وقد جرب مثل هذه المواقف، وفاز بمطالبه^(٧٩)، ووافق النجاح سعيه.
- ٢ - أن ابن الخطيب وإلى حد ساعة نظم هذه الأبيات، مازال يطالب بحقه، ويلح في
اختيار رجل آخر ينطوي على كفاءات قوية تمكنه من التأثير على القصر
الأندلسي، ويجعله ينصاع للوفاء بالمطلب.
- ٣ - أن الأمر الذي أمد عمر الأمل لدى ابن الخطيب هي وعود القصر المريني
المتكررة، ويبدو أن المسألة، أصبحت شأناً سياسياً مهماً لدى الدولة، لصلته
بالعلاقات الدبلوماسية والسياسية وغيرها، وهي أمور تحرص عليها الدول.
- ٤ - إرادة ابن الخطيب حسم القضية، وإنهاء الموضوع، في أسرع وقت ممكن، إما
بتعيين القوي الأمين، وإما بجعله من الآيسين؛ لأن الأمر شغب فكره، وعذب
قلبه، وهو الحريص في هذا الظرف على جمع هممه، وصرف عزمه إلى إصلاح
شأنه.

وينبغي ألا يظن بأن بابن الخطيب الفاقة والحاجة في هذه الآونة، فقد أكدت
النصوص والقرائن الكثيرة أنه كان من العيش في سعة ورغد، فما قصر السلطان أبو
سالم في الاحتفاء به والاعتناء به، وكذلك الأعيان من ذوي الجاه والثراء.
وقد أشرت سابقاً إلى نص أكد ذلك، فضلاً على ما جلبته له الرحلة المراكشية
من نعم.

جاء في الإحاطة عقب ذكره لظهير السلطان أبي سالم المؤذن له بالرحلة قول
ابن الخطيب: "وَجَرَ هَذَا الْإِنْعَامُ دُنْيَا عَرِيضَةً، تَفْتَقْتُ فِيهَا الْمَوَاهِبَ، وَوَضَحْتُ مِنْ
اشْتِهَارِهَا الْمَذَاهِبَ، شَكَرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَوَالَى عَلَى تُرْبَتِهِ رَحْمَتَهُ" (٨٠).

كما أكد هذا قوله مخاطباً بعد ذكر المناسبة: " وَقُلْتُ عَقَبَ الْإِيَابِ مِنَ الرَّحْلَةِ الْمُرَاكُشِيَّةِ:

أَفَادَتْ وَجْهَتِي بِنَدَاكَ مَالاً قَضَى دَيْنِي وَأَصْلَحَ بَعْضَ حَالِي
وَمَتَّعَتِ الْخَوَاطِرَ بِإِنْشِرَاحٍ وَأَطْرَفَتِ النَّوَاطِرَ بِإِحْتِحَالِ
وَأُبْتُ خَفِيفَ ظَهْرٍ وَالْمَطَايَا بِجَاهِكَ تَشْتَكِي ثَقْلَ الرَّحَالِ^(٨١)

ولقد تأكدت هذه العناية من قبل القصر المريني حتى في اشتداد الأهوال، واضطراب الأحوال، وتعاقب الملوك والأقيال، لما عرفوا لابن الخطيب من حق وفضل، كما سيعرف لاحقاً أيضاً.

المطلب الخامس وفاة زوجته

من الأحداث الجليلة والمصائب العظيمة التي طرقت حياة ابن الخطيب فجأة في ديار الغربة، وهو الذي لم يهدأ قراره، ولم يصف كدره، مباغته الحمام زوجه، واختطاف المنية إلفه، وقد عبر ابن الخطيب عن حزنه الشديد لذلك في هذا النص البليغ، قال: " وَفِي السَّادِسِ لِدِي قَعْدَةٍ مِنْ عَامِ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةِ الْمَذْكُورِ، طَرَفَنِي مَا كَدَّرَ شُرْبِي، وَنَغَصَ عَيْشِي مِنْ وَفَاةِ أُمِّ الْوَلَدِ عَنْ أَصَاغِرِ رُغْبِ الْحَوَاصِلِ بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فِي بَلَدِ الْغُرْبَةِ، وَتَحْتَ سُرَادِقِ الْوَحْشَةِ، وَدُونَ أَذْيَالِ النُّكْبَةِ، فَجَلَّتْ عَلَيْهَا حَسْرَتِي، وَاشْتَدَّ جَزَعِي، وَأَشْفَيْتُ لِعَظَمِ حُزْنِي، إِذْ كَانَتْ وَاحِدَةً نِسَاءِ زَمَانِهَا جَزَالَةً وَصَبْرًا، وَمَكَارِمَ أَخْلَاقٍ، حَازَتْ بِذَلِكَ مَزِيَّةَ الشُّهُرَةِ حَيْثُ حَلَّتْ مِنَ الْقَطْرَيْنِ، فَدَفَنْتُهَا بِالْبُسْتَانِ الْمُتَّصِلِ بِالْأَرْبَعِ بِمَدِينَةِ سَلَا، وَوَقَّفْتُ عَلَى قَبْرِهَا الْحَبْسِ الْمُغْلِّ لِمَتَوَلَّى الْقِرَاءَةَ دَائِمًا عَلَيْهَا، وَصَدَرَ عَنِّي مِمَّا كُتِبَ عَلَى ضَرْيَحِهَا وَقَدْ أَعْرَى بِهِ التَّنْوِيهِ وَالْإِحْتِفَالُ:

زُوعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِي وَسَامَنِي التَّحُلُّ بَعْدَ إِقْبَالِ
ذَخِيرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِي وَعُدَّتِي فِي اشْتِدَادِ أَهْوَالِ
حَفَرْتُ فِي دَارِي الضَّرِيحَ لَهَا تَعَلُّلاً بِالْمُحَالِ فِي الْحَالِ

وَعَبْطَةُ تُوهِمُ الْمَقَامَ مَعِيَ
تَسْقَى الْحَيَا قَبْرَكَ الْغَرِيبَ وَلَا
قَدْ كُنْتُ مَالِي لِمَا اقْتَضَى زَمَنِي
أَنَا وَقَدْ غَابَ فِي تُرَابٍ سَلَا
وَاللَّهِ حُزْنِي لَا كَانَ بَعْدَ عَلَيَّ
فَأَنْظُرِينَي فَالشَّوْقُ يُقْلِقُنِي
وَمَهْدِي لِي لَدَيْكَ مَضْطَجَعَا
وَاسْمُكَ مَقْلُوبُهُ يُبَيِّنُ لِي

وَكَيْفَ لِي بَعْدَهَا بِإِمْهَالٍ
زَالَ مُنَاخًا لِكُلِّ هَطَّالٍ
ذَهَابَ مَالِي وَكُنْتُ أَمَالِي
وَجْهَكَ عَنِّي فَلَسْتُ بِالسَّالِي
ذَاكَ الشَّبَابِ الْجَدِيدِ بِالسَّالِي
وَيَقْتَضِي سُرْعَتِي وَإِعْجَالِي
فَعَنْ قَرِيبٍ يُكُونُ تَرْحَالِي
مَالُ أَمْرِي فِي مَعْرِضِ الْفَالِ" (٨٢)

والنص بشعره يشي بالمعاني الآتية:

- ١ - عمق الحزن الذي أحدثته وفاة زوجه.
- ٢ - أنها توفيت شابة في مقتبل العمر، دون سن الأربعين، تم تقديري لهذا من خلال معرفتي أن عبد الله ابنها البكر حينما توفيت كان يبلغ من العمر تسع عشرة سنة.
- ٣ - أنها توفيت عن أطفال صغار بين ذكور وإناث، هم في أمس الحاجة إلى وجودها.
- ٤ - أنها كانت امرأة فاضلة شهد لها زوجها بالحزم والصبر والخلق.
- ٥ - أنها كانت من النساء الشهيرات بالفضل في كل من المغرب والأندلس.
- ٦ - أن ابن الخطيب أقبرها في حديقة منزله بسلا حرصاً على الدنو والقرب حتى في حال الفراق والبين.
- ٧ - أنه وقف على قبرها حبساً مغلاً لمن يتولى قراءة القرآن على قبرها والدعاء لها آناء الليل وأطراف النهار.
- ٨ - دل البيت الأول والأخير على أنها كانت تدعى "إقبال".

المطلب السادس اضطراب المغرب وموقع ابن الخطيب

المقصد الأول - انقلابات متعاقبة:

مرَّ المغرب في فُجاءه بظروف صعبة قلقة، تعاقب على عرشه أكثر من سلطان، بسبب سوء التدبير، واستبداد الوزراء، نشير إلى ذلك من خلال النقاط التالية:

الانقلاب على السلطان أبي سالم في العشرين من شهر ذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة هـ^(٨٣). بفعل الثورة التي دبرها عليه الوزير عمر بن عبد الله بن علي.

تنصيب ملك ضعيف الشخصية ينزب بـ "الموسوس" في التاريخ المذكور، وأمام استئناس الناس هذا الأمر، وتطلع أمراء مرينيين آخرين إلى الملك، خلع هذا الوزير المذكور سلطانه المضعف، يوم الاثنين الواحد والعشرين من صفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة هـ^(٨٤)، فلم يعمر في الملك إلا ثلاثة أشهر ويوماً أو يومين.

استقدام الأمير أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن يعقوب بن أبي الحسن، الذي كان لاجئاً في مملكة قشتالة، خوفاً على نفسه، وتنصيبه سلطاناً على عرش المغرب في التاريخ المذكور.

استقدام أبي حمو سلطان تلمسان من بني عبد الواد، الأعداء التقليديين للأداء للقصر المريني من الأندلس بإيعاز من سلطان الأندلس "البرميخو"، أمراء مرينيين كانوا لاجئين عنده، يشغب بهم على ذوي الاستبداد في القرار، واختار منهم الأمير عبد الحليم بن أبي علي أخي السلطان أبي الحسن.

خلاصة:

كان لهذه الإجراءات المتهافئة، والاضطرابات المتعاقبة، آثار وخيمة على مدينة سلا، مستقر ابن الخطيب، من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية، حيث وقعت مدة

وجيزة تحت يد طائفة من أنصار الأمير عبد الحليم المدعوم من قبل أمير تلمسان، فساءت فيها الحال بسبب النهب وما استتبعه من فعال^(٨٥).

أما ابن الخطيب اللبيب، فعلى الرغم من هذه الأحداث المضطربة، فقد كان يقصها عن جنب، ويلحظها عن كثب، وحينما تصرف حيالها تصرف بالحكمة السياسية التي مَحَّصَتها التجربة، وحنكتها الدربة، فكان يلبس لكل حال لبوسه، وينتقي لكل بأس سلاحه.

دلَّ على هذا المواقف التي نذكرها في الصفحات الآتية:

المقصد الثاني - ابن الخطيب على عهد السلطان أبي تاشفين:

نصب هذا الأمير كما هو معلوم ليلة العشرين من شهر ذي القعدة عام اثنين وستين وسبعمائة للهجرة، وفي اليوم الثاني من شهر ذي الحجة من السنة المذكورة أي بعد اثني عشر يوماً، قدم ابن الخطيب على القصر، باستدعاء الوزير عمر بن عبد الله، ولاشك في أن هذا القدوم كان من أجل تقديم البيعة والولاء كما جرت العادة، ولقي ابن الخطيب في هذا المجلس من الحفاوة والكرامة ما هو أهله، نصَّ على ذلك قول ابن الخطيب: "وَكَاُنْتُ قَدْ سَبَقْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ [الوزير عمر بن عبد الله بن علي] مُدَاخَلَةً أَكْدَاهَا وَصُولُهُ إِلَى مُنْتَبَذِي مِنْ مَدِينَةِ "سلا" فِي بَعْضِ وَجْهَاتِ الْخِدْمَةِ، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ اسْتِدْعَائِي ثَانِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنَ الْعَامِ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةَ، فَأَعْمَلَ الْخَطِيءَ، وَصَارَ قَنِي الْمُعَاطَفَةَ، وَأَنْزَلَنِي بَيْتَ أَهْلِهِ، وَمَهَّدَ لِي فِرَاشَ نَوْمَتِهِ، وَاسْتَدْعَى نُصْحِي فِي كَثِيرٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنْشَدَنِي شِعْراً بِغَرَضِي فِي سُرْعَةِ التَّحَوُّلِ، وَتَيْسِيرِ الْإِنْصِرَافِ" ^(٨٦).

من المعلوم أنه لما قتل السلطان أبو سالم، لم يعد للخطيب أبي عبد الله بن مرزوق صديق ابن الخطيب، وسنده الذي سلفت له منه أياديهِ أية سلطة أمام استبداد الوزير عمر بن عبد الله.

والنص يشي بالمعاني التالية:

١ - أن معرفة بينهما كانت سابقة.

- ٢ - أن هذه المعرفة تأكدت في منتبذه من "سلا" إثر زيارة عمل قام بها الوزير، وهذا يعني أن ابن الخطيب لم يرحل إلى فاس.
- ٣ - أن لقاء آخر تم بينهما في فاس بناء على استدعاء هذا الوزير لابن الخطيب.
- ٤ - أن استقبال هذا الوزير لابن الخطيب والاحتفاء به كان خاصاً ومتميزاً.
- ٥ - أنه استشار ابن الخطيب واستنصحه في كثير من القضايا السياسية باعتباره مظنة في ذلك.

- ٦ - أنه أنشده شعراً يمتدحه من خلاله على عاداته، وقد مدح من هو دونه.
- ٧ - تقريره أن غرضه من وراء مدحه، هو الاعتذار على تعجيل الانصراف عنه، وقد أكد هذا البيت الآتي من القصيدة:
- ٨ - فَقَرَّرَ حَالَتِي مِنْ غَيْرِ لَبِثٍ هَنَاءٌ وَاخْتِرَامًا وَأَنْطِلَاقًا
وهذه الأمور تؤكد أيضاً على المعاني الآتية:

- أ - درجة من الكبرياء والاعتداد، لا المداينة والاستخاء، لكن في تواضع وأدب.
- ب - فضله ومكانته كشخصية انطوت على كثير من خلال المؤثرة.
- ت - التأكيد على حنكته السياسية، باعتباره رجلاً رضع لبانها، وحلب أشطارها، فهو في مقام المستشار أو الخبير بلغة العصر.
- ولقد استمرت عناية الدولة المرينية بابن الخطيب من خلال حفظ حقوقه، بأداء الدولة المرينية واجباتها تجاهه على الرغم من اضطراب الأجواء، وتعاقب الملوك والأمراء.

فهذا السلطان الموسوس أبو عمر تاشفين المضعف الذي كان أمره لأمر الوزير عمر بن عبد الله حاجبه، على الرغم من لبثه القليل الذي لم يتجاوز ثلاثة أشهر، أكد على وصلة ابن الخطيب، وإيفاء بحظه الرغيب حفظاً للرسم، ووفاء بالقسم.

ومن الرغائب التي سألها ابن الخطيب من هذا السلطان الجديد المضعف المحجور عليه، تطفه إليه بأن يهب له جارية رومية، تملأ عليه الفراغ الذي أحدثته حادث وفاة زوجته أم أولاده، الذي كان بتاريخ السادس من ذي القعدة من العام.

وهذا يعني أن بين تاريخ وفاة زوجته وتاريخ طلب الجارية الرومية ثمانية وعشرين يوماً فقط.

قال ابن الخطيب: "وَتَلَطَّفْتُ إِلَى سُلْطَانِهِ [الْضَمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْوَزِيرِ] فِي طَلَبِ جَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ مِمَّنْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِنَّ قَصْرُهُ" (٨٧).

وكان التلطف بالطلب من خلال هذه الأبيات:

قَصَدْتُ إِلَى الْمُؤَلَى أَبِي عُمَرَ الرُّضَا	عَدْتُ بِالَّذِي يَرْضَى الْمَشِيئَةَ جَارِيَهُ
وَطُوفَانُ هَمِّي قَدْ طَغَى لِيُجِيرَنِي	وَتُرْكِبَنِي آلاؤُهُ فَوْقَ جَارِيَهُ
وَإِنِّي لَرَا ضٍ بِالَّذِي يَرْتَضِيهِ لِي	وَلَوْ عَبَدْتُ أَبَاؤَهَا شَنْتُ مَارِيَهُ
وَإِنَّ ظُنُونِي فِي الْإِمَامِ وَفَضْلِهِ	مُحَقَّقَةٌ وَاللَّهِ لَا مُتَمَارِيَهُ
فَفَارَ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ	وَأُمُّ الَّذِي يَهْوَى لَهُ الشَّرُّ هَاوِيَهُ (٨٨).

والبيت الثاني الذي يبين عن مدى الهم الذي كان يعتري ابن الخطيب في هذه الآونة، وقد فقد زوجته.

وكأنه أراد بهذه الجارية سلواً وعزاء ينسيه همه، ويملاً عليه وحدته، ويؤنسه في غربته.

واختيار ابن الخطيب للجارية، التي هي أقل شأنًا من الحرة، في هذا الأسلوب الشعري الساخر المهون من قدرها، الزاهد في اصطفاء نوعها، واختيار صنفها تأكيد على داعي الحاجة والضرورة لا الالتذاز والمتعة، خاصة إذا علمنا أن جميع القرائن تؤكد أن ابن الخطيب لم يتزوج على أم أولاده البتة باستثناء اتخاذه هذه الجارية.

كما أكد نص آخر على عظمة الاحتفاء بابن الخطيب والتنويه به، من خلال هذه الزيادة، يقول: "فَلَمْ يَدْعُ غَايَةَ فَضْلٍ إِلَّا بَلَغَهَا - وَلَا ثَنِيَّةَ وَفَاءٍ - إِلَّا طَلَعَهَا، فَنَوَّهَ فِي الْمَلَأَ الْمَشْهُودِ الْجُلُوسَةِ، وَخَصَّنِي بِالْأَفْرَادِ مَعَ أَمِيرِهِ وَالْخُلُوةِ، وَاقْتَضَى مِنْهُ مُلُوكِيَّ الْخُلَعَةِ، وَوَأْفَرَ الْعَطِيَّةِ. وَجَدَّدَ الصُّكُوكَ، وَضَاعَفَ الْعِنَايَةَ، وَأَلْحَقَ الْوَلَدَ وَالْقَرَابَةَ، وَحَرَّرَ مِنَ الْمَغَارِمِ الْغَلَّةَ" (٨٩).

والنص ينطوي على المعاني الآتية:

- أ - بلوغ الغاية القصوى في التنويه والإجلال.
- ب - إثارة بالانفراد مع السلطان الجديد والاختلاء به.
- ت - إثارة بالخلعة الملوكية ووافر العطية.
- ث - تجديد ظواهر العناية المؤكدة على وافر الجراية
- ج - إلحاق الولد والقرابة.
- ح - تحرير ممتلكاته في "سلا" من الضرائب والمكوس.

المطلب السابع

ابن الخطيب على عهد أبي زيان

تجددت لابن الخطيب الآلاء على عهد السلطان أبي زيان أيضاً، إذ لم يتأثر وضعه، ولم يتزلزل موقعه، ولحسن الحظ، حفظ لنا ابن الخطيب الظهير الذي أصدره في حقه هذا السلطان يفصل آيات الفضل، وسوابغ النعم الجزيلة.

ونص الظهير يكشف في حقيقة الأمر مقدار الجراية التي كانت الدولة المرينية تجريها على ابن الخطيب منذ أن نزل بأرضها، واستظل بظلها، لأن هذا الظهير نص على لفظ "التجديد".

وهذا نص الظهير مختصراً: "هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ نَظَمَ الْعَنَايَةَ وَوَصَلَهَا، وَأَجْمَلَ الرِّعَايَةَ وَفَصَّلَهَا... للشيخ الفقيه الأجل... العالم العَلَم... الرئيس الأعرف... المتقن الأبرع، المصنّف المفيد، الصدر الأخفّل، الأفضّل الأكمل أبي عبد الله... مُحَمَّد بن الخطيب... وَأَمَرَ فِي جُمْلَةٍ مَا سُوِّغَ مِنَ الْآلَاءِ الْوَارِفَةِ الظَّلَالِ... بِأَنْ يُجَدِّدَ لَهُ حُكْمَ مَا بِيَدِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَقَدِّمِ تَارِيخُهَا، الْمُتَضَمِّنَةِ تَمْشِيَةِ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ الْعَشْرِيَّةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ، عَنْ مُرْتَبٍ لَهُ وَلَوْلَدِهِ الَّذِي لِنَظَرِهِ، مِنْ مُجَبَى مَدِينَةِ "سلا" حَرَسَهَا اللَّهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ، مِنْ حَيْثُ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَتَمَشَّى لَهُ، وَرَفَعَ الْاِعْتِرَاضِ بِبَابِهَا فِيمَا يُجْلَبُ مِنَ الْأُدْمِ وَالْأَقْوَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، مِنْ حَيَوَانٍ وَسَوَاهُ، وَفِيمَا يَسْتَفِيدُهُ خُدَامُهُ بِخَارِجِهَا

وَأَحْوَازِهَا مِنْ عَنَبٍ وَقُطْنٍ وَكَتَّانٍ، وَفَاكِهَةٍ وَخَضِرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا يُطَلَّبُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِمَغْرَمٍ وَلَا وَظِيفٍ، وَلَا يُتَوَجَّهُ فِيهِ إِلَيْهِ بِتَكْلِيفٍ، يَتَّصِلُ لَهُ حُكْمٌ مَا ذُكِرَ فِي كُلِّ عَامٍ تَجْدِيدًا تَامًّا، وَاحْتِرَامًا عَامًّا.

أُغْلِنُ بِتَجْدِيدِ الْخُطُوبَةِ وَاتِّصَالِهَا، وَاتِّمَامِ النِّعْمَةِ وَإِكْمَالِهَا مِنْ تَوَارِيخِ الْأَوَامِرِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى الْآنَ، وَمِنَ الْآنَ إِلَى مَا يَأْتِي عَلَى الدَّوَامِ، وَاتِّصَالِ الْأَيَّامِ.

وَأَنْ يُحْمَلَ جَانِبُهُ فِيمَنْ يُشْرِكُهُ أَوْ يَخْدُمُهُ مَحْمَلِ الرَّغْيِ، وَالْمَحَاشَاةِ مِنَ السُّخْرَةِ مَتَى عَرَضَتْهُ، وَالْوِظَائِفِ إِذَا افْتَرَضَتْ، حَتَّى يَتَّصِلَ لَهُ تَالِدُ الْعِنَايَةِ بِالطَّارِفِ... وَتُحَرَّرَ لَهُ الْأَزْوَاجُ الَّتِي حَرَّتْهَا، تَبَالُغَتْ مِنْ كُلِّ وَجِيبَةٍ، وَتُحَاشَى مِنْ كُلِّ مَغْرَمٍ أَوْ ضَرِيبَةٍ بِالتَّخْرِيرِ التَّامِّ... وَمَنْ وَقَفَ عَلَى هَذَا الظَّهِيرِ الْكَرِيمِ، فَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ، وَلْيُمْضِ مَا أَمُضَاهُ...

وَكُتِبَ فِي الْعَاشِرِ لَشَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ عَامِ ثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ^(٩٠).

خلاصة:

رغم إشارة ابن خلدون في النص المذكور آنفاً وهو قوله: "... وَأَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ عَلَى رَوْيِّ الرِّاءِ يَرْثِيهِ وَيَسْتَجِيرُ بِهِ فِي اسْتِرْجَاعِ ضَيَاعِهِ... فَكَتَبَ السُّلْطَانُ أَبُو سَالِمٍ فِي ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِالشَّفَاعَةِ، فَشَفَعُوهُ"^(٩١).

وعلى الرغم من تتبعنا لنصوص الرسائل السلطانية، وغيرها، لم نقف على نص صريح وواضح يؤكد كلام ابن خلدون، وأعتقد أنه غير صحيح وغير موثوق به للتقديرات الآتية، والله أعلم:

١ - هلاك السلطان أبي سالم في التاريخ المذكور وما أعقبه من اضطرابات وفتنة كما ألعنا.

٢ - صمت ابن الخطيب عن هذا، وهو الذي كان حريصاً ومتابعاً للأمر منذ أن وطئت قدماه أرض المغرب.

٣ - الجراية الوفيرة التي كان القصر المريني ملتزماً بها تجاه ابن الخطيب والتي أكدها نص الظهير المذكور أعلاه.

٤ - نص رسالة السلطان محمد الغني بالله التي بعثها لابن الخطيب عقب استرجاع ملكه^(٩٢) مباشرة، وكان لسان الدين بن الخطيب ما زال مقيماً بسلا يخبره بتفاصيل استنقاذ ملكه، حيث أدرج له فيها قوله: "نَحْنُ نَعْرِفُكُمْ - أَعَزَّكُمْ اللَّهُ - أَنَّنَا بِمَا عِنْدَنَا مِنَ الْاِغْتِدَادِ بِوُدِّكُمْ، وَالْحِفْظِ لِكَرَمِ عَهْدِكُمْ، لَمَّا حَلَلْنَا مَقْعَدَ مُلْكِنَا، وَانْتَضَمْتُ بِلَادُنَا النَّصْرِيَّةِ فِي سِلْكِنَا، أَمَرْنَا لِلْحَيْنِ بِضَمِّ مَا يُعْلَمُ لِجَنَابِكُمُ الْمُعْظَمِ بِالْحَضْرَةِ وَسِوَاهَا مِنَ الْأُمْلَاكِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَشَتَّى أَصْنَافِهَا، وَاسْتَحْضَرْنَا مَفَاتِيحَ الدُّورِ مِنْهَا، فَدَفَعْتُ لِصَهْرِكُمُ الْوَزِيرِ الْحَاجِّ الْمُعْظَمِ أَبِي الْحَسَنِ أَعَزَّهُ اللَّهُ لِيَنْتَظَرَ مَنْ يَتَوَلَّى مُبَاشَرَةَ الْحَالِ فِيهَا عَنْكُمْ^(٩٣)."

المقصد الأول - الوفادة على السلطان وحفاوة اللقاء:

من المعلوم كما سبقت الإشارة أن تاريخ تنصيب السلطان أبي زيان كان يوم الاثنين الحادي والعشرين أو الرابع والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

وبعد شهر أو أقل انطلق ابن الخطيب من سلا إلى فاس لمباشرة السلطان الجديد، وتقديم البيعة، وعرض آيات الولاء والوفاء، قال ابن الخطيب: "وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ [شهر ربيع الأول]، كَانَ التَّوَجُّهُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسِ حَرَسَهَا اللَّهُ لِأَدَاءِ حَقِّ الدَّوْلَةِ الدَّائِلَةِ، وَاللَّهْجِ بِالْوَفَاءِ بِعُقْدَتِهَا، وَالْمُدَافَعَةِ عَنْ دَعْوَتِهَا، وَإِيصَالِ صَكِّ بَيْعَتِهَا^(٩٤)."

والنص يكشف عن معنى «بروتوكول» طريف، ربما كان رسماً مستقراً، وعادة مستمرة، ونعني به كتاب البيعة، الذي تولى ابن الخطيب إيصاله بيده إلى حضرة السلطان، ولعل هذا الأمر كان ملزماً لكل الأعلام الذين تحتضنهم الدولة.

ولم يفت ابن الخطيب المؤرخ المدقق أن يسجل تاريخ الوصول إلى فاس، حيث قال: "وَكَانَ نَحْوُ الْبَلَدِ الْجَدِيدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمُوقَى ثَلَاثِينَ لَشَهْرٍ تَأْرِيخِهِ"^(٩٥).

فيكون السفر بناء على هذا قد استغرق ستة أيام، وهي مدة طويلة نسبياً، أبان ابن الخطيب عن أسبابها الخارجة عن الإرادة، من خلال قوله يصف مسلكه: "...فَأَقْتَحَمْنَا وَقَدْ طَالَ الْبُعْدُ سُلُوكَهَا... وَلَقِينَا مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ نَصَبًا لِإِغْرَاقِ الْمَطَرِ، وَأَنْسِكَابِ الْغَيْمِ، وَقَدْ أَزِنَ اللَّهُ فِي أَنْجَالِ نَسِيجِ الْغَمَامِ، فَسَمَحَتِ السَّنَةُ مِنْهُ بِمَا بَخَلْتُ مُرْضَخَةً مُطْفَفَةً" (٩٦).

كان الموعد المضروب للقاء السلطان ومن جمع قصره ليلة يوم الوصول، وكان يوماً مشهوداً كشف ابن الخطيب عن مظاهر ذلك من خلال قوله: "وَكَانَ دُخُولُ الْبَلَدِ الْجَدِيدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمُوفِي ثَلَاثِينَ لِشَهْرِ تَأْرِيخِهِ، وَالْآتِصَالُ لَيْلَتَيْنِ بِالسُّلْطَانِ، وَعِشْيَانُ خُلُوةٍ لَدَيْهِ، فِي بَحْبُوحَةِ قَصْرِهِ، وَعَلَى أَرِيكَةٍ تَبَذُّلِهِ، وَالْمَبِيتُ بِبَعْضِ حُجْرِهِ، وَالطَّعَامُ مِنْ خَاصِّ خَوَانِهِ، وَالْإِصَابَةُ مِنْهُ بِاخْتِيَارِهِ وَتَغْيِينِهِ، الْمَوَاكِلَةُ مِنْ وَزِيرِهِ" (٩٧).

والنص يكشف عن آيات الاحتراف والإكرام لابن الخطيب، وهي آيات تدل على مكانة ابن الخطيب وفضله، فقد أُوثر بالاختصاص، الذي لا اختصاص فوقه، وبالقرب الذي لا قرب بعده.

المقصد الثاني - صك الوفاء ونشيد الولاء:

في اليوم الموالي قدم ابن الخطيب صك الولاء، وكتاب الوفاء أمام الملأ الذي يجمع خاصة رجال الدولة، وخلاصة أعوان الإيالة، وكان الصك بطبيعة الحال عبارة عن قصيدة شعرية من عيون نظمته.

قال ابن الخطيب مقررًا هذه الحقيقة: "وَمِنْ الْغَدِ أَنْشَدْتُهُ، وَقَدْ قَعَدَ لِلْخَاصَّةِ بِمَجْلِسِ سَلَفِهِ، مُنَوَّهَ الْإِنْشَادِ بِالْإِطْرَاءِ وَالْإِسْتِعَادَةِ، مُرْفَهَا فِيهِ عَنِ الْقَوْمِ، قَرِيبَ الْجُلُوسَةِ" (٩٨).

وهذا النص يكشف فضلاً عما ذكر المعاني الآتية:

- ١ - أن ابن الخطيب حظي بتنويه خاص عند الإنشاد تمثل في الإطراء والتبجيل، وكذلك طلب إعادة الأبيات التي يحسن موقعها في النفوس.

٢ - أنه حظي بامتياز خاص أيضا حينما أُوثر بالجلوس حال الإنشاد، وقد كانت العادة أن يقوم الشاعر المنشد، وهذا غاية في التقدير والاحترام.

٣ - أنه حظي بالموقع القريب، من حضرة السلطان عند جلوسه للإنشاد.

أما القصيدة فكان مطلعها:

لِمَنْ عَلِمَ فِي هَضْبَةِ الْمُلْكِ خَفَاقُ أَفَاقَتْ بِهِ مِنْ غَشِيَةِ الْهَرَجِ آفَاقُ
وتتألف القصيدة من ستين بيتاً.

وقد عرّض ابن الخطيب بحاله من خلال بعض أبياتها كعاداته، منها قوله باكياً شاكياً:

أَمْوَلَايَ رَاعَ الدَّهْرُ سِرْبِي وَغَالَنِي فَطَرَفِي مَذْعُورٌ وَقَلْبِي خَفَاقُ
وَلَيْسَ لِكَسْرِي غَيْرُكَ الْيَوْمَ جَابِرُ وَلَا لِيَدِي إِلَّا بِمَجْدِكَ إِغْلَاقُ
وَقَدْ عِيلَ صَبْرِي فِي ارْتِقَابِ خَلِيفَةٍ تَحَلُّ بِهِ لِلضَّرِّ عَنِّي أَوْهَاقُ
وَأَهْوَنُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ شَفَاعَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَزْمٌ حَثِيثٌ وَإِزْهَاقُ

والأبيات تقرر طلب ابن الخطيب، وإلحاحه على السلطان الجديد باتخاذ المبادرة الجادة والصارمة في التدخل والتوسط بالشفاعة، أو أكبر منها إذا اقتضى الحال، من أجل استخلاص أملاكه التي سلبت منه ظلماً وعدواناً.

وهذا يؤكد أن مبادرة السلطان السابق كانت فاشلة، كما يؤكد أن ابن الخطيب إلى يومئذ لم ييأس من المطالبة بحقه.

كما أنشد ابن الخطيب وزيره عمر بن عبد الله المستبد عليه قصيدة مدحه فيها، وأشاد فيها بفضله، وقد أبان ابن الخطيب دواعي ذلك من خلال قوله: "وَأَنْشَدْتُ وَزِيرَهُ الْغَالِبَ عَلَى أَمْرِهِ، عمر بن عبد الله بن علي، وَقَدْ تَقَرَّرْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الصَّدَاقَةُ قَبْلَ الْأَمْرِ، وَطَالَ تَرُدُّدُهُ إِلَيَّ سَلًا" (٩٩).

فالنص يكشف إذاً عن داعيين اثنين كانا من وراء مدحه هما:

١ - تقرر الصداقة والمحبة بين ابن الخطيب وهذا الوزير قبل اللقاء.

٢ - تردد هذا الوزير على سلا، وكان ذلك سببا لتعميق أواصر التعارف.

المقصد الثالث - عرض الوظيفة وإبائته:

بالإضافة إلى العروض الكبيرة التي قدمت لابن الخطيب احتفاء به واعترافاً بفضلته، يتردد القصر المريني في عرض وظيفة الخدمة عليه إلا أنه امتنع معتذراً أحسن الاعتذار، فقبل منه.

يقول ابن الخطيب: "وَشَرَعْتُ فِي الْقُفُولِ بَعْدَ أَنْ تُشَوِّفَ إِلَى انْتِقَالِي لِخِدْمَةِ الْبَابِ السُّلْطَانِي مَطْمَعًا فِي أَقْصَى مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ وَسَائِلُ الْأَقْلَامِ، وَوَقَعَ الْعُذْرُ وَالتَّمَلُّقُ فِي الْإِعْفَاءِ، وَتَدْقِيقِ الْأَعْذَارِ، وَمُخْتَلِفِ التَّعَلُّلِ، مَا سَهَّلَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَمَلُ وَهَذَا الصَّدْرُ، لَا أَخْذَمُنَا غَيْرُهُ، وَلَا أَعْدَمُنَا سِرُّهُ، وَحَلَّ عَنْ أَغْنَاقِنَا رِبْقَ الْمَلَكَاتِ، وَنَكَبَ بِنَا عَنْ مَهَاوِي الْهُلْكََةِ بِفَضْلِهِ" (١٠٠).

والنص يتضمن عبارة مشكلة من الناحية التاريخية، تحتاج إلى تحقيق، ونعني بها قوله: "وشرعت في القفول بعد أن... إلخ" والقفول يعني: الرجوع والعودة، والقرائن البينة لا تعين على الترجيح، إذ القفول يحتمل أن يكون إلى سلا، وقد انتهت مراسيم الاحتفال، ويحتمل أن يكون إلى فاس.

والذي أطمئن إليه أن القفول كان من سلا إلى فاس، وهذا يعني أن ابن الخطيب كان قد رجع إلى سلا بعد أن قدم بيعة الولاء، ثم عاد ثانية إلى فاس لأسباب سأذكرها:

١ - من المعروف أن تاريخ وصول ابن الخطيب إلى القصر لأداء الحق هو يوم الجمعة ٣٠ ربيع الأول سنة ٧٦٣هـ، وأن تاريخ إصدار ظهير الالتزام بالجراية هو ١٠ ربيع الثاني ٧٦٣هـ، وأن تاريخ الرحلة إلى مراكش انطلاقاً من فاس كانت يوم السبت ٢٣ ربيع الثاني ٧٦٣هـ. وهذه تواريخ متقاربة كما نرى، فلا يعقل أن يتأخر صدور الظهير المؤذن بالرحلة ستة أيام مع افتراض أن ابن الخطيب كان مقيماً كل هذه المدة في القصر المريني منوهاً به،

هذا ما لا ينسجم مع العوائد والمراسيم، كذلك الأمر بالنسبة لظهير الالتزام بالجراية التي تأخرت عن المذكور بأربعة أيام.

٢ - أن النص الذي كشف عن عرض الخدمة السلطانية ينص على ما لا يدع مجالا للشك على: "تشوف [السلطان] إلى الانتقال لخدمة الباب السلطاني"، ولا يعقل أن يتشوق إلى ذلك قبل الانتقال إلى تقديم صك البيعة وآيات الولاء، الأمر الذي يفترض فاصلاً زمنياً، يستوعب أكثر من لقاء، ويسوغ عرض الخدمة من الناحية السياسية، والإدارية، خاصة إذا اعتبرنا المدة الزمنية التي كانت ما بين قدوم ابن الخطيب لأداء حق الدولة، وتاريخ الانطلاق في الرحلة المراكشية الثانية من فاس، وهي ثلاثة وعشرون يوماً، وخاصة إذا اعتبرنا أيضاً المدة التي كانت ما بين تاريخ قدوم ابن الخطيب على السلطان، والتاريخين المتباعدين لظهيري الإذن بالرحلة والالتزام بالجراية، وقد استغرق ذلك عشرة أيام.

هذا التفاوت في التواريخ، وهذه المدة الطويلة نسبياً تجعلنا نقدر الاحتمالات الآتية:

أ - إما أن يكون ابن الخطيب قد عاد إلى "سلا"، مباشرة عقب أدائه حق الدولة.
ب - وإما أن يكون قد استدعي من سلا إلى فاس من قبل السلطان ووزيره لعرض الوظيفة عليه.

ت - أنه ربما كان هذا الاستدعاء من أجل اطلاع ابن الخطيب على الظهيرين المذكورين إضافة إلى عرض الخدمة.

ث - أن انتقال ابن الخطيب من سلا إلى فاس ربما كان أكثر من مرة، فيكون الانتقال الأول لأداء حق الدولة، ويكون الانتقال الثاني لعرض الوظيفة، ويكون الانتقال الثالث لإعمال الرحلة، وهذا هو الذي نرجحه، والله أعلم.

أما النص الذي أبان عن عرض الخدمة، فقد دل على المعاني الآتية:

١ - أن العرض قدم أقصى ما تنتهي إليه وسائل الأقلام، وهذا يعني أنه عرض عليه منصب الكتابة، وليس الكتابة فقط بل رئاسة الكتابة، وهو أرقى مركز في هذا الرسم.

- ٢ - اعتذار ابن الخطيب عن القبول عن طريق بذل ما في الوسع من التعبير عن الإعفاء، وهذا يدل على حرص الدولة وتمسكها به في هذا الشأن.
- ٣ - أن قبول الإعفاء لم يكن أمراً هيناً، بل كان تجرعاً في تعبٍ.
- ٤ - تأكد القناعة لدى ابن الخطيب في العزوف عن السياسة وخدمة الدول.
- ٥ - تأكد النزوع إلى خدمة الله، بالانكفاء على الذات، وإصلاح الحال.

المقصد الرابع - معاودة الرحلة إلى مراکش ودواعيها:

من الأعمال التي تشوف ابن الخطيب إليها أيضاً، وهو مقيم في سلا، معاودة الرحلة المراكشية وأحوازها مرة ثانية، فصدر في ذلك ظهير من السلطان أبي زيان مباشرة عقب استقدامه من قشتالة، وتنصيبه ملكاً محجوباً بالوزير عمر بن عبد الله. قد كشف ابن الخطيب من خلال العبارات التي ترجم بها لهذا الظهير عن دواعي الرحلة حين قال: "وَوَقَفَ تَشَوُّفِي إِلَى تَجْدِيدِ الْعَهْدِ بِزِيَارَةِ الْمَعَاهِدِ الْمُبَارَكَةِ، وَالْإِنْتِبَازِ عَنْ مَظَانِّ الْهَرْجِ، وَمَيَادِينِ الْفِتْنَةِ" (١٠١).

فالنص إذاً يكشف عن الداعيين الآتين:

أ - تجديد الرحلة إلى الجهات المراكشية، وهذا يؤكد على تعلق ابن الخطيب بهذه الجهات لأهميتها ونفائسها من الناحية السياسية والثقافية، وهي منطقة ما زالت حتى الآن تحافظ على هذه المزية، كما تؤكد على تعلق ابن الخطيب بالرحلة في جوهرها، فقد كانت ديدنه وهاجسه، وهذا منزع طريف.

ب - الفرار عن مواطن القتل، وبؤر التوتر والفتنة، التي تعكر الصفو، وتشغب على الفكر، وتشوش على القلب الذي حرص ابن الخطيب على جلائه، ولمْ شعثائه، وهذا يؤكد على الاضطراب الذي ألمّ بسلا في هذه الآونة، كما ألمعت آنفاً.

أما نص الظهير الصادر في هذا الشأن، فنختصره فيما يلي: "هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ، جَدَّدَ الْعِنَايَةَ وَأَضْفَاهَا... أَمَرَ بِهِ وَأَوْجَبَ الْعَمَلَ بِحَسْبِهِ عَبْدُ اللَّهِ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ... لِلشَّيْخِ الْفَقِيهِ الْأَجَلِّ الْأُسْنَى... أَبِي عَبْدِ اللَّهِ... وَجَدَّدَ لَهُ حُكْمَ الظَّهِيرِ الصَّادِرِ لَهُ بِالْإِذْنِ فِي زِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ الْمُقْصُودَةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْمُحْسُوبَةِ، وَمُطَالَعَةِ مَحَاسِنِ الْبِلَادِ، وَالتَّمَتُّعِ

بِأَفَانِينِ الْكَرَامَةِ الْوَاضِحَةِ الْإِشْهَادِ... فَلْيُعْمَلِ الْوَجْهَةُ الْمُبَارَكَةُ مَتَى شَاءَ مَحْمُولاً عَلَى سَبِيلِ الْعِنَايَةِ، مُعْتَمِداً بِجَزِيلِ الْكَرَامَةِ وَالْحَفَايَةِ، مُوَفَّى الْأَعْرَاضِ مِنَ الْبِرِّ... مُصْحَباً فِي الطَّرِيقِ بِمَنْ يُعَيِّنُ كَرَامَةَ طَرِيقِهِ، وَتَلْقَى جَزِيهِ بِالْمَبَرَّةِ وَفَرِيقِهِ...

كُتِبَ فِي السَّادِسِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ عَامِ ثَلَاثَةِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ بِالْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ، الْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ، حَرَسَهَا اللَّهُ، وَكُتِبَ فِي التَّارِيخِ الْمُوَرَّخِ بِهِ " (١٠٢).

والملاحظ على الظهير من حيث الشكل والمضمون أنه لا يختلف عن الظهير الذي أصدره السلطان الهالك أبو سالم، فما هو إلا تجديد للغرض والرسوم، كما أن تاريخ صدوره يؤكد على أنه صدر قبيل صدور ظهير تجديد الجراية المخصوص بها ابن الخطيب على عهد الدولة الجديدة بأربعة أيام فقط.

أما تاريخ ارتحال ابن الخطيب فحدده من خلال قوله: " وَكَانَ خُرُوجُنَا لِمُرَاكَشَ يَوْمَ السَّبْتِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ لِربِيعِ الْآخِرِ مِنَ الْعَامِ " (١٠٣).

وهذا يعني أنها تأخرت عن تاريخ صدور الإذن بسبعة أيام.

أما الانطلاق فكان من فاس، تأكد ذلك من خلال قوله: " خَرَجْنَا مِنْ أُمِّ الْقُرَى، وَمَجْمَعِ الْوَرَى، وَكَعْبَةِ السَّيْرِ وَالسُّرَى، مَدِينَةِ فَاس " (١٠٤).

أما الحق الذي كان ابن الخطيب ينوي أدائه للسلطان أبي زيان، فهو نفس الحق الذي أداه للسلطان أبي سالم.

قال ابن الخطيب في رسالة اعتذار بعثها إلى أبي زيان منتصف طريقه: " يُسَلِّمُ عَلَى الْمَقَامِ الْمُؤَلَوِيِّ.. وَيُطَالِعُ بِأَنَّهُ أَنْصَرَفَ نَبِيهِ الرَّحِيلِ إِلَى مُرَاكَشَ، وَأَهْمُّ الْأَعْرَاضِ أَنْ يَلْتَمَسَ الدُّعَاءَ لِمَقَامِ مَوْلَاهُ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْمَشْهُورَةِ بِقَبُولِ السُّؤَالِ الْمُتَكَلِّفَةِ بِبُلُوغِ الْأَعْمَالِ " (١٠٥).

بيد أن الرحلة لم تتم على أحسن ما يرام للأسباب التي أدلى بها ابن الخطيب حين قال مخاطباً السلطان متحدثاً عن نفسه بضمير الغائب: " فَلَمَّا تَوَسَّطَ " تَامَسْنَا "

شَعَرَ بِالضَّعْفِ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَأَحَسَّ بِأَسْبَابِ الْمَرَضِ مُنْفَرِدَةً وَمُشْتَرِكَةً، فَأُنْكَفَأَ رَاجِعًا... خَوْفًا مِنْ أَلَمٍ يَسْتَحْكِمُ، أَوْ مَرَضٍ يُسِدي فِي هَذِهِ الْبِنْيَةِ الضَّعِيفَةِ وَيُلْجِمُ" (١٠٦).

وتطبيبا لخطر السلطان، أهداه رسالة طريفة ولطيفة وصف له من خلالها رحلته مشيدا ببعض معالم دولته من خلال المواقع والأعيان التي وقف عليها من إيالته.

وسواء أكان الضعف وأسباب المرض عائقاً حقيقياً أم لا، فقد دلت قرائن أخرى أن الرحلة لم تكن موفقة لضعف المرغبات الموضوعية، وغياب المحفزات المعنوية والنفسية.

قال ابن الخطيب مفسحاً عن ذلك: "وَتَضَمَّنَتْ الْحَرَكَةُ رِحْلَةً لَمْ تَقُمْ الْعِنَايَةُ بِاتِّصَالِ أُخْرَاهَا بِأَوَّلَاهَا، لِكَوْنِهَا كَانَتْ خِدَاجاً، إِذْ لَمْ أَلَفْ لِرُقِيَةِ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَةِ جَنّاً يُضْغَى أَوْ عِلَّةً تَشْكِي، وَلَا حَلَّتْ حَيّاً يَحْفَلُ بِمَنْ يَذُمُّ أَوْ يُثْنِي أَوْ يَهْدِمُ أَوْ يَبْنِي... وَلَا اجْتَلَيْتُ مَخِيلَةً عَنِ الْمُرُوءَةِ تُنْبِي" (١٠٧).

والنص ربما يكشف عن العائق الحقيقي الذي حال دون نجاح الرحلة، وكمال السفارة، وهو أن ابن الخطيب لم يصادف في المواقع التي كان يسلكها أعلاماً وأعياناً يحفلون به، ويحتفلون بمروره، ويستحقون الزيارة من قبله، وهذا يؤكد على الحال السيئة التي آل إليها المغرب في هذه المرحلة المضطربة، وقد أبان عن ذلك نص طريف أعثر عليه البحث في نفاضة الجراب، حيث قال ابن الخطيب ذاماً هاجياً عموم الناس متمثلاً أولاً:

"تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحٌ
وَالنَّاسُ يَمْوجُونَ بَيْنَ مُنْتَفِخٍ سَخِرُهُ، سَامٍ لِمَا يَنَالُهُ طَرْفُهُ، وَسَائِلٍ مِنَ الذُّعْرِ
سَلَحَهُ، وَمُضْغٍ إِلَى نِدَاءٍ أَوَّلِ الْحَشْرِ سَمْعُهُ، وَرَاعِي بِهِمْ أَهْمَتُهُ نَفْسُهُ، وَأَمْرَاءُ الْعَرَبِ...
أَبَا الْمُتَوَى، وَمَرَمَى عَصِي النَّوَى، أَسْمَاءُ ثَوْنٍ مُسَمَّى، وَالْفَاطُ بِلا مَعْنَى، وَسِبَاعٌ قَدْ
أَخْصَبُوا مِنْ سَلْبِ قَوْمِهِمْ، وَارْتَأَشُوا مِنْ نَجَارِ عِيصِهِمْ، وَامْتَصَّوْا عَظَامَ عَشَائِرِهِمْ، لَا
يَرْجِعُونَ إِلَى سِيَاسَةِ نَاطِلَةٍ، وَلَا شَرِيعَةِ حَاكِمَةٍ، وَلَا عَفَافٍ وَازِعٍ، وَلَا خَوْفٍ مِنَ اللَّهِ

رَادِع، يَصْطَفُونُ كُرَاعَهُمْ لِلَامْتِطَاءِ، وَنِعَاجَهُمْ لِلَامْتِشَاشِ، وَحُبُوبَهُمْ لِلْعَلْفَةِ وَالْثَرْدِ، وَسَمَنَهُمْ لِلانْتِدَامِ، وَيَجْلِبُونُ عَلَيْهِمُ الضَّغَطَ فِي قُطْعَانِ الْإِثَارَةِ، وَمُفْتَرَضِ الْخَرَجِ، وَثَقِيلِ الْإِتَاوَةِ، فَتَرَاهُمْ سُكَارَى، وَلِلْفَرْجِ حَيَارَى، يَتَرَامُونَ بِأَبْوَابِهِمْ، شَاكِيَةً جِرْحَاهُمْ إِلَى الْغَرْبَانِ وَالرَّحْمِ، تَنْظُرُ الْأَيِّمُ الْبَادِي هُنْهَا إِلَى سِمْلٍ سُتْرَتِهَا فَوْقَ ظَهْرِ وَصِيفَةِ الشَّيْخِ وَإِلَى طَحِينِهَا فِي قَصْعَةٍ ضَيْفِهِ، وَإِلَى نَعَجَتِهَا الْحَبِيبَةِ إِلَى فُؤَادِهَا وَكُرَاعِهَا مِشَاشٌ فَكِّي وَلِيدَتِهِ، فَلَا تَمَّاكُ نَفْسُهَا أَنْ تَسِيلَ فِي جَمِيلِ صُرَاخِهَا، فَلَا تَجْلُو زِرَافَاتِهَا إِلَّا الرِّبَادَ الَّذِي يَتَقَصَّدُ عَصِيَّهُ فَوْقَ الْمَفَارِقِ وَالْأَنْوَفِ، وَقَدْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ طَالَ الْمَدَى، وَتَرَخَى طَوْلُ الْإِمْلَاءِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

فَأَيْفَتْ مِنْ اقْتِحَامِ حُدُودِهِمُ الَّتِي لَا تَلُوحُ بِأَعْلَامِهَا هَيْئَةُ الْمَلِكِ، وَلَا تَحْقُقُ فَوْقَ سُبُلِهَا أَلْوِيَةَ الْأَمْنَةِ، وَاعْتَنَمْتُ ذَنْبَ كَبِيرِهِمْ إِلَى مُبَارَكِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَطِيَّةَ أَمِيرِ عَرَبِ الْخُلُطِ... وَقَدْ تَأَخَّرَ عَنِّي لِقَاؤُهُ، وَإِصْحَارُهُ بَيَاضَ الْيَوْمِ، يَوْمٌ وَصُولِي مُعْتَذِرًا بِبَعْضِ يَقْبَلُ، وَإِنْ لَمْ يَتَأَخَّرْ طَعَامُهُ وَبِرُّهُ، فَاتَّخَذْتُ اللَّيْلَ جَمَلًا، وَطَيَّرْتُ ثِقَاتَهُ إِلَى بِاسْتِقَالَتِهِ مَنْ الْهَفْوَةِ وَاسْتِعْتَابِهِ... فَلَمْ يَجِدُوا بِي مَغْمَرًا، وَلَا فِي اسْتِرْجَاعِي مَطْمَعًا، وَعَرَضُوا مَا أَصْحَبَهُمْ مِنْ مُلَاطَفَةٍ، فَسَدَّتِ الْأَلْيَةُ سَبِيلَ قَبُولِهَا، وَاللَّهُ يُعِزُّنَا بِعِزِّ الْقُنُوعِ... وَلَحِقْتُ بِسَلَا لِأَيَّامٍ عَشْرَةٍ" (١٠٨).

والنص يكشف عن الحقائق الآتية:

١ - سوء الأوضاع في جميع بلاد المغرب تقريباً، بسبب تقلص هيبة الدولة، وهذا يعني أن الأمر لم يكن قاصراً على سلا وضواحيها ذلك الذي رجح لدى ابن الخطيب الارتحال من سلا.

ومن مظاهر أعراض فساد هذه الأوضاع الأمور التالية:

- أ - استكبار الكبراء وجشعهم.
- ب - انعدام الأمن والأمنة.
- ت - انكفاء الناس على أنفسهم وانطوائهم على ما بأيديهم.

ث - الأمراء أسماء بدون مسمى، وألفاظ بلا معنى، بسبب سوء تدبيرهم، واستشراء ظلمهم، وقد أحصى ابن الخطيب عيوبهم، وصور مثالبهم، بأدق فرشاة وأبلغ ريشة، وهي:

- الاستغناء بسلب قومهم، وامتصاص دمائهم، وامتشاش عظامهم.
- لا يرجعون إلى سياسة نازمة، ولا إلى شريعة حاكمة، ولا عفاف وازع، ولا خوف من الله رادع.
- ممتلكات الناس ممتلكاتهم قد جردوهم حقها، وحرموهم نفعها.
- إرهاب الناس بالخراج الجزيل والمكس الثقيل.
- تحويل الرعية إلى فقراء محتاجين يترددون على أبوابهم، وقد حرموا حقهم، حتى إن المرأة كانت لا تجد ما تستر به عورتها، وترى رزقها يتمتع به غيرها من حاشية الأمير وولده.
- اعتماد العنف في زجر مثل هذه المرأة المسكينة التي أصرخها لأعج همها في وجه ظالمها وسالب حقها.

٢ - أنفة ابن الخطيب بسبب هذه الأوضاع من اختراق مضاربهم، والمروء بأحيائهم، وقد بان ظلمهم، وساء معه أدب أول أمرائهم والذي كان سبباً أبان عن الأمور الآتية:

- عدم المبادرة إلى لقاء ابن الخطيب لأول يوم وصوله، حيث تأخر وصوله إلى اليوم الموالي معتذراً.
- عدم تأخر إطعامه وبره لابن الخطيب.
- قرار ابن الخطيب الانصراف والرجوع بسبب هذا الموقف.
- اعتذار هذا الأمير لابن الخطيب عن طريق بعض ثقاته.
- عدم قبول ابن الخطيب، والارتحال ليلاً سداً لكل ذريعة قد تثني عزمته.
- اعتزاز ابن الخطيب بنفسه، التي تأبى الضيم والظلم، وهو صاحب الجاه العريض، والمحمل من جهة السلطان بالظهير الذي يتضمن أسمى آيات التقريض.

- استغرق الرحلة عشرة أيام فقط، وهي مدة قليلة، ولدت رحلة "خداجا"،
لم تستكمل تخلقها، فجاءت مشوهة.

- سرعة غضب ابن الخطيب وحدة مزاجه، فعلى الرغم من الملاحظة
المستدركة، والاعتذار المتهافت لم ينثن ابن الخطيب عن المضي في إنفاذ
القرار.

٣ - أن البواعث الحقيقية التي جعلت ابن الخطيب يقطع رحلته ليس الضعف
والمرض كما أشار، وأن الأسباب الحقيقية هي التي ذكرت، وأن ابن الخطيب
لم يكشف بذلك السلطان ووزيره حفظاً للمودة، وإيثاراً للسلامة.

المطلب الثامن مراسلات ابن الخطيب وتصانيفه

مقدمة:

من الأعمال التي نشطت لها همة ابن الخطيب في هذه المدة الزمانية من حياته
انكبابه على التأليف وعكوفه على التصنيف، وقد تنوع نتاج ابن الخطيب في هذه
المرحلة نظماً ونثراً، ما بين كتب مصنفة، ورسائل مسجوعة، وأراجيز منظومة،
تنوعت من حيث الفنون، وتباينت من حيث الأغراض، وإن كان الغالب على جميع ما
كتب الرسالة، لأنها أظهر أداة وأبلغ وسيلة للدلالة على حاله، وهو النازح عن وطنه،
الباحث عن بدله.

فلا أنجح من الرسالة في ربط الصلات، وتقدير المودات، والشكر عن الهبات،
والإدلاء بالبيعات، والرد على المخاطبات، وما إلى ذلك، فهو فارس حلبة المضمار في
ذلك، والمعين الذي لا يسبر غوره، ولا يدرك قعره.

ولقد زار ابن الخطيب خلال مقامه كل من اشتهر فضله، وخلص معدنه، من
الأعلام العلماء، والزهاد الصالحاء، لم يستثن منهم رجال الدولة من الوزراء والكتاب،
والعمداء، والرؤساء، اضطرتهم إلى ذلك المجاملة واللياقة التي يحرص عليها مثله،
وتدعو إليها الحاجة المادية التي تكرر حولها طلبه.

المقصد الأول - مراسلاته:

من الشخصيات العلمية الشهيرة التي حظيت بالمخاطبة الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق صاحب الفضل عليه.

ومنهم أيضا الفقيه المؤرخ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، وقد كان كاتب العلامة في الدولة يهنئه بمولود رزقه، ويعاتبه على عدم إتحافه بخبره^(١٠٩).

ومنهم كما نص ابن الخطيب قائلا: "وَخَاطَبْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَفَيْسٍ صُحْبَةً تَمَنِّي مَسْكَنَ اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ، وَكَانَ قَدْ أَهْدَانِي فَرَسًا غَتِيْقًا"^(١١٠).

والظاهر من نص الرسالة أن ابن الخطيب يتحدث عن الدار التي اتخذها لولده سكناً، عقب نزوله بسلا، والتي خطب من خلالها جوار صاحبها المخاطب بالرسالة، وأوصاه من خلال الرسالة برعاية ولده، والقيام مقامه في الولاية، ومما جاء فيها قوله: "... وَالْوَلَدُ [ولد ابن الخطيب] جَارُهُ [ابن نفيس] الْغَرِيبُ الَّذِي بَرَزَ إِلَى مُقَارَعَةِ الْأَيَّامِ عَنْ خَبْرَةٍ قَاصِرَةٍ، وَتَجَرِبَةٍ غَيْرِ مُنْجِدَةٍ، عَلَى الدَّهْرِ وَنَاصِرَةٍ، قَدْ جَعَلْتُهُ وَدِيعَةً فِي كَرَمِ جَوَارِهِ، وَوَضَعْتُهُ فِي حَجَرٍ إِثَارِهِ، فَإِنْ زَاغَ فَيَدُّهُ الْغُلْيَا فِي تَبْصِيرِهِ، وَمُؤَاخَذَتِهِ بِتَقْصِيرِهِ، وَمَنْ نَبَّهَ مِثْلَهُ نَامَ"^(١١١).

ثم ختم الرسالة له بتقرير حاله من خلال قوله: "... وَإِنْ تَشَوَّفَ سَيِّدِي لِحَالِ مُحِبِّهِ، فَمَطْلَقٌ لِلدُّنْيَا مِنْ عِقَالٍ، وَرَافِضٌ أَنْتَقَالَ، وَمُؤَمِّلٌ اغْتِيَاضٍ بِخِدْمَةِ اللَّهِ وَأَنْتَقَالَ، وَالسَّلَامُ"^(١١٢).

ومنهم أيضا الفقيه صاحب الرحلة العالمية المغربية القاضي أبو عبد الله محمد ابن بطوطة، بمناسبة اختيار ابن الخطيب جواره بمنطقة "تامسنا"، وقد عزم إثارة الأرض بقربه^(١١٣).

وغير هؤلاء كثير.

وكانت أبرز خصائص هذه الرسائل من حيث الفحوى، البث والشكوى، وتقرير العزلة والخلو.

أما من حيث الأسلوب فإلى الموعظة والتذكير أقرب وأدنى، استشعاراً للإنابة والتقوى.

فما جاء من مخاطبة ابن خلدون قوله: "... وَإِنْ تَشَوَّفَ سَيِّدِي لِحَالٍ وَلِيَّهِ، فَخَلُوةٌ طَيِّبَةٌ، وَرَحْمَةٌ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ صَيِّبَةٍ، وَبَرَقٌ يُشَامُ، فَيُقَالُ حَدَّثَ مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ" (١١٤).

ومما جاء في رسالته لابن بطوطة قوله: "... لَتَقْلَمَ سَيَادَةُ الْقَاضِي شَمْسُ الدِّينِ ... أَبْقَاهَا اللَّهُ تُحَاكِي الشَّمْسَ فِي الْجَوْلَةِ ... أَنَّ مُوجِبَ حَقِّهَا [ابن الخطيب] ... لما انْتَبَذَ وَأَنْقَطَعَ، وَأَقْتَطَعَ مِنْ جَانِبِ الْعُزْلَةِ وَالتَّخَلِّي مَا أَقْتَطَعَ، وَقَدْ لَاحَ نُورُ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَسَطَعَ، أَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَخْدُومُهُ الرَّاحَةُ، حَتَّى تَنْدَمِلَ الْجِرَاحَةُ، وَإِنْ أَعْوَرَ الْمَعَاشُ، اجْتُنِدِيَتِ الْفِلَاحَةُ، وَتَخَيَّرَتْ فِي الْبُقْعِ بُقْعَةً يُؤْنَسُ فِيهَا جِوَارٌ كَرِيمٌ ... فَالْتَزَمْتُ وَارْتَبَطْتُ، وَاخْتَرْتُ وَاعْتَبَطْتُ، وَوَجَّهْتُ ثِقَتِي لِشِرَاءِ مَا يُعِينُ عَلَى الدَّهْرِ، وَيَسْتَعِدُّ لِلْفِلَاحَةِ وَالْبَذْرِ، خَوْفًا أَنْ يَخْرُجَ يَوْمُهُ، فَيَرْتَفِعَ سَوْمُهُ، وَيُحَاوِلَ رَوْمُهُ فَيُضِنُّ بِهِ قَوْمُهُ، وَعِنْدِي أَنَّ الْقَاضِي إِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ جِوَارَهُ هُوَ الْمَطْلُوبُ الْأَوَّلُ، وَالْفَضْلُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَعُولُ، يَتَعَمَّدُ هَذَا الْغَرَضَ سَرُوءَهُ، الَّذِي لَا يَتَأَوَّلُ، فَتَقَعُ مُشَارَكَتُهُ بِكُلِّ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ الْإِعَانَةِ بِمُقْتَضَى الْفَضْلِ وَالِدَيَانَةِ، حَتَّى يَحْصُلَ بِبَرَكَتِهِ ثَمَرَةُ الْفِلَاحَةِ حَسًّا، وَثَمَرَةُ الْفَلَاحِ مَغْنًى" (١١٥).

والنص في تقديري من أطرف النصوص لما تضمنه من قيم ومعان عظيمة دلت على نفاسة معدن، وأصالة حضارة، وعمق توجه.

المقصد الثاني - مناقشة مسألة نزوعه الصوفي:

نظراً للنزوع الصوفي الذي طغى على توجهات ابن الخطيب الروحية والأدبية والفكرية في هذه المرحلة من حياته وأثرها في نتاجه عامة ورسائله الإخوانية خاصة كما لاحظنا قبل قليل، أجدني مضطراً ألا أقوت الفرصة، وقد أتيج المقام، دون مناقشة هذه المسألة في هذا المطلب المستدرك.

فأقول: لعل أحدهم يقول بعد متابعة سلوك ابن الخطيب، وسعي، متسائلاً: ما

مصدق دعوى ابن الخطيب الذي ما انفك يلهج بالعزوف عن الدنيا، وإيثار العزلة والخلوة، وهو الذي ما فتى يلهث وراء الأعراض الزائلة، والمتع الفانية؟!

في تقديري أن ابن الخطيب في نزعاته الصوفية والاقتصادية يصدر عن تصور وسط متوازن، يحل المعادلة الوعرة معادلة الجمع بين الدنيا والآخرة، دون أن تطغى الواحدة عن الأخرى عملاً بالآية الكريمة التي تقول: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" (١١٦).

والحكمة القائلة: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً" وهذا هو المعيار السليم، والقسطاس القويم الذي لا يحيد قيد أنملة عن منهج الهداية، وطريق الرسالة، وسيل السياسة الشرعية.

ثم إن ابن الخطيب في نزعاته الصوفية ربما كان في مقام المجاهدة الذي هو أول المقامات الزهدية.

ثم إن ابن الخطيب نزح من الأندلس إلى المغرب مجرداً من جميع أملاكه التي لم يكن لها نظير في الممتلكات سعة ونفاسة، وجدة، وأصالة، وتنوعاً وكثرة.

فمهما أوتي من فضل من قبل السلاطين والمحسنين يبقى دون الوفاء بالغرض، وقد يقترب مما استقرت عليه العادة.

ثم إن ابن الخطيب كان صاحب عيال وخدم، وموالي وحشم علقوا بأسباب جاهه البائد، يقتضي الفضل والأدب في حقهم رعاية الحرمة.

ثم إن الفلاحة والكدح بإعمال اليد واتخاذ الأسباب من أجل الكسب، وإعالة الولد هو من صميم التدين ولب لباب التقرب، ولقد دل النص على حيوية ابن الخطيب ونشاطه الزائد والدائب، في تعشقه للعمل، والذي ما هو في حقيقة الأمر إلا انعكاس لتقدير أهل الأندلس عامة للعمل، وتعبدهم به كما دلت القرائن التاريخية الكثيرة على ذلك.

ثم إن التصوف من بعض زواياه، نزوع شخصي، واختيار طوعي، وشعور

وجداني، تنطوي عليه جوانح السالك المعني، فلا يعقل فرض أحواله على الولد الذين ربما كانت التوسعة أوفق الأمور لحاله.

ولقد دلت مخاطبة ابن الخطيب للأعلام أنه كان من جملة دوافعها طلب نوالهم واستدرا عطاءهم، وربما أحس من جراء ذلك بالحرص تجاههم.

لذلك وجدناه حينما خاطب أحد رجال الدولة أفصح له عن ذلك قائلاً: "فَأَنَّنِي مِنْ يَوْمِ نَزَعْتُ عَنْ وَطَنِي، وَضَاقَ بِالْأَغْتِرَابِ عَطَنِي، عِيَالٌ عَلَى الْأَعْيَانِ وَالْأَعْلَامِ سَيِّمًا حَمَلَةُ الْأَقْلَامِ، وَقَدْ رُمْتُ قُرْبَكَ، فَأَمَّا مَعْنَى وَحْبًا فَتَيْسَّرَ، وَأَمَّا حِسًّا ظَاهِرًا فَتَعَسَّرَ وَتَعَذَّرَ، وَبَادَرْتُ تَهْنِئَةَ سَيِّدِي بِالْوِلَايَةِ الَّتِي هِيَ إِرْثٌ عَنْ سَلَفٍ، وَعَنْ سَابِقٍ وَمُؤْتَنَفٍ، وَإِنْ أَعْفَلْتُ قَبْلُ، فَقَدْ ذُكِّرْتُ، وَأَخْطَأْتُ فَقَدْ اغْتَدَّرْتُ، وَالْفُرُوضُ تُقْضَى إِذَا قَاتَتْ وَهِيَ الْعِبَادَةُ، وَكَيْفَ الْمُعَامَلَاتُ الَّتِي تَتَعَمَّدُهَا السَّادَةُ" (١١٧).

هذا وسأنترق لهذا الموضوع مرة أخرى في مبحث مستفيض تحت عنوان "استحكام النزعات الصوفية" في الفصل الرابع من هذا الباب.

المقصد الثالث - المصنفات والتواليف:

أما المصنفات والموضوعات التي أنشأها ابن الخطيب في هذه الآونة، فيغلب عليها الاختصار، والرجز والمقامة باستثناء كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" الذي تعددت أسفاره لأنه كتاب رحلة مستفيضة.

نكتفي بالإشارة في ذكرها إحصاء لأعدادها، وتنويه أغراضها، وإشادة بأنواعها، وإكباراً لزمها، معتمداً معيار الطريقة في الترتيب، ومنوال الكتابة في التصنيف والتبويب.

أولاً - الأراجيز:

١ - رقم الحل في نظم الدول (١١٨):

وقد أغنى ابن الخطيب في بيان نوعه وجنسه، وفنه، وحجمه، من خلال قوله: "يَشْتَمِلُ عَلَى الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ غَيْرِ حَشْوٍ وَلَا كُلْفَةٍ إِلَى زَمَانِنَا" (١١٩).

كما أوضح ابن الخطيب أنه رفعه إلى أبي سالم، وأعجب به غاية الإعجاب، مما جعله يبادر في بعث رسالة أخرى إلى الأندلس في شأن استنقاذ ممتلكاته، يقول ابن الخطيب: "وَرَفَعْتُهُ إِلَى السُّلْطَانِ [أَبِي سَالِمٍ] فَوَرَدَ الْأَمْرُ بِإِضْعَافِ الْجَرَايَةِ، فَبَلَغَتْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ سِتِّيْنَ بِيْزَا مِنَ الذَّهَبِ فِي كُلِّ هِلَالٍ، وَكَانَ مِنْ نَصِّهِ: "وَقَدْ وَصَلَ الرَّجَزُ الْمُعْجَبُ الْمُعْجَزُ"، وَعَرَفْنِي بِإِعَادَةِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي شَأْنِي" (١٢٠).

٢ - الْحُلُّ الْمَرْقُومَةُ فِي اللَّمَعِ الْمَنْظُومَةِ (١٢١):

وهو عنوان لمنظومة في علم أصول الفقه، تتألف من ألف بيت، قال ابن الخطيب في حقها: "... كُنَاشُ مِنْ مَنْظُومٍ فِي عَرُوضِ الرَّجَزِ، مَحْدُوفُ الْفُضُولِ، لَا غَايَةَ فَوْقَهُ فِي الْأَرَاكِزِ، وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ حَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، فِي فَنِّ أَصُولِ الْفِقْهِ، عِدَّةُ أَبْيَاتِهِ أَلْفٌ بَيْتٌ... سَمَّيْتُهِ: "الْحُلُّ الْمَرْقُومَةُ فِي اللَّمَعِ الْمَنْظُومَةِ" (١٢٢).

٣ - الْأَرْجُوزَةُ الْمَعْلُومَةُ (١٢٣):

وهي في فن الطب، قال ابن الخطيب يصف موضوعها، ويبين أغراضها، ويحصي أبياتها: "وَأَرْجُوزَةٌ أُخْرَى فِي فَنِّ الْعِلَاجِ مِنْ صَنْعَةِ الطَّبِّ، عَدَدُ أَبْيَاتِهَا نَحْوُ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةٍ بَيْتٍ، تَنْتَضِمُ ذِكْرَ جَمِيعِ الْأَمْرَاضِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُرْئِيَّةِ، وَذِكْرَ أَسْبَابِهَا وَعِلَامَاتِهَا، وَتَدْبِيرِهَا، وَجَلِبِ الْعِلَاجِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهَا... وَعِلَاجِ السُّمُومِ، سَمَّيْتُهَا بِ: "الْأَرْجُوزَةِ الْمَعْلُومَةِ"، إِذْ تَقَدَّمَ قَبْلِي مَنْ نَظَّمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْغَرَضِ وَسَمَّاها: "الْأَرْجُوزَةُ الْمَجْهُولَةُ" (١٢٤).

٤ - تَخْصِيصُ الرِّيَاسَةِ بِتَلْخِيصِ السِّيَاسَةِ (١٢٥):

وصفها ابن الخطيب بقوله: "وَنَظَّمْتُ أَرْجُوزَةً ثَالِثَةً فِي فَنِّ السِّيَاسَةِ، مِنْ أَجْزَاءِ الْعِلْمِ الْقَدِيمِ فِي نَحْوِ سِتِّمِائَةٍ بَيْتٍ سَمَّيْتُهَا "تَخْصِيصُ الرِّيَاسَةِ بِتَلْخِيصِ السِّيَاسَةِ"، اسْتَوْفَى الْكَلَامَ فِي الْقَوَى الثَّلَاثِ النَّفْسِيَّةِ وَعِلَاجِ الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَاشِ" (١٢٦).

٥ - الْمُعْتَمَدَةُ فِي الْأَغْذِيَةِ الْمُفْرَدَةِ (١٢٧):

أشار إليها ابن الخطيب في قوله: "... فَمِنْ التَّوَالِيْفِ رَجَزٌ فِي الْأَغْذِيَةِ، إِذْ كُنْتُ قَدْ

فَرَعْتُ مِنْ نَظْمِ الْعِلَاجِ، [الأرجوزة المعلومة] والسياسة [تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة]، تَضَمَّنَ ذِكْرَ الْأَغْذِيَةِ عَلَى أَحْرَفِ الْمُعْجَمِ، وَطِبَاعِهَا، وَمَنَافِعِهَا، وَمَضَارِّهَا، وَإِصْلَاحَ خَلَلِهَا، وَمَا تَعَلَّقَ بِهَا مِنْ وُجُوهِ الْمَعَالَجَةِ، وَلَمْ أَقِفْ فِي هَذَا الْغَرَضِ عَلَى نَظْمٍ" (١٢٨).

وقد ذكر المرحوم محمد عبد الله عنان أنها تقع في ١٢٠٠ بيت (١٢٩).

ولقد أكد ابن الخطيب في خاتمة الجزء الثاني من كتاب نفاضة الجراب، أن هذه الأراجيز من نتاج "سلا"، ضمن نص إجازته لولد أبي القاسم بن رضوان (١٣٠)، بناء على طلبه، وهو يسمي مصنفاته التي شملتها الإجازة، حين قال: "... وَالْأَرَاكِيزُ الْخَمْسُ مِنْ نَظْمِي، بِمَدِينَةِ "سلا" فِي أَصُولِ الْفَقْهِ، وَالتَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالْعِلَاجِ، وَالْأَغْذِيَةِ" (١٣١).

ولو أحصينا عدة أبيات الأراجيز جميعها لأربت على خمسة آلاف بيت، وهي عدة تبرهن على نبوغ الرجل، وسيلان ذهنه، وهمته، وصبره، واستغراق وقته بالعمل المنتج، هذا فضلاً عن النتائج الأخرى التي ستذكر.

ثانياً - الكتب:

١ - عَمَلٌ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ (١٣٢):

كتاب طبي مهم، يتألف من جزأين، يتناول فيه مختلف الأمراض، وذكر أسبابها وعلاجها والوقاية منها، ونظام الغذاء المناسب، مثل: الصداع، وأورام الرأس، والكابوس والصرع، وأمراض العصب، وأمراض العيون، والسمم، والطرش، وآلات التنفس، وأمراض القلب وأمراض المعدة والطحال، والبطن، والأمعاء، والكلية، والمثانة، وتحدث في الجزء الثاني عن الحميات، والأورام، والجراحات، وأمراض الجلد، والبدن، واليدين، والرجلين، ويلحق أخيراً باباً يختص بالزينة.

وهو من الكتب التي رفعت أيضاً إلى السلطان أبي سالم، وهذا يعني أنه كان من أوائل ما كتب أهدها إليه جزاء شفاعته واستنقاذه، حسبما نفهم من مقدمة الكتاب، يقول ابن الخطيب: "وَاسْتَقَرَّ مَنْزِلِي فِي جِوَارِهِ، مَغْبُوطَ الرُّتْبَةِ، مَرْعِي الْقُرْبَةِ،

مُؤَنِّسًا فِي الْغُرْبَةِ، مُوَالَا بِالْمَبَرَّةِ مِنَ الْكُرْبَةِ، نَظَرْتُ فِي خِدْمَةِ أَجْهِدُ فِيهَا الْقُدْرَةَ وَالْإِسْتِطَاعَةَ، وَأَعْمُرُ بِهَا الْوَقْتَ وَالسَّاعَةَ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مِنْتَهُ لَا يُجَازِيهَا إِلَّا اللَّهُ حَقَّ الْجَزَاءِ، وَلَا يَقُومُ مِثْلِي مِنْهَا بِجُزْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الطَّبَّ الَّذِي تَكُونُ الْوَسِيلَةُ بِهِ أَوَّلًا ذَرِيعَةً لِحِفْظِ صِحَّتِهِ، وَهَذَا الْغَرَضُ هُوَ مَا هُوَ أَصْلٌ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَحِفْظُ لِلْسَّجَايَا الْبَرَّةِ، وَالشِّيمِ الْعُلْيَا، وَثَانِيًا لَانْتِفَاعِ الْخَلْقِ بِهَا مِنْ أَجْلِهِ، وَجَرِيَانَهَا مَجْرَى النِّعَمِ الَّتِي تَنَالُهُمْ مِنْ مَحَلِّهِ (١٣٣).

٢ - نَفَاضَةُ الْجِرَابِ فِي غَلَالَةِ الْإِغْتِرَابِ (١٣٤):

ويتألف من ثلاثة أسفار أو أربعة بحسب الروايات، والمطبوع منه الثاني والثالث، وهو من أجود مصنفات ابن الخطيب، وأنفسها، بإجماع المتخصصين والدارسين، تتجلى قيمته العلمية من خلال شكله ومضمونه، وحجمه، فقد جمع بين علوم شتى كالتاريخ، وقائع وتراجم، والجغرافيا وصفاً ومشاهدات، والأدب شعراً ونثراً، والكتابة رسائل وظواهر.

وهو كتاب رحلة في المقام الأول، ولكنه ليس كالرحلات المعهودة، لأنه تحقق فيه ما لم يتحقق في غيره؛ غزارة مادة، وتنوع فنون، وعمق مضمون، وجودة أداة، وطرافة طريقة.

كان هذا حاله، والمساحة التي غطاها الأندلس والمغرب، والزمن الذي استغرقه قرابة ثلاث السنوات، فكيف به لو شرق صاحبه كما كان يرجو ويرغب؟

٣ - اللَّمْحَةُ الْبَدْرِيَّةُ فِي الدَّوْلَةِ النَّصْرِيَّةِ (١٣٥):

وهو أيضاً من المؤلفات القيمة التي دبجها قلم ابن الخطيب في هذه الآونة، بناه على الاختصار، عرض فيه لتاريخ دولة بني الأحمر من بداية التأسيس إلى زمن عودة السلطان الغني بالله إلى ملكه ثانية.

قال ابن الخطيب: "... وَشَرَعْتُ فِي تَأْلِيْفٍ يَخْتَصُّ بِتَارِيْخِ الدَّوْلَةِ النَّصْرِيَّةِ، عَلَى أُسْلُوْبٍ مُخْتَصَرٍ مُنَبِّهٍ عَلَى الْعُيُوْنِ، سَمَّيْتُهُ بِ: " اللَّمْحَةِ الْبَدْرِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ النَّصْرِيَّةِ " (١٣٦).

والكتاب على ضالة حجمه، جليل الفائدة، خطير المنقبة، حيث جعله خمسة

أقسام:

- أ - في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملك سريرها، وأحكم تدبيرها.
- ب - فيما يرجع إليها من الأقاليم والأقطار على الإيجاز والاختصار.
- ت - فيمن دال بها من أمير وسلطان شهير.
- ث - في عوائد أهلها وأوصافهم على تباين أصنافهم.
- ج - في نسق الدول واتصال الأواخر بالأول، وما يخص كل دولة من الألقاب، والأذيال المستطرفة والأعقاب.

وتعكس مقدمة الكتاب الوعظية، الظروف النفسية والمعاشية التي كان ابن الخطيب يمر بها في هذه المرحلة من حياته، مثل قوله: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْأُزْمَةَ كَالْأَفْلَاقِ، وَدَوَلَ الْأَمْلَاقِ كَأَنْجُمِ الْأَخْلَاقِ، تُطْلَعُهَا مِنَ الْمَشَارِقِ نَيَّرَةٌ، وَتَلْعَبُ بِهَا مُسْتَقِيمَةٌ أَوْ مُتَحَيَّرَةٌ، ثُمَّ تَذْهَبُ بِهَا غَائِرَةٌ مُتَغَيَّرَةٌ (١٣٧)." .

وكقوله: "... فالويل لمن لم يترك حسنة تنفعه، أو ذكرًا جَمِيلًا يَرْفَعُهُ، فَلَقَدْ عَاشَ عَيْشَ الْبَهِيمَةِ النَّهِيمَةِ، وَأَصَاعَ جَوَاهِرِ عُمْرِهِ الرَّفِيعَةِ الْقِيَمَةِ، فِي السُّبُلِ غَيْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَبَذَرَ أَمَانَتَهُ سُبْحَانَهُ فِي الْمَسَاحِطِ الْعَقِيمَةِ، وَطُوبَى لِمَنْ عَرَفَ الْمَصِيرَ، وَغَافَصَ الزَّمَانَ الْقَصِيرَ (١٣٨)." .

٤ - كُنَاسَةُ الدُّكَانِ بَعْدَ انْتِقَالِ السُّكَّانِ (١٣٩):

وهو عبارة عن كُنَاش جمع فيه عدة من الرسائل الديوانية، التي دبجها ابن الخطيب أيام كان كاتباً ووزيراً للدولة الدائلة، حاول من خلاله أن يستنقذ البقية الباقية من رسائله التي رأى فيها نفعاً من الناحية التاريخية والأدبية والديوانية.

جاء في مقدمة الكتاب قول ابن الخطيب: "أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً... فَإِنِّي عَثَرْتُ، لَمَّا فَكَّ الْعِقَالُ، وَصَحَّ إِلَى خَدْمَةِ جَنَابِ اللَّهِ الْإِنْتِقَالُ، وَحَلَلْتُ مَرْعِيَّ الْحُرْمَةِ، وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ، فَطَابَ الْإِنْتِقَالُ، وَاسْتَقَرَّ الْقَرَارُ بِمَدِينَةِ سَلا، لَاسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ... عَلَى مَسُودَاتٍ عَدِيدَةٍ، تُشْرِقُ نُجُومُ مَعَانِيهَا فِي ظُلَمِ السَّخِيمِ،

وَتَسْتَجِيرُ كَرَائِمُهَا مِنْ سُكْنَى الْمَكَانِ الْوَخِيمِ، لَمْ يَتَفَرَّغِ الْوَقْتُ لِإثْبَاتِهَا... فَأَثْبَتُهَا عَلَى حَسَبِهَا لِتُلْحَقَ بِأَمْثَالِهَا، مِمَّا دُونَ قَبْلِ الْحَادِثَةِ الْمُرْعَجَةِ، وَالْفَتَكَةِ عَنِ الْوَطَنِ الْمُخْرِجَةِ، وَاللَّهُ لَا يَجْعَلُ هَذَا السَّعْيَ خَلِيًّا مِنْ مَثُوبَةٍ تَنْفَعُ (١٤٠).

٥ - مَثَلِي الطَّرِيقَةِ فِي ذَمِّ الْوَثِيقَةِ (١٤١):

قال ابن الخطيب معرّفاً به، كاشفاً النقاب عن غرضه في تقرير مجمل: "وَصَدَرَ عَنِّي كُنَاشٌ سَمِيئُهُ "مَثَلِي الطَّرِيقَةِ فِي ذَمِّ الْوَثِيقَةِ" أَوْجَبْتُهُ مُحَاوَرَةً صَدَرَتْ فِي ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَ بَعْضِ شُيُوخِهَا [شيوخ الوثيقة]، تَضَمَّنَتْ نَظْماً وَنَثْراً، وَفَقَّهَا وَحِكَايَةً" (١٤٢).

وفسر هذا المجمل في مقدمة الكناش قائلاً: "وَلَوْضَعِهِ حِكَايَةً، وَلِنَفْثِهِ شِكَايَةً، إِذْ مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ بِعِلَالِهَا مِمَّا يُتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُحْرَصُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنِّي لَمَّا قَدِمْتُ عَلَى مَدِينَةِ فَاسٍ حَرَسَهَا اللَّهُ، مُسْتَخْلَصًا بِشَفَاعَةِ الْخِلَافَةِ ذَاتِ الْإِنَافَةِ، مُسْتَدْعَى بِرِسَالَةِ الْإِيَالَةِ ذَاتِ الْجَلَالَةِ، فَانْسَحَبَ وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ السَّرُّ... وَافْتَدَى الْمَرْؤُوسُ بِالرَّئِيسِ، وَتَنَافَسَ الْأَعْلَامُ فِي التَّائِسِ... تَعَرَّفْتُ فِيمَنْ جَمَعَتْهُ الْأُخُوَّةُ، وَالْمَرَاعِي الْمُتَعَيِّنَةُ، بِرَجُلٍ مِنْ نُبَهَاءِ مُوَثَّقِيهَا، غَرَّنِي بِمَخِيلَةِ الْبَشَاشَةِ الَّتِي يُسْتَفَرُّ بِهَا الْغَرِيبُ، وَيُسْتَخْلَصُ هَوَى مَنْ لَمْ يُعْمَلِ النَّجْرِيبُ، فَأَنْسَتُ بِمَكَانِهِ... وَشَأْنِي فِي الْاِغْتِبَاطِ بِمَنْ عَرَفْتُ شَأْنِي... وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ حَلَلْتُ بِمَدِينَةِ "سلا" حَرَسَهَا اللَّهُ، مَقْصُودَ الْمَحَلِّ، وَإِنْ رَغِمَ الدَّهْرُ الَّذِي رَمَى فَاقْتَصَدَ... لَا يَمُرُّ فَاضِلٌ إِلَّا عَرَجَ عَلَى مَنَوَائِي، وَأَتَى مِنْ الْبِرِّ فَوْقَ هَوَائِي... وَتَعَرَّفْتُ عَلَى صَاحِبِي الْفَاسِي أَنَّهُ قَدِيمٌ عَلَيْنَا مِنْ سُخْرِ عَمَلِيَّةٍ فَلِيَ لَهَا الدُّسْرُ الْمَنْهُوبَةُ، وَيَتَخَلَّلُ لَهَا الْمُسَبَّعَةُ الْمَرْهُوبَةُ، وَاعْتَذَى الْأَطْعِمَةُ الَّتِي مَرَّقَتْهَا الدُّمُوعُ، وَمَطَبَحَتْهَا الْجَمَى الْمَرْوَعُ، وَاسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ لَانَ وَضَرَعُ، وَجَدَلَّ وَصَرَعُ، نَافِقُ الْبُلْعِ كَاسِدِ الرُّوعِ... فَبَادَرْتُ اسْتِدْعَاءَهُ بِفَاضِلٍ مِنَ الطَّلَبَةِ مِمَّنْ يُتَلَقَّى بِهِ الْوَارِدُ، وَيُقْتَادُ الشَّارِدُ، وَقَدْ أَغْرَبَ بِقِرَاءَةِ الْاِخْتِفَاءِ وَالْاِخْتِفَالِ... فَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ تَعَجَّرَفَ وَنَفَرَ... وَابَ يَحْمِلُ عُذْرًا بَارِدًا، وَاحْتِجَاجًا شَارِدًا... وَمِنْ الْغَدِ قَصْدُنِي فَاعْتَذَرَ، وَأَكْثَرَ الْهَذَرَ... وَكَانَ جَوَابِي إِيَّاهُ مَا نَصُّهُ:

أَبَيْتُمْ دَعْوَتِي إِمَّا لِبَأْوٍ
وَبِالْمُخْتَارِ لِلنَّاسِ اقْتِدَاءً
وَعَيْرٌ غَرِيبَةٍ أَنْ رَقَّ حُرٌّ
وَأَمَّا زَاغِرُ الْوَرَعِ اقْتَضَاهَا
وَعِشْيَانُ الْمَنَازِلِ لاختِبارِ
شَكَرْتُ مَخِيلَةً كَانَتْ مَجَازًا
وَتَأْبَى لُؤْمُهُ مِثْلَى الطَّرِيقَةِ
وَقَدْ حَضَرَ الْوَلِيمَةَ وَالْعَقِيقَةَ
عَلَى مَنْ حَالُهُ مِثْلَى رَقِيقِهِ
وَيَأْبَى ذَاكَ دُكَّانُ الْوَثِيقَةِ
يُطَالِبُ بِالْجَلِيلَةِ وَالْدَّقِيقَةِ
وَقَدْ حَصَلَتْ بَعْدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ" (١٤٣)

ثم ذكر مراجعة لأحد موثقي مدينة سلا، ممن استفزهم قدحه، ثم أعقبها مراجعته له، إلى أن قال: "فَأَمْسَكَ حِينَئِذٍ وَأَقْصَرَ، وَرَأَى الْأَمْرَ يَطُولُ، فَأَخْتَصَرَ، إِلَّا أَنَّهُ نَمِيَ لِي عَنْهُ قَوْلُهُ: "إِنَّ دُكَّانَ الْوَثِيقَةِ إِنَّ نَافَى الْوَرَعِ، فَيَغِيرُ بَلَدِهِ" وَأَذْهَلْتُهُ لَذَّةً لَدَيْهِ عَمَّا هُوَ بِصَدِيدِهِ، فَارْتَهَنْتُ لَهُ أَنَّ أَنْصُرَ الدَّعْوَى بِمَا يُسَلِّمُهُ الْمُتَنَصِّفُ الْمُتَسَاهِلُ، وَيُكْرِهُهُ الْأَزْعَنُ الْجَاهِلُ... مُسْتَنِدًا إِلَى الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَالسَّنَنِ الْمَرْعِيِّ، وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْجِسِّ، وَشَهَادَةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ... وَاللَّهُ يَجْعَلُهُ مُوقِظًا مِنَ السَّنَاتِ، وَارِعًا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْهِنَاتِ، وَيَنْفَعُ فِيهِ بِالْنِّيَّةِ، فَ" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" (١٤٤).

ولقد أحدث الكتاب على قلة صفحاته ضجة كبيرة في الوسط الفقهي عامة، ووسط صناعة التوثيق خاصة ردحا طويلاً.

والظاهر أن ابن الخطيب استطاع أن يؤثر بهذا الكتاب في صفوف الموثقين الذين يحرصون على الورع، وخاصة الرجل الذي كان سببا في استغضاب ابن الخطيب واستقذار قريحته وهو الغريب.

قال ابن الخطيب في حق الرجل بعد أن أثنى عليه، والكلام ينسحب على أخريات حياته، وينطوي على تقرير واستدراك: "وَهُوَ الْآنَ عَدْلٌ بِمَدِينَةِ فَاسٍ، بِحَالٍ تَجَلَّى وَشُهِرَتْ، ثُمَّ تَعَرَّفْتُ أَنَّهُ نَسَكَ وَرَفَضَ الْعَيْشَ مِنَ الشَّهَادَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْفَضْلَاءِ" (١٤٥).

٦ - السَّخَرُ وَالشُّعْرُ (١٤٦):

قال في تقييده: "وَصَدَرَ عَنِّي مَجْمُوعٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَنَاشِيدِ الَّتِي تَحَصَّلَتْ لِي مُتَلَقَّاءَ وَمُنْتَزَعَةً، لَمْ يُعْتَرْ عَلَى مِثْلِهِ فِي حُسْنِ الْأَخْتِيَارِ تَضَمَّنَ ضَرْبِي الْمُطَرَّبِ

وَالْمَرْقِصِ، وَتَقَدَّمَ كَلَامٌ عِلْمِيٌّ فِي الشَّعْرِ، وَسَمَّيْتُهُ: "السَّحَرُ وَالشَّعْرُ" مُرْتَبًا عَلَى الْأَعْرَاضِ " (١٤٧).

إذاً هو كتاب انتخابات واختيارات، جسدت ذوق ابن الخطيب من جهة، وأحكامه النقدية للشعر من جهة ثانية، وابن الخطيب من خلال المقدمة التي صدر بها كتابه، والمعايير التي بَوَّبَ عليها الأشعار المجلوبة يقسمها إلى سحر وشعر، فما السحر؟ وما الشعر؟

يقول ابن الخطيب: "وَقَسَمْتُ مَا تَضَمَّنَتْ قِسْمَيْنِ: سِحْرٌ وَشَعْرٌ، وَرَبَّمَا عُوِجِلْتُ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْ هَذَا الْإِبْهَامِ، فَنَقُولُ: إِنَّ الشَّعْرَ لَيْسَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ بِمَخْصُورٍ... وَهُوَ فِيمَا يُوجَدُ لِلْأَوَائِلِ وَيُلْفَى، أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَشْمَلَهُ الْوَزْنُ الْمُقَفَّى... فَمَنْ الشَّعْرُ عِنْدَهُمُ الصُّورَةُ الْمُتَمَثِّلَةُ، وَاللُّعْبُ الْمُخَيَّلَةُ، وَمَا تَأَسَّسَ عَلَى الْمُحَاكَاةِ وَالتَّخْيِيلِ مَبْنَاهُ، كَكِتَابِ "كَلِيلَةِ وَدِمْثَةَ"، وَمَا فِي مَعْنَاهُ...

إِلَّا أَنَّهُ فِي الْعَرَبِ جَوْهَرِيٌّ، وَفِي الْعَجَمِ صِنَاعِيٌّ، وَمَتَى خَلَا الْكَلَامُ عَنْ هَذَا الْغَرَضِ... وَخَاضَ فِي الْأُمُورِ الشَّائِعَةِ... وَلَمْ يَسِلْ عَنِ الْمَشْهُورِ، فِي مُخَاطَبَةِ الْجُمْهُورِ، فَقَدْ تَرَكَ الشَّعْرَ وَتَعَدَّاهُ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَى بَابِ الْخَطَابَةِ مَدَاهُ...

ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَعْتَبِرْ هَذَا التَّبَعِيضَ، وَعَمَّمَتْ فَسَمَّتِ الشَّعْرَ: كُلُّ كَلَامٍ يَخْضُرُهُ الْوَزْنُ وَالْقَافِيَةُ، وَيَقُومُ الرُّوْيُ بِجَنَاحِهِ مَقَامَ الْخَافِيَةِ، وَيَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْأَعَارِضِ الْمُتَعَارِفَةِ عَرُوضٌ، وَيَقُومُ بِهِ نِظَامٌ مَعْرُوفٌ وَوَزْنٌ مَفْرُوضٌ... فَمَا جَنَحَ مِنْهُ إِلَى التَّخْيِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، وَحَلَّ مِنَ الْاسْتِعَارَةِ بِالْمَحَلِّ النَّبِيِّ، لَمْ يَنْمَ عَنْهُ عِرْقُ أَبِيهِ، وَأَغْرَقَ فِي بَابِ الشَّعْرِ أَتَمَّ الْإِعْرَاقِ... وَمَا قَعَدَ عَنْ دَرَجَتِهِ... فَهُوَ شَعْرٌ عِنْدَ الْعَرَبِ تَسْتَحْسِنُهُ وَتَرْتَضِيهِ، وَيُوجِبُهُ لِسَانُهَا وَيَقْتَضِيهِ...

وَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ قُوَّةَ ظَهَرَتْ لِلنَّفُوسِ أَفْعَالُهَا، وَاخْتَلَفَتْ بِحَسَبِ الْوَارِدِ أَحْوَالُهَا، فَتَرَى لَهَا فِي صُورَتِهَا الْحَقِيقَةِ خَيَالَهَا، وَيَتَبَدَّى فِي هَيْئَةِ الْوَاجِبِ مُحَالُهَا، وَكَانَ الشَّعْرُ يَمْلِكُ مَقَادَهَا، وَيَغْلِبُ عَادَتَهَا، وَيَنْقُلُ هَيْئَتَهَا... وَإِذَا عَصِدَ بِمَا يُنَاسِبُهُ... وَقَرِنَتْ بِهِ الْأَلْحَانُ عَلَى اخْتِلَافِ خَالَاتِهَا، وَمَا تَقْتَضِيهِ قُوَى اسْتِحَالَاتِهَا، عَظُمَ الْأَثَرُ، وَظَهَرَتْ

العبر، فَشَجَّعَ وَأَقْدَمَ، وَسَهَّرَ وَنَوَّمَ، وَحَبَّبَ السَّخَاءَ إِلَى النَّفْسِ وَشَهَّى، وَأَضْحَكَ حَتَّى أَلْهَى، وَأَخْزَنَ وَأَبْكَى، وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ يُحْكَى، وَهَذِهِ قُوَى سِحْرِيَّةٌ... فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يُسَمَّى الصَّنْفُ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يَخْلُبُ النَّفُوسَ وَيَسْتَفِزُّهَا، وَيُثْنِي الْأَعْطَافَ وَيَهْزُهَا، بِاسْمِ السَّحْرِ... ولهذا المعنى في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا" تَتَوَجَّهُ إِشَارَةُ حَرْفِ التَّبْعِيضِ، وَإِلَيْهِ يُنْظَرُ بِالطَّرْفِ غَيْرِ الْغَضِيضِ^(١٤٨).

أما المناسبة والبواعث التي دفعت بابن الخطيب إلى توليف هذا التصنيف، فهي بلوغ ابنه عبد الله السن التي تعين عليه الأخذ بهذا الحظ الرغيب، خاصة وأنه قد أصبح أحد خدام الدولة المرينية، منخرطاً في سلكها، وكأن ابن الخطيب بهذا الصنيع أراد أن يورث ابنه خبرته، ويلهمه في ذلك رشده وينفخ فيه روحه، يقول ابن الخطيب: "... وَلَمَّا طَلَعَ الْآنَ الْوَلَدُ عَبْدُ اللَّهِ يَسَّرَ اللَّهُ نَجَابَتَهُ، وَعَجَّلَ تَلْبِيئَهُ لِدَاعِي الرُّشْدِ وَإِجَابَتِهِ، اغْتَنَمْتُ لَهُ فُرْصَةَ الْعُمُرِ عِنْدَ امْكِانِهَا، وَاهْتَبَلْتُ غُرَّةَ الدُّنْيَا الْمُتَقَلِّبَةِ بِسُكَّانِهَا، وَأَعَدَدْتُ لَهُ الْعَتَادَ الَّذِي يَجِدُهُ، وَاسْتَدْعَيْتُ لَهُ الْمَدَدَ الَّذِي يُنْجِدُهُ... وَظَهَرَ لِي الْآنَ أَنَّ أَيْسَرَ لَهُ مَجْمُوعَ هَذِهِ الْأَنَاشِيدِ، لِيُحَاضِرَ بِهَا وَيَتِمَّلَ، وَيَتَأَسَّسَ الْبَيَانُ لِذِكْرِهَا لَدَيْهِ وَيَتَأَثَّلَ^(١٤٩)".

كما أشاد بحسن ترتيبه وتنويع أغراضه قائلاً: "... فِي رِقَاعٍ تَزْهُو بِالْقَلَائِدِ، وَتُجْعَلُ تَمَائِمٌ عَلَى نُحُورِ الْوَلَائِدِ، عَلَى تَرْتِيبٍ مَعْلُومٍ، وَوَصْفٍ مَرْسُومٍ، مِنَ الْمَدْحِ وَمَا يُقَارِبُهُ، وَالنَّسِيبِ وَمَا يُنَاسِبُهُ، وَالْوَصْفِ وَإِنْ تَشَعَّبَتْ مَذَاهِبُهُ، وَالْمُحِ وَمَحَاسِنِ الشَّيْءِ وَمَعَايِبِهِ، وَالْحَكْمِ وَالزُّهْدِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ وَاجِبُهُ، فَجَاءَ تَمَامُهُ نُسْكَ، وَخَتَامُهُ مِسْكَ، لِيَكُونَ أَجْمَعُ لِلْفِكْرِ، وَأَسْهَلُ لِلذِّكْرِ، وَمِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْفَلَاسِفَةِ^(١٥٠): لِكُلِّ شَيْءٍ صِنَاعَةٌ، وَحُسْنُ الْاِخْتِيَارِ صِنَاعَةُ الْعَقْلِ^(١٥١)".

أما عن سعة المعين الثر الذي نهل منه ابن الخطيب هذه الأناشيد، وانتخب منه هذه الأشعار، فيقول: "... وَلَمْ أَقْتَصِرْ مِنْ فُنُونِ غَرَائِبِهَا عَلَى فَنٍّ، فَجَعَلْتُ عَقَائِلَهَا تَتَزَاخَمُ عَلَيَّ تَزَاخُمَ الْحُورِ عَلَى سَاكِنِ جَنَاتِ الْحُبُورِ، فَقَيَّدْتُ مِنْ شَوَارِدِهَا بِالْكِتَابِ مَا لَا تُقَلُّهُ نَوَاتُ الْأَقْتَابِ... فَكَانَ مَا قَيَّدْتُهُ مِنَ الْغُرَرِ، وَأَنْتَقَيْتُهُ مِنْ نَفَائِسِ تِلْكَ الدَّرَرِ،

أَنَاشِيدُ لَوْ تَجَسَّدَتْ لِلْعُيُونِ لَكَانَتْ يَاقُوتًا، أَوْ اسْتُطْعِمَتْ لَكَانَتْ لِلْقُلُوبِ قُوتًا، وَلَوْ وَرَدَ
الْأَمْرُ فِي الْخَبَرِ الْمَنْقُولِ بِحِفْظِ نَتَائِجِ الْقَرَائِحِ وَالْعُقُولِ، لَكَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا،
مِنْ كُلِّ عِرَاقِيَّةٍ الْمُنتَمَى، مُتَرَدِّدَةً بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَمَحْرَابِ الدُّمَى، مَاءُ الرَّافِدَيْنِ عَلَى
أَعْطَافِهَا يَسِيلُ، وَسُرٌّ مَنْ رَأَى مَا أَنْجَلَى عَنْهُ حَدُّهَا الْأَسِيلُ، وَشَامِيَّةٌ تَقَلَّبَتْ بَيْنَ الْجَابِيَةِ
وَالْبِلَادِ أَيْ مُنْقَلَبٍ، وَبَقِيَّةٍ مِمَّا تَرَكَ آلُ حَمْدَانَ فِي حَلَبٍ، وَحِجَازِيَّةٌ وَرِي لَهَا فِي الْفَصَاحَةِ
الرَّزْدُ، وَتَضَوَّعَ مِنْ أَذْيَالِهَا الشَّيْخُ وَالرَّزْدُ، وَيَمَانِيَّةٌ تَعَلَّمَتْ صَنَاعَهُ مِنْهَا وَشَيْ بُرُودِهَا،
وَحُرَّاسَانِيَّةٌ غَارَ سَيْحَانُ بِبُرُودِهَا، وَمِصْرِيَّةٌ ضُرِبَ عَلَى مَحَاسِنِهَا الْفُسْطَاطُ...
وَإِفْرِيقِيَّةٌ تَفَرَّقُ النُّفُوسُ لِتَوْفَعِ فِرَاقِهَا... وَعَرَبِيَّةٌ حَطَّتْ لَهَا الْعُصْمُ، وَطَلَعَتْ آيَاتُهَا مِنْ
الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الْحَصْمُ، وَأَنْدَلُسِيَّةٌ لَهَا الْمَرْيَّةُ وَالشُّفُوفُ^(١٥٢).

ثالثاً - المقامات:

من الأغراض التي نسج ابن الخطيب على منوالها في هذه المدة، المقامة الأدبية
التي تعتمد السجع جرساً، والتكلف صنعة، والمحسنات اللفظية أداة، لكنها عند ابن
الخطيب امتازت بتساقق المبنى مع المعنى، وكانت للنفوس مغنى، إذ الفوائد من
طروسها تجنى.

١ - مِغْيَارُ الْأَخْتِيَارِ فِي أَحْوَالِ الْمَعَاهِدِ وَالْدِيَارِ^(١٥٣):

قَرَضَهُ ابْنُ الْخَطِيبِ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمَوْجِزَةَ: "وَمِنْهَا الْجُزْءُ الْمُسَمَّى بِمِغْيَارِ
الْأَخْتِيَارِ فِي أَحْوَالِ الْمَعَاهِدِ وَالْدِيَارِ" كِتَابٌ غَرِيبٌ مُصَوِّرٌ لَمْ يُسَبِّقْ إِلَى غَرَضِهِ^(١٥٤).
بناه على الوصف الجغرافي الطبيعي للعديد من المدن والقواعد الأندلسية
والمغربية، وجعله في مجلسين المجلس الأول عرض من خلاله للمدن الأندلسية،
والمجلس الثاني عرض من خلاله للمدن المغربية.

ولقد قدم للمجلسين بمقدمة أبان من خلالها عن الغرض، وعين شخوص
المقامة، فتألفت من الراوي الغريب المتعطش للمعرفة، والسؤال، والشيخ الذي صقلته
المواهب، وسددته التجارب، يضاف إليهما شخص الحاكي الناقل.

أما المكان فهو خان من الخانات التي تجمع جَوَابَ الْأَقْطَارِ ومخترقي الأمصار.

قال ابن الخطيب على لسان الحاكي الذي تحدّد من خلال كلامه الغرض: "حَدَّثَ مَنْ يُعْنَى بِالْأَخْبَارِ يَنْقُلُهَا، وَالْحَكَمَ يَصْقُلُهَا، وَالْأَسْمَارَ يَنْتَقِيهَا... وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ تَفْضِيلِ الْبُلْدَانِ، وَذِكْرُ الْقَاصِي وَالِدَّانِي، وَمَزَايَا الْأَمَاكِينِ، وَخَصَائِصِ الْمَنَازِلِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْمَقَابِحِ وَالْمَحَاسِنِ، وَالطَّيِّبِ وَالْأَسَنِ، قَالَ:

ضَمَنِي اللَّيْلُ وَقَدْ سَدَلَ الْمَسَحَ رَاهِبُهُ... فَلَمَّا أَرَحْتُ الْكُلْفَةَ، وَأَقْضَمْتُ جَوَادِي الْعُلْفَةَ، وَأَعْجَبْتَنِي مِنْ رُفَقَاءِ الرَّفْقِ الْأُلْفَةَ، رَمَقْتُ فِي بَعْضِ السَّقَائِفِ آمِنًا فِي زِيٍّ خَائِفٍ، وَشَيْخًا طَافَ مِنْهُ بِالْأَرْضِ طَائِفٌ... حَكَمَ لَهُ بَيَاضُ الشَّيْبِ بِالْهَيْبَةِ، وَقَدْ دَارَ بِذِرَاعِهِ لِلْسُّبْحَةِ الرَّقْطَاءُ حَنْشٌ... وَإِلَى يَمِينِهِ دَلْوٌ فَاهِقٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ تَلْمِيذٌ مُرَاهِقٌ، وَأَمَامَهُ حِمَارٌ نَاهِقٌ^(١٥٥).

ثم قال في نص آخر يصف حاله ويستثير شجونه، متوسلاً بجواره مع غلامه، لتبرير ارتماؤه في أحضانه مستغرقاً في سؤاله: "ثُمَّ أَنَّ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْقَوْمِ إِلَّا مَنْ أَشْفَقَ وَحَنَّ، وَقَالَ وَقَدْ هَزَّتْهُ أَرْيَحِيَّةٌ: عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ وَتَحِيَّةٌ فَقَدْ نَلْنَا الْأَوْطَارَ، وَرَكَبْنَا الْأَخْطَارَ، وَأَبْعَدْنَا الْمَطَارَ، وَاخْتَرَقْنَا الْأَقْطَارَ، وَحَلَبْنَا الْأَشْطَارَ، فَقَالَ فَتَاهُ: وَقَدْ افْتَرَّتْ عَنِ الدَّرِّ شَفَتَاهُ، مُسْتَثِيرًا لِشُجُونِهِ...

- وَمَاذَا بَلَغَ الشَّيْخُ مِنْ أَمْدِهَا... حَتَّى يُفْضَى مِنْهُ عَجَبٌ، أَوْ يُجْلَى مِنْهُ مُحْتَجَبٌ؟ فَأَخَذَتْهُ حَمِيَّةُ الْحَفَاطِ لِهَذِهِ الْأَلْفَاطِ، وَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ؛ مَثَلِي مِنَ الْأَقْطَابِ يُخَاطَبُ هَذَا الْخَطَابِ^(١٥٦)

وَيَسْتَرْسِلُ الشَّيْخُ فِي الْكَشْفِ عَنْ حَالِهِ، وَتَعْدِيدِ مَوَاهِبِهِ، وَوَصْفِ تَجَارِبِهِ، فَيَقُولُ مِنْ جُمْلَةٍ مَا يَقُولُ: "... وَأَيُّمُ اللَّهِ، لَقَدْ عَقَدْتُ الْحُلُقَ، لِبَسْتُ مِنَ الدَّهْرِ الْجَدِيدَ وَالْحَلِيقَ... وَخُضْتُ الْمُنُونِ، وَصَدْتُ الضَّبَّ وَالنُّونَ، وَخَذِفْتُ الْفُنُونُ... وَأَقْتَحَمْتُ الْمَهَالِكَ وَالْمَكَارَةَ، وَجُبْتُ الْبِلَادَ^(١٥٧).

ثم يقول الحاكي على لسان الراوي كاشفاً عن أسباب اقترابه، والعلوق بأسبابه، وولوج عالمه: "... ثُمَّ أَجْهَشَ بِبُكَائِهِ، وَأَعْلَنَ بِاشْتِكَايِهِ... فَتَمَلَّكْتَنِي لَهُ رِقَّةٌ وَهَرَّةٌ لِلتَّمَاسِكِ مُسْتَرِقَّةٌ، فَهَجَمْتُ عَلَى مَضْجَعِهِ، هُجُومًا أَنْكَرُهُ... فَقُلْتُ لَهُ:

- عَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، نَابَ حَنْتٌ إِلَى حَوَارٍ، وَغَرِيبٌ أَنْسَ بِجَوَارٍ، وَخَائِرٌ اهْتَدَى بِمَنَارٍ^(١٥٨).

- ثُمَّ أَرَدَفَ الرَّأْيِي يَصِفُ رَدَّ فِعْلِ الشَّيْخِ تُجَاهَ تَصَرُّفِهِ: "... فلما وَقَمَ الْهَوَاجِسَ وَكَبَّتْهَا، وَتَأَمَّلَ الْمَخِيلَةَ وَاسْتَنْبَتَهَا، تَبَسَّمَ لِمَا تَوَسَّمَ... وَهَاجَ مِنْهُ الْبَحْرُ الزَّائِرُ، وَأَتَى بِمَا لَا تَسْتَطِيعُهُ الْأَوَائِلُ وَالْأَوَاخِرُ... فَلَمَّا ذَهَبَ الْحَجَلُ وَالْوَجَلُ، وَطَالَ الْمَرْوِيُّ وَالْمُرْتَجَلُ... وَتَشَوَّقَتْ لِلنُّجُومِ الْمَوَاقِعُ، وَتَوَرَّدَتِ الْخُدُودُ الْفَوَاقِعُ، قُلْتُ:
- أَيُّهَا الْحَبْرُ، وَاللُّجُ الَّذِي لَا يَنَالُهُ السَّيْرُ... كَأَنَّا بِاللَّيْلِ قَدْ أَظْهَرَ لِيُشَكِّ الرِّجِيلَ الْهَلْعَ، فَأَوْلِنِي عَارِفَةً مِنْ مَعَارِفِكَ أَقْتَنِيهَا، وَاهْرُرْ لِي أَفْنَانَ حِكْمِكَ أَجْتَنِيهَا، فَقَالَ:
- أَمَلٌ مُيَسَّرٌ، وَمُجْمَلٌ يَحْتَاجُ أَنْ يُفَسَّرَ، فَأَوْضِحِ الْمَلْغَزَ... وَسَلِّ عَمَّا بَدَأَ لَكَ... فَقَالَ:
- سَلِّ وَلَا تَسَلِّ، وَلَوْ رَاعَكَ الْأَسَلُّ.
- قُلْتُ:
- انْفِضْ لِي بِالْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، مِنْ أَطْرَافِهَا، وَمَيِّزْ بِمِيزَانِ الْحَقِّ بَيْنَ اغْتِدَالِهَا وَأَنْحِرَافِهَا، ثُمَّ انْثُلْهَا بِالْبِلَادِ الْمَرِينِيَّةِ، وَاجْلُ بَنُورِ بَيَانِكَ غَسَقًا مُوفِيًا بِالْمَرْغُوبِ" (١٥٩).

وبهذا الأسلوب الغني الرائع يلج إلى تحقيق المطلوب، ويشرع في وصف البلاد الأندلسية والمغربية موفياً بالمرغوب.

٣ - قَطْعُ الْفَلَاةِ بِأَخْبَارِ الْوَلَاةِ (١٦٠):

وهي عبارة عن مقامة، قال ابن الخطيب في مناسبتها: "بَاتَ عِنْدِي أَحَدُ الشُّرَفَاءِ، مِمَّنْ شَأْنُهُ انْتِبَاهُهُمْ انْتِيَابُ الْوَلَاةِ، فَأَجْرَى ذِكْرَ جَمِيعِهِمْ، وَمَيِّزَ بَيْنَ أَدْنَاهُمْ وَرَفِيعِهِمْ، فَضَمَمْتُ ذَلِكَ الْكَلَامَ الْمُحِبَرِ، وَسَمَّيْتُهُ بِمَا ذَكَرَ (١٦١).

تتألف من حوالي إحدى عشرة صفحة أوجزها في العبارات الآتية كشفاً عن نهجها، وبياناً لفنها.

افتتح ابن الخطيب المقامة بقوله على لسان أحد شخوصها، وهو الحاكي: "حَدَّثَ مَنْ يُنْظَمُ قَوَائِدَ الْأَخْبَارِ فِي سِلْكِ قَصَصِهِ، وَيَدُوسُ حَيَاتِ الطَّرِيقِ بِأَحْمُصِهِ، وَيُطَارِدُ شَوَارِدَ الْمَكَارِمِ فَتُصْبِحُ مِنْ قَنَصِهِ (١٦٢).

وقال على لسان الراوي مُبيناً عن ظروف الحكاية الزمانية والمكانية: "... فَبَيْنَمَا

أَنَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، وَقَدْ وَصَلَتِ الْهَاجِرَةُ، وَتَبَرَّجَتِ الْمَفَازَةُ الْفَاجِرَةُ، وَسُورَةُ الْقَيْظِ
تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ، وَشَهْرُ نَاجِرٍ، قَدْ أَخَذَ بِالْحَنَاجِرِ، وَالشَّمْسُ قَدْ رَكِبَتْ سَنَامَ حَطِّ
الرُّوَالِ... وَالْمَطِيَّةُ قَدْ سَيَّمَتِ الذَّرْعَ وَالتَّكْسِيرَ، وَالظَّلُّ مَرَامُهُ مِنَ الْعَسِيرِ، وَالْمَاءُ بِمَنْزِلَةِ
الْإِكْسِيرِ، إِذْ رُفِعَتْ لِي عَلَى الْبُعْدِ سَرَحَةٌ فَرِيدَةٌ عَنِ اللَّدَاتِ... فَهِيَ فِي الْمَجْهَلِ
شَامَةٌ... كَأَنَّهَا فِي جِلْدِ الْيَبَابِ شَامَةٌ، فَمِلْتُ إِلَى سَمَتِهَا وَأَنْحَرَفْتُ... فَمَا كَانَ إِلَّا فَوَاقُ
حَرْفٍ، لَا بَلَّ ارْتِدَادُ طَرَفٍ، حَتَّى غَشِيَتْ مِنْهَا عَقِيلَةٌ فَلَاةٍ، وَخَدَرَ سِغْلَاةٍ... ظَلَلْتُ مِنَ
الْأَرْضِ حَجَرًا مَدْحُورًا، وَمَهْرَقًا مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ مَمْحُورًا، وَدَمِيمًا وَسَهْلًا، وَرَحْبًا وَأَهْلًا،
وَشَيْخًا وَكَهْلًا، وَعِلْمًا وَجَهْلًا، هَرَمَةً مُسِنَّةً، تَتَخَلَّلُ سَمَاءُهَا الْخَضْرَاءُ شُهْبَانًا، وَأَسِنَّةً،
وَتَتَشَبَّثُ بِأَهْدَابِهَا أَرْسَانًا وَأَعْنَةً، وَتَمُوجُ فِي ظِلِّهَا إِنْسٌ وَجِنَّةٌ، كَأَنَّمَا ضَرَبَتِ الصَّخْرَةَ
الصَّمَاءُ بَعْصَاهَا، فَطَاعَهَا الْعَذْبُ الْفُرَاتُ وَمَا عَصَاهَا، فَانْسَابَ بَيْنَ يَدَيْهَا تُغْبَانُ تُرَاعُ
لَهُ وَهَادٌ وَكُتْبَانٌ، يَشْفُ حِشَاهُ عَنْ حَصَى تُغْلَطُ الْعَارِفُ مِنَ الصِّيَارِفِ... فَحَيَّيْتُ الْجَمْعَ
بِأَحْسَنِ حَيَاتِهِ، وَأَتَحَفْتُ الرُّوحَ مِنْ ذَلِكَ الْعَذْبِ الْبَرُودِ بِحَيَاتِهِ، وَتَلَوْتُ " وَكَذَلِكَ يُخَيِّ
اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ "، وَقُلْتُ: حَيَّاكَ اللَّهُ مِنْ خَمِيلَةٍ، وَفَاتِنَةٍ جَمِيلَةٍ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَنِ اغْتَنَمَ الْمَقِيلَ... وَالْمَ بِالنَّوْمِ الْخَفِيفِ، عَلَى الرَّحْلِ التَّقِيلِ، لَا يُثِ
عِمَّةً عَلَى هِمَّةٍ... وَقَدْ عَبَثَ الْوُخْطُ مِنْهُ بِلِمَّةٍ... فَاشْرَابَ عِنْدَ سَمَاعٍ إِنْشَادِي، كَمَا
يَشْرَبُ الرِّيمُ، وَهَزَّتْ حُمَيَّا الْأَدَبِ مِنْهُ عَطْفَ كَرِيمٍ، وَصَاحَ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ يُنْبِي عَنْ
مَنْصِبٍ شَهِيرٍ: مَنْ هَذَا الطَّارِقُ؟ وَمَتَى أَوْمَضَ هَذَا الْبَارِقُ؟

إِنِّي لَأَنْسُ مَخِيلَةً غَيْرَ بَخِيلَةٍ، وَأَنْظُرُ إِلَى مَظَنَّةٍ غَيْرِ ذَاتِ عِنَّةٍ، لِيَدُنْ مِنْي جُورَاكَ،
وَيُزَعُ جُورَاكَ..."

ثُمَّ قَالَ: "... وَلَمْ يَزَلْ يُحَاجُّ وَيُيَسِّمِلُ وَيُفَسِّرُ وَيُجْمِلُ... فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْ مِهَادِهِ،
وَرَكَّضْتُ فِي رُبَا الْحَدِيثِ وَوَهَادِهِ، وَأَصَبْتُ مِنْ زَادِ طَرِيقِهِ، وَأَنْخَرَطْتُ فِي فَرِيقِهِ،
وَأَطْرَقَنِي بِأَحَادِيثِ تَغْرِيْبِهِ وَتَشْرِيقِهِ، سَفَرَ مِنْهُ الْأَخْبَارُ عَنْ نَجَارِ هَاشِمِيٍّ، وَكَرَمِ
حَاتِمِيٍّ، وَدَارِ فَارِسِيٍّ، وَمَنْصِبِ رِيَاسِيٍّ (١٦٣).

ثُمَّ قَالَ: " لَمَّا انْخَفَضَ قَرْنُ الْغَزَالَةِ، وَلَانَ طَبْعُ الْهَوَاءِ بَعْدَ الْجَزَالَةِ... وَقُلْتُ أَيْهَا

الرَّفِيقُ الْبَرُّ الصَّحَابَةِ، الْأَعَزُّ السَّحَابَةِ، إِنَّ الشُّقَّةَ بَعِيدَةٌ... وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَى الْمَرَّاجِلِ إِذَا سَطَتْ وَاسْتَطَالَتْ... إِلَّا بِتَقَارُبِ الْأَخْبَارِ الْمَنْقُولَةِ، وَالْآدَابِ الْمُهَذَّبَةِ الْمَصْفُورَةِ، فَقَالَ:

— أثير الكامين...

— قلتُ: أَفْسَحْ لِي مَجَالَ غَرْضِكَ، وَاشْرَحْ لِي مَعْنَى جَوْهَرِكَ وَعَرْضِكَ... فقال: أَنَا كَالشَّمْسِ أَجُوبُ هَذِهِ الْمَنَازِلَ مَرَّةً فِي كُلِّ سَنَةٍ... أَطْوِي الْفَلَاةَ، أَبْهْرِجُ الْوَلَاةَ، فَهُمْ يَرْقُبُونَ النَّوْبَةَ، وَيَتَوَقَّعُونَ الْأَوْبَةَ وَيَسْتَعِدُّونَ لِخُرُوجِ دَابَّتِي الَّتِي تُكَلِّمُهُمْ بِالْإِقْلَاعِ وَالتَّوْبَةِ...

فَقُلْتُ: لَعَمْرِي لَقَدْ انْتَصَلَ نِطَاقُ الْكَلَامِ، وَطَالَ مَدَى التَّلَاوَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْإِقَامَةِ وَالسَّلَامِ، فَأَعْرِضْ لِي الْقَوْمَ غَرْضًا، وَصِفِ الْمَوَارِدَ عَمْدًا وَفَرْضًا، وَمَيِّزِ الْهِمَمَ سَمَاءً وَأَرْضًا، وَأَخِيطِ الْعَصَاةَ بِعَصَاكَ حَتَّى تَرْضَى، فَفَهَّقْهَا فَهَّقْهَا الشَّقْشَقِ، وَتَأَوَّهْ تَأَوَّهَ الْعُشَّاقِ، وَكَأَنَّهَا كَانَتْ حَاجَةً فِي نَفْسِهِ فَقَضَاهَا... فَشَامَ نِصَالَهُ، وَانْتَضَاهَا.

وَقَالَ: حُذِّهِمُ بِالْتَّلَابِيبِ، وَاجْتَنِّهِمْ بِحُجَزِ الْجَلَالِيبِ... وَابْدَأْ بِمَنْ تُرِيدُ، وَأَرْسِلْ فِكْرَكَ خَلْفَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَمَنْ غَابَ عَنْكَ فَخَيِّلِ الْبَرِيدَ.

قُلْتُ: الْحَضْرَةُ وَجِبَاتُهَا^(١٦٤).

ثم يسترسل بعدئذ في عرض أحوال الجبابة أو الولاية، واحداً تلو الآخر، مادحاً من استحق المدح، هاجياً من استحق ذلك، في وصف دقيق، وأسلوب رشيق، تلوح معانيه الطريفة كالبريق، خلل السجعات التي انتظمت كالعقيق.

منهم من ذكر اسمه، ومنهم من ترك البياض في موضعه، وقد أكد الاستقراء أن الذين لم تذكر أسمائهم هم أولئك الذين هجاهم، أما الذين مدحهم، فقد ذكرت أسمائهم، ولعل هذا ما يبرر البياض الذي خصت به مواضعهم، ولا يستبعد أن يكون هذا من فعل النساخ، أو مالك النسخة التي وصلت إلينا.

وإذا كان الأصل قد تضمن الأسماء صراحة، فإنه يكون من أبرز الأدلة على جرأة ابن الخطيب من جهة، وصلاحيات الأديب والمؤرخ الذي كان يتمتع بهامش

كبير من الحرية من جهة ثانية، يتربع سلطان الكلمة عنده على منبر، لا ينازعه فيه صاحب نفوذ سياسي أو جاه دنيوي، وهذا ملمح لطيف، واعتبار طريف.

وأخيراً ختم المقامة بعبارات حاول من خلالها تبرئة ذمة الراوية، وتحميله عهدة الرواية، لأنه كان ناقلاً عنه بالدراية، يقول: "... وَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْحَدَّ كَأَنَّمَا كَانَ ثَوْبُ الْحَدِيثِ عَلَى جَسَدِ الرَّحْلَةِ مَقْدُودًا... وَعَادَ إِلَى مَرْكَزِهِ عَقِبَ مَدَارِهِ، وَعَلِقَ بِقَلْبِي كَلَامُهُ، فَاسْتَقَرَّ فِي اخْتِزَانِهِ، فَأَنَا أَرِنُ الْقَوْمَ بِمِيزَانِهِ، وَاللَّهُ يَتَعَمَّدُ مَا يُوَاقِعُهُ الْعَبْدُ مِنْ هَفْوَةٍ لِسَانِهِ، وَيُغْطِي الْإِسَاءَةَ بِإِحْسَانِهِ" (١٦٥).

ولا يخفى على القارئ أن الراوية هو ابن الخطيب نفسه منتحلاً شخصه تورية ليلبغ رأيه.

رابعاً - الشعر:

الْمَنْحُ الْغَرِيبُ فِي الْفَتْحِ الْقَرِيبِ:

هي قصيدة شعرية، ولكنها ليست كغيرها من قصائده، حيث أخذها الطول، فبلغت أزيد من مئتي بيت فاستحقت لأجل طولها أن يفرد لها حديث، وتخص بتنويه، فهي من عيون قصائده، ومن تحف طرائفه.

إنها القصيدة التي نظمها وأعدّها لأن تنشد على مسامع سلطانه الغني بالله حين استقراره - إن شاء الله - على أريكة ملكه، وقد خرج لاسترجاعه.

قدم لها بقوله: " وَنَظَّمْتُ الْقَصِيدَةَ لِإِنْشَارِهِ إِيَّاهَا عِنْدَ تَمَلِّي الْمَنِيخَةِ، وَتَهْنِئِ الْمَوْهَبَةِ، فَتَعَدَّدْتُ مِنْهَا الْأَغْرَاضَ، وَأَخَذَهَا الطُّولُ، وَتَفَنَّنْتُ مِنْهَا الْمَقَاصِدَ. وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي أَغَثَرْتُ عَلَيْهَا التَّجَرِبَةُ، إِخْفَاقُ الْمَسَاعِي فِي الْأَغْرَاضِ الَّتِي تُقَدِّمُ لَهَا الْقَصَائِدَ، وَالْإِنْشَاءَاتُ، وَتُرْوَى الْخُطْبُ وَالْمَنْظُومَاتُ، لِيَتَبَرَّأَ قَضَاءُ اللَّهِ مِنْ تَحَكُّمِ الْبَشَرِ، وَتَبْدُو مَزِيَّةُ الْقَدَرِ، وَأَنَا أَجْلُبُ الْقَصِيدَةَ عَلَى جِهَةِ الْإِحْمَاضِ وَالْتَّنْشِيطِ، إِذْ فَائِدَتُهَا مَعَ تَمَامِ الْأَمْرِ وَإِحْقَاقِهِ، حَاصِلَةٌ لِمَنْ ارْتَادَ الْأَدَابَ، وَكَلَّفَ بِالْفَضَائِلِ، وَتَشَوَّفَ إِلَى الْأَنْحَاءِ الْبَلَاغِيَةِ، وَالْمَقَاصِدِ، وَهِيَ:

الْحَقُّ يَغْلُو وَالْأَبَاطِلُ تَسْفُلُ وَاللَّهُ عَنْ أَحْكَامِهِ لَا يُسْأَلُ

ويفهم من كلام ابن الخطيب الأنف حرجه من نظم القصيدة، وقد تحدث عن أغراض جزم بتحقيقها وهي ما تزال في رجم الغيب وأسر القدر، وعلى الرغم من ذلك لكأني بالقارئ، وهو يقرأ القصيدة، لا يفارقه الشعور أنها نظمت بعد أن أفلح السلطان في استرجاع ملكه المغتصب، وهذه من الموافقات اللدنية والهبات الربانية، لعلها من بركات التوبة، ونفحات الأوبة، حتى إن ابن الخطيب علق على ذلك بقوله حينما تحقق الأمر وعاد إلى وطنه: "وَلِحِينَ الْإِسْتِقْرَارِ بِالشَّمْلِ الْمَجْمُوعِ، وَالْعَزِّ الْجَدِيدِ، وَالْدُّنْيَا الْمُسْتَأْنَفَةِ، أَنْشَدْتُهُ الْقَصِيدَةَ الَّتِي تَقَدَّمَ نَظْمُهَا "بِسْلا" كَأَنَّمَا كُوشِفَتْ الْعَيْبُ أَوْ أُطْلِعَتْ عَلَى الْعُقْبَى وَهِيَ الْمُسَمَّاءُ بـ" الْمُنْحُ الْغَرِيبُ فِي الْفَتْحِ الْقَرِيبِ" (١٦٦).

هذا وينبغي التنبيه على أن ابن الخطيب نظم العديد من القصائد والمقطوعات، تنوعت أغراضها ومناسباتها، وكذا الرسائل السلطانية والإخوانية التي يصعب عرضها في هذا المقام إذ يغني عن ذلك النظر في كتاب نفاضة الجراب.

المبحث الثالث عبور الملك المخلوع إلى الأندلس واستعادة ملكه

المطلب الأول حيثيات العبور وملابساته

المقصد الأول - إلحاح ملك قشتالة ومراسيم العبور:

أولاً - إلحاح ملك قشتالة على عبوره:

لما تفاقمت الأوضاع في الأندلس عقب الانقلاب الثاني الذي حدث ليلة السابع والعشرين من شعبان عام ٧٦١هـ-١٣٦٠م، على يد الرئيس أبي سعيد البرميخو المتغلب تجاهه وتجاه سلطان المغرب، والتي وصفها ابن الخطيب بقوله: "وَسَاءَ تَدْبِيرُهُ فِي مُعَادَاةٍ مَنْ يُجَاوِرُهُ مِنْ مَلِكِي الْمَغْرِبِ وَقَشْتَالَةِ" (١٦٧).

وقال أيضاً: "وَسَاءَتْ مُحَاوَلَتُهُ [البرميخو] طَاغِيَةَ الرُّومِ [ملك قشتالة]، فَتَمَرَّسَ بِهِ، وَآثَرَ الْحِرَانَ فِي مُعْتَادِ أَغْرَاضِهِ لِفَسَادِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّ بَرْشَلُونَةَ [ملك أرجون بدرو الرابع] وَأَعْطَاهُ الذِّمَّةَ، فَعِنْدَ فَرَاغِهِ مِنْ صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمَا فَغَرَ عَلَيْهِ فَاهُ، وَشَمَّرَ لِطَالِبَتِهِ" (١٦٨).

واغتتم أيضاً سوء علاقته تجاه سلطان المغرب أبي سالم، وامتناعه بما عنده من الأعياص المرينيين المعتقلين المدخرين للنوائب، قال ابن الخطيب: "وَحَشُنَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلِكِ الْمَرِينِيِّ فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي إِلَيْهَا تَحَيَّرَ لَاغْتِرَازُهُ بِمَنْ فِي اغْتِقَالِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ الْمُغْرَى بِهِمْ لِسَانِ الْإِرْجَافِ، فَرَجَعَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ حُيْبَ اللَّبَانَاتِ مِنْ بَابِهِ" (١٦٩).

فطالب ملك قشتالة بإلحاح ملك المغرب أبا سالم بإجازة الملك المخلوع إليه، وعرض عليه التعاون من أجل رده إلى ملكه، فوافق على مضض، وبعد تردد.

ولقد أورد ابن خلدون نصاً طريفاً يميّط الحجاب عن أسباب هذا التردد، وله

صلة بظاهرة اللجوء السياسي، ومشیخة الغزاة، السالفة الذكر، يقول: "ولمَّا أَجَاَزَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْلُوعُ ابْنَ أَبِي الْحَجَّاجِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ، وَصَارَ إِلَى إِيَالَتِهِ، رَأَى أَنَّ قَدْ مَلَكَ أَمْرُهُ فِي هَؤُلَاءِ الْمُرْشَحِينَ بِغِرْنَاطَةَ [أبناء الملوك من قرابته اللاجئين في غرناطة]، وَرَاسَلَ الرَّئِيسَ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ تَوَثُّبِهِ عَلَى الْأَمْرِ وَاسْتِئْذَانِهِ أَهْلَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَجَّاجِ، فَرَاسَلَهُ فِي اغْتِقَالِهِمْ، عَلَى أَنَّ يُمْسِكَ الْمَخْلُوعَ عَنِ التَّهَامِ، وَيَقْبِضَ عَنَانَهُ عَنِ الْهَوَى إِلَيْهِ، فَأَعْتَقَلَهُمْ ثُمَّ فَسَدَ مَا بَيْنَ الرَّئِيسِ وَالطَّاغِيَةِ، وَزَحَفَ إِلَيْهِمْ وَالتَّهَمَ كَثِيرًا مِنْ حُصُونِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعَثَ إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ فِي أَنْ يُخْلِيَ سَبِيلَ الْمَخْلُوعِ إِلَيْهِ، فَأَمْتَنَعَ وَفَاءً لِلرَّئِيسِ ثُمَّ دَافَعَ الطَّاغِيَةُ عَنْ تَغَوُّرِهِ بِإِسْعَافِ طَلَبِهِ، فَجَهَّزَ الْمَخْلُوعَ" (١٧٠).

ومما يؤكد حرص ملك قشتالة، وإصراره على إجازة الملك المخلوع نكابة في "البرميخو" ومزيداً من تقوية مركزه وتحقيق مآربه قول ابن الخطيب أيضاً: "وَالْحَقُّ سُلْطَانُ قَشْتَالَةَ فِي تَسْلِيمِ السُّلْطَانِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ لِيَتَوَلَّى شَدَّ أَرْزِهِ، وَيَجْتَهِدَ فِي جَبْرِ حَالِهِ، وَالْقِيَتْ إِلَيْهِ الْمَعَاذِيرُ فَنَبَا عَنْهَا سَمْعُهُ، وَرَقَّقَ عَنْ غَرَضِهِ فِي رَفْعِ السَّلِيمِ عِنْدَ إِخْفَاقِ مَطْلَبِهِ، وَلَمْ يَقْبَلِ الْعَوْضَ مِنْ ضَرْوبٍ مُلَاطَفَتِهِ، فَتَرَجَّحَ الرَّأْيُ عَلَى تَوْجِيهِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ" (١٧١).

ولقد ذكر ابن خلدون في نص له أن الذي سعى له في الرجوع بمخاطبة ملك قشتالة هو أبو سعيد عثمان (١٧٢) بن شيخ الغزاة على عهده أبي زكريا يحيى بن عمر إلى المغرب (١٧٣) إبان دولة أبي سعيد "البرميخو" قال: "... ثُمَّ خَلَصَ [أَبُو زَكْرِيَا يَحْيَى] إِلَى تُخُومِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَلَحِقَ مِنْهَا بِسُدَّةِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ... وَخَلَفَ ابْنَهُ أَبَا سَعِيدٍ عُثْمَانَ بِدَارِ الْحَرْبِ... إِلَى أَنْ بَعَثَ مَلِكُ قَشْتَالَةَ فِي السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ، بِإِشَارَةِ ابْنِهِ أَبِي سَعِيدٍ وَسَعِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ، لِيُجْلِبَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِمَا نَقَضُوا مِنْ عَهْدِهِ" (١٧٤).

وأشار إلى ذلك ابن الخطيب أيضاً إشارة عامة داخل سياق لا يفي بالغرض، ولا يغني عن التفسير الذي أتحف به نص ابن خلدون، حيث اكتفى بالإشارة إلى "المظاهرة والسعي إلى عودة الدولة" (١٧٥).

ثانياً - مراسيم الانتقال:

وانتقل السلطان المخلوع في موكب مهيب، قد حشرت له الجهود، وأغرى به الترتيب، بعد أن اتخذت كافة التدابير الأمنية من خلال التنسيق بين الدولة المرينية والإيالة القشتالية، قال ابن الخطيب يصف تفاصيل الانتقال وحاله في أسلوب دقيق كعادته: "... فَقَعَدَ السُّلْطَانُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي قُبَّةِ الْعَرْضِ الْمُتَّخَذَةِ بَجَنَّةِ الْمَصَارَةِ، وَوَقَعَ الْبَرِيحُ بِبُرُوزِ النَّاسِ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَفْحِ، وَاسْتُخْضِرَتِ الْبُؤُودُ وَالطُّبُولُ وَأَوْعِيَةُ الْمَالِ صَبِيحَةَ يَوْمِ السَّبْتِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ مِنْ عَامِ التَّارِيخِ [٧٦٢هـ-١٣٦١م].

وَاسْتُخْضِرَ السُّلْطَانُ [الْغَنِيِّ بِاللَّهِ] فَصَعِدَ إِلَى الْقُبَّةِ ثُمَّ نَزَلَ وَقَدْ أَلْبَسَ خِلْعَةَ الْمَلِكِ، وَقُنِيتَ لَهُ فَرَسٌ شَفْرَاءُ مُطَهَّمَةٌ، حَلِيئُهَا ذَهَبٌ بَحْتُ، وَنُشِرَتْ حَوْلَهُ الْأُلُويَّةُ، وَقُرِعَتِ الطُّبُولُ، وَرَكِبَ السُّلْطَانُ مُشَبَّحًا إِيَّاهُ غُلُودَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ وَقَدْ التَّفَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ جَلَى عَنِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ لَدُنِ الْكَائِنَةِ الْوَاقِعَةِ بِهَا فِي حَمَلَةٍ كَثِيفَةٍ، وَبَلَى مِنْ رِقَّةِ النَّاسِ وَاجْجَاشِهِمْ وَعَلُوْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْإِعْجَاءِ مَا قَدَّمَ بِهِ الْعَهْدُ^(١٧٦).

وكانت الأساطيل البحرية المرينية والقشتالية المعدة لإجازته إلى الأندلس راسية في ميناء سبتة ترتقب وصوله، قال ابن الخطيب: "وَقَدْ كَانَ الْأَسْطُولُ [المغربي] تَأَلَّفَ بِفُرْضَةِ الْمَجَازِ مِنْ سَبْتَةَ مُورِيًّا بِجِهَادٍ مِنْ ظَهَرَ بِهِ مِنْ عَدُوٍّ بَرِّشْلُونَةٍ، وَوَصَلَتْ أَسَاطِيلُ الرُّومِ الْمُسَخَّرَةِ فِي غَرَضٍ إِجَارَتِهِ قَدْ أَرْكَبَهَا مَلِكُ النَّصَارَى وَجُوهَ خُدَامِهِ" ^(١٧٧).

وتحليل هذه النصوص يبين عن الحقائق التاريخية الآتية:

أن رجوع السلطان الأندلسي المخلوع كان عقب احتفال عام، واحتفاء خاص تمثل في المظاهر الآتية:

- ١ - جلوس السلطان المغربي لهذا الشأن في قبة العرض بجنة المصاراة.
- ٢ - إعلان النداء في العموم للبروز في الفضاء اللاحب لمشاهدة مراسيم الانطلاق.

- ٣ - استحضار السلطان الأندلسي، وتشريفه بالصعود إلى قبة العرض وتكريمه بخلعة الملك.
- ٤ - رفع البنود ونشر الأولوية والرايات من حوله.
- ٥ - رفع إيقاع الطبول مبالغة في الإعلان والحفاوة.
- ٦ - إتحافه بالفرس الشقراء المظهمة المحلاة بالذهب الخالص.
- ٧ - فضّ صرر وأوعية الأموال المعينة على المهمة.
- ٨ - ركوب السلطان المريني لتشجيعه والسير إلى جانبه مسافة اختصاصا في التنويه.
- ٩ - التفاف الناس حول ركابه لتوديعه، وقد كان ضمنهم جالية كثيرة من أهل الأندلس، عالية أصواتهم بالدعاء دامعة أعينهم رقة.
- ١٠ - تأهب الأسطول المريني بسببة لعملية الإجازة، مورياً بجهد العدو البرشلوني.
- ١١ - وصول الأسطول القشتالي المسخر لإجازته بأمر من ملك قشتالة.

المقصد الثاني - صعوبة المهمة:

أولاً - محنة العبور:

وعلى الرغم من كل هذه العناية والاستعداد، لم يكن عبور الموكب سهلاً، فقد داهمته خطوب، وصادفته أهوال كادت تعصف بحياته، وتودي بذاته، بسبب الصراعات السياسية المعتمدة في المنطقة، سواء على جبهة المسلمين، أو على جبهة النصاري.

إضافة إلى أسباب أخرى تتضح من خلال قول ابن الخطيب: "وَحَثَّ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَصْرِ الْمَوْجَّهَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ رِكَابَهُ إِلَى سَبْتَةَ لَا يُصَدَّقُ بِالْإِفْلَاتِ، وَلَا يَثِقُ بِالنَّجَاةِ، فَعَارَتْ [تلفت ومرضت] لَهُ خَيْلٌ، وَنَفَقَتْ حُمُولُهُ لِشِدَّةِ السَّيْرِ، وَاسْتَقَرَّ بِسَبْتَةَ، وَاسْتَعْجَلَ الْجَوَارَ، وَحَلَّ بِجَبَلِ الْفَتْحِ بَعْدَ مُرَاوَضَةٍ كَبِيرَةٍ لِقَوَادِ الْأَسْطُولِ الرَّؤُومِيِّ وَمَحَاوِرَةٍ، إِذْ تَبَرَّعُوا بِإِجَارَتِهِ، وَلَمْ يَسْمَحُوا فِي خِلَافِ ذَلِكَ لِيَجْلُبُوا الْفَخْرَ لِسُلْطَانِهِمْ، وَيَسْتَبُوا الْحَرَكَةَ إِلَيْهِ، فَأَعْمَلَتِ الْحَيْلَةُ، وَلَفَّقَتِ الْحُجَّةُ، وَقَطَعَ السُّلْطَانُ

أَلْسِنَتَهُمْ بِمَالٍ بَذَلَهُ مُكَارَمَةً لَهُمْ، وَأَرْكَبَ أَجْفَانَهُمْ طَائِفَةً مِنْ كِبَارِ قَرَابَتِهِ، وَاسْتَقَرَّ بِجَبَلِ الْفَتْحِ، وَطَالَ بِهِ مَقَامُهُ تَتَرَدَّدُ الرُّسُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ الرُّومِ" (١٧٨).

فالنص إذاً ينطوي على الحقائق التاريخية الآتية:

- ١ - توجه الركاب السلطاني ميمماً سبته.
- ٢ - سيطرة هواجس التفوق، وتوجه الإخفاق.
- ٣ - تلف عدة من الخيل في الطريق إلى سبته بسبب المرض.
- ٤ - نفاد الحمولة لصعوبة الانتقال.
- ٥ - استعجال الجواز، وعدم المكث في سبته.
- ٦ - الإجازة إلى جبل طارق بعد لأي، وغِبَّ محاورة طويلة، ومراوضة شاقة، للأسباب الآتية:

- أ - لأن قيادة الأسطول لم تقبل باستقرار السلطان بجبل طارق.
- ب - لأن الموافقة على استقراره بجبل طارق ربما كان أمراً مخالفاً لرغبة السلطان القشتالي.
- ت - لأن قيادة الأسطول وافقت على إجازته فقط، لا أقل ولا أكثر.
- ث - لأن القيادة كانت دوافع فعلها هذا استجلاب الفخار والاعتزاز لملكهم من خلال الاضطلاع بإجازته إلى بر عدوة الأندلس.
- ج - أن موافقة قيادة الأسطول على إجازته تمت بعد إعمال الحيلة، وبذل الرشوة، مصانعة ومداهنة.
- ح - إركاب السلطان الغني بالله طائفة من كبار أهل بيته سفناً وإبعادهم إلى ملك قشتالة، ربما في عرض السفارة والمفاوضة.
- خ - الاستقرار بجبل الفتح.
- د - تردد الرسل والبعثات بين السلطان الغني بالله وملك قشتالة.

ثانياً - لقاء ملك قشتالة وعقد الاتفاق:

وبعد مدة تم الترتيب لحصول اللقاء بين الغني بالله وملك قشتالة، وكان لقاء

مشهوداً أيضاً لا يقل قدراً عن حفل التشييع والوداع الذي خصه به سلطان المغرب، قال ابن الخطيب: "ثُمَّ ارْتَحَلَ نَحْوَهُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ مَمَالِيكِهِ، وَوُجِدَ قَرَابَتَهُ، وَتَحَقَّى السُّلْطَانُ بِمَقْدَمِهِ، وَبَالَغَ فِي بَرِّهِ، وَأَفْرَطَ فِي التَّنَزُّلِ لِرُوحَتِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَدَى فِي خُطَا تَلَقِّيهِ، وَأَرْجَلَ الْأَكَابِرَ لِأَدَاءِ حَقِّهِ، وَتَوَسَّعَ فِي نُزُلِهِ، وَعَمَّ بِالْمُلَاحَظَةِ جَمِيعَ مَنْ فِي صُحْبَتِهِ، وَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَمِينِهِ بِالْمُظَاهَرَةِ وَالْمُعَاذَةِ، وَالتَّهَالُكِ مِنْ دُونِ بُغْيَتِهِ، وَسَلَفَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ لِنَفَقَتِهِ^(١٧٩)."

لم تكن هذه المناصرة مجانية، دون مقابل، وإنما كانت لأجل شروط سياسية ومادية جزيلة، كشف عنها قول ابن الخطيب: "... وَشَرَطَ لَهُ [أي ملك قشتالة] أَنْ لَا يَبْتَرِزَهُ حِصْنًا وَلَا يُنْقِصَهُ فَتْحًا، وَلَا يُعَلِّقُ بِهِ طَمَاعِيَّةً، وَأَنَّهُ يَصِلُ مَعَهُ السَّلَامُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَيَبْرُكُ وَصِيَّةٌ فِي عَقِبِهِ"^(١٨٠).

وانكفاً الغني بالله بعدئذ، إلى ظاهر مدينة رندة خط رجعت، ومستودع عدته وعتاده، ومعقل امتناعه وذخيرته، قرير العين بنجح المساعي وانعقاد الاتفاقية، قال ابن الخطيب: "... وَأَنْصَرَفَ مَجْبُورًا، قَرِيرَ الْعَيْنِ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، فَلَحِقَ بِسَائِرِ الْجَيْشِ الْمَرِينِيِّ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ مِنْ قَوْمِهِ بِظَاهِرِ رُنْدَةَ"^(١٨١).

وكانت "رُنْدَةُ" إِبَانِيذٍ مدينة تابعة للإيالة المرينية.

ثالثاً - رُدُّ فعل "البرميخو" وإجازة الأمراء اللاجئين:

أثار إجراء السلطان أبي سالم إبراهيم، المستجيب لطلب ملك قشتالة بإجازة السلطان المخلوع الغني بالله حفيظة الرئيس أبي سعيد "البرميخو" القائم بأمر غرناطة، فبادر إلى إطلاق سراح مجموعة من الأمراء المرينيين الذين كانوا تحت نظره، وأعانهم على الإجازة إلى المغرب للتشغيب على السلطان أبي سالم، والفت في عضده، يقول ابن الخطيب: "وَقَدْ كَانَ الْفَسْلُ^(١٨٢) الْمُتَعَلِّبُ عَلَى الْأَنْدَلُسِ لَمَّا شَعَرَ بِالْعَمَلِ عَلَى إِجَازَةِ السُّلْطَانِ مَعْدُورِهِ الَّذِي كَبَسَ مَضْجَعَهُ، وَابْتَرَأَ أَمْرَهُ، أَخَذَ حِذْرَهُ، وَنَشِطَ لِلْمُقَارَضَةِ، شَرِهًا إِلَى إِقَامَةِ رُسُومِ الْفِتْنَةِ... فَشَرَعَ فِي إِجَازَةِ مَنْ لِنَظَرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ الْمُرْشَحِينَ بِالْمَغْرِبِ لِلْأَمْرِ، وَالْمُتَاهِلِينَ لِإِقَامَةِ سُوقِ التَّشْغِيبِ عَلَى ابْنِ عَمِّهِمْ، وَهُمْ جُمْلَةُ

مِنْهُمْ الإِخْوَةُ الأَرْبَعَةُ الْمُتَعَقِّلُونَ بِبَعْضِ دُورِهِ... وَهُمْ عَبْدُ الْحَلِيمِ وَعَبْدُ الْمُؤْمِنِ، وَمَنْصُورٌ، وَالنَّاصِرُ، بَنُو السُّلْطَانِ... أَبِي عَلِيٍّ عَمْرٍ [أَخِي السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ المَرِينِي]... فَتَنَخَّلَ مِنْهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَعَبْدُ الْحَلِيمِ، وَابْنُ أَخٍ لَّهُمَا، وَأَمْسَكَ الْآخَرَيْنِ لِيَكُونَ لَهُ الْخِيَارُ فِي الإِعَادَةِ إِنْ عَارَضَهُمَا مُعَارِضٌ أَوْ التَّغْيِيرُ إِنْ بَانَ لَهُ فِي مُتَعَدِّ مِنَ الْجِهَاتِ فُرْصَةٌ" (١٨٣).

ولما تصدى الأمراء للعبور إلى السواحل المغربية، اعترض سبيلهم الأسطول المريني والأسطول القشتالي الموكلان بحراسة الشواطئ الإقليمية.

وكانت القطعة البحرية التي أقلت الأمراء الطالبين للأمر قد انطلقت من مرسى "المنكب" المشهور، فأورطها أهل الساحل في الرمال، ووقع اشتباك مسلح بين الجانبين أسفر عن جروح، فتعذر الإقلاع، وردت القطعة إلى مستقرها، وتراجع الأسطولان إلى الأعماق، فباغتوه في قطعة صغيرة من المراكب، اتخذت الليل جملاً، تخوض عباب البحر متجهة ناحية الجزائر (١٨٤).

قال ابن الخطيب: "... وَخَاصَّتِ الْمَوْجَ، وَبَعْدَ تَقَدُّمِ مُرَاسِلَةِ آلِ رِيَّانَ الرَّاعِبِينَ فِي ضَرْبِ بَعْضِ عَدُوِّهِمْ بِبَعْضِهِ، وَاسْتِجْلَابِ الْفِتْنَةِ إِلَى أَرْضِهِ، وَالْإِتِّفَاقِ عَلَى مَا يَسْتَقَرُّ عَلَيْهِ الْأُمَرَاءُ، فَكَانَ نُزُولُهُمْ بِبَعْضِ مَرَاسِي السَّوَاوِلِ التِّلْمُسَانِيَّةِ، وَذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَادِثِ بِسُلْطَانِ الْمَغْرِبِ [أَبِي سَالِمٍ] فَاسْتَقَرُّوا فِي الْإِيَالَةِ الرِّيَّانِيَّةِ فِي نَفَرِ سِتَّةٍ مِنْ أَمِيرٍ وَخَاصَّةً، نَوَّهَ بِهِمُ الْأَمِيرُ أَبُو حَمُو بِلْمَسَانَ مُوسَى بْنُ يُوسُفَ (١٨٥).

المقصد الثاني - الفتك بأبي سالم وترقب انفراج الأزمة:

أولاً - الفتك بالسلطان أبي سالم وأثره على وجهته:

أعقب حادث إجازة الأمراء اللاجئين حادث آخر أدهى منه وأمر بالنسبة للسلطان المخلوع، الذي جرت سفن آماله بما لا تشتهيه رياح أقداره، ونعني به هلاك السلطان أبي سالم إبراهيم الذي حيَّق به، وانتزع من علا عرشه، قال ابن الخطيب: "وَفِي لَيْلَةِ التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ ذِي قَعْدَةِ عَامِ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ،

وَقَعْتُ بِأَمِيرِ الْمَغْرِبِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَسَنِ الدَّبَرَةَ، وَأَخَذْتُهُ فِي مَجْثَمِهِ الصَّيْحَةَ، لِتَوْفُّرِ أَسْبَابِ الْبُغْضَةِ، وَتَكَثُّرِ دَوَاعِي الْخُلْعَانِ" (١٨٦).

وهذا يعني أن بين خروج السلطان المخلوع، وحدث الانقلاب شهراً ويومين فقط، كان هذا الطارئ المباغت صفة قوية، وانتكاسة ماحقة في وجه السلطان المخلوع، فت عضده، وفرق جمعه، فتركه أوحش من وتد في قاع، لا يدري ما التصرف.

وكان قد قطع شوطاً مهماً في حركته، وحقق انتصارات لمع من خلالها وميض فلاحه، وبريق خلاصه، يقول ابن الخطيب كاشفاً عن مواقع حركته، مخبراً عن خيبة أمل سلطانه، بعد أن عقد الاتفاق مع سلطان قشتالة على مؤازرته: "وَارْتَحَلَ إِلَى أَحْوَازٍ أَنْتَقِيرَةً فِي جُوشٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَطَاعَ لَهُ حِصْنٌ أَكْثَرُ، مِنَ الْخُصُونِ الْمُسُوبَةِ إِلَى مَالَقَةٍ، نَزَعَ إِلَيْهِ قَائِدُهُ فَجَعَلَ بِهِ حِصَّةً مِنَ الْخَيْلِ وَتَقَفَهُ، وَبَيْنَاهُ يَرْتَقِبُ إِنْجَازَ وَعْدِ مَلِكِ الرُّومِ، وَلِحَاقِ جَيْشٍ مُظَاهَرَتِهِ بِهِ، إِذْ يَجِيءُ النَّبَأُ الْمَشْنُوءُ مِنَ الْفَتْكِ بِالسُّلْطَانِ أَبِي سَالَمٍ، مَلِكِ الْمَغْرِبِ مُعِينِهِ، وَرَائِشِ جَنَاحِهِ، وَالكَادِحِ لَهُ، وَقَدْ تَطَاوَلَتِ الْأَعْنَاقُ لِمَقْدَمِهِ، وَاهْتَزَّتِ الْأَنْدَلُسُ لَوُجْهِتِهِ، وَتَرَدَّدَتِ الْمُخَاطَبَاتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَرْجُو الْقِيَامَ بِدَعْوَتِهِ" (١٨٧).

وقال في نص آخر: "وَلَمَّا اتَّصَلَ هَذَا الْخَبَرُ [خَبَرُ هَلَاكِ السُّلْطَانِ أَبِي سَالَمٍ] بِالسُّلْطَانِ طَالِبِ حَقِّهِ [الْغَنِيِّ بِاللَّهِ] وَنَاشِدِ ضَالَّةِ مُلْكِهِ، سَقِطَ فِي يَدِهِ، وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ الْجَيْشُ الْمُزْتَرِّقُ مِنَ الدُّوَلِ الْمَرِينِيَّةِ بِجُمْلَتِهِ، وَالشَّيْخُ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بْنِ رَحُو (١٨٨) مُؤَمِّلُ الْكَرَّةِ مِنْ إِمَارَةِ جُنْدِهِ، وَالرَّئِيسُ الَّذِي خَفَ لِمُظَاهَرَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرِ وَفَرَ الْكَثِيرُ إِلَى الْعُدُوَّةِ، وَمِنْ وَجْهِهِمْ ابْنُ وَزِيرِهِ الْمَشْنُومِ الطَّائِرِ (١٨٩) [هُوَ عَلِي بْنُ يُوسُفَ بْنِ كَمَاشَةَ الْخَضْرَمِيِّ]" (١٩٠).

وهذه النصوص المتعلقة بهلاك السلطان أبي سالم، وأثره في عرقلة مسيرة استرداد الملك المغتصب، يقرر إلى جانب ذلك الحقائق التاريخية الآتية:

- ١ - أن الغني بالله حين هلاك أبي سالم كان قد قدم إلى أنتقيرة في جيش صغير، واستولى على حصن "أنكيرة" أحد حصون "مالقة".
- ٢ - أنه بقي بعدئذ ينتظر هنالك تحرك ملك قشتالة الثالثة أثافي حركته، استنجازاً لوعده مظاهرتة، وعقد مناصرته.
- ٣ - تطلع العديد من أهالي الأندلس، وقياداتهم إلى موالاته ونصرته.
- ٤ - تبادل الرسائل بينه وبين من وافق على القيام بدعوته.
- ٥ - أن خلع السلطان أبي سالم واغتياله كانت له أسبابه ومبرراته وإن لم تذكر.
- ٦ - أن اغتياله المفاجئ كان صدمة له، فتت من عضده وأعاقته من توجهه من خلال الآثار الآتية:
- أ - انسحاب الجيش المريني المرتزق بجملته عنه، ورجوعه إلى المغرب.
- ب - انسحاب القيادات العسكرية التي كانت موافقة له موالية له.
- ت - إحجام ملك قشتالة وتردده في المضي إلى إنجاز وعده.

ثانياً - اعتذار ملك قشتالة وترقب انفراج الأزمة:

بقي السلطان المخلوع على ذلك الحال مدة صعبة الفئة القليلة التي ثبتت معه، ثم تداركته مظاهره ملك قشتالة، معتذراً عن تثاقله بحادث هلاك السلطان الذي أربكه، قال ابن الخطيب: "وَأَنحَاَزَ السُّلْطَانُ جَبْرَهُ اللَّهُ بِمَنْ اسْتَمْسَكَ مَعَهُ إِلَى صَاحِبِ قَشْتَالَةَ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ فَانْسَهُ، وَأَعْتَذَرَ لَهُ عَلَى النَّقَاصِ فِي نُصْرَتِهِ الْمُجْدِيَةِ لِهَيْضِ جَنَاحِهِ، بِهَلَاكِ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ ثَالِثِ أَثَافِيهِمْ، وَهُجُومِ فَضْلِ الشَّتَاءِ، وَضَيْقِ الزَّمَنِ عَنِ اخْتِفَالِهِ بِحَرَكَةِ جَيْشِهِ، وَأَسْكَنَهُ بِمَنْ مَعَهُ بَلَدَ "اسْتَجَه" الْكَائِنَةَ عَلَى ضَفَّةِ "شَنْجِيل"، الرَّحْبَةِ السَّاحَةِ، الْمُجْدِيَةِ الْفِلَاحَةِ الْأَنْيَقَةِ الْكَرِيمَةِ، الْمُطَلَّةِ عَلَى تَغُورِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَقَرَّ بِهَا فِي دَعَاةٍ، وَتَحَتَ نَزْلٍ وَجَرَايَةٍ" (١٩١).

والنص كما هو واضح ينم عن الحقائق التاريخية الآتية:

- ١ - انحياز الغني بالله إلى ملك قشتالة ولجوؤه إليه على الرغم من تقاعسه بسبب المستجدات الناجمة المترتبة على اغتيال أبي سالم.

- ٢ - اعتذار ملك قشتالة له، وشرح موقفه، وبيان دوافعه المتمثلة في الأسباب الآتية:
- أ - هلاك السلطان أبي سالم ثالث الأعمدة المسندة لعملية الاسترجاع.
- ب - حلول فصل الشتاء الذي تكثر فيه الأمطار والثلوج والرياح، وهذه عوامل لا ينكر أثرها في الإعاقة.
- ت - ضيق الزمان وعدم انفساح المدة التي تمكنه من الجيش، وإعداد العدة، وتوجيه الحملة.
- ث - إسكانه ومن معه "استجه"، ذات الموقع الاستراتيجي المهم، المتوفرة على جميع المقومات المساعدة المتمثلة في المظاهر الآتية:
- وقوعها على ضفة نهر "شنجيل".
- اتساع رقعتها.
- النافعة للفلاحة والزراعة.
- إطلالها على ثغور بلاد المسلمين وحدودها.
- ٣ - استقرار الغني بالله وفراره بها ممتعاً بالراحة رافلاً في الدعة، رغداً في أكناف الجارية.

المقصد الثالث - استقدام أبي زيان واتفاقية الإجازة:

أولاً - استقدام أبي زيان والوساطة النصرية:

سبقت الإشارة في نص سابق أن المدعو أبا عبد الله بن نصر أحد زعماء بني نصر المواليين للسلطان المخلوع، عاد أدراجه إلى المغرب عقب هلاك أبي سالم، بيد أنه ما أن وصل صرف للتو على أعقابيه، سفيراً إلى ملك قشتالة، من قبل الوزير المستبد عمر بن عبد الله من أجل مفاوضاته في استقدام الأمير أبي زيان المرشح سلطاناً على المغرب، وقد تفاقمت الأوضاع كما أُلعت في أكثر من موضع، فانطلق يخالس المواقع، وعيون التجسس ترقبه، وأيادي الصرف تلاحقه، فوصل بعد لأي.

قال ابن الخطيب: "وَقَدْ كَانَ الرَّئِيسُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَصْرِ... عَادَ مِنْ تَشْيِيعِهِ السُّلْطَانَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَصْرِ الْمُتَوَجِّهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، طَالِبًا بَوْتَرِهِ، وَمُؤَمَّلًا الْكَرَّةَ عَلَى دَارِ مُلْكِهِ، لَمَّا سَقَطَ لِمَوْتِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ فِي يَدِهِ، وَفَارَقَهُ مِنْ عَيْنِهِ لِإِعَانَتِهِ مِنْ جُنْدِهِ،

فَأَزْعَجَهُ ثَانِي يَوْمٍ وَصُولِهِ إِلَى اسْتِجْلَابِ السُّلْطَانِ الْمَذْكُورِ [أبي زيان] وَاسْتِخْلَاصِهِ مِنْ إِيَالَةِ سُلْطَانِ قَشْتَالَةَ، وَقَدْ كَانَتْ السَّلْمُ ارْتَفَعَ حُكْمُهَا لَوْفَاةً عَاقِدِيهَا... فَسَارَ هَذَا الرَّئِيسُ الشَّهْمُ لِطَيْتِهِ، وَالْأَمِيرُ عَبْدُ الْحَلِيمِ مُحَاصِرٌ دَارَ الْمَلِكِ، وَنَذَرَ بِهِ فَأَتْبَعَهُ صِرْمَةً عَدَتْ خَلْفَهُ مُقْصِرَةً عَنْ لِحَاقِهِ، مُتَجَافِيَةً عَنْ مُنَاوَشَتِهِ، فَلَحِقَ بِطَنْجَةٍ... وَعَبَرَ الرَّسُولُ الْبَحْرَ، وَاتَّصَلَ بِبِلَادِ الرُّومِ، وَتَأَتَّى الْقَصْدُ مِنْ بَعْثَةِ الْأَمِيرِ بَعْدَ شُرُوطِ أَكْذَاهَا الطَّاعِيَةَ، فَكَانَ وَصُولُهُ بِسَبْتَةِ فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ مِنْ عَامِ التَّارِيخِ [٧٦٣هـ- ١٣٦٢م] " (١٩٢).

ولقد انفرد نص ذكره ابن الخطيب في اللوحة البدرية، أبان من خلاله أن وساطة الغني بالله النازل حينئذ في جوار الإيالة القشتالية، كانت باعثاً قوياً أغرى ملك قشتالة بالموافقة على إجازة الأمير أبي زيان المستدعى من قبل الوزير المستبد، قال ابن الخطيب مؤكداً هذا: "... ثُمَّ اقْتَضَتْ الْأَحْوَالُ اسْتِدْعَاءَ السُّلْطَانِ أَبِي زِيَانَ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَعْقُوبَ بْنِ سُلْطَانِ الْكَبِيرِ أَبِي الْحَسَنِ مِنْ إِيَالَةِ مَلِكِ الرُّومِ، وَتَرَدَّدَتْ رَغَبَاتُ الْوَزِيرِ الْقَائِمِ بِدَعْوَتِهِ الصَّارِفِ إِلَيْهِ بَيْعَةِ عَمِّهِ، وَمُخْتَارِهِ مِنْ بَيْنِ قَرَابَتِهِ، فَكَانَ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَذْكُورُ الْعُمْدَةُ فِي خَلَاصِ أَمْرِهِ، وَتَسْنِي صَرْفِهِ، وَالضَّامِنَ لِمَا طُولِبَ بِهِ مِنْ شَرْطِهِ (١٩٣).

وهذان النصان ينطويان على الحقائق التاريخية الآتية:

أن عودة الرئيس أبي عبد الله النصري الذي بدا من خلال النصوص السالفة قد خذل السلطان الغني بالله بتوليته، ربما كان انصرافه ببيعاز من الغني بالله بعثه لتقصي الأمر، والتوقف على المستجدات، والمفاوضة في الخيارات، يغلب هذه الظنون ما يأتي:

- ١ - أن هذا الرئيس بعث سفيراً إلى ملك قشتالة غب يوم وصوله بشأن استجلاب الأمير أبي زيان اللاجئ بمملكة قشتالة.
- ٢ - أنه في تلك الآونة كان الأمير عبد الحليم المجاز من قبل السلطان المتقلب بالأندلس [البرميخو] المدعوم من الإيالة الزيانية، محاصراً لحضرة فاس.

- ٣ - أن مهمة خروج الرئيس أبي عبد الله النصري لم تكن سهلة، لأنه رصد وتُعقَّب من قبل المحاصرين إلا أنه أنجاه الإفلات.
- ٤ - أن عبوره كان على طنجة.
- ٥ - تدخل السلطان الغني بالله ومفاوضة ملك قشتالة بشأن الأمير أبي زيان والموافقة على تسهيل إجازته.
- ٦ - أن الموافقة على إجازة الأمير أبي زيان كانت مشروطة بشروط لها صلة بعملية استرداد ملك الغني بالله، نتعرفها لاحقاً.
- ٧ - وصوله إلى ميناء سبتة كان في العاشر من شهر صفر سنة ٧٦٣هـ - ١٢٦٢م.

ثانياً - شروط اتفاقية إجازة أبي زيان:

أما شروط الاتفاقية التي تمت بين الإيالة المرينية بزعامة السلطان الجديد أبي زيان، والإيالة القشتالية، والسلطان المخلوع، فيكشف عنها ابن الخطيب أيضاً من خلال قوله: "وَأَنْعَقَدَ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمُسْتَدْعَى لِلْأَمْرِ بِالْمَغْرِبِ، الْمُلَقَّبِ بِالْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ أَبِي زَيَّانٍ... وَبَيْنَ السُّلْطَانِ الْهَنْشِيَّةِ بْنِ رَنْدَةَ بْنِ شَانْجِهَ بْنِ أَنْفَنْشِ، عَقْدٌ يَشْتَمِلُ عَلَى شُرُوطٍ أَهْمُهَا:

- ١ - قَطِيعَةُ الْمُتَغَلَّبِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى مَلِكِهَا.
- ٢ - وَإِعَانَةُ سُلْطَانِهَا الْفَاضِلِ الْخَلَالِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ... عَابِرِ الْبَحْرِ إِلَى اسْتِرْجَاعِ حَقِّهِ..."
- ٣ - وَقَدْ تَخَلَّى لَهُ عَنْ مَدِينَةِ رُنْدَةَ وَخُصُونِهَا، وَهِيَ عَلَى مَا هِيَ مِنْ خِصْبٍ وَمَنْعَةٍ^(١٩٤).

ولقد كان لعبد الرحمن بن خلدون كما زعم مزية الفضل في التأثير على الوزير المستبد عمر بن عبد الله من أجل الموافقة على التنازل عن مدينة رندة، وقد توسل إليه الملك في ذلك، قال ابن خلدون: "وَخَاطَبَنِي السُّلْطَانُ الْمَخْلُوعُ فِي ذَلِكَ، وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أِزْمَةٌ مَرْعِيَّةٌ، وَمُخَالَصَةٌ مُتَّكِدَةٌ، فَوَقَّيْتُ لِلْسُّلْطَانِ بِذَلِكَ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَحَمَلْتُهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ مَدِينَةَ رُنْدَةَ، إِذْ هِيَ تَرَاثُ سَلْفِهِ، فَقَبِلَ إِشَارَتِي فِي ذَلِكَ" ^(١٩٥).

المطلب الثاني الطريق إلى غرناطة وماجرياتة

المقصد الأول - من رندة إلى مالقة:

أولاً - الانتقال إلى رندة وتجديد التعبئة:

وانتقل السلطان المخلوع وركبه إلى "رندة" واتخذها قاعدة له، وركاباً لزحفه، لوفور خزینها، وعصمة معقلها، ومنعة ثغورها، وشرع في تدبير أمره، وترتيب تعبئته، قال ابن الخطيب: "وَأَسْنَدَ الظَّهْرَ مِنَ الطَّاغِيَةِ إِلَى هَضْبَةٍ رَاسِيَةٍ، وَعَمَّ الْأَمْرَ رَغْبَةُ الْأَنْسَابِ وَالسَّلْمِ، وَالِاخْتِصَاصُ بِالْهُدْنَةِ، فَأَمْتَدُّوا وَبَذَرُوا، وَفَلَحُوا، وَاتَّجَرُوا، وَتَغَطَّوْا بِجَنَاحِ الدَّهْرِ يَنْظُرُونَ إِلَى حُلُولِ النَّقْمَةِ بِمَنْ سِوَاهُمْ" (١٩٦).

والنص يكشف عن الحقائق التالية:

- ١ - حماية ملك قشتالة السلطان الغني بالله من الخلف بغية تمكينه من الانطلاق المتوغل، وقد أمن خط الرجعة.
 - ٢ - تمام الاتفاق على انسحاب كل واحد منهما عن المواقع التي ليست في ملكيته.
 - ٣ - تمام الاتفاق على دوام السلم بين الدول الثلاث.
 - ٤ - انعقاد الهدنة بين الإيالات الثلاث.
 - ٥ - انتقال ركب السلطان المخلوع إلى مدينة "رندة" واتخاذها قاعدة للانطلاق وموئلاً للمؤونة، وقد كانت أهلاً لذلك بما خصت من خصائص.
- شكل السلطان المخلوع في رندة رسوم دولته، وأرسى ألقاب مؤسسات إيالته، وأعاد ترتيب وتعبئة جيشه، فجعل علي بن يوسف بن كماشة على الوزارة، وجعل على القضاء الفقيه القاضي أبا الحسن النباهي، كما استعمله أيضاً في خطة الكتابة، وقدم على الجيش بعض القواد والرؤساء من قرايته (١٩٧).

غير أن السلطان المخلوع سرعان ما صرف الوزير ابن كماشة عن خطة

الوزارة معولاً على نفسه، لشؤمه وسوابقه، فبعثه إلى المغرب في عرض الرسالة واستقدام ولده، فلم ينجح سعيه.

ثانياً - "البرميخو" وخدعة النصارى:

وفي شهر ربيع الثاني من سنة ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م، حصلت حرب في الجهات الشرقية من غرناطة [وادي آش، وجيان، أبدة، وبياسة، ومارتش وما إليها، بين الأمير أبي سعيد "البرميخو" المتغلب، وبين الجيش القشتالي بزعامة "الميشر" الكبير صهر ملك قشتالة، زوج أخته، اغتنموا فرصة الفرقة، والتشردم للإيقاع بين المسلمين والحصول على المكاسب، إلا أن الحرب أسفرت عن انتصار ساحق للأندلسيين بزعامة السلطان المتغلب، قال ابن الخطيب: "... فَمَنَحَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَافَهُمْ، وَأَوْقَعُوا بِهِمْ وَقِيعَةً شَنْعَاءَ، قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ، وَالْحَمَّ السَّيْفُ، وَمَلَأَ الْأَيْدِي السَّبْيُ، وَضَاقَ عَنِ الْأَسْرِ الْقَيْدُ، وَسِيقَ رَعِيمُهُمْ أَسِيرًا بَعْدَ أَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ حَامِيَتُهُ، وَخُضِدَتْ حَوْلَهُ شَوْكَتُهُ" (١٩٨).

بيد أن هذا "الميشر" القشتالي استطاع بخبثه وحيلته أن ينجي نفسه، ويفلت من شركه دون فداء أو مال مستغلاً ضعف موقف السلطان المتغلب، وخرج المأزق الذي يهدد مصيره، وقد أجمعت الدول المحيطة به على استئصال شأفته.

ويكشف ابن الخطيب في نص طريف المبادئ والأخلاق التي تتحكم في سياسة النصارى، مؤكداً على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، الذي ما يزال يتحكم في سياستهم إلى الآن، يقول: "وَهَذِهِ الْأُمَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ لَا تُؤَثِّرُ شَيْئًا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى أَغْرَاضِهَا حَتَّى إِذَا أَمَكْنَتْهَا الْفُرْصُ فِي ذَلِكَ لَا تَزَالُ تَطْرَحُ فِي أَمْثَالِهَا الْحِشْمَةَ، وَتَتَنَزَّلُ عَنِ التَّرَفُّعِ، حَتَّى إِذَا فَازَتْ أَيْدِيهَا، عَاوَدَتِ التَّجَنُّي، وَرَاجَعَتِ النَّعْزُزَ" (١٩٩).

والنص يؤكد فضلاً على ما ذكر المبدأ القائل "السياسة لا دين لها"، وقولهم: "في السياسة لا صديق دائم، ولا عدو دائم".

أما الحيلة التي أعملها هذا "الميشر القومس" فيكشف عنها ابن الخطيب أيضاً من خلال قوله: "وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِيَدِ الْمُتَغَلَّبِ... مِنْ اسْتَقَرَّ مِنْ قُرْسَانِ النَّصَارَى،

وَمِنْهُمْ رَعِيْمُهُمُ الْمِيْشَرُ الْكَبِيْرُ... طَلَبَ الْخُلُوَّةَ مِنَ الْمُتَغَلَّبِ الْمَذْكُوْرِ، وَهَذَا الْقَوْمُسُ فِي أُمَّتِهِ خُلُوْبٌ عَذْبٌ الْحَدِيْثِ، بَعِيْدُ الْعَوْرِ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَضَمِنَ لَهُ عَقْدَ الْمُهَادَنَةِ مَعَ الطَّاغِيَةِ، وَأَنْجَرَاهِ عَنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُطَالِبِهِ، عِنْدَ إِطْلَاقِهِ وَالْأُمْتِنَانِ عَلَيْهِ" (٢٠٠).

وأمام هذا العرض المغربي، لم يملك الأمير المتغلب المرتاب في أمره إلا الموافقة من حيث المبدأ، ولكنه علق إنفاذه، وأوقف شرطه على مبادرة سلطان قشتالة بطلب وسؤال ذلك، فأبرق الزعيم بذلك سراً إلى سلطانه، فانطلت الحيلة، ونجحت المكيدة، يقول ابن الخطيب: "... فَدَسَّ الْمُخَاطَبَةُ إِلَى السُّلْطَانِ بِمَا دَارَ بَيْنَهُمَا... فَاقْتَضَى مِنْهُ الرَّأْيُ أَنْ يَطْلُبَ الْمَذْكُوْرُ بَنِيَّةَ السُّلْطَانِ مِنْ حَظِيَّتِهِ، وَمَحَلُّ هَوَاهُ، الْعِلْجَةُ أُخْتُ هَذَا الْمَاسُوْرِ، وَهِيَ بَكْرٌ وَلَدِهِ، فَتَوَجَّهَتْ الرَّغْبَةُ مِنْ تِلْكَ الْوَلِيْدَةِ، وَخَاطَبَتِ الْمُتَغَلَّبَ فِي شَأْنِ خَالِهَا الْمِيْشَرِ، وَوَصَلَ عَنْهَا أَحَدُ الْكُفَاةِ مِنْ حُدَاِمِ السُّلْطَانِ، الْمُتَصَرِّفِيْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الْمُهَادَنَةِ، يَطْلُبُ مِنْهُ تَسْرِيْعَ خَالِهَا، وَتَعْدُهُ بِحُسْنِ الْمُكَافَأَةِ عَلَيْهِ، فَقَبِلَ رَغْبَتَهَا، وَأَسْعَفَ طَلَبَتَهَا، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَبَعَثَ بِهِ فِي جُمْلَةٍ مِنْ نُبَهَاءِ الْأَسْرَى" (٢٠١).

فكانت هذه الخدعة، قاصمة الظهر، وفاتحة الخزي، ودليلاً على سوء التدبير، والاستعجال والجهل بعالم السياسة، وسوء اعتبار مجريات الساحة.

وقد علق ابن الخطيب على هذا الفعل بقوله الذي لا يُخفي حسرته ومرارته: "... رُزِيَ الْإِسْلَامُ بِخِلَاصِهِمْ، لِمَا فَقَدَهُ الْكُفْرُ مِنْ وَقْفٍ بِأَسْهِمْ، وَلَا سِتْنَفَادِ الْكَثِيْرِ مِنْ أَمْوَالِهِ فِي سَبِيلِ فِدَائِهِمْ" (٢٠٢).

ولقد صدق ابن الخطيب في وصفه لهذا المتغلب، الذي ما انفك أمره في إibar، وعمله في خسار، حين سماه: "...

سُلْطَانُ الْأَوْبَاشِ، وَأَمِيْرُ السُّفْهَاءِ، وَمَلِكُ السُّوْقِ، وَحُجَّةُ اللَّهِ فِي احْتِقَارِ عَالَمِ السِّيَاسَةِ" (٢٠٣).

أما رد ملك قشتالة الذي تعاقد مع ملك المغرب، على نصرة الملك المخلوع، فكان أقبح رد، وأشنع قول انطوى على الخيانة والاستخفاف والإهانة.

فقد أرجع رسول المتغلب يجر أنيال الخيبة، يقدّمه الخزّي، ويتعقبه العار، قال ابن الخطيب: "... وَوَجَّهَ رَسُولًا [إلى المتغلب]... وَلَمَّا شَافَهُهُ بِالرَّسَالَةِ، شَكَرَ قَصْدَ الْمَذْكُورِ فِي إِطْلَاقِ رَعِيمِهِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مَا لَمْ تَقَعْ شُرُوطُ مِنْهَا: التَّجَافِي لِلسُّلْطَانِ الْمُسْتَقَرِّ بِـ "رندة" عَنْ "مالقة" وَمَا إِلَيْهَا.

وَوَعَدَ فِي الْمَكَافَاةِ بِمِثْلِهَا عِنْدَ ظُهُورِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَإِثَارِهِ الْمُعْتَبِرِينَ مِنْ رُؤُسَائِهِمْ" (٢٠٤).

ثالثاً - الحركة إلى مالقة وما صادفها:

كان سلطان قشتالة لما قابل رسول المتغلب، في حركة فتح، وغزو يضم الحصون والقلاع الإسلامية التي ضعفت حاميتها، واختل تحصينها، فنزل حصن "آشر" (٢٠٥) الشهير المنعة المجاور لـ "لوشة" و "أنتقيرة" (٢٠٦) و "أرجذونة" (٢٠٧).

ومن هنالك استدعى السلطان المخلوع الذي كان مستقراً بـ "رندة" فوافاه في تجريدة قوية، وسرية حادة، تتألف من خمسمائة فارس من الحماة المنتخبين، فلما رأى تغلب النصارى على الحصن لم يرضه ذلك، فطلب من ملك قشتالة التخلي له عنه، فأبى متعذراً بقلب قومه عليه، فانصرف عنه الغني بالله رافضاً الموافقة على تسليمه الحصن مهما كان الثمن، وهذا من المواقف الحسنة التي تسجل لهذا السلطان بمداد الفخر والأنفة، قال ابن الخطيب: "... فَأَبَى السُّلْطَانُ مِنْ إِقْرَارِهِ وَهَوَادَّتِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَأَنْفَ خَبَرَهُ بِأَنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ الدُّنْيَا بِخَذَافِيرِهَا عَلَى أَسْرِ مُسْلِمٍ أَوْ قَوَاتٍ حِصْنٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْصَرَفَ أَذْرَاجُهُ إِلَى "رُندة" طَوْعَ الدِّينِ الْمَتِينِ، وَالْحُرِّيَّةِ الْبَحْتَةِ" (٢٠٨).

وأمام هذا الموقف الصارم، لم يلبث ملك قشتالة أن انسحب من جميع المواقع التي كان قد استولى عليها بما في ذلك حصن "آشر" الشهير، مفسحاً المجال للسلطان المخلوع في بسط نفوذه على ذلك (٢٠٩).

وانطلق إلى حصن "منتفريد" (٢١٠) المطل على حضرة "مالقة" ثم انثنى عنه

متقدماً تجاه "مالقة التي تعباً بظاهاها السلطان المتغلب أعظم تعبته بيد أنه سرعان ما انكفأ متراجعا^(٢١١).

أما ملك قشتالة فكان هو الآخر جاداً في حركته، يضم القرى والحصون، فنازل حصن "قنيط"^(٢١٢) واستولى عليه، وانتقل إلى "الطورون"، واستضاف حصن "فردالش"^(٢١٣)، ثم نازل حصن "برغة"^(٢١٤)، واسطة العقد، بين رندة، و"مالقة"، والطريق المؤدي إليها، والذي ربما كان حصناً مستهدفاً من قبل السلطان المخلوع في تلك الآونة.

يفسر ذلك تهالكة اليأس على ملك قشتالة من أجل التخلي له عنه، يقول ابن الخطيب متحدثاً عن ملك قشتالة: "... ثُمَّ نَازَلَ حِصْنَ "برغة" السَّبَبِ الْوَاصِلَ بَيْنَ "مالقة" و"رندة"، حِصْنَ نَبِيَّةٍ خَصِيبٍ، كَثِيرِ الزَّيَاتِينَ وَالْأَشْجَارِ، بِهِ الثُّورُ الْخَافِلَةُ، وَالْوُجُوهُ، فَأَخَذَ بِكَظْمِهِ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ رَمَى عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ السُّلْطَانُ، وَطَرَحَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ الشَّفَاعَةِ، وَجُوهَ الْقَرَابَةِ، فَيَسَّ مِنْهُ"^(٢١٥).

والظاهر من حركة ملك قشتالة الجادة والمسعورة، في استضافة مواقع إسلامية معينة، أن ذلك ربما كان من شروط الإعانة والمؤازرة، على استرداد الملك المغصوب، يؤكد هذا نص أبان عن سامة ملك قشتالة الذي ما فتئ السلطان المخلوع يلاحقه كلما استولى على موقع من المواقع، فخلص الأمر إلى الاتفاق على منازلة المواقع التي لا تدين بالطاعة لهذا السلطان المطالب بحقه، يقول ابن الخطيب: "... وَأَشْفَقَ السُّلْطَانُ [الغني بالله] لِتَلَفِ هَذِهِ الْجِهَةِ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي طَلَبِ الْإِفْرَاجِ عَنْهُ [يَقْصِدُ قَصْرَ بُنْيَرَةَ]^(٢١٦) الَّذِي ضَمَّهُ أَيْضًا بَعْدَ الْمَذْكُورِ [وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَى صَفْقَةً يَمِينِهِ، عَلَى مُنَازَلَةِ مَا لَا تَشْمَلُهُ طَاعَةُ السُّلْطَانِ مِنَ الْبِلَادِ لِتَمَامِ أَيَّامِ عَشْرَةٍ"^(٢١٧).

ولاشك في أنه قد صاحب هذا الاتفاق حملة إعلامية واسعة النطاق، إشعاراً للأهالي، وإنذاراً بمن تخلف أو أبطأ، وهذا ما يفسر سرعة استجابة أهل المواقع التي

ستدخل تحت طاعته، في سرعة ويسر، مثل "ذكوان" (٢١٨) و"قرمطة" (٢١٩) و"تلش" (٢٢٠)، وكلها مواقع قريبة من "مالقة" نشيدة أمه.

ثم تحرك الغني بالله إلى حضرة مالقة، في السادس عشر من جمادى الثانية سنة ٧٦٣هـ، فاستسلمت دون كبير مراوضة من حاميتها التي فاجأها هبوب الأهالي إلى الاستجابة للطاعة، قال ابن الخطيب: "... وَرَاضَ صَعْبَهَا حِينَ بَرَزَتِ الْحَامِيَّةُ إِلَى مُدَافَعَتِهِ، رَاحَمَهَا النَّاسُ هَاوِينَ عَلَيْهِ مُسْتَقْدِمِينَ، فَحَتَّ رِكَابَهُ يُقَدِّمُهُ الطَّائِرُ المَيْمُونُ... وَتَبَادَرَ النَّاسُ إِلَى فَتْحِ أَبْوَابِ المَدِينَةِ، فَدَخَلَ إِلَى المَسْجِدِ الأعْظَمِ، وَأَنْتَالَ النَّاسُ يُقْرِضُونَهُ مِنَ البُكَاءِ وَالرَّقَّةِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّعَلُّقِ لَهُ، أَعْجَبَ مَا تَمَخَّضَ عَنْهُ دَهْرٌ، فَأَغْرَاهُمْ بِالقَصْبَةِ وَبِهَا ابْنُ وَزِيرِ الدَّوْلَةِ، فَأَنْقَذَتْ لَهُ بَعْدَ مُمَانَعَةٍ، وَتَحَصَّلَ مِنْ بَها فِي قَبْضَةٍ ثِقَافِهِ (٢٢١).

والنص ينطق بالدلالات التاريخية المبينة عن الإجراءات الآتية:

- ١ - مقاومة مالقة بقيادة الحامية والجنود.
- ٢ - مبادرة الأهالي بالاستجابة والطاعة عن طريق الالتحاق بمعسكر السلطان، الأمر الذي فت في عضد الحامية وسهل فتح المدينة.
- ٣ - مبادرة الناس بفتح أبواب المدينة إيماناً بدخول السلطان وجمعه.
- ٤ - دخول السلطان إلى المدينة ميمماً شطر المسجد الأعظم، وهو المؤسسة المؤثرة بالتقديم في مثل هذه الظروف.
- ٥ - ازدحام الناس عليه معبرين عن الولاء والطاعة، بكل الأساليب المتاحة.
- ٦ - إغراء السلطان الناس بقصبة المدينة التي تحت يد ابن وزير الدولة.
- ٧ - استسلام القصبة بعد ممانعة ومدافعة.

المقصد الثاني - الطريق إلى غرناطة وملابساته:

أولاً - تباشير الانتصار:

ومن الغد من يوم الخميس من افتتاح " مالقة " بادر إلى مخاطبة ابنه أبي الحجاج يوسف المتخلف في فاس الفتح، واصفاً في اختصار حركة الزحف، واعداً بالأخبار عن فتح غرناطة، قاعدة الملك، وقد أكدت التباشير نجاح السعي (٢٢٢).

كما عرف بما عقد عليه العزم الأمير المتغلب من إعمال الفرار إلى عدو الدين والعقيدة، بعد أن سقط في يده، وانسدت الأبواب في وجهه.

وكانت المدة الزمنية التي استغرقتها الرسالة لكي تصل، لا تتجاوز عشرة أيام، أو أحد عشر يوماً، بناءً على ضبط ابن الخطيب، حيث وصلت "عَشِيَّةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ أَوْ الثَّامِنِ [جُمَادَى الثَّانِيَّةِ]" (٢٢٣).

ثانياً - طمع ملك قشتالة:

أما ملك قشتالة فقد بان طمعه من خلال رفضه طلب السلطان المخلوع، وإيئاسه من تسليم حصن "برغة"، وظهر للعيان أنه أراد أن يحصل على أكبر قدر ممكن من المكاسب من وراء هذه المظاهرة، وانطبق على مساعيه المثل السائر: "مصائب قوم عند قوم فوائد".

لكن السلطان الغني بالله طوى له على الضغينة والمواجهة، خاصة وأنه قد أصبح في موقف قوي بعد النصر الذي أحرزه من وراء فتح مالقة، وما جاورها، وفشل المتغلب المذكور وذهاب ريحه.

قال ابن الخطيب: "وَلَمَّا صَرَخَ الْمَخْضُ عَنِ الزُّبْدَةِ، وَظَهَرَ مِنْ طَاغِيَةِ قَشْتَالَةَ الْجُبْنِ، وَكَذَّبَ فِيهِ الظَّنُّ، وَطَالَبَهُ السُّلْطَانُ بِالْإِفْرَاجِ عَنْ حِصْنِ "بَرْغَةَ" اسْتَنْجَازًا لَوْعْدِهِ، وَتَمَسُّكًا بِجَدِيلَةِ عَهْدِهِ، فَصَمَّ صَدَاهُ، وَآثَرَ هَوَاهُ، وَاسْتَقَرَّ فِي الثُّغُورِ الْمُخْتَرَمَةِ دِينَهُ، وَتَبَتَّتْ فِيهَا قَدَمُهُ، وَظَهَرَ أَنَّ قَصْدَهُ اسْتِئْصَالُ الْإِسْلَامِ، وَاتِّخَاذُهُ لِلْسُّلْطَانِ عَلَّةً لِذَلِكَ وَسَبَبًا، وَفَاوَضَ السُّلْطَانُ مَنْ لَدَيْهِ، فَاتَّفَقُوا عَلَى اقْتِحَامِ الْخَطَرِ، وَتَسْوِيرِ الْهَوْلِ... فَنَهَضُوا مُسْتَمْتِعِينَ، يَغْزِلُهُمُ الطَّاغِيَةُ وَيُنَاشِدُهُمْ فِي الْاسْتِثْدَافِ، فَلَمْ يَرِعْهُمْ ذَلِكَ" (٢٢٤).

وكان هذا التصميم والعزم سبباً في تحقيق النصر، وحصول الفتح كما تقدم.

ثالثاً - فرار رجال الدولة المغتصبة وضياع الذخيرة:

ولما فتحت "مالقة"، واحتل السلطان قصبته، ونمي الخبر إلى القائمين عليها من رؤساء الجند وغيرهم، لانوا بالفرار يحملون الأثقال التي قدروا عليها، ففر رئيس

الجند المغربي، محمد بن عثمان بن أبي العلاء ليلتئذ، في جملة تناهز ثلاثمئة فارس من رؤوس جنده متجهين نحو إيالة "برجلونة"، واتجهت طائفة من رجال الدولة المغتصبة، وعلى رأسهم أبو سعيد "البرميخو" إلى إيالة قشتالة، قد حملوا من ذخائر الدولة، ونفائس الإيالة ما تنوء به العصبة أولو القوة، قال ابن الخطيب متحدثاً عن هذا المتغلب المحروم: "... فَلَفَّ مَا بَدَارِ الْمَلِكِ مِنْ مَالٍ عَيْنٍ، وَأَنِيَّةٍ وَمَاعُونٍ، نَبِيهِ السَّنَخِ، شَرِيفِ الْعُنْصُرِ، وَثِيَابِ دِيْبَاكِ، وَوَشْيِ، وَالذَّخِيرَةِ الَّتِي لَمْ تَشْتَمَلْ قُصُورُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ عَلَى مِثْلِهَا، فَضُلًّا عَنْ دَوْلِ هَذِهِ النُّحُومِ الْمَغْرِبِيَّةِ، اسْتَخْلَصْتُهَا الدَّوْلَةُ النَّصْرِيَّةُ مِنْ أَيْدِي جَالِيَةِ الْأُمَهَاتِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ كَقُرْطُبَةَ وَإِسْبِيلِيَّةَ، وَجَبَّانَ، وَمُرْسِيَّةَ، وَسَوَاهَا عِنْدَمَا قَدَفَتْ أَمْوَاجُ الْمَخَنَةِ بِأَشْرَافِهَا إِلَى سَاحِلِ عَمَالَتِهَا، ثُمَّ بِمَا اسْتَنَازَتْ أَيْدِي الْأُمَرَاءِ بِسَبْتَةِ مَحَطٍّ مِنْ عَبَرِ الْبَحْرِ مِنْهُمْ، صَارَتْ إِلَى الْخَزَائِنِ النَّصْرِيَّةِ عِنْدَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا، وَقَدْ طَمَى الْبَحْرُ وَعَظُمَ الْخَطَرُ، "وَلَا يُنْبِكُ مِثْلُ خَبِيرٍ" فَقَدْ بَاشَرْتُ أَشْخَاصَ عَقُودِهَا النَّفِيسَةَ" (٢٢٥).

وقال يصف حال الذين فروا معه: "...فَخَرَجُوا لَا يَلُوْنُ عَلَى شَيْءٍ بَعْدَ رَفْعِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالسَّلَاحِ وَالذَّخِيرَةِ جَمْعَاءَ... وَاجْتَمَعُوا بِخَارِجِ السَّبِيكَةِ مِنَ الْحَمَرَاءِ، وَقَدْ أَوْسَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُسْتَقَرَّهُ مِنَ الْحَمَرَاءِ تَشْعِيثًا وَتَغْيِيرًا، بِمَا يَدُلُّ عَلَى سُوءِ الْعَهْدِ، وَلَوْثُ النَّفْسِ، ثُمَّ انْسَابُوا... فَارْكَبُوا الْوَادِي... وَارْكَبُوا طَرِيقَ الْقَلْعَةِ، كَمَا يَقْصِدُ الرَّجُلَ مَتَوَى أَبِيهِ، مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ مَعْقُودٍ، وَلَا وَعْدٍ مَضْرُوبٍ، وَلَا وَدٍّ مَحْفُوظٍ... إِلَّا مَا سَوَّلَتْ لَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ مِنَ التَّنَفُّقِ عَنْ عَدُوِّ الدِّينِ بِاسْتِئْصَالِ الشَّافَةِ وَتَحْوِيلِ الْمِلَّةِ... تَوَعَّدُوا بِذَلِكَ مَنْ مَرَّوَا بِهِ مِنْ ذَوِي الْبُيُوتِ الْمُصْحَرَةِ، وَالْقَرَى الْمَائِلَةِ" (٢٢٦).

كما وصف ابن الخطيب الأبهة الباجحة، والزينة المغتصبة التي دخلوا بها إلى أرض العدو بما دل على سفاهة ونوك، وقلة مروءة، وضعف وازع دين، يقول: "وَلِحِينَ تَعْرِفِ الطَّاعِيَةَ الْخَبَرَ [خَبَرَ وَصُولِهِمْ]، أَخْرَجَ مِنْ وَرَرَائِهِ مَنْ يَتَلَقَّى قُدُومَهُمْ، فِي لِمَةٍ خَشِنَةٍ، تَلَفُ طَائِفَتُهُمْ، مُورِيَّةً بِاسْتِصْحَابِهِمْ وَمُتَوَلِّيَةً لِمَوْنِهِمْ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى حَضْرَتِهِ "بإشبيلية"، وَقَدْ عَجِبَ مِنْهُمْ النَّصَارَى، لِكُونِهِمْ نَقَاوَةً وَلُبَابًا، قَدْ حَمَلُوا خُلَاصَةَ مَا

انْتَهَى إِلَيْهِ الاسْتِظْهَارُ مِنَ الْمَلِكِ وَزَيْنَتِهِ، وَعُدَّتِهِ، مِنَ التَّجَافِيْفِ وَالذُّرُوعِ، وَمَذْهَبَةِ الْحِلِيِّ وَفَرِهِ الْحَيْلِ، وَعَتَقِ الشُّفَارِ، وَرَائِقِ الْبَزِّ، وَقَدْ تَمَنَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ جِدَّتُهُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ خَرَزَةٍ، غَنِيمَةً بَارِدَةً نَفَلَهَا اللَّهُ مَلِكَ الرُّومِ" (٢٢٧).

وكان تاريخ الفرار هو يوم الخميس ١٨ جمادى الثانية من سنة ٧٦٣هـ.

ولما أطل صباح اليوم المذكور، وخلت العاصمة غرناطة من رجالها القائمين عليها، صاح الناس، وطيروا الخبر إلى السلطان المخلوع المترقب للأمر من "مالقة"، يتبارون في نيل الحظوة، قاطعين إليه الأميال في سبيل المزية، "وَضَبَطَ قَلْعَةَ الْحَمْرَاءِ. الْمَشِيخَةُ وَبَعْضُ الْمُتَنَاقِلِينَ مِنْ وُجُوهِ الْحَضْرَةِ... لَمْ يَقْصُرُوا فِي تَسْكِينِ السَّوَادِ، وَبَثَّ الْبَرِيحُ، فَعَصَمَ اللَّهُ الْأَمْوَالَ، وَحَاطَ النِّعَمَ، وَسَدَلَ الْوَقَايَةَ عَلَى يَهُودِ الذِّمَّةِ" (٢٢٨).

المقصد الثالث - دخول غرناطة؛ آيات الاحتفاء ومصير الفارين:

أولاً - دخول غرناطة ومظاهر الاحتفاء:

وتحرك السلطان المخلوع محمد الغني بالله من مالقة يطوي المراحل إلى غرناطة يوم الجمعة ١٩ جمادى الثانية سنة ٧٦٣هـ، وفتحت له أبوابها قبل زوال يوم السبت ٢٠ جمادى الثانية من العام، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وصفه ابن الخطيب بقوله: "وَمِنَ الْعَدِ كَأَن قُدُومُهُ عَلَيْهَا فِي الْحَقْلِ الَّذِي قَدِمَ بِهِ الْعَهْدُ، وَأَزْرَى عَلَى خَبَرِهِ الْخُبْرُ، وَلَمْ يَأْتِ بِهِ الدَّهْرُ وَلَا أَدْرَكَهُ الْوَصْفُ، تَهَافَّتِ النَّاسُ عَلَيْهِ تَهَافَّتِ الْفَرَّاشُ، وَالتَّقْوَا بِهِ التِّفَافُ النَّحْلُ، لَا يَقْنَعُونَ مِنْ رِكَابِهِ بَغَيْرِ الْاسْتِئْذَانِ، وَالتَّلَقُّيْ، يَزْدَحِمُونَ أَفْوَاجًا، وَيَذْهَبُونَ ذَهَابَ الْمَوْجِ، قَدْ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالتَّقْدِيَةِ وَالتَّهْنِئَةِ، وَالدُّعَاءِ، وَاجْهَاشِ الرِّقَّةِ، وَظَلَّلَهُمُ الْعُبَارُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، يَزْجَعُ لَفِيفُهُمْ وَأَرْبَابُ الصَّنَائِعِ مِنْهُمْ إِلَى الْوَيْةِ كَثِيرَةٍ، لَا تُعَدُّ أَصْنَافُهُمْ، وَيَعْلُو حَوْلَ مَوْكِهِ الذِّكْرُ مِنْ خِيَارِهِمْ، وَهُوَ عَلَى شَكْلِهِ مِنَ التَّبَدُّلِ وَعَدَمِ الرِّيْنَةِ، مُشْرِقُ الْقَسَامِ، ظَاهِرُ الْاسْتِغْبَارِ، سُرُورًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ... وَلَمَّا سَمَا إِلَى الْجَبَلِ، جَبَلَ الْحَمْرَاءُ كَادَتْ السَّمَاءُ تَخْرُ عَلَى الْأَرْضِ لِعُلُوِّ أَصْوَاتِ النِّسَاءِ الْمُصْحِرَاتِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى رُؤُوسِهِ، وَقَدْ مَلَأَنَّ الْفَضَاءَ الْأَفْيَحَ كَأَنَّمَا تَرَاكُمُ التَّلْجُ بِهِ بَيَاضُ

شَارَةً، وَاحْتِفَالُ بُرُوزٍ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْامْتِعَاضِ وَالرَّقَّةِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ» (٢٢٩).

والنص مشحون بالدلالات الحضارية:

١ - تهافت الناس على ركابه تهافت الفراش، معبرين عن ولائهم من خلال المظاهر الآتية:

- أ - استلام ركابه والتعلق به.
- ب - الازدحام عليه أفواجا.
- ت - علو أصواتهم بالتفدية والتهنئة والدعاء.
- ث - إجهاشهم بالبكاء رحمة وشفقة.
- ج - كثرة الخارجين لاستقباله.
- ح - تعدد الأولوية والأعلام الممثلة لطوائفهم وطبقاتهم وجماعاتهم، وأرباب صناعاتهم، وقد شذت عن الحصر، ونَدَّت عن الوصف.
- خ - اصطحاب موكبه بأناشيد الذكر وأدعية الحمد من خيارهم.
- ٢ - دخول السلطان على هيئة مبتذلة مجرداً من مظاهر زينة الملك، وآلة الحكم.
- ٣ - استعبار السلطان طيلة المراسيم فرحة وسروراً بنعمة الله عليه.
- ٤ - علو أصوات النساء القادمات من أقاصي المدينة البارزات لرؤيته، وقد ارتقى إلى جبل الحمراء معقل أريكته.
- ٥ - أن الزي الذي كان يرتديه كان أبيض ناصعاً كأنه الثلج.

ولما وصل باب الحمراء وقف ببابها ملياً، حياء ممن بها من الحريم تحجباً وتوقياً، ثم فتحت له الأبواب فدخلها، فبادر إلى الوقوف على قبر والدته مدة، ثم قصد دار جدته فقضى الحق وبث لوعة الفراق، ثم انصرف إلى قبة الحائر الريان (٢٣٠).

ثانياً - مصير الشرزمة الفارة:

أما الشرزمة الفارة إلى مملكة قشتالة بزعامة المغتصب، فقد أسرع ملكها بإطلاع السلطان العائد إلى ملكه بالقبض على جميعهم، وطلب منه التعجيل بإرسال

ثبت إدانته، صك جرائمه، فصيغ العقد الذي ضاق عن الشهادات، فتوجه به أحد الرؤساء من خلصان السلطان، في أتم ما تكون الأبهة، ولحين وصوله شرع في تقريرهم ومجالستهم، ثم أركب "البرميخو" على أتان هجين، وظيف به حوله عصابته، ثم فرز سلطان قشتالة منهم متسوّر السور ليلة حادث الانقلاب على السلطان الغني بالله، ونفذ فيهم حكم الإعدام، طعنًا بالحرا، وهبًا بالسيوف، وكان قتل "البرميخو" على يد ملك قشتالة نفسه، قال ابن الخطيب: "... وَتَنَاولَ السُّلْطَانُ قَتْلَ ذَلِكَ الْخَبِيثِ، أَثْبَتَهَا فِي صَدْرِهِ فَسَقَطَ لِجِينِهِ، وَأَجْهَرَ عَلَيْهِ وَرَعَةَ السُّلْطَانِ، وَعَاثَتْ فِي الطَّائِفَةِ الْمَشْهَرَةَ السُّيُوفَ وَالْحِرَابَ، ثُمَّ جُرِّتْ رُؤُوسُهُمْ، وَغُولَجَ مِنْهَا رَأْسُ الْخَائِنِ، فَغَشِيَ وَجْهُهُ طَبَقًا مِنَ الشَّمْعِ، حَفِظَ شَكْلَهُ، وَطَيَّرَ بِهَا، وَعَدَّدَهَا أَرْبَعَةً وَأَرْبَعُونَ رَأْسًا، فَوَرَدَ بِهَا عَلَى السُّلْطَانِ أَحَدُ قُضَاةِ الرُّومِ، فَكَانَ دُخُولُهُمْ بِتِلْكَ الرُّؤُوسِ فَوْقَ الْأَغْوَادِ، وَالْقَنَا، عِبْرَةً، بَرَزَ النَّاسُ إِلَى مُشَاهَدَتِهَا، مَعْرُوفَةً أَعْيَانُهَا، مُثَبَّتَةً صُورُهَا، مُرْسَلَةً شُعُورُهَا، اتَّخَذَتْ لَهَا بِمُتَسَوِّرِ الْغَدْرِ الَّذِي افْتَرَعَتْهُ، خُشْبٌ مَدْرَجَةٌ، نُصِبَتْ بِهَا عَنْ يَسَارِ الْمَارِّ إِلَى الْقَلْعَةِ، وَصُفَّتْ بِهِ مُثَبَّتَةً بِدُسْرِ وَأَسْبَابٍ لَا يُمْكِنُ مَعَهَا سُقُوطُهَا، يَغْلُوهَا رَأْسُ رَئِيسِهَا الشَّقِيَّ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ" (٢٢١).

وأما باقي الفارين فأخبر القاضي بأنهم في حكم الاعتقال في الحديد والنكال، بدار صنعة إشبيلية، وأمرهم موقوف على حكم السلطان الغني بالله إن شاء أخذهم، وإن شاء عفا عنهم (٢٢٢).

وكان تاريخ تنفيذ حكم الإعدام في هذه الشرزمة في قشتالة على ما ذكره ابن الخطيب ثاني رجب عام ثلاثة وستين وسبع مائة (٢٢٣).

هوامش الفصل الأول

- (١) الكتب التي تناولت حياة وتراث ابن الخطيب، قديماً وحديثاً، كثيرة ومتنوعة، نذكر شكرات منها تمثيلاً لا حصراً، لأن المقام لا يسمح:
- العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب. كحالة، معجم المؤلفين. حاجي خليفة، كشف الظنون. البغدادي، إيضاح المكنون. مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي. البستاني، دائرة المعارف اللبنانية. الزركلي، الأعلام. المقري، نفح الطيب. المقري، أزهار الرياض. ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان. ابن الأحمر، نثير الجمان. ابن القاضي، جنوة الاقتباس. المراكشي، الإعدام. التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه. عنان، لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكري. هذا بالإضافة إلى الدراسات والبحوث الكثيرة التي لا يحصيها العد.
- (٢) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الطبعة الثانية، ج٢، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧٣، ص٢٦ فما فوق. محمد بن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠م، ص١٢٠ فما فوق. محمد بن الخطيب، إعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، الطبعة الأولى، ج٢، بيروت، لبنان، دار الكشف، ١٩٥٦، ص٣١١ فما فوق. عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج١٣، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، بدون تاريخ الطبع، ص٦٣٦ فما فوق. أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، ج٤، الدار البيضاء، المغرب، دار الكتاب، ١٩٥٤، ص٨ فما فوق. أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج٥، بيروت، لبنان، دار صادر، ١٩٨٩م، ص٨٤ فما فوق.
- (٣) ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، ص١٢٢.
- (٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، ص٢٧-٢٨.
- (٥) المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣-٤٤٤.
- (٦) ابن الخطيب، إعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، ج٢، ص٣١٠-٣١١.
- (٧) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج١٣، ص٦٨٣.
- (٨) أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٤، ص٩.
- (٩) ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص١٢١. محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، ص٢٦-٢٧. ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج٢، ص٣١١.

- (١٠) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٤٤٤. أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ٧٧.
- (١١) هو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني، لقبه المستعين بالله، تولى الأمر بعد هلاك أخيه أبي عنان ثائراً على ابنه الذي ولي صبيّاً مستعيناً بملك قشتالة بعد أن يئس من عون مملكة غرناطة التي كان لاجئاً بها أيام حكم أخيه أبي عنان سنة ٧٦٠هـ، قتل سنة ٧٦٢هـ. انظر أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٤، ص ٧-٤٠.
- (١٢) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٣، ص ٣١١.
- (١٣) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٨.
- (١٤) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ٢، ص ٦٣٧.
- (١٥) أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٤، ص ٩.
- (١٦) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٣٧.
- (١٧) أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٤، ص ٩.
- (١٨) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٣٣. وانظر: أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٤، ص ٧-٨.
- (١٩) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٣٠٦.
- (٢٠) للتوسع في هذه النقطة يرجى الرجوع إلى: رابح عبدالله المغراوي، تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة، حوليات الآداب، الحولية العشرون، الرسالة ١٤٠، جامعة الكويت، المجلس العلمي للنشر، السنة ١٩٩٩-٢٠٠٠، ص ١٠٥-١١٤.
- (٢١) Guadix قرية من غرناطة، وهي مدينة كبيرة وفيرة المياه والأنهار وأصناف الثمار، وهي مدينة مسورة لها بابان، قصبتها عالية. محمد بن عبدالمنعم الحميري، الروض المطعار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، ص ٥١٣. وانظر ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ طبع، ص ١١٢.
- (٢٢) Daifontes تقع شمال غرناطة على نحو عشرين كيلومتراً منها. محمد عبدالله عنان، الهامش رقم (٦)، الإحاطة، ج ١، ص ١٣٠.
- (٢٣) Loja من أقاليم البيرة، بلد ابن الخطيب وصفها بقوله: مرأى بهيج، ومنظر يروق ويهيج، ونهر سيالو وغصن مياد، وجنات وعيون... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٢٥-١٢٦. وانظر محمد الحميري، الروض المطعار في خبر الأقطار، ص ٥١٣.

- (٢٤) Antequera وصفها ابن الخطيب بقوله: محل الحرث والأنعام، ومبذر الطعام، والمرأة التي يتجلى بها وجه العالم.... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٢٧.
- (٢٥) Coin هو حصن من الحصون الشهيرة يقع غرب غرناطة وصفه ابن الخطيب بقوله: روض وغدير، وفواكه جلّت عن التقدير، وخورنق وسدير.... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٢٨.
- (٢٦) Marbellau تقع بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة، مدينة صغيرة مسورة، من بناء الأول محكمة العمل ممتنعة المرام. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥٢٤. وانظر... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ٨٥.
- (٢٧) Ceuta تقع أقصى شمال المغرب وهي الآن مستعمرة إسبانية إلى جانب مليلية ومواقع أخرى، مدينة عظيمة لها تاريخ عريق لعبت دوراً سياسياً خطيراً في التوازنات الإقليمية آنذ، وصفها ابن الخطيب بقوله: عروس المجلى، وثنية الصباح الأجل. تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقيلة... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٤٤. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٠٣.
- (٢٨) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٨.
- (٢٩) اللمة البدرية، ص ١٢١-١٢٢. نفح الطيب، ج ٥، ص ٨٥.
- (٣٠) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٣١١-٣١٢.
- (٣١) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٣٧ و ٦٩٢.
- (٣٢) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٦٠٤.
- (٣٣) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١١٢.
- (٣٤) أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ٩٩. ابن خلدون، كتاب العبر، ج ١٣، ص ١٩٢. أحمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج ١، للجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات، طبعة ١٩٨٧م، ص ٢٠٧.
- (٣٥) انظر التعريف بهذه المدن في «...ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، و«الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار»... إلخ.
- (٣٦) انظر: ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ٨٥.
- (٣٧) كان الاستيلاء على جبل طارق شرطاً من شروط إعانة ملك قشتالة للأمير أبي سالم إبراهيم على الحصول على الملك في المغرب. انظر: نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (٣٨) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٨.
- (٣٩) ابن الخطيب، اللمة البدرية، ص ١٢٢. محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٨.
- (٤٠) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٨-٢٩. ابن الخطيب، اللمة البدرية، ص ١٢٢-١٢٥. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣.

- (٤١) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٣٧-٦٣٨.
- (٤٢) انظر القصيدة في: ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ١٢٢-١٢٥. ابن خلدون، كتابالعبر، ج ١٣، ص ٦٣٨-٣٤٢. أحمد المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ١٩٦-٢٠٠. أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ٨٦-٨٩. وذكر فيها ٢٨ بيتاً في إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣. وذكرت القصيدة في الاستقصا، ج ٤، ص ٩-١٢.
- (٤٣) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٢.
- (٤٤) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ١٣، ص ٦٤٢. وانظر أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ٩٦. وكذلك أحمد الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ١٢.
- (٤٥) في نفح الطيب [استيأس].
- (٤٦) في النفح [التجوال] وهو الصواب.
- (٤٧) في النفح [أعمال].
- (٤٨) في النفح [فتباروا] وهو الصواب.
- (٤٩) في النفح [إثر].
- (٥٠) في النفح [مقامه] وهو الصواب.
- (٥١) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٩٢-٦٩٣. وكذلك أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ١٠٠.
- (٥٢) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٤٤٤. وانظر: أحمد الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ١٢.
- (٥٣) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٤٥٢-٤٥٣.
- (٥٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٥٣-٤٥٥.
- (٥٥) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج ٢، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بدون تاريخ طبع، ص ٤٩. أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٦، ص ٢١٨. أحمد المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٥٦) أحمد المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٩٧. وانظر: أحمد المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ١٠١.
- (٥٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٥٨.
- (٥٨) المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٨.
- (٥٩) ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، دمشق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة، طبعة ١٩٩٠م، ص ٩٦.
- (٦٠) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٣٠٥.
- (٦١) ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب، الطبعة الأولى، ج ١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨١م، ص ٣٤٥-٣٤٧.
- (٦٢) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٥٥.
- (٦٣) ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب، ج ٢، ص ٣٦٠. وينظر: أحمد مختار

- العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، الإسكندرية، مصر، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، طبعة ١٩٨٣.
- (٦٤) ص: ١٥٢-١٥٥.
- (٦٥) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٣.
- (٦٦) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٢٩.
- (٦٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٤.
- (٦٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٨١.
- (٦٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨١-٨٣.
- (٧٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٤.
- (٧١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧-٨٨. وانظر: المقري، نفح الطيب، ج ٦، ص ١٤. المقري، أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٨٣.
- (٧٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٩٤. المقري، نفح الطيب، ج ٥، ص ٣٩-٤٠.
- (٧٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٣٠٨.
- (٧٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٠٠. المقري، نفح الطيب، ج ٥، ص ٣٦.
- (٧٥) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٣٠٨.
- (٧٦) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٤٧.
- (٧٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٠٣.
- (٧٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٩.
- (٧٩) الإحالة على سفارته.
- (٨٠) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٤٥٥.
- (٨١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٢٧.
- (٨٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٥. وانظر نصاً آخر في رثائها في النفاضة، ج ٢، ص ٢٠٩.
- (٨٣) وقيل ضحوة يوم ١٨ لشوال عام ٧٦٢هـ.
- (٨٤) وقيل ٢٤ من صفر عام ٧٦٣هـ، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٤٠.
- (٨٥) للمزيد من الاطلاع على هذه الأحوال يراجع: ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٠٣ فما فوق.
- (٨٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٠.
- (٨٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (٨٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (٨٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (٩٠) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج ٣، الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح، ص ٦٧. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٤٥٥-٤٥٧.
- (٩١) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٣، ص ٦٩٢-٦٩٣.

- (٩٢) سنعرض لتفاصيل استرجاع ملكه في فصل لاحق.
- (٩٣) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٣، ص ١٥٠.
- (٩٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
- (٩٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
- (٩٦) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
- (٩٧) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
- (٩٨) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢.
- (٩٩) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٥.
- (١٠٠) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٩.
- (١٠١) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٨.
- (١٠٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٨-٦٩.
- (١٠٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٥.
- (١٠٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٨.
- (١٠٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٧.
- (١٠٦) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٧.
- (١٠٧) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٥.
- (١٠٨) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٥-٨٦.
- (١٠٩) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٦-١٣١.
- (١١٠) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٨.
- (١١١) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٩.
- (١١٢) المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٠.
- (١١٣) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٧-١٣٨.
- (١١٤) المصدر السابق، ج٢، ص...
- (١١٥) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٧-١٣٨.
- (١١٦) سورة القصص، الآية ٧٧.
- (١١٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٢، ص ٢٥٤.
- (١١٨) نشر الكتاب نشرتين الأولى: المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، سنة ١٣١٦هـ / ١٩١٦م، والثانية: بتحقيق: عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، طبعة ١٩٩٠م.
- (١١٩) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٢، ص ١٢٢.
- (١٢٠) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٢.
- (١٢١) ذكر محمد الكتاني أنه توجد منها نسخة بالزاوية العياشية، مقدمة التحقيق، ج١، ص ٣٢. كما أشار كارلبروكلمان إلى وجود نسخة مخطوطة لهذه المنظومة بباريس تحت رقم ٥٠٢٦، وفي مدريد برقم ١٠١-١١.
- (١٢٢) ابن الخطيب. نفاضة الجراب، ج٢، ص ١٨٧. ووصفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله:

«والأرجوزة المسماة: ب «الحلل المرموقة في اللمع المنظومة ألفية من ألف بيت في أصول الفقه» ج ٤، ص ٤٦٢، وهي من المنظومات التي ألفها بعد العودة إلى الوزارة الثانية، ولها عدة شروح، ومن شروحيها شرح ابن خلدون الذي أثنى عليه ابن الخطيب نفسه.

- (١٢٣) يوجد منها نسخة ضمن مجموع رقم ٢٤٣ بالخزانة الملكية بالرباط.
- (١٢٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٧-١٨٨.
- (١٢٥) هي في حكم المفقود.
- (١٢٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٨.
- (١٢٧) أشار الأستاذ محمد عبدالله عنان إلى أن الأستاذ العابد الفاسي محافظ خزانة القرويين سابقاً يملك مخطوطة منه، مقدمة التحقيق، ج ١، ص ٦٨.
- (١٢٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٤٢.
- (١٢٩) محمد عبدالله عنان، لسان الدين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، ص ٢٧٨.
- (١٣٠) هو عبدالله بن يوسف بن رضوان، أبو القاسم، النجاري، الخزرجي، المالقي، توفي سنة ٧٨٣هـ.
- (١٣١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٤٨.
- (١٣٢) يوجد من هذا المؤلف عدة نسخ منها بخزانة القرويين بفاس تحت رقم ٦٠٧/٤٠. ونسخة أخرى بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٣٤٧٧ ونسخة أخرى بمكتبة مدريد الوطنية. انظر: لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٧-١٩٦٧، ص ٢٧٥. ووقفت مؤخراً على طبعة إسبانية رديئة بتحقيق رديء أيضاً من قبل ماريا كنيثيون فائز بنيتو Maria Concepcion Vazquez De Benito جامعة سلمنقة، ١٩٧٢.
- (١٣٣) انظر النشرة الإسبانية المذكورة ص ٢.
- (١٣٤) المحقق منه جزآن: الجزء الثاني بتحقيق د. أحمد مختار العبادي، مراجعة د. عبدالعزيز الأهواني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، بدون تاريخ طبع. والجزء الثالث بتحقيق سعدة فاغية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب. وأما الجزء الأول فهو في حكم المفقود.
- (١٣٥) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثالثة: ١٩٨٠م. ونسخة أخرى، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧هـ.
- (١٣٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٤٣.
- (١٣٧) ابن الخطيب، للوحة البدرية، ص ١٧.
- (١٣٨) المصدر السابق، ص ١٨.
- (١٣٩) حققه محمد كمال شبانة وحسن محمود، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بدون تاريخ الطبع.
- (١٤٠) ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، ص ٤٤.

(١٤١) والكتاب محقق بتحقيقين مختلفين: التحقيق الأول وهو تحقيق علمي ممتاز للدكتور عبدالمجيد التركي، والتحقيق الثاني تحت إشراف دار بمنصور للطباعة والنشر بالمغرب وهو لا يعدو أن يكون طبعا ونشرا فقط.

(١٤٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٨.

(١٤٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٨.

(١٤٤) ابن الخطيب، مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، ص ٨٠-٨٤.

(١٤٥) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ١٨٨.

(١٤٦) والكتاب محقق بتحقيقين مختلفين، أحدهما بقلم الباحث قدور إبراهيم عمار بن محمد قدمه في شكل رسالة ماجستير بعنوان «كتاب السحر والشعر للسان الدين بن الخطيب (٧١٣هـ-٤٤٦هـ)» دراسة وتحقيق، كلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة عين شمس، وثانيهما بقلم المستشرق الإسباني خ. م. كونتينوتي فيرير Kosé Maria Continente، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مطابع غرافيكاس مولينا للطباعة العربية، مدريد، طبعة ١٩٨١.

(١٤٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٩.

(١٤٨) ابن الخطيب، السحر والشعر، ص ٧-١٠.

(١٤٩) المصدر السابق، ص ٥-٦.

(١٥٠) هو أرسطوطاليس.

(١٥١) ابن الخطيب، السحر والشعر، ص ٦.

(١٥٢) المصدر السابق، ص ٤-٥.

(١٥٣) تحقيق محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ طبع.

(١٥٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٢٢.

(١٥٥) ... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ٧٢-٧٣.

(١٥٦) المصدر السابق، ص ٧٢-٧٣.

(١٥٧) المصدر السابق، ص ٧٤-٧٥.

(١٥٨) المصدر السابق، ص ٧٧-٧٨.

(١٥٩) المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

(١٦٠) حققت ضمن الجزء الثالث من نفاضة الجراب من قبل سعدية فاغية المذكور.

(١٦١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٥١.

(١٦٢) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(١٦٣) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٥٤.

(١٦٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٤-١٥٦.

(١٦٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٢.

(١٦٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥١.

- (١٦٧) ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، ص ٣٢٩.
- (١٦٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٤.
- (١٦٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٤.
- (١٧٠) ابن خلدون، كتاب العرب، ج ١٣، ص ٦٥٦.
- (١٧١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٤.
- (١٧٢) قال ابن الخطيب، والضمير يعود على أبي زكريا يحيى المذكور لاحقاً: «...فأثر ولده عثمان بن يحيى، الحمى الأنف لنفسه، مزية الفضل بكثير من الخصل من خط وفروسية ووقار، فأقام مظاهراً سلطان الروم في حروب له على أهل ملته...» نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٧٩.
- (١٧٣) قال ابن الخطيب: «وفي شهر ربيع الأول من عام اثنين وستين وسبعمائة لحق بباب السلطان [باب السلطان أبي سالم] يحيى بن عمر بن رحو النازح إلى إيالة الطاغية [ملك قشتالة بدرو الأول] حذراً على نفسه... بعد أن اقتضى من عهد السلطان المستعين بالله أمير المسلمين ما طابت به نفسه، وانصرف عن مستقره بأرض الروم عن مرضات، فأجمل السلطان - أيده الله - تلقيه...» نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٧٩.
- (١٧٤) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ١٤، ص ٧٨٠.
- (١٧٥) محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٣٨.
- (١٧٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٨٤-١٨٥.
- (١٧٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٤.
- (١٧٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (١٧٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (١٨٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (١٨١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.
- (١٨٢) الفسل: النذل.
- (١٨٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٩-٣٠٠.
- (١٨٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠١-٣٠٠.
- (١٨٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠١.
- (١٨٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٥.
- (١٨٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٦.
- (١٨٨) ترجم له ابن الخطيب بقوله: «هذا الشيخ مستحق الرتبة، أهل لهذه الرئاسة، بأساً ونجدة، وعتقاً وأصاله، ودهاء ومعرفة... تولى رئاسة القبيل [مشيخة الغزاة] وسط صفر عام سبعة وعشرين وسبعمائة، معوضاً عن شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء، فتنعم البيت... واستمرت حاله إلى سابع محرم من عام تسعة وعشرين وسبعمائة، وأعيد عثمان بن أبي العلاء إلى رتبته... وانتقل هو إلى مكانه بوادي آش في قومه تحت حفظ ومبرة، ثم دالت له الدولة... يوم السبت التاسع والعشرين لربيع الأول عام

أحد وأربعين وسبعمائة، واستمرت له الولاية... وتمادت ولايته إلى الأوائل من شهر رمضان عام اثنين وستين وسبعمائة، فلما تصيرت إلى... محمد بن إسماعيل بن نصر [البرميخو] عزله، وهم به، ففر به إلى بلد الروم... فأولاه من الجميل ما يفوت الوصف واجتازه العدو، فعرف بها حقه، وعادت رتبة هذا الرجل، بعد أن رد الله على سلطانها ملكه... والسلطان مع ذلك منطو على الضغن لأمر منها: غمس اليد في أمر عمه، وقعوده عنه، وهو أحوج ما كان لنصره، وانزحاله عنه في الشدة [ويعني به الفرار المذكور في النص...] فقبض عليها [هو وابنه عثمان] وعلى من لهما محالفا... صبيحة يوم الاثنين لثالث عشر لرمضان عام أربعة وستين وسبعمائة... ثم أركبوا الأدهام، وانتقلوا إلى بعض الأطباق المتفرقة بقصبة «المنكب»... واستقر بعد قفوله من الحج بمدينة فاس...

ولد بظاهر تلمسان عام أحد وتسعين وستمائة... ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٣٦٦-٣٧١.

(١٨٩) ترجم له ابن الخطيب بقوله: «كان جده من المنتزين ببعض حصون الأندلس... وخدم طاغية الروم ببعضها... هذا الرجل حسن الشكل، كثير الهمة... كثير التعلق والتوسل ولصقت بشجرات الدول صمغته... واستقر بعد الكائنة على الدولة بباب السلطان بالمغرب... ولما رحل السلطان أبو عبدالله بن نصر المذكور إلى طلب حقه، وقد أتبعه، سدد به رسم الوزارة في طريقه، كما اضطر صياد إلى صحبة كلب، فخابت آماله، ولحقت به المشأمة... واقتضى أمره بر ما به، أن صرف من رندة، وقد استقر أمره بها رسولاً إلى باب ملك المغرب، لأمر منها استخلاص ولده، وإيصاله إليه، فتعذر القصد، وسدت الأبواب... ولما بلغ خبر صنع الله... وجبر الله السلطان بدخول مالقة في طاعته، لحق به، وقد قلقته به الجوانب... وساءت لطيرته الظنون، فتوفر العزم على صرفه عن الأندلس في أوليات رمضان عام ثلاث وستين وسبعمائة، فقبض عليه، وصرف إلى البلاد الشرقية، وقد شرع في إغراء سلطان قشتالة بالمسلمين... وذكروا أنه حج وقفل والعودة تتبعه... ورجي أن يكون ماء زمزم وضوء النقع، وأن مشاهدته الآثار الكريمة، تصلح ما فسد من حاله، فأب شر إياب، وربما نبض له شريان من جده... فأجاز البحر إلى ملك برجلونة... ثم قلق لخيبة قصده، وخلو يده... فصرف وجهه المشؤوم إلى المغرب، فاحتل به...» ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٧٤-٧٧، وج ٢، ص ٣١-٣٣. ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٦١-١٦٢-١٦٧ و ١٧٢.

(١٩٠) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٠١.

(١٩١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٢. وانظر ابن الخطيب، اللحة البدرية، ص ١١٤.

(١٩٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٢١-٣٢٢.

(١٩٣) ابن الخطيب، اللحة البدرية، ص ١١٤.

(١٩٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٧١.

(١٩٥) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ١٣، ص ٦٩٣-٦٩٤.

- (١٩٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ٧٢.
- (١٩٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٢.
- (١٩٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٣.
- (١٩٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٥.
- (٢٠٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٥.
- (٢٠١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٥.
- (٢٠٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٥.
- (٢٠٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٧.
- (٢٠٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٥-١١٦.
- (٢٠٥) آشور، IOZNAJAR: يقع بين مالقة وقرطبة، وكان حصناً مهماً. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٢٠٤. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٥٢، وج ٤، ص ٥٧٤.
- (٢٠٦) أنتقيرة، ANTEQUERE: حصن يبعد عن مالقة بحوالي ٦٠ كلم، وصفه ابن الخطيب في معيار الاختيار وصفاً طريفاً. انظر ص ١٢٧.
- (٢٠٧) أرجذونة، ARCHIDONA: تقع شمال غرب مالقة على نهر شنجيل. الروض المعطار.... ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٢٦.
- (٢٠٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٦. ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ١١٤.
- (٢٠٩) انظر ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٦. وكذلك ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ١١٤.
- (٢١٠) مننفريد، MONTEFRIO: يقع شمال غرب غرناطة بين لوشة وجيان. ...ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ٦٥.
- (٢١١) انظر ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٧.
- (٢١٢) قنيط، CANETE LA REAL: يقع بين قرطبة وجيان، البكري، معجم ما استعجم، ص ١٧٠.
- (٢١٣) فرادلس، ARDALES: يقع شمال أنتقيرة على بعد ٢٢ كلم.
- (٢١٤) برغة، BURGO: يقع بين مالقة ورندة. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٤، ص ٥٧٤.
- (٢١٥) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٧.
- (٢١٦) قصر بُئيرة، CASARABONELA: يقع شمال مالقة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٣.
- (٢١٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٧-١١٨.
- (٢١٨) نكوان، COIN: يقع غرب مالقة على النهر الكبير. ابن جزي، تحفة النظار في عجائب الأمصار والأقطار، ج ٢، ص ١٨٩. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ١٢٧.
- (٢١٩) حصن قرمطة، CARMATA معيار الاختيار: يقع شمال غرب مالقة، وكان من حصونها المنيعه. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ٢٠٦. ...ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص ١٢٨.

- (٢٢٠) تلش، TOLOX: تقع شمال نكوان.
- (٢٢١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١١٨.
- (٢٢٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٨.
- (٢٢٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٨.
- (٢٢٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢١-١٢٢.
- (٢٢٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٩.
- (٢٢٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٢-١٢٣.
- (٢٢٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٣.
- (٢٢٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٣.
- (٢٢٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٤.
- (٢٣٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٤.
- (٢٣١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٤-١٢٥.
- (٢٣٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٩.
- (٢٣٣) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣٠٩.

الفصل الثاني ابن الخطيب بين العودة والفرار

المبحث الأول عودة ابن الخطيب إلى وطنه

المطلب الأول دعوة الاستصحاب والاستعفاء

لم يزل ابن الخطيب منتبذاً في "سلا" على الحال التي وصفنا، إلى أن عزم السلطان المخلوع محمد الغني بالله على الرحيل إلى عدوة الأندلس للمطالبة بملكه الذي اغتصب منه غيلة، على حين غفلة، في السابع عشر من شوال من سنة اثنتين وستين وسبعمائة، كما ذكرنا، حيث عرض على ابن الخطيب الأمر، وراوضه على مرافقته، فامتنع واستعفى، باذلاً في ذلك أقصى ما يملكه من حسن الملاطفة، وكريم المصانعة والمجاملة، مستشفعاً بما انخرط فيه من خلوة وعبادة، وعزوف عن السياسة وعالمها، ووعد بنقل ولده المخلف في فاس عند تمام أمره، وارتجاع ملكه، فقبل منه عذره.

قال ابن الخطيب مقررّاً هذه الحقائق: "وَكَانَ قَدْ بَدَلَ الْمَجْهُودَ فِي طَلَبِ اسْتِصْحَابِي، وَتَوَاتَرَتْ مُحَاطَبَتُهُ إِيَّايَ عَلَى اقْتِدَادِهِ، وَسَنَنَ فَضْلِهِ، فَأَثَرْتُ مَا أَنَا بِسَبِيلِهِ مِنَ الرَّاحَةِ، وَالْفِرَارِ عَنْ هَفَوَاتِ الْغَيْرِ، وَالانْكِمَاشِ عَنِ الْخِدْمَةِ، وَأَقْنَعْتُهُ بِالْوَعْدِ مِنْ تَوَجُّهِي إِلَيْهِ بِوَلَدِهِ عِنْدَ تَصَيُّرِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالنِّيَابَةِ فِي اقْتِضَاءِ جَمِيلِ سَرَاحِهِ مِنْ بَابِ السُّلْطَانِ، وَخُطَّةِ كَرَامَةِ طَرِيفَةٍ لَهُ، وَإِكْنَافِ رَوَاقِ السُّتْرِ عَلَى مَنْ تَصَحَّبُهُ مِنْ حُرْمَتِهِ، وَتَرْتِيبِ الْقُدُومِ عَلَيْهِ بِهِ، وَتَقْرِيرِ حَالِ لِقَائِهِ إِيَّاهُ، فِي آمَالٍ عَدِيدَةٍ، أَخَذَهَا التَّرْتِيبُ، وَزَيْنَهَا الْبَيَانُ وَالْخَطَابَةُ، ثُمَّ مُحَاوَلَةِ الانْصِرَافِ عَنْهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَلَبُّسٍ بِخِدْمَةٍ، وَلَا غَمْسٍ يَدٍ فِي خُطَّةٍ، وَلَا مُغَيَّرٍ لِلنُّسْكِ مِنْ هَيْئَةٍ وَلَا لِبَسَةٍ، فَقَنَعَ بِذَلِكَ وَرَاكَنَنِي إِلَيْهِ، وَاسْتَدْعَى الْمَشُورَةَ فِيمَا يَعْنُ لَهُ، فَرَسَمْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا قُدِّرَ غَنَاؤُهُ، وَتَوَهَّمتُ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ، وَنَظَّمْتُ الْقَصِيدَةَ الْمُعَدَّةَ لِإِنْشَارِهِ إِيَّاهَا عِنْدَ تَمَلُّي الْمَنِيخَةِ وَتَهْنِئِ الْمَوْهَبَةِ" (١).

والنص يوحي فضلاً عما ذكر في التقديم له بالمعاني الآتية:

- ١ - بذل الجهد والإصرار عن طريق المخاطبة والمعاودة من أجل استصحاب ابن الخطيب.
- ٢ - تصميم ابن الخطيب على هجر الوظائف السياسية، بما أكد قناعته ويقينه في ذلك.
- ٣ - وعده على العمل واستصحاب ولده وحرمة عند دعاء الضرورة بما يليق بمقامهم الشريف.
- ٤ - بسط الآمال والأمانى له في ذلك بما يقوي عزمته، ويشحذ همته.
- ٥ - عدم قبول تقلده لأي منصب أو خطة عند العودة.
- ٦ - الانصراف إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج.
- ٧ - إشارته له ونصحه بالطريقة التي يسلكها مع قومه لضمان استقرار دولته، وأمن إيلاته.
- ٨ - إعداد قصيدة التهئة بالفتح، وهي القصيدة التي أخذها الطول، وتعددت منها الأغراض كما مرت الإشارة، رسم له في آخرها السياسة التي ينبغي أن يנהجها في وطنه مثل قوله:

تَبَأَى الْمُلُوكُ عَلَى الْمُلُوكِ وَتَفَضَّلْ إِبْلَ الْإِمَارَةِ وَالْإِدَارَةَ تُعْقِلْ فَخُطَابُ غَيْرِ أُولِي النُّهَى لَا يَجْمُلُ وَالْمُحْسِنَ الْحَسَنَى جَزَاءً يَغْدِلُ فَبَغْيَرِهِ مِنْ بَعْدِهَا يُسْتَبْدَلُ يَمْضِي اللِّسَانُ بِحَيْثُ يَنْبُو الْمِنْصَلُ وَأَشْكُرُهُ وَهُوَ الْكَاذِبُ الْمُتَحَيَّلُ فَاخْلُمْ عَلَيْهِ فَأَيْنَ مَنْ لَا يَجْهَلُ دَيْنُ يُلَامُ لِأَجْلِهِ مَنْ يَمْطُلُ	أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ لَا تَغْفِلُ الْحَزَمَ الَّذِي بِعِقَالِهِ شَاوَرُ إِذَا الشُّورَى دَعَتْكَ أُولِي النُّهَى وَاجَزِ الْمُسِيءَ إِذَا أَسَاءَ بِفِعْلِهِ وَمَنْ اسْتَبَخَّتْ زِمَارَهُ بِعُقُوبَةٍ وَضَنَّ اللِّسَانَ عَنِ الْقَبِيحِ قَرَبًا وَأَقْبَلَ وَصِيَّةً مَنْ أَتَى لَكَ نَاصِحًا وَإِذَا جَنَى جَانٍ تَبَيَّنَ جَهْلُهُ وَأَزَعِ السَّوَابِقَ لَا تُضْعِفْهَا إِنَّهَا
---	---

فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ عَنْكَ مَاذَا يُنْقَلُ
الْمَالُ لِلْغَرَضِ الْبَعِيدِ يُوصَلُ
فَضْلاً وَوَازٍ بِخَرْجِهِ مَا يَدْخُلُ
يَنْهَى النُّفُوسَ عَنِ الْقَبِيحِ وَيَعْدُلُ
نَفْسُ الْحَكِيمِ بِهِ تَلَذُّ وَتَشْغَلُ
إِنْ عَزَّ عَزُّوْا أَوْ يُذَلُّ تَذَلَّلُوا
سَتَرًا فَلَسْتُ عَلَى كَبِيرٍ تَخْصُلُ
فَمَتَى حَلَا أَوْ لَذَ هَذَا الْحَنْظَلُ^(٢)

وَإِذَا تَرَحَّلَ عَنْ جَوَارِكِ رَاحِلٌ
وَالْمَالُ حُذُّهُ بِحَقِّهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ
وَازِنَ بِهِ مُؤَنَ السِّيَاسَةِ وَادْخِرْ
وَعَلَيْكَ بِالتَّقْوَى وَبِالْخُلُقِ الَّذِي
وَأَشْغَلُ عَنِ اللَّذَاتِ نَفْسَكَ بِالَّذِي
وَبَنُو الزَّمَانِ عَلَى سَبِيلِ أَيْبِهِمْ
بِالْعَفْوِ حُذِّ مِنْهُمْ وَلَا تَكْشِفْ لَهُمْ
دَمَّ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ مِنْ قَبْلِنَا

وعبر ابن الخطيب أيضاً عن تناقله عن مرافقة سلطانه العائد في آخر كتبه، وهو الذي نحقق هذا الجزء منه، قائلاً: "... وَصَاحِبِي يَقُومُ الْعَزَمَ فِي شَأْنِي وَيُقْعِدُ، وَيُقَرِّبُ ثُمَّ يَبْعُدُ، وَيَسْتَحْثِنِي إِلَى صُحْبَتِهِ وَيَجْعَلُنِي عُمْدَةً فِي وَجْهَتِهِ، فَلَا يَجِدُ فِيَّ بَقِيَّةً، وَلَا لِمُطَارَدَةِ الْأَمَلِ قَبْلَهُ مَسْكَةً، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ رَأْيٍ وَإِشَارَةٍ، وَإِهْدَاءٍ نَصِيحَةٍ، وَرَاضَانِي أَخِيرًا عَلَى التَّمَاسِ عَهْدِي، وَاقْتِضَاءِ حَظِّي بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ، إِنْ جَبَرَ اللَّهُ كُسْرَهُ، وَرَدَّ أَمْرَهُ مَعَ وَلَدِهِ" ^(٣).

المطلب الثاني

مسألة الانتباز عن سلطانه

مقدمة:

جاءت عبارة في نص لابن خلدون ربما أوحى لمن لم يستقرئ النصوص، ويؤلف بين تفاصيلها وجزئياتها بأن ابن الخطيب كانت صلته منقطعة بسلطانه المخلوع البتة، طيلة المدة التي أقامها في المغرب، إقامته الأولى، وهذه جناية في حق ابن الخطيب لأنها تصوره مصلحياً إلى أبعد الحدود، نفعياً إلى أقصى الغايات، وفي ذلك ما فيه من تكذيب دعوة انزوائه، والعكوف على إصلاح حاله، فضلاً عن الإحياء بعدم وفائه، وخيانة الود.

إن اجتثاث النصوص، وانتقاءها دون تثبت، وعدم الاهتمام إلى ترتيبها ترتيباً زمنياً متعاقباً، يراعي مقام التقديم والتأخير، عمل مخل بوقائع التاريخ، مشوه للمعاني والحقائق، ظالم لمن بأذيال التاريخ تعلق.

أما العبارة المعنية فهي قول ابن خلدون: "وَأَسْتَقَرَّ هُوَ [ابن الخطيب] مُنْتَبِذًا عَنْ سُلْطَانِهِ طُولَ مُقَامَتِهِ بِالْعُدْوَةِ" (٤).

وهذا كلام تعوزه الدقة التاريخية، والأمانة العلمية التي كثيراً ما نفتقدها في تاريخ ابن خلدون.

وهو كلام لا يتفق مع ما ورد في نص ابن الخطيب آنف الذكر، فضلاً عن كونه عاماً يحتاج إلى تخصيص، ومجماً يحتاج إلى تفسير؛ لأنه لم يستند إلى ما قرره ابن الخطيب، ونصه المذكور أسبق في الوجود من نص ابن خلدون، وأسبق حتى عن الوقائع التي تحدثت عن عودة السلطان إلى ملكه.

وأظن أن نص ابن خلدون كان متأثراً بظروف وملابسات فرار ابن الخطيب الأخير ونهايته المأساوية، ويوحى بموجبات ملاحقة سلطانه له انتقاماً لما سلف من انتبازه.

أما ابن الخطيب فما فتى يتحف بأخبار سلطانه المخلوع المقيم في فاس، كلما دعت إلى ذلك ضرورة، وبعث على ذلك حادث، فضلاً عن ثنائه المتجدد عليه، وولائه له، واعتقاد شرعيته، في الوقت الذي كان يهجو ويذم أعداءه، وأعداء سلطانه، وحتى الذين لم تكن تروقه سيرهم من ولادة الأمر في المغرب.

هذا مع قطعه على هجر السياسة والساسة لولا الوفاء والذمة، والأدب والمجاملة.

ومن الأخبار المتعلقة بسلطانه المخلوع، والتي تؤكد اهتمام ابن الخطيب بأموره على بعد شحطه وانتبازه ما نذكره:

المقصد الأول - تسجيله خبر استقدام ولد السلطان:

تسجيله خبر استقدام ولد السلطان الغني بالله من الأندلس، بوساطة مرينية بعد مرور أكثر من سنة على احتجازهم دونه، يقول ابن الخطيب: "وَفِي أَوَاسِطِ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ مِنْ عَامِ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ عَرَفْنَا اللَّهَ فِيهِ عَارِفَةَ الْخَيْرِ، كَانَ اسْتِقْدَامُ وَلَدِ السُّلْطَانِ الْأَمِيرِ الْمُتَنَصِّرِفِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ فِي سَبِيلِ الْبَغْيِ عَلَيْهِ وَالْمَكِيدَةِ، الْمُسْتَكْمِلِ خِلَالَ الْفَضْلِ، الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى أَمَدِ الطَّهَارَةِ وَالْعَفَافِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَمِيرِ أَبِي الْحَجَّاجِ بْنِ نَصْرِ، أُبْرِمَ أَمْرُ اسْتِخْلَاصِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِ عَبْدِهِ [ابْنِ الْخَطِيبِ]، فَبَايَعَ الْمُتَغَلَّبُ عَلَى الْإِقْرَارِ فِي الْوَقْتِ وَالْمُهَادَنَةِ تَحَرُّجًا مِمَّا تَجَرَّهُ الْمُشَاحَنَةُ مِنْ صَدْعٍ يُصِيبُ عَصَا الْإِسْلَامِ مَجْرَاهُ، وَقَدْ اشْتَمَلَ ثِقَافُهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ الْيَعَاقِبَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ مُوعِدًا بِتَنْفِيقِ سُوقِ الْفِتْنَةِ بِبَعْضِهِمْ عِنْدَ إِضَاقَتِهِ... وَسَقَطَ فِي يَدِ مَظْلُومِهِ [الغني بالله] لِرُكُودِ رِيحِهِ، وَتَقَاصُرِ أَمْرِهِ، وَجَاشَتِ النُّفُوسُ مِمَّنْ لَدَيْهِ، ثُمَّ اسْتَكَانَتْ لِصَوْلَةِ الْإِيَّامِ، مُرْجِنَةً لِلْوَقْتِ، مُرْتَشِفَةً لِلْبَلَالَةِ... فَوَصَلَ جَمِيعُهُمْ فِي جَفْنٍ عَرُويٍّ مِنْ مَالِقَةٍ إِلَى سَبْتَةٍ، وَمَعَ الْوَلَدِ أُمُّهُ فِي طَوِيفَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا بِحَالٍ حَاجَةٍ لِلْكَثِيرِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ، وَقَدْ ضَنَّ ظَالِمُهُمْ عَلَى جَمِيعِهِمْ بِمَا لَمْ تَكُنْ لِنَضْرِهِ السَّمَاحَةُ بِهِ، وَالنَّهَائُ بِحَقِيرِهِ فِي جَنْبِ مَا رَزَاهُمْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الَّذِي لَا نِهَآيَةَ وَرَاءَهُ فِي الظُّرْفِ وَالْبَهْجَةِ" (٥).

والنص ينطوي على المعاني الآتية:

- ١ - سعادة ابن الخطيب بقدوم ولد السلطان وأهله.
- ٢ - الإقرار بحق الغني بالله الشرعي في الملك وظلم غادره.
- ٣ - الإقرار بفضل هذا السلطان وطهارته وعفاه.
- ٤ - الإشارة إلى عدم علمه بحيثيات استخلاص ولد السلطان.
- ٥ - الإشارة إلى إقرار المتغلب بالهدنة مع الإيالة المرينية صوناً للعلاقة، وحرصاً على اجتماع كلمة الإسلام.
- ٦ - الإشارة إلى اشتغال دولته على الأعياص اللاجئين من أمراء بني مرين ورقة مدخرة لتفجير الوضع عند مضايقته.

- ٧ - التعريض بهؤلاء الأعياص صدًا للقائمين على أمر الدولة المرينية عن السعي لإعادة السلطان المخلوع إلى ملكه.
- ٨ - الإشارة إلى يأس السلطان المخلوع، ومسؤولي الدولة المضيفة من محاولة ارتجاع ملكه، وإرجاء ذلك إلى الفرصة السانحة.
- ٩ - الإشارة إلى قدوم ولد السلطان وأمه وطائفة صغيرة من الجواري.
- ١٠ - الإشارة إلى وصولهم مجردين من كل نعمة.
- ١١ - رقة ابن الخطيب لحالهم وقد وفدوا على هذه الصفة التي انعدمت فيها أبسط معاني الشفقة والرحمة.
- ١٢ - الإشارة إلى عظم الرزء والرزية، فيما كان لهم من متاع وسلبوه.

المقصد الثاني - خطاب التهنئة بخلاص الولد:

مخاطباً سلطانه بمناسبة لحوق ولده به مهنتاً ومواسياً ومذكراً بنعم الله عليه:

وكان من جملة ما عزاه به قوله، وهي من أبلغ مواظبه بعد هذه الأبيات:

الدَّهْرُ أَضْيَقُ فُسْحَةً مِنْ أَنْ يُرَى بِالْحُزْنِ وَالْكَمَدِ الْمُضَاعَفِ يُقْطَعُ
وَإِذَا قَطَعْتَ زَمَانَهُ فِي كُرْبَةٍ ضَيِّعْتَ فِي الْأَوْهَامِ مَا لَا يَرْجَعُ
فَاقْنَعْ بِمَا أَعْطَاكَ دَهْرُكَ وَاعْتَنِمْ مِنْهُ السُّرُورَ وَخَلِّ مَنْ لَا يَقْنَعُ^(٦)

مَوْلَايَ الَّذِي لَهُ الْمِنَّةُ، وَالْخُلُقُ الْجَمِيلُ، وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ... كَتَبَهُ عَبْدُكَ مُهْنِتًا بِنِعْمِ
اللَّهِ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَيْكَ... مِنْ اجْتِمَاعِ شَمْلِكَ بِنَجْلِكَ، وَقَضَاءِ دَيْنِكَ مِنْ قُرَّةِ عَيْنِكَ، إِلَى
مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِفْلَاتِكَ، وَسَلَامَةِ ذَاتِكَ... وَالزَّمَنُ سَاعَةٌ أَوْ أَقْصَرُ، لَا بَلْ كَلَمَحِ الْبَصَرِ،
وَكَأَنِّي بِالْبَسَاطِ قَدْ طُوِيَ، وَالتُّرَابُ عَلَى الْكُلِّ قَدْ سُويَ... وَأَنْتَ الْيَوْمَ عَلَى زَمَانِكَ
بِالْخِيَارِ، فَإِنْ اعْتَبَرْتَ الْحَالِ، وَاجْتَنَبْتَ الْمَحَالَ، لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ أَنَّ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ أَمْسٍ،
مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا لَبْسٍ، وَكَانَ أَمَلِي التَّوَجُّهُ إِلَى رُؤْيَاكَ وَلَدَيْكَ، لَكِنْ عَارَضَتْنِي مَوَانِعٌ، لَا
نَذْرِي فِي الْآتِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ، فَاسْتَنْبْتُ هَذِهِ فِي تَقْبِيلِ قَدَمِهِ وَالْهَنَاءِ بِمَقْدَمِهِ^(٧).

ونص الموعظة، كما هو بين، يقوم على المعاني الأساسية الآتية:

- ١ - النصح بعدم البكاء والحزن على ما فات، لأن الزمن أنفس من أن يهدر في مثل هذا.
- ٢ - النصح باغتنام الوقت ومبادرة الزمن فيما ينفع.
- ٣ - النصح بالالتفات إلى نعم الله عليه، وهي كثيرة منها: نجاته من الهلاك، واجتماع شمله.
- ٤ - تقرير أمله في الانتقال إليه من سلا إلى فاس لرؤية الولد، والتهنئة بالسلامة لولا الموانع.
- ٥ - بعث الرسالة نائبة عنه في أداء الحق، وتقبيل الأقدام، والتعبير عن الهناء بالمقدم، كناية عن المحبة والولاء.

المقصد الثالث - الولاء للأسرة النصرية:

ولقد تمثل هذا الولاء الكبير في العناية الخاصة التي كان ابن الخطيب يوليها لهذا السلطان وشؤونه على الرغم من بعده كما تبين آنفاً، وآيات هذه العناية نجمها في النقاط الآتية:

أولاً - متابعة أخبار سلطانه العائد إلى الأندلس ساعياً إلى ارتجاع ملكه، متابعة تشف عن اهتمام بالغ، وعناية كبيرة، وقد لاحظنا من خلال عرضنا لتفاصيل عبور السلطان المخلوع، الغني باله، في المبحث السابق، أن ابن الخطيب كان هو العمدة في تغطيته دون غيره من غير مدافع، متابعة لم تغادر كبيرة ولا صغيرة من أمره إلا بينتها وأوفتها.

ثانياً - تصنيفه لكتاب "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" الذي أرخ من خلاله لهذه الدولة التي حكم أمراؤها وملوكها وطنه الأندلس النازح عنه، وسلطانه المخلوع واحد منهم، أشاد في الكتاب بفضل هذه الدولة وأمرائها، وخص لهذا السلطان في الكتاب حديثاً لم يخص به غيره، وأطال فيه أكثر من غيره، ومن جملة ما قال فيه: "هَذَا السُّلْطَانُ مُشْتَمِلٌ عَلَى خِلَالٍ قَلَّ أَنْ تَجْتَمَعَ فِي سِوَاهُ، مِنْ حُسْنِ

الصُّورَةِ، وَاعْتِدَالِ الْخُلُقِ، وَالْعِرَاقَةِ فِي الْخَيْرِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، وَصِحَّةِ الْعَقْدِ، وَشُمُولِ الطَّهَارَةِ" (٨).

ثالثاً - إنشاد القصيدة الطنانة التي تكرر الحديث عنها والتي بلغت أبياتها أكثر من مئتي بيت في مدحه وتأييده، على الرغم من تخلفه عنه واعتذاره، ولولا الود والوفاء لما نهضت همته، ولتقاصرت قريحته، لخفوت الوارد، وبرود الانفعال، وهذا لا يخفى على من تدبر.

وهذه الاعتبارات كلها لا تدل على أن ابن الخطيب كان منتبذاً عن سلطانه حقيقة، لقد كانت المباينة جسمية فقط، أما فكراً وروحاً فكان التواصل قائماً يصدق عليه قول الإمام ابن حزم:

لَئِنْ أَصْبَحْتَ مُرْتَحِلاً بِجِسْمِي فَقَلْبِي عِنْدَكُمْ أَبَداً مُقِيمٌ
تنبيه:

لقد كان ابن الخطيب منتبذاً حتى عند أقرب الناس إليه وهم ولده، كما دلت القرائن في أكثر من موضع، كان الرجل مشغولاً عن الناس بما أهمه، وإلا فكيف يتأتى له ما تأتى من تصنيف وتأليف ثرٌّ في تلك المدة الوجيزة.

ثم إنه لو كان ابن الخطيب منتبذاً عن سلطانه حقيقة، لأحس سلطانه بذلك، ولو أحس بذلك، لما كان ملحاً في استصحابه مصرّاً على مرافقته، أثناء التصميم على عودته.

المطلب الثالث الاستدعاء لنقل ولد السلطان

ظل ابن الخطيب على الحال المذكور إلى أن فاجأه خطاب القائم بأمر المغرب، الوزير المستبد عمر بن عبد الله، يستدعيه من "سلا" من أجل استصحاب ولد السلطان، وهو الوعد الذي كان قد التزم الوفاء به بين يدي رحيل سلطانه.

في هذا الأمر وردت روايات تباينت من حيث التفاصيل شيئاً ما، نذكرها ثم نعلق عليها. وأبدأ بالتي تصدرت من حيث الزمان.

قال ابن الخطيب في نفاضة الجراب: "وَلَمَّا اتَّسَقَ الْأَمْرُ، وَتَدَمَّتِ الطَّاعَةُ، وَقَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَزِيرِ، قُطِبَ رَحَى الْمَلِكِ بِالْمَغْرِبِ، وَمُدِيلِ دَوْلِهِ، وَمُصَابِرِ هَوْلِهِ... أَبِي عَلِيٍّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَكَاتِبِيُّ فِي الْقُدُومِ بِوَلَدِ السُّلْطَانِ، الْمُخْلَفِ فِي جَوَارِهِمْ، وَتَحْتَ حُجُورِهِمْ، وَجَمَعَ شَمْلَهُ بِأَبِيهِ... فَاسْتَحْتَنِي لِهَذِهِ الطُّلُبَةِ، وَقَدْ يَسَّرَهَا رَأْيُهُ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا عَزْمُهُ" (٩).

وقال في كتاب "إعمال الأعلام": "وَمَا رَاعَنِي إِلَّا كِتَابُ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى دَوْلَةِ الْمَغْرِبِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الصُّحْبَةُ... يُخْبِرُنِي بِمَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُ بِغَرْنَاطَةَ، وَيَرَى مَا عِنْدِي فِي زِيَارَتِهِ، وَالْوُضُولِ مَعَهُ وَلَدِهِ، فَعَزَمْتُ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى قَصْدِهِ" (١٠).

وقال في "الإحاطة" مركزاً على وفائه بالعهد للسلطان: "... فطالبنني [الغني بالله] بَوَعْدِ ضَرْبَتِهِ، وَعَهْدِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ بِوَلَدِهِ أَحْكَمْتُهُ، وَلَمْ يُوسِعْنِي عُذْرًا، وَلَا فَسَحَ فِي التَّرْكِ مَجَالًا، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ بِوَلَدِهِ" (١١).

وهذه النصوص وإن تباينت تجمع على أمر، وتختلف على أمور، أما الأمر المجمع عليه فهو:

مطالبة ابن الخطيب بإنجاز وعده، والوفاء بعهده، الذي كان قد كان قطعه مع سلطانه قبل ارتحاله إلى الأندلس، ساعياً إلى استرجاع ملكه.

وأما الأمور التي اختلفت حولها فهي:

١ - النصان الأولان يقرران أن المبادرة كانت من قبل وزير المغرب عن طريق المراسلة.

٢ - أن المبادرة برد ولد السلطان إلى الأندلس جاءت بعد تفكير.

٣ - أن اختيار ابن الخطيب لهذه المهمة دون غيره كان على أساس معرفته به، وليس بناء على العهد الذي نوه به.

٤ - أن أمر استدعاء الوزير لابن الخطيب لهذه المهمة راعه، وعكر صفوه.

٥ - يفهم من النص الأخير أن المبادرة بطلب الولد كانت من قبل السلطان يستنجز ابن الخطيب وعده.

٦ - كما يفهم من إشارة النصين الأولين أن مسألة إرجاع ولد السلطان كانت قراراً بيد الإيالة المغربية، إن شاءت وفت وإن شاءت أعرضت.

يؤكد هذا الحقائق الآتية:

أ - أن السلطان الغني بالله، وهو في "رندة" يتشوف إلى الفتح الذي عسر أمره، بعث إلى الإيالة المغربية وفداً برئاسة وزيره علي بن يوسف بن كماشة، يحمل خطاب طلب تسريح ولده معه، فلم ينجح سعيه، وأطال المكث ثم عاد بخفي حنين، قال ابن الخطيب مقررًا هذه الحقيقة: "... وَعَسَرَ عَلَيْهِ الْعَوْدُ عَلَى السُّلْطَانِ بَوْلَدِهِ" (١٢).

ب - وقال في موضع آخر، والحديث يعني ابن كماشة أيضا: "... لَمَّا اسْتَقَرَّ [الغني بالله] بِـ "رُنْدَةَ"، فَعَيَّنَهُ لِلْسَّفَارَةِ إِلَى بَابِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ [أبي زيان]، لِمُحَاوَلَةِ جَلْبِ وَلَدِهِ، وَخُرْمَتِهِ... فَأَضْرَبَ عَنِ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى وَجْهَتِهِ، وَمَقْصِدِ رِسَالَتِهِ، وَتَشَطَّطَ فِي اقْتِضَاءِ شُرُوطِ حَمَلِهَا السُّلْطَانِ [أبا زيان] أَيَّامَ كَوْنِهِ رَهِينَةً بِبَلَدِ الرُّومِ، يُصَانِعُ عَلَى نَفْسِهِ بِكُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ... أَقْطَعَ لِحْجَاهَا جَانِبَ الرَّفْضِ فَقَامَ سَدُّ الْوَحْشَةِ بَيْنَ إِسْعَافِ السُّلْطَانِ، وَبَيْنَ عَرْضِ الرِّسَالَةِ، وَطَالَ مَكُثُهُ، وَتَعَدَّرَ وَصُولُ الْوَلَدِ بِسُوءِ تَصْرِيفِهِ، إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ لِلْسُّلْطَانِ [الغني بالله]... فاستعجل الانصراف، وَتَرَكَ الْوَلَدَ وَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا الْوُلُوغُ فِي عُرْسِ الدَّوْلَةِ" (١٣).

ويفهم من النصين أن المانع الذي منع من نجاح سفارة الوزير علي بن يوسف ابن كماشة هي أسباب شخصية، ونفرة تسبب فيها هذا الوزير حينما طالب السلطان

أبا زيان بعروض مادية كان قد وعده بها أيام كان لاجئاً بمملكة قشتالة بين يدي خروجه مستدعي لاقتعاد أريكة الملك.

ولسنا ندري أفاتح هذا الوزير السلطان ووزيره في موضوع ولد السلطان أم حال دون ذلك صده وقد قدم عرضه.

وأعتقد أن هذا ليس سبباً كافياً، ومبرراً مقنعاً يحول دون استلحاق الولد بالدهم، والحرم بمالكهم.

وإنما السبب كامن في المساومة التي كانت تذكي نارها مسألة اللجوء السياسي، ومؤسسة مشيخة الغزاة التي كانت تقض مضجع الإيالة المرينية، فربما أراد القصر المريني أن يحتفظ بولد السلطان رهينة يبتز بها القصر النصري متى شاء وبما شاء.

أكد هذا قول ابن الخطيب: "... فقدمتُ عَلَيْهِ بِوَلَدِهِ، فِي الْيَوْمِ الْأَعَزِّ الْمُحْجَلِ، وَقَدْ سَاءَهُ بِإِمْسَاكِهِ رَهِينَةً ظَنُّهُ، وَنَغَصَ مَسْرَّةَ الْفَتْحِ بَعْدَهُ" (١٤).

والنص أشار إلى مجرد الظن، وفي السياسة ليس هناك دخان بدون نار.

وهناك نص آخر أكد صدق هذا الظن، بصيغة محكمة، لا تحتمل التأويل، قال ابن الخطيب: "وَلَدَ الْمُسْتَوَلِي عَلَى مُلْكِ الْمَغْرِبِ فِي إِمْسَاكِهِ إِلَى أَنْ يَسْتَرْجِعَ رُنْدَةً فِي مُعَارَضَةِ هَدَفِهِ" (١٥).

وقد عرفنا أنفا قصة تنازل الإيالة المرينية عن رُنْدَة للسلطان الغني بالله الساعي إلى استرجاع ملكه.

كما يؤكد أن قرار إرجاع السلطان أمر كان بيد الإيالة المرينية، وخاصة الوزير المستبد، فهو الذي استدعى ابن الخطيب، وهو الذي اختار التاريخ، وهو الذي اختار البعثة السفارية المرينية التي تصاحب الركب، كما تدل القرائن الكثيرة التي سنذكرها في العنوان اللاحق.

المطلب الرابع

تحرك ابن الخطيب لاستصحاب ولد السلطان

المقصد الأول - من سلا إلى سبتة:

أولاً - انتقال ابن الخطيب من "سلا" إلى "فاس":

كان تاريخ انطلاق ابن الخطيب من "سلا" قاصداً "فاس" معلوماً سجله ابن الخطيب بقوله: "فَكَانَ الْخُرُوجُ مِنْ مَدِينَةِ سَلا ... يَوْمَ السَّبْتِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ عَامٍ ثَلَاثَةٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعُمِائَةٍ" (١٦).

ثانياً - الانتقال من "فاس" إلى "سبتة":

كان تاريخ انطلاق ابن الخطيب بركب السلطان وحرمه، يوم الأربعاء ٢٠ من رجب سنة ٧٦٣هـ-١٣٦٢م، في حفل بهيج، وتشجيع نبیه.

قال ابن الخطيب: "وَلَمَّا وَرَدْتُ الْبَابَ السُّلْطَانِيَّ الْمَرِينِيَّ، جَرَى الرَّسْمُ مِنَ الْعِزِّ وَالْمِنَّةِ لِلَّهِ، وَمُقْتَضَبِ الْخَلْعِ الْمُفْضَلَةِ، وَالْمَرَائِكِبِ الْفَارِهِةِ، شَرَعْتُ فِي الْارْتِحَالِ بِالْأَمِيرِ وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ ذَيْلٍ وَحُرْمَةٍ" (١٧).

وقال في موضع آخر: "وَكَانَ السَّفَرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْمُؤَيَّ عَشْرِينَ مِنْهُ فِي زِينَةٍ وَعُدَّةٍ وَرَكْبٍ نَبِيهِ" (١٨).

المقصد الثاني - السفارات المتبادلة:

أولاً - السفارة المرينية:

أما الرسالة السلطانية المرينية التي حملتها سفارته المخبرة، فقد تأخر تاريخ صدورها عن تاريخ انطلاق الركب بيومين، وهذا ما يوحي باحتمال اتخاذ مسلك مباين لمسلك الركب بغية الإسراع بالوصول قبل الركب للإخبار، فهم أخف حملاً، والركب أبطأ سيراً لاحتوائه على الحرم، والله أعلم، ومما تضمنته الرسالة ما نجتزئه: "... وَلَمَّا عَزَمْنَا عَلَى تَوْجِيهِ وَلَدِكُمُ الْأَمِيرِ الْأَسْعَدِ... محلٌّ وَلَدِنَا، أَبِي الْحَجَّاجِ... مَنْ بَابِنَا الْكَرِيمِ إِلَى بَابِكُمْ، رَأَيْنَا أَنَّ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَخَصِّهِمْ بِهِ، وَأَوْلَاهُمْ

بِتَأْنِيْسِهِ، حَظِيْتُكُمْ الشَّيْخَ الْفَقِيْهَ... الْوَزِيْرَ الْمَكْرَمَ، أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ... أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْخَطِيْبِ... عَلِمًا بِمَا لَهُ عِنْدَكُمْ وَعِنْدَ سَلَفِكُمْ مِنَ الْمَحَلِّ الْكَبِيْر، وَالْقَدْرِ الْخَطِيْر، وَالْمَكَانِ الشَّهِيْر، وَعَمَلًا عَلَى مَا أَشْرَرْتُمْ إِلَيْهِ فِي خِطَابِكُمْ إِلَيْنَا بِالْإِيْصَاءِ بِهِ مِنْ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْكُمْ... فَرَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَهُ الْأَنْيْسُ، وَالْمَرَائِبُ وَالْجَلِيْسُ... فَأَصْحَبْنَاهُ إِيَّاهُ مُلْبَسًا أَتَوَابِ الْاِعْتِنَاءِ، مُجَزَلَةً لَدَيْهِ مَوَاهِبُ النَّعْمَاءِ... وَعَرَفْنَاكُمْ بِذَلِكَ لِتَعْلَمُوا مَا اِعْتَمَدْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْقَصْدِ الْجَمِيْلِ...

وَكُتِبَ فِي الثَّانِي وَالْعَشْرَيْنِ لِرَجَبِ الْفَرْدِ، عَامِ ثَلَاثَةٍ وَسِتِّيْنَ وَسَبْعُمِائَةٍ، وَكُتِبَ فِي التَّارِيْخِ " (١٩).

ثَانِيًا - السَّفَارَةُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ:

وما أن قطع ابن الخطيب وركبه مرحلتين حتى ورد عليه في طريقه خطاب من السلطان محمد الغني بالله يستحثه للقدوم ظاناً أنه قد تخلف، أما تاريخ تدوين الرسالة فيؤكد أنه كتب مباشرة عقب اقتعاد أريكة الملك بأربعة أيام، وهو يوم الأربعاء ٢٤ جمادى الثانية عام ٧٦٣هـ.

قدّم ابن الخطيب لهذا الخطاب بقوله: " وَعَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنَ الطَّرِيقِ، وَرَدَتْ عَلَيْنَا مُخَاطَبَةُ السُّلْطَانِ ظَانًّا إِيَّايَ قَاعِدًا عَنْهُ بِمَدِينَةِ "سلا"، حَسْبَمَا كَانَ عَلَيْهِ عَقْدِي، لَوْلَا أَنَّ الْعَبْدَ مَسْلُوبَ الْاِخْتِيَارِ، مُصَرَّفٌ بِأَيْدِي الْأَقْدَارِ " (٢٠).

ومن الأغراض التي عرضت لها الرسالة السلطانية ما ذكره في العناصر الآتية:

- ١ - الثناء على ابن الخطيب بجميل الصفات والاعتراف بولائه وإخلاصه.
- ٢ - التأكيد على إجلاله وتبجيله، والاعتراف بمقداره العظيم.
- ٣ - قص وقائع حركته في الأندلس التي أسفرت عن استرجاع ملكه بعد مشقة.
- ٤ - إخباره باستخلاص جميع مملكتاته التي صودرت وانتهبت، ووضعها تحت تصرف أحد أصهاره، وقال له في ذلك: " حَتَّى يُبَسِّرَ اللَّهُ قُدُومَكُمْ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ، وَإِنْ ظَهَرَ لَكُمْ تَوَجُّيْهِ مَنْ يُشَارِكُهُ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ، خِلَالِ مَا يَسْنِي اللَّهُ مَقْدَمَكُمْ فِي كَنْفِ الْعَافِيَةِ الْمُقْتَرَنَةِ بِبُلُوغِ الْأَمَالِ، فَعَلْتُمْ " (٢١).

المقصد الثالث - إجازة البحر والنزول الاضطرابي بجبل طارق:

انطلق الراكب الأميري برئاسة ابن الخطيب يطوي المسافات إلى "سبتة" تشييعه العناية، وتحصيه السلامة، لا تعترضه العلة.

وعند الوصول اضطرب إلى الانتظار مدة ريثما تتلاحق الأساطيل الأندلسية الموكلة بإيجاز الراكب، قال ابن الخطيب يصف ذلك: "وَصَحِبَتِ الْعِنَايَةُ مِنَ اللَّهِ وَالسَّيْرُ، فَكَانَ الْمَحْمِلُ سَهْلًا، وَالْمَنْزِلُ خَضْبًا، وَدِفْئًا، وَالْهَوَاءُ ظِلًّا، وَالْمَوْرِدُ نَهْلًا...وَوَرَدْنَا "سَبْتَةَ" فَكَانَ بِهَا التَّرْبُصُ رَيْثَمَا تَلَاخَقَتْ أَسَاطِيلُ الْأَنْدَلُسِ، وَبِهَا ظَهِيرُ الدَّوْلَةِ وَيَعْسُوبُ الْكِتَابَةِ الزَّيَّانِيَّةِ...الْمُسْتَوِي عَلَى الْخِلَالِ الْكَرِيمَةِ... تَبَرَّعَ بِخَوْضِ الْبَحْرِ، وَمُبَاشَرَةِ إِجَازَةِ الْإِمَارَةِ، فَهَيَّاَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى أَتَمِّ الْأَحْوَالِ...وَرَامَ الْأَسْطُولُ قَصْدَ "مَالِقَةَ" فَاضْطَرَّهُ الْبَحْرُ إِلَى النُّزُولِ بِجَبَلِ طَارِقٍ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ الْخَادِي عَشَرَ لِشَعْبَانَ، ثُمَّ كَانَ النُّزُولُ بِـ "مَالِقَةَ" إِثْرَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْهُ..." (٢٢).

والنص يشي بالمعاني والحقائق الآتية، إضافة إلى ما ذكر بين يدي تقديمه:

- ١ - أن الذي تبرع بإجازتهم هو أحد شيوخ بني زيان الزناتيين، ولعله أحد شيوخ مشيخة الغزاة.
- ٢ - لم يذكر النص اسمه، وإن أفاض في التعريف به، وبينان خلاله، لعله سهو من ابن الخطيب أدى إليه الاستطراد على عادته.
- ٣ - كانت الوجهة المقصودة مدينة "مالقة" لكن الرياح صرفته إلى مشارف جبل طارق.
- ٤ - أن المدة التي استغرقها الأسطول وهو يخوض البحر من جبل طارق إلى مالقة كانت ثلاثة أيام، ربما تخللها وقت للراحة، قبل الإقلاع من جبل طارق.

المقصد الرابع - الانتقال من "مالقة" إلى "غرناطة":

انطلق الراكب أيضاً من مالقة التي لم يعرج عليها طويلاً، متجهاً إلى غرناطة حضرة الملك، وواسطة السلك، حيث الشمل الجميع، والأنس الوديع، والاحتفاء البديع، والشأن الرفيع.

وبينما الركب مغذاً سيره في اقتحام الحضرة، إذ يتلقى الاتصالات، وترد عليه المخاطبات، تدعوه إلى المكث حتى تتم الترتيبات، وتتخذ الإجراءات تنويعاً واعتداداً، وتشريعاً واستعداداً.

قال ابن الخطيب: "وَصَدَرَتِ الْمُرَاجَعَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ بِالمَكْثِ لِيَتِمَّ الاستِعدادُ، فَتَأْتِي مِنْ ذَلِكَ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، مَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْقَطْرِ، وَإِنْ تَعَرَّضَتْهُ النَّوَائِبُ، وَضَخَامَةُ الْمَلِكِ وَإِنْ تَرَشَّفتْ بِلَالَتُهُ الْمَصَائِبُ، وَوَصَلَتْ لِإِقْلَالِ الْأَمِيرِ وَمَنْ مَعَهُ دَوَابُّ الظَّهْرِ، تَحْمِلُ الْكِسَاءَ وَالْخُلَعَ وَالْفُرُشَ وَالْوَطَاءَ، وَالْأَلَّةَ وَالْمَضَارِبَ وَالْقَبَابَ وَالْهُوَادِجَ، مَا لِأَشْيَاءَ فَوْقَهُ، أَخَذَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْإِبْدَاعُ بِجَمِيعِ اخْتِفَالِهِ، فَمَا شِئْتُ مِنْ نَسَجٍ ذَهَبِيٍّ، وَدِيْبَاجٍ خَسْرَوَانِي، وَأَشْكَالٍ بَدِيعَةٍ، وَفُرُشٍ مَوْضُوعَةٍ، وَجَلِيٍّ لِمَصْدُورِ الظَّهْرِ وَرُؤُوسِهَا" (٢٣).

ويمكن تفكيك مكونات النص الدلالية إلى العناصر الآتية:

١ - دل النص على أبهة القطر، وضخامة الملك على صغر حجمه، وجليل الخطب الذي ألم به، وهذا يؤكد على العراقة في الحضارة، والنضارة، لتراكم الخبرة، وطول التجربة، تمثل ذلك في المظاهر الآتية:

أ - تخصيص دواب الظهر لنقل الأمير ومن معه، على الرغم من أنهم جاءوا تقلهم الدواب المرينية، مبالغة في الاختصاص والاحتفاء.

ب - على الرغم من قصر المسافة وسمو الجهة الباعثة، أبى الموكلون ببرتوكول الضيافة إلا التفنن في اختيار الأكسية والخلع، والآلات والمضارب والقباب، والهوادج، وما إلى ذلك، حرصاً على التميز في الحضارة الأندلسية الخاصة.

٢ - دل النص أيضاً على أن المكث استوفى أياماً، فكانت هذه الآلات والمضارب ضرورية للإقامة المقدرة من جهة، وإعداداً للهيئة التي ينبغي أن يدخل عليها الركب من جهة ثانية، وهذا قد يوحي بأن وصول الركب كان مفاجئاً، ويؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن اختيار الوقت كان من اجتهاد وزير الدولة المرينية.

المقصد الخامس - دخول حضرة غرناطة:

كان الدخول إلى غرناطة مشهوداً وحدثاً مشهوراً، وأزرى به التزيين، وأغرى به التحسين، صور ابن الخطيب مظاهره كعادته في جميل الوصف قائلاً: "وَكَانَ دُخُولُ "الْحَضْرَةِ" يَوْمَ السَّبْتِ الْمُؤَيَّ عَشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ، وَمِنْ الْمَنْزِلِ الْمَعْرُوفِ بِـ "إِغْرَم" مِنْ "قَنْبِ قَيْس"، فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، خَرَجَ حَدَّ الْوَصْفِ، وَتَرَفَّعَ عَنِ الذِّكْرِ، وَشَدَّتْ مَحَاسِنُهُ عَنِ الْعِبَارَةِ، لَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ التَّرْتِيبِ، وَوُفُورِ الْعُدَّةِ، وَظُهُورِ الزَّيْنَةِ، وَكَثْرَةِ الْبُنُودِ، وَتَعَدُّدِ الطُّبُولِ، وَسُبُوغِ الدَّرُوعِ بِـ "القَنْبِ جَاغِر" مَحَلَّ الْكَائِنَةِ الْمُسْتَفْتَحِ بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَالْحَدَثَانِ الْجَارِي عَلَى الْأَلْسِنَةِ" (٢٤).

والنص يؤكد على المعاني الآتية:

١ - كان تاريخ دخول حضرة غرناطة، يوم السبت عشرين شعبان من سنة ٧٦٣هـ-١٣٦٢م، وهذا يعني أن المدة الزمنية التي استغرقت ما بين "مالقة" ودخول الحضرة "غرناطة" ستة أيام، ولا شك في أن إبطاء الركب المذكور هو الذي أطال المدة.

٢ - تعيين الجهة التي يدخل منها الركب، وهي "إغرم"، من قنب قيس، ولا شك أن الدخول على هذه الجهة كان مقصوداً، بأمر الساهرين على التنظيم، وقد عرفنا الاستعدادات آنفاً.

٣ - كان الدخول مشهوداً، والولوج معهوداً، حشرت له جميع الطاقات والجهود ليكون أغر محجلاً، ومن آيات ذلك:

- أ - حسن الترتيب.
- ب - وفور العدة والآلة.
- ت - ظهور الزينة.
- ث - كثرة الرايات والألوية.
- ج - تعدد الطبول.
- ح - إسباغ الدروع على الجنود.
- خ - استحكام التعبئة ونظامها.

٤ - شهود السلطان لمراسيم اللقاء والاحتفال برئاسة هذه التعبئة وتزعم هذا الترتيب.

٥ - كانت أرضية حفل الاستقبال هي " القنب جاجر " وهي عبارة عن سهل منبسط يطفح شيحا ويفوح رائحة.

المقصد السادس - لقاء السلطان:

وبعد الاستعراض الحافل، والتنويه الفاضل، تقدم الركب الأميري للقاء الموكب السلطاني.

واختُملَ الولد أولاً لأداء حق الأبوة والبنوة، على إيقاع الطبول وسط ألوان الزينة، في غمرة المشاعر الجياشة، المخرسة للألسنة، المثيرة للشفقة، المحركة للإجهاش والاستعبار.

ثم كان تقدم ابن الخطيب إلى السلطان، ولم يكن أقل رقة، ولا أدنى شفقة، من لقاء السلطان بولده، فقد كان ابن الخطيب محل الوالد بالنسبة لهذا السلطان الذي كانت له مكانة خاصة في قلب ابن الخطيب.

ثم تقدم باقي أفراد الوفد لأداء التحية، وصرفت أعنة الدواب بعدئذ إلى القصر لحضور الحفل وشهود المأدبة.

قال ابن الخطيب مصوراً هذا كله: " وَلَمَّا تَلَقَّى رَكْبُ الْأَمِيرِ بِالْمَوْكِبِ السُّلْطَانِي، اخْتُمِلَ الْوَلَدُ إِلَى تَأْدِيَةِ حَقِّ أَبِيهِ، وَتَحَرَّكَ طَرَادُ الرَّيَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَقَبْلَ مَا تَقَدَّمَ لِقَائِي بِالْمَوْلَى السُّلْطَانِ، وَأَقْتِضَائِي عَادَةَ الشَّفَقَةِ مِنَ الْهَشَّةِ وَالْاسْتِعْبَارِ وَالتَّمَايْلِ وَالْاسْتِلْزَامِ، وَالْأَمْرِ بِالْمُؤَازَرَةِ وَالْمُرَاكَبَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُلْطَافِ الَّتِي أَذْهَلْتَنِي إِجْهَاشُ الرَّقَّةِ، وَعَدَمُ التَّمَسُّكِ عَنْ مُلَاحَظَةِ أَجْزَائِهَا الْعَرِيقَةِ، الْمُتَرَامِيَةِ إِلَى أَقْصَى حُدُودِ الْمُرُوءَةِ، وَصُرِفَتْ الْأَعْيُنُ إِلَى دَارِ الْمُلْكِ عَنْ حَفْلِ أَرْبَى عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ " (٢٥)

ولما استقرت الأمور، وهدأت الأحوال، قام ابن الخطيب وسط الجموع، فأنشد قصيدته الطويلة الغراء، التي نظمها وهو في سلا عند خروج السلطان لابتغاء ملكه، والتي أسماها " المنح الغريب في الفتح القريب " لم يغير منها حرفاً، وقد تجاوز في

معانيها الزمان والمكان، واستشرف بنور البصيرة وقائع الحدثان، علق عليها ابن الخطيب بقوله: "كَأَنَّمَا كُوشِفَتْ بِالْغَيْبِ أَوْ أُطْلِعَتْ عَلَى الْعُقْبَى" (٢٦).

وجاء رفقة الركاب الأميري عن الجهة السلطانية المرينية، الفقيه، والأديب الكاتب، أبو يحيى محمد بن القاسم بن أبي مدين، من أجل تقرير المودات، وتأكيد الصلات، وتمتين العلاقات، فبولغ في إكرامه، والاحتفاء بمقدمه، ثم انصرف بمراجعة من جملة ما تقرر فيها ما نذكره:

"... وَوَصَلَ الْوَلَدَ صُحْبَتَهُ [المذكور] مَكْنُوفًا بِجَنَاحِ اللَّطْفِ، مُمَهَّدًا لَهُ بِبَرَكَتِكُمْ مِهَادَ الْعُطْفِ، فَبَرَزْنَا إِلَى تَلْقَائِهِ، تَنْوِيهًا بِهَدْيَيْكُمْ وَإِشَادَةً، وَبَدَأَ فِي بَرِّكُمْ وَإِعَادَةً، وَأَرْكَبْنَا الْجَيْشَ الَّذِي أَثَرْنَا لِجَيْنِ اسْتِقْلَالِنَا عَرْضَهُ وَقَرَّرْنَا بِمُوجِبِ الْإِسْتِحْقَاقِ فَرَضَهُ، فَبَرَزَ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَفْصَحِ، بِحَسَبِ التَّرْتِيبِ سَافِرًا عَنِ الْمَرَأَى الْعَجِيبِ، لَوْلَا الْحَنَانُ الَّذِي نَجَدُهُ النُّفُوسَ لِلْأَبْنَاءِ وَتَسْتَشْعِرُهُ، وَالتَّشَوُّفَ إِلَى اللَّقَاءِ الَّذِي لَا يَجْحَدُهُ مُنْصَفٌ وَلَا يُنْكِرُهُ، لَمَا شَقَّ عَلَيْنَا طَوْلُ مُقَامِهِ فِي حَجْرِكُمْ، وَلَا نَوَاؤُهُ لَصُقِّ أَرْيَكَةِ أَمْرِكُمْ.

فَجَوَارِكُمْ مَحَلٌّ لَاسْتِعَادَةِ رُسُومِ الْإِمَارَةِ، وَتَعَلَّمَ السِّيَاسَةَ وَالْإِدَارَةَ، حَتَّى يَرِدَ عَلَيْنَا يَفْدُمُ كِتَابَةَ جِهَادِكُمْ، وَيَقُودُ عَلَيْنَا طَلِيعَةَ نَصْرِكُمْ إِيَّانَا وَإِمَادِكُمْ، فَنَحْنُ الْآنَ نَشْكُرُ مَقَاصِدَكُمْ الَّتِي اقْتَضَى الْكَمَالُ سِيَاقَهَا (٢٧).

المقصد السابع - ابن الخطيب والخروج بنية العودة:

أشرنا سابقاً إلى أن الباعث الحثيث الذي كان من وراء انتقال ابن الخطيب إلى الأندلس، إنما هو استصحاب ولد السلطان بناء على الوعد الذي ضربه مع سلطانه بين يدي خروجه إلى الأندلس، وبناء أيضاً على طلب الوزير المريني المستبد عمر بن عبد الله الذي استدعى ابن الخطيب لإنجاز المهمة، والبرور بوعده.

وهذا يؤكد أن البواعث كانت خارجية، أملت عليه، واستجاب لها تحت داعي الحياء والمجاملة القريبة من الإكراه والاضطرار.

أما ما كان ابن الخطيب يطوي عليه أجنته، فهو أداء المهمة ثم العودة للتهني

بحاله الذي عزم عليه عقده، وأخلص له قلبه، ألا وهو الاستقرار بـ "سلا" المغرب، والاستعداد لإعمال الرحلة الحجازية، كما وردت الإشارة إلى ذلك، في أكثر من موضع من كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" الذي أنهاه بقوله: "وَقَدْ أَنْ لَنَا أَنْ نَحْتَمِ هَذَا السَّفَرُ، نَقْتَصِرُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يُسْنِيَ اللَّهُ الْوَجْهَةَ الْحَازِيَّةَ فَتَسْتَأْنِفُ تَقْيِيدًا آخَرَ مُتَّصِلًا فِي ذِكْرِ مَا نَحُلُّ بِهِ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَنَتَلَقَّاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" (٢٨).

أما تأكيده على نية العودة عقب إيصال ولد السلطان، فقد وردت في أكثر من موضع، في أكثر من كتاب من كتبه، فقال في نفاضة الجراب، وهو أقدمها، وقد أشار إلى خروجه: "فَكَانَ الْحُرُوجُ مِنْ مَدِينَةِ "سلا" فِي خِفٍّ مِنَ الرَّحْلِ وَعَلَى قَدَمِ تَجْرِيدٍ، وَنِيَّةِ عَوْدَةٍ" (٢٩).

وقال في الإحاطة: "وَلَمَّا وَقَدْتُ عَلَى السُّلْطَانِ بِوَلَدِهِ، وَقَرَّتْ عَيْنِي بِلِقَائِهِ، تَحْتَ سَدَائِهِ وَعِزِّهِ، وَفَوْقَ أَرِيكَةِ مُلْكِهِ، وَادَّيْتُ مَا يَجِبُ مِنْ حَقِّهِ، عَرَضْتُ عَلَيْهِ غَرَضِي، وَنَفَضْتُ لَهُ خِزَانَةَ سِرِّي، وَكَاشَفْتُ ضَمِيرِي بِمَا عَقَدْتُ مَعَ اللَّهِ عَهْدِي، وَصَرَفْتُ إِلَى التَّشْرِيقِ وَجْهِي..." (٣٠).

وقال في موضع آخر من الإحاطة: "... فَفَقِدْتُ عَلَيْهِ بِوَلَدِهِ... عَلَى حَالٍ مِنْ النَّقْشِ، وَالرَّغْبَةِ عَمَّا بِيَدِهِ، وَعَرَفْتُ عَنِ الطَّمَعِ فِي الْكَسْبِ، وَزُهْدِي فِي الرَّفْدِ... عَاهَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَشَرَحْتُ صَدْرِي إِلَى الْوَفَاءِ بِهِ، وَجَنَحْتُ إِلَى الْإِنْصَالِ لِبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ نَشِيدَةَ أَمَلِي، وَمَرَمَى نِيَّتِي" (٣١).

وقال في "إعمال الأعلام" والضمير يعود على الوزير عمر بن عبد الله الذي استدعاه لاستصحاب ولد السلطان: "فَعَزَمْتُ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى قَصْدِهِ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرْتُ عِنْدَ الْمَذْكُورِ [الوزير] وَبَيْنَ يَدَيَّ سُلْطَانِهِ عَزْمِي عَلَى تَعْجِيلِ الْأَوْبَةِ، وَعَمَلِي عَلَى إِسْرَاعِ الْعَوْدَةِ، وَتَرْكِي الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ تَحْتَ جَنَاحِ الْحُرْمَةِ، وَالْجَوَارِ الْمَرِينِي الْوَافِي بِالذِّمَّةِ" (٣٢).

ومن المقطوعات التي خاطب بها سلطانه يثنيه عن التعويل على خدمته قوله:
قَالُوا لِحِدْمَتِهِ دَعَاكَ مُحَمَّدٌ فَكَرِهْتُهَا وَرَهَدْتُ فِي التَّنْوِيهِ

فَأَجَبْتُهُمْ أَنَا وَالْمُهَيِّمِينَ كَارَةً فِي خِدْمَةِ الْمَوْلَى مُحِبٌّ فِيهِ

ويمكن أن نتنخل من هذه النصوص المتضاربة المتماسكة المعاني الآتية:

- ١ - العقد على تعجيل العودة، والإسراع بالأوبة بعد أداء المهمة.
- ٢ - الذهاب على هيئة استعجالية في خفة من الرحل تقديراً لضيق مدة الغيبة.
- ٣ - التأكيد للوزير وأمام سلطانه عزمه على تعجيل العودة.
- ٤ - مكاشفة سلطانه بعد أداء المهمة بمكنون سره، ونية عودته.
- ٥ - التأكيد على رغبته ونذره لربه في أداء فريضة حجه.
- ٦ - التأكيد على عزوفه عما بيد سلطانه، من مغريات مادية ومعنوية.
- ٧ - تركه لأولاده وحرمة، تحت جوار السيادة المرينية.

وبعد هذه النية، وبعد هذا الإصرار والتصميم، هل استطاع ابن الخطيب أن ينجو من شرك تعلق سلطانه به؟

ذلك ما سنعرفه في الآتي:

المقصد الثامن - ابن الخطيب وإلحاح السلطان على بقائه:

لم تكن التقديرات كما قدرها ابن الخطيب، ولم تكن الحسابات كما حسبها، لقد فاجأه السلطان محمد الغني بالله بإلحاحه على مكثه، وإصراره العنيد على إقامته، وتمسكه الأكيد بمؤازرته، قوى لديه ذلك الأوضاع التي آلت إليها الدولة بعد تشعب ثأياها، وإهدار هيبتها، واختلال مؤسساتها، وضياح خزائنها.

وقوى لديه ذلك أيضا ما يعرفه من قدرات ابن الخطيب وكفاءاته السياسية والإدارية، والأدبية والثقافية، والدبلوماسية، إلى غير ذلك مما ينطوي عليه من خبرات.

فمن جهة الأوضاع التي آلت إليها الدولة، فيصورها لنا ابن الخطيب بإجمال قائلاً: "... وَقَدْ دَالَتِ الدَّوْلَةُ فِي أُمَّةٍ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مُذْنِبٌ يَقُولُ أَوْ عَمَلٍ، وَالْمَالُ مَعْدُومٌ، وَبِنَاءُ الْمَلِكِ مَهْدُومٌ، وَالْأَلْقَابُ قَدْ ذَهَبَتْ رُسُومُهَا، وَالْأَحْوَالُ قَدْ تَغَيَّرَتْ صِفَاتُهَا، وَالدُّنْيَا قَدْ اخْتَلَفَتْ مَأْلُوفَاتُهَا " (٣٣).

وأما من جهة الإجراءات والتدابير التي اعتمدها السلطان وساسته، فيعرض لها ابن الخطيب من خلال قوله: "وَتَحَرَّكَتْ دَفَائِنُ الْحُقُودِ، وَأَعْرَى السُّلْطَانُ أَعْمَارَهُ، وَالْإِغْرَاءُ مِنْ فَسْلِ السِّيَاسَةِ، عَلَى التَّتَبُّعِ وَالْمُواخَذَةِ وَالْمُطَالَبَةِ بِالْمَالِ، وَجَرَتْ فِي ذَلِكَ حُطُوبٌ، وَشَرَعَ فِي عَرْضِ الْجَيْشِ فَنَالَ فِيهِ الْإِسْقَاطُ وَالْحَطِيطَةُ، وَارْتَابَتِ النَّفُوسُ، وَأَشْعِرَتِ الْخِيفَةُ، وَمَرَجَ الْأَمْرُ، وَاخْتَلَّتِ السِّيَاسَةُ، وَكَثُرَ الْفِرَارُ وَوَعَرَتِ الصُّدُورُ" (٣٤).

أمام هذه الأوضاع المتردية، لم يكن للسلطان بد ولا خيار، وقد أتاح القدر فرصة حضور ابن الخطيب، ليتركه يذهب هكذا دون أن يستفيد منه، فعلق به علوق الغريق، وتمسك به تمسك الضال.

يقول ابن الخطيب معبراً عن هذه الحقيقة: "... فَعَلَقَ بِي عُلُوقَ الْكَرَمَةِ، وَصَارَفَنِي بِدَارِ الْعِبْرَةِ، وَخَرَجَ لِي عَنْ الضَّرُورَةِ، وَأَرَانِي أَنَّ مُوَارَزَتَهُ أَبْرُ الْقُرْبَةِ" (٣٥).

وهكذا يضطر ابن الخطيب مكرهاً لا بطلاً إلى الموافقة والقعود لإصلاح ما أفسده الساسة الغاصبون.

المطلب الخامس

ابن الخطيب والاضطرار إلى البقاء

المقصد الأول - عقد المكث إلى أمد:

أمام إصرار ابن الخطيب على الانصراف، وتأكيد عزوفه عن غمس اليد في السياسة والإدارة، طلب منه السلطان أن يبقى لمدة قصيرة، تنجر فيها الأمور، وتندمث فيه الطاعة، ثم إن شاء بعد ذلك انصرف لحاله في سبيل اقتضاء غرضه، فكان ما نذكره:

قال ابن الخطيب: "... وَرَاكَنَنِي إِلَى عَهْدٍ بِخُطَّةٍ، فَسَحَ لِعَامَيْنِ أَمَدَ الثَّوَاءِ، وَاقْتَدَى بِشُعَيْبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فِي خُطْبِ الزِّيَادَةِ، وَعَلَى تِلْكَ النَّسْبَةِ، وَأَشْهَدَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْعِلِيَّةِ" (٣٦).

وهذا العقد يقوم على الأركان الآتية:

- ١ - أنه عقد بين السلطان وابن الخطيب.
 - ٢ - أن مدة النواء المتفق عليها هي عامان، وهي المدة الإلزامية.
 - ٣ - أنه رجا الزيادة في المدة، وأوكل أمرها إلى اختيار ابن الخطيب ومروءته، مقتدياً في ذلك بالعقد الذي تم بين موسى وشعيب عليهما السلام المذكور في القرآن الكريم، من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ أُريدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أريدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ القصص: ٢٧-٢٨.
 - ٤ - أن العقد تم بحضور الشهود، الذين شهدوا على مضمونه.
 - ٥ - أن الشهود كانوا على القوم وملا الدولة من قضاة، وشيوخ، ورؤساء، وكتاب، ووزراء، وهؤلاء هم الذين تنعقد بشهادتهم العقود.
- وأمام هذا العقد المغربي بالافتكاك، والمطمع في الخلاص، لم يسع ابن الخطيب إلا الموافقة والرضاء.

المقصد الثاني - صدور الظهير بإرجاع ممتلكاته:

من الظواهر الرفيعة التي صدرت في حق ابن الخطيب، عقب رجوعه بولد السلطان، وإرضائه له بالمكث لمدة عامين، عونا له على إدارة سياسة البلاد المتفاقمة، الظهير الذي ضمن له استخلاص ممتلكاته التي اغتصبها النظام البائد، وكان تاريخ صدوره كما جاء في ذيل وثيقته هو: الثاني لرمضان من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وهذا يعني اثني عشر يوماً بعد وصول ابن الخطيب بولد السلطان، ولاشك في أن تصرف السلطان السريع هذا يقدر ما كان رداً للاعتبار، وجبراً للخاطر بالنسبة لابن الخطيب، كان أيضاً شركاً له لإغرائه بالبقاء، وإن لم يكن هذا أول تسويق، فقد رأينا

سابقاً كيف أن السلطان الغني بالله في أول رسالة له لابن الخطيب عقب استخلاصه للملك، أخبره بهذا الأمر، فيكون الظهير تأكيداً شرعياً موفياً بذلك التسويغ لا أقل ولا أكثر.

أما الظهير فنجمله في العبارات الآتية:

قال ابن الخطيب في مقدمة هذا الظهير: "وَعِنْدَ اسْتِقْرَارِي لَدَيْهِ [السلطان]، وَقُدُومِي عَلَيْهِ، أَصْدَرَ لِي هَذَا الظَّهِيرَ الْكَرِيمَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ فُضُولِهِ: هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ، أَقَامَ مَرَاسِمَ الْوَفَاءِ... أَمَرَ بِتَسْوِيعِ إِنْعَامِهِ، وَإِبْرَامِ أَحْكَامِهِ، أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ، عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ... لَوْلِي مَقَامِهِ، وَمَحَلُّ إِجْلَالِهِ وَإِعْظَامِهِ، كَبِيرِ دَوْلَتِهِ، وَفَخْرٍ مَمْلَكَتِهِ، وَمُشِيدِ سُلْطَانِهِ... وَحَامِلِ لُؤَاءِ وَزَارَتِهِ... الْعَالِمِ، الْعَلَمِ، إِمَامِ الْبَلَاغَةِ، وَفَارِسِ الْبِرَاعَةِ وَالْيَرَاعَةِ، فَخْرِ السِّيَاسَةِ، وَمُدَبِّرِ فَلَكِ السِّيَاسَةِ، الْخَطِيبِ الْحَافِلِ... الْحَبِيبِ الْخَالِصِ... أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْوَزِيرِ الْجَلِيلِ... أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الْخَطِيبِ، لَمَّا كَانَ... مَدَبَّرَ مُلْكٍ... أَبِيهِ... وَوَزِيرِهِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ بِإِدَارَةِ أَمْرِهِ، وَرَكَنَ إِلَى مُنَاصَحَتِهِ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، وَقَلَدَهُ نَجَادَ الْوِزَارَتَيْنِ، وَحَلَّاهُ بِحُلَى الرِّيَاسَتَيْنِ... وَحِينَ انْعَقَدَ هَذَا الْأَمْرُ الْعَلِيُّ، قَامَ بِسِيَاسَةِ مُلْكِهِ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَأَوْفَاهُ، وَاضْطَلَعَ بِالرِّيَاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ، اضْطِلَاعَ أَفْذَانِ الرَّجَالِ...

وَلَمَّا كَانَ الشَّقِيُّ الْغَايِرُ [البرميخو]، الَّذِي اغْتَصَبَ الْحَقَّ... قَدْ جَارَ عَلَى جَانِبِ الْمُعْتَمَدِ بِهِ فِي مَالِهِ... ظُلْمًا وَعُدْوَانًا... لَمْ يُقَدِّمَ أَيْدَهُ اللَّهُ عَمَلًا، عِنْدَ الْعُودَةِ إِلَى مُلْكِهِ... عَلَى أَنْ صَرَفَ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَمْلاكِهِ... وَمَكَّنَهُ أَيْدَهُ اللَّهُ مِنْهَا بِاحْتِيَازِهَا... وَعَادَ بِهَذَا التَّسْوِيعِ الْمَلَكِيُّ... وَهِيَ كَذَا وَكَذَا، بِدَاخِلِ الْحَضْرَةِ وَخَارِجِهَا، كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِلَادِ، سَوَّغَ إِلَيْهِ أَيْدَهُ اللَّهُ ذَلِكَ تَسْوِيعًا شَرْعِيًّا... وَتَبَرَّأَ مِنْ حَقٍّ يَتَعَلَّقُ بِهِ، أَوْ شُبْهَةٍ تَتَطَرَّقُ بِسَبَبِهِ، فَلْيَنْصَرَفْ أَعَزَّهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بِمَا يَشَاءُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ، عَلَى مَا تَوَجَّبُهُ السُّنَّةُ الْوَاضِحَةُ الْآيَاتِ... شَمَلَ حُكْمُ هَذَا التَّسْوِيعِ الْجَسِيمِ... جَمِيعَ مَا يُسْتَعْلَقُ عَلَى الْأَرْضِ وَالْجَنَاتِ وَالْكُرُومِ، وَالثَّمَرَاتِ مِنَ الْعَوَائِدِ الْمُسْتَقْبَلَةِ عَلَيْهَا، وَالْغَلَّاتِ، شُمُولًا تَامًا، مُطْلَقًا عَامًّا... وَحُكْمُهُ عَلَى الْآيَامِ وَاتِّصَالِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ مُتَّصِلُ الدَّوَامِ.

كَتَبْنَا خَطَّ يَدِنَا، شَاهِدًا بِإِمضَائِهِ، وَسَجَّلْنَا الْحُكْمَ بِاسْتِقْلَالِهِ، وَاقْتِضَائِهِ، فَلْيَعْلَمَ ذَلِكَ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَعْتَبِرُ مَا لَدَيْهِ^(٣٧).

ولا يخفى من نصوص عبارات الثناء التي صدرت الظهير مدى حاجة السلطان محمد الغني بالله إلى ابن الخطيب، لما توفر عليه من خلال وكفاءات سياسية وقيادية وإدارية وعلمية، كفيلة بأن تعين على إقامة أود الدولة التي جعلتها عاصفة الأزمة ضعيفة، وزلزلة الحادثة مهلهلة.

ولا يخفى النص أيضاً بواعث تمسك هذا السلطان بابن الخطيب الزعيم المحنك الكفاء.

المقصد الثالث - ابن الخطيب والتشهير لإصلاح الأوضاع:

قبل الاسترسال في الحديث عن تفاصيل هذا التشهير، وجزئيات هذا الإصلاح، يجدر بنا أن نكشف النقاب عن الروح التي هيمنت على سلوك ابن الخطيب السياسي، والمزاج الذي تحكم في أعمال ابن الخطيب في هذه الآونة، وخاصة في بداية الأمر، وهو روح ومزاج يؤكد على ما نزع إليه ابن الخطيب من انقطاع وانقباض.

ولقد بين ذلك غاية البيان هذا النص الطريف الذي نجلبه، قال ابن الخطيب: "وَاسْتَمَرَّتْ الْأَحْوَالُ هُذُنَةً عَلَى دَحْنٍ، لِحُلُولِ الدَّوْلَةِ عَنِ الْمُدْبِرِّ، وَفُقْدَانِ دَسْتِهَا، مُبَاشَرَةَ السَّائِسِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ يَذْخِرُنِي لِشُعْبِ ثَأْيِهَا، وَرَمَّ صَدْعُهَا، وَإِجَالَةَ قِدَاحِهَا، فَوَرَدَ مِنِّي عَلَى سَرَابٍ خَابَتْ فِيهِ آمَالُهُ، وَأَنْخَسَ اسْتِشْرَافُهُ، إِذْ تَرَشَّفَ الدَّهْرُ بِلَالَتِي، وَاسْتَنْزَفَ مَايَيْتِي، وَقَصَرَ مِنْ خَطْوِي، وَأَحْمَلَ الْعَرَضَ الْأَدْنَى فِي عَيْنِي، وَجَعَلَ الْعِبْرَةَ نُصَبَ بَصَرِي، وَالْمَوْعِظَةَ أَمَامَ بَصِيرَتِي، فَتَبَرَّأْتُ مِنَ الْخَلْطِ، وَخَلَعْتُ لِبَاسَ الطَّمَاعَةِ، وَغَاهَدْتُ اللَّهَ عَلَى رَفْضِ التَّسَبُّبِ، وَهَجْرِ التَّكْسُّبِ، وَتَرْفَعْتُ عَنْ مُرَاحِمَةِ الْوُزَرَاءِ، وَلَبِسْتُ أَثْوَابَ الصُّوفِيَّةِ الْفُقَرَاءِ، وَوَقَفْتُ الْعَقَارَ الثَّمِينِ عَلَى زَاوِيَةِ أَقْمُئْتِهَا، وَمِلْتُ بِكُلِّيَّتِي إِلَى فِتَّةِ اللَّهِ، وَتَحَيَّرْتُ إِلَى مَطَافِ الْعُرْلَةِ، فَعَلِقْتُ فِي يَدِ السُّلْطَانِ، وَقَنَعَ مِنِّي بِالسَّكَانَةِ وَالْمَجَالَسَةِ، فَسَوَّغَتْهُ فِي جَانِبِ النَّصِيحَةِ الَّتِي تُحْجِمُ عَنْهَا الْأُبُوءُ، وَتَلَعُ عَنْ اقْتِحَامِ حِمَاها الصَّدَاقَةِ، مُعَامَلَةً خَالِصَةً لِلَّهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَقُرْبَةً أَسْتَقْبِلُ بِهَا وَجْهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ أَنْخَرْ عَنْهُ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، وَلَا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ مُجَاوَلَةً عَدُوٍّ، أَوْ رَفَعَ ظِلَامَةً، تَعُودُ عَلَى الدِّينِ بِنَفْعٍ، أَوْ تَرْجِعُ عَلَى الْأُمَّةِ بِحُسْنِ مَأَبٍ" (٣٨).

وهذا النص الجامع ينطوي على المعاني الآتية:

- ١ - خلو الدولة من رجل السياسة، صاحب الخبرة، القادر على القيادة الحكيمة لإخراج الدولة من الأزمة.
- ٢ - تطلع السلطان إلى ابن الخطيب لسد هذا الفراغ لما يعرفه من خلاله وكفاءاته.
- ٣ - خيبة أمل السلطان فيه لما كان قد دخل فيه من اعتزال للسياسة وانقباض عن الناس، بسبب صدمة الانقلاب، ونجاته بأعجوبة من براثن الهلاك، أكد على هذا النزوع المعاني الآتية:
 - أ - اليأس والانقباض والانطواء والاعتزال.
 - ب - الاعتبار والاتعاظ والازدجار.
 - ت - القناعة ورفض التسبب للارتزاق.
 - ث - البعد عن مخالطة رجال الدولة.
 - ج - التزيي بزي الصوفية الفقراء والانخراط في سلك أصحاب التزكية والصلحاء.
 - ح - وقف العقار على زاوية أقامها للتعبد.
 - خ - تعلق السلطان به وتشبثه به لأجل المؤازرة والمساعدة.
 - د - قناعة السلطان بمساكنته ومجالسته، في سبيل المناصحة والمشاورة
 - ذ - عدم ادخار الوسع في جنب السلطان أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، فيما يعود بالنفع على الأمة، كرفع ظلم، أو مواجهة عدو.
 - ر - احتساب ذلك إلى الله خالصاً في سبيل القرية ورجاء المثوبة، ولقد أكد ابن الخطيب في موضع آخر أهميته وفائدته بالنسبة لهذا السلطان، وهذه الدولة في هذه الآونة الحرجة، قال: " وَقَدِمْتُ عَلَيْهِ بِغَرْنَاطَةٍ، مَعَ الْوَلَدِ قُدُومَ الطَّبِيبِ عَلَى الْمَرِيضِ الْمُشْرِفِ عَلَى الْمَوْتِ الْقَاطِعِ بِالْفَوْتِ " (٣٩).

المقصد الرابع - ابن الخطيب وتقليد الوزارة:

تنبيه وإحالة!

قبل الاسترسال في متابعة الأعمال التي قام بها ابن الخطيب عقب عودته إلى الأندلس واستجابته لرجاء سلطانه القاضي بطلب المكث لأمد قصير، يحسن بي أن أنبه على خطة الوزارة على عهده لأنه أمر ضروري من الناحية المنهجية، إذ تناولها يكشف النقاب على حقيقة كثير من الأعمال التي تحققت على يد ابن الخطيب باعتباره وزيراً ووزارة ازدواج ووزارة استبداد.

ولما كنت قد تناولت بالبحث المستفيض هذه الوظيفة في بحث نشر سابقاً أكتفي بالإحالة عليه في مظنته زيادة في الاطلاع لمن يريد^(٤٠).

المقصد الخامس - منجزات ابن الخطيب السياسية عقب العودة:

أهم الأعمال الإصلاحية التي سجل التاريخ حدوثها عقب انتقال ابن الخطيب، ولا نشك أنه كان له يد فيها على سبيل الإشارة، والنصح، ما نذكره، ويؤكد ذلك قوله: "... فَشَمَرْتُ لِإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَسَدِّ الْحَسَائِفِ، وَتَأْنِيسِ الشَّارِدِ، وَتَأْمِينِ الْخَائِفِ" ^(٤١).

أولاً - القبض على ابن كماشة ونفيه إلى تونس:

وقد سبق التعريف به في موضع سابق، وهو رجل ما فتى ابن الخطيب يكيل له القدح والذم، حتى قبل انتقاله إلى الأندلس، لتوافر دواعي ذلك، ولا داعي لتكرارها، فقد أشرت إلى لمع منها، وحسبي في هذا المقام أن أذكر دواعي القبض عليه:

- ١ - كان من الموالين للدولة الغادرة في أول أمره.
- ٢ - فشله في استقدام ولد السلطان ورجوعه بدونهم.
- ٣ - شهرته بالشؤم والتطير منه.
- ٤ - تعاطفه الكبير مع النصارى، والانحطاط في مهوى لهم.
- ٥ - علاقاته المشبوهة بملك قشتالة؛ إذ كان ولياً له.

كانت هذه المبررات كافية لصرفه عن خطة الوزارة، إلى بلده سالماً غانماً، ولكنه ربما أثار ذلك حفيظته، واستفز كبريائه، فشرع في الفساد، قال ابن الخطيب: "وَتَمَرَّسَ بِسُلْطَانِ قَشْتَالَةَ، وَشَكَاَ إِلَيْهِ بَنَّهُ، وَأَصْحَرَ يَسْكُنُ قَرْيَتَهُ بِظَاهِرِ "لُوشَةَ"، وَرَأَى السُّلْطَانَ أَمْرَهُ، وَأَهَمَّهُ شَأْنُهُ، وَخَافَ انْتِثاقَ الشَّرِّ مِنْ تَلْقَائِهِ، وَرَفَعَ الْمُهَادَنَةَ بِسَعْيِهِ، وَإِخْرَابَ الدَّوْلَةِ بِكَدِّهِ، فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ لَيْلاً، هُوَ وَوَلَدُهُ... إِلَى "وَادِي آشٍ" ثُمَّ إِلَى "الْمَرْيَةِ"، وَصَرِفَا فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْقَرَابَةِ... فَغَرَّبُوا إِلَى تُونُسٍ" (٤٢).

أما تاريخ القبض عليه فكان أوائل رمضان من عام ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م.

ومما يؤكد موالاته لملك قشتالة، واحتطابه في حلبه، حزن هذا الأخير عليه، وغضبه من الإجراء الذي اتخذ في حقه، قال ابن الخطيب: "وَأَشْتَدَّتْ مَعْتَبَةُ طَاغِيَةِ قَشْتَالَةَ بِمَا كَانَ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى هَذَا الشَّيْخِ طُوَيْسِ الشُّؤْمِ، لِتَعَلُّقِ أَمْلِهِ بِهِ، وَرَجَائِهِ الظُّهُورَ عَلَى الْأُمَّةِ بِسَبَبِهِ، فَأَجِيبَ بِبَعْضِ الْمُنْعَاتِ، وَمَضَى لِشَأْنِهِ مِنْ غَيْرِ حِفْظِ اللَّهِ وَلَا كَرَامَتِهِ" (٤٣).

ثانياً - مراسلة الدولة الحفصية بتونس:

من المساعي التي ساهم ابن الخطيب فيها عقب انتقاله، مراسلته للدولة الحفصية في تونس، في شخص صاحبها، المستبد على أريكتها الوزير الحاجب محمد ابن عبد الله بن تافراجين، أو تافراكين، وذلك في تاريخ ١٣ من ذي القعدة، عام ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م.

وهذا يعني أن الرسالة كتبت على إثر نفي ابن كماشة إلى تونس، وفي ذلك ما فيه من المعاني السياسية والدبلوماسية، أما مقومات مضمون الرسالة فيمكن إجمالها في النقاط التالية:

- ١ - الثناء عليه بما تقتضيه آداب المجاملة، وبرتوكول المخاطبة.
- ٢ - الإشادة بفضله في استقامة أمور الدولة الحفصية على عهده.
- ٣ - قصص حادث الانقلاب، وما أعقبه من نفي وتشريد ثم ما مَنَّ الله به من العودة قصصاً موجزاً غير محلّ بأهم التفاصيل.

- ٤ - التأكيد على ربط العلاقات الودية والأخوية، والتعاون فيما تقتضيه مصلحة الأمة.
- ٥ - التذكير والتنويه بالعلاقات التقليدية الودية التي كانت تربط دوماً بين الدولة النصرية والدولة الحفصية.
- ٦ - الدعوة إلى التواصل عن طريق المخاطبة والمراسلة.

ثالثاً - عزل كاتب الدولة الدائلة:

وهو الكاتب الشاعر القاضي عبد الحق بن محمد بن عطية بن يحيى المحاربي^(٤٤).

كان أحد كتاب الدولة قبل الانقلاب على السلطان الغني بالله، ظهيراً لابن الخطيب، ثم انتقل رئيساً للكتاب بإشارة ابن الخطيب. ولما حدث الانقلاب على السلطان، انخرط في سلك الدائل، وتهالك في الولاء له، مما جر عليه بلاء وانتقاماً، عند كرة دولة الغني بالله الثانية، فأخذ بجريسته، وأورد في الحافرة.

ولقد عثر السلطان الغني بالله بعد عودته، على نص البيعة لأخيه المنقلب عليه، مكتتبه بخط يده، وكفى بهذا تهمة، فأوخذ مؤاخذه عسيرة، استخلصت أمواله، واستصفيت ممتلكاته، خاصة بعد العثور في داره على مؤونة مالية كبيرة، قال ابن الخطيب: "وَأَظْهَرَ الْبَحْثُ عَنِ الْأَعْمَالِ الْمَالِيَةِ، طَعَامًا يَبْلُغُ عَدْدُهُ آلافًا مُسْتَقَرًّا بِيَدِ كَاتِبِ الدَّوْلَةِ الْغَائِرَةِ، ظَهِيرِ الرِّيَاسَةِ الْخَامِلَةِ، الْمُسْتَبْصِرِ فِي ضَلَالِهَا كُرْهًا وَطَوَاعِيَّةً، الْمُسْتَقِلَّ بَعْبَثِهَا سِرًّا وَعَلَانِيَةً... عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ عَطِيَّةٍ..."^(٤٥).

أما ماله فأخبر عنه ابن الخطيب بقوله: "... طَوْلَبَ بِذَلِكَ مُطَالَبَةً مُعْلَمَةَ الظَّفَرِ، مُنْحَاذَةً إِلَى فِتْنَةِ الْعَاقِبَةِ، أَدَّتْ إِلَى سِجْنِهِ، ثُمَّ تَوَقَّى بِالْمَالِ، فَتَمَشَّتْ حَالُهُ..."^(٤٦).

رابعاً - القضاء على ثورة الدليل البركي:

من المنجزات المهمة التي ساهم فيها ابن الخطيب بشكل فعال وحاسم، أكد على وزنه ونفوذه، عقب قدومه بولد السلطان، حسمه لداء ثورة قامت ضد السلطان

الغني بالله في غرة شهر ذي الحجة عام ٧٦٣هـ، كادت أن تعصف بالأمن، حيث استطاع ابن الخطيب بلباقته أن يستنزل قائدتها.

أما أسباب هذه الثورة ومجرياتها ونهايتها، فنبينها من خلال الأمور التالية:

من حيث الأسباب:

كان لهذه الثورة علاقة بنتائج انهيار العهد البائد، ملخصها أن السلطان عقب استلامه لمقاليد الملك ثانية، كان قد نهى طائفة عن مداخلة زعيم من قرابته يدعى علي ابن محمد بن نصر، خشية تحريضه على القيام واستنهاضه للإمارة.

كما جُعِلَ هذا الزعيم تحت الإقامة الجبرية، راصداً حركته وسكونه، فتأكدت فيه الظنون، وثبتت عليه التهمة "فَعُولِجْ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ، بِمَحَلِّ وَلَايَتِهِ "بُرْجَة" يَرِيشُ وَيُورِي، فَكَبَسَهُ الْوَزَعَةُ وَرِجَالُ الدَّوْلَةِ، وَاحْتُمِلَ لِحِينِهِ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى قَصَبَةِ "أَلْمُرِيَّة"، فَأَوْدِعَ قَعَرَ الطَّبَقِ [السجن]، بِهَا تُقِيلُ الْفَيْدِ، شَدِيدَ الْأَرْقَابِ، مُطَبَّقَ الْعَلْقِ، مَظْنُونَةً بِهِ الظُّنُونُ" (٤٧).

وكان زعيم الطائفة المداخلة لهذا الرئيس النصري يدعى "الدليل البركي" وكانت له شوكة في بعض الفرسان وبعض العامة، بفضل هزيمته للنصارى بوادي آش، الهزيمة العظيمة، والفذة على عهد السلطان المغتصب أبي سعيد "البرميخو"، والتي أشرت إليها آنفاً.

فلما قبض على زعيمهم النصري، توجسوا خيفة من ملاحقة التصفية، فتمادوا في الغي، واستمروا في الكيد بزعامة "الدليل البركي"، في طائفة من "بني عزون" أنهضتهم حمية الانتقام لعمهم الذي أجلاه الغني بالله سبب إعراضه عنه ليلة الحادثة عليه، والانقلاب عليه، إذ كان عمهم هذا والياً لهذا السلطان على قسبة "ألمرية".

قال ابن الخطيب في حقه: "قَصَدَهُ مَوْلَاهُ [الغني بالله]، وَالْمُنُوَّةُ بِهِ بِوَلَايَتِهِ عُدَّةُ الْإِسْلَامِ، قَصَبَةُ "أَلْمُرِيَّة"، لَيْلَةُ الْحَادِثَةِ بِهِ، وَخَاطَبَهُ مِنْ وَادِي آشٍ، وَقَدْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

أُولِيَاءِ الدَّوْلَةِ الْغَايِرَةِ، وَاسْتَصْرَحَهُ عَلَى كَتَبِ الْجَوَارِ، فَصَمَّ عَنْ نِدَائِهِ، وَأَسَاءَ صَرْفَ رَسُولِهِ، وَدَفَعَ الْأَمَانَةَ إِلَى عَدُوِّهِ" (٤٨).

من حيث مجريات الثورة:

لما قبض على الرئيس النصري علي بن محمد بن نصر المذكور، فكر المتمردون والثوار في البحث عن شخصية نصرية بديلة، فوقع الاختيار على الشيخ علي بن علي ابن نصر المقيم بربض البيازين من غرناطة.

وكان الذي تولى كبر الدعوة، ومسؤولية الحملة الإعلامية والدعائية، شاب يدعى "أَحْمَدُ بْنُ بَطْرُونِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ التُّلُمَسَانِيِّ مُنْطَلِقًا مِنْ "الْمُرِيَّةِ"، تَوَلَّى الْأَنْفَاقَ، وَطَرَقَ الْأَبْوَابَ، وَزَيَّنَ الْوَاقِعَةَ، وَسَهَّلَ الْأَمْرَ، وَتَحَمَّلَ الْمَوَاعِيدَ، وَدَاخَلَ النِّسَاءَ، وَأَحْكَمَ نَسِيجَ الْمَكِيدَةِ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَ أَقْطَابِ هَذَا الْكِيَادِ، وَهُمْ الْعَدُوُّ الْجَمُّ، وَفِيهِمُ النُّبُهَاءُ وَالسُّفْلَةُ، وَأَبْنَاءُ الدَّوْلَةِ، لَفِيفُ السُّوقِ، وَمُنْكَرُو السَّيْرِ، وَمُذْيَعُوا النَّصَارِيفِ غَيْرِ الْحَمِيدَةِ" (٤٩).

وانعقد اتفاق الثوار والمتمردين بزعامة "الدليل البركي"، على المبيت في حضرة غرناطة، ليتم الترتيب غلصاً، عادة الثورات إلا أنهم تراجعوا عن الفكرة مخافة الإيقاع بهم، والإحاطة بهم، فعجلوا اقتحام المدينة، وصاح الناس وهو يمتطي فرساً وهو يركض في جنباتها، مردداً "أَنْ قَدْ غُرِثْتُمْ وَوُلِّيَ عَلَيْكُمْ الْعَدُوُّ، وَقَدْ وَصَلَ لَاسْتِبَاحَتِكُمْ" (٥٠).

قال ابن الخطيب يصف دخول الثوار المدينة، يرأسهم زعيمهم المذكور: "وَدَخَلَ الْبَلَدَ وَخَلْفَهُ شِرْذِمَةٌ مِنْ جُفَاةِ الثَّغْرِ [ثغر المرية]، فَهَاجُوا فِي سِكَكِهِ، وَقَصَدُوا دَارَ الشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ نَصْرِ، وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْوَعْدُ بِبَابِهِ، فَاسْتَرْكَبُوهُ، وَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ "الدَّلِيلُ" فَصَعَدُوا إِلَى بَابِ الْبُنُودِ الْمُفْضِيِّ إِلَى رِبْضِ "الْبَيَازِينَ" ... فَاسْتَدْنُوا إِلَيْهِ يَفْرَعُونَ طُبُولًا مِنْ طُبُولِ الْأَعْرَاسِ، أَعَازُوا عَلَيْهَا مِنْ دُكَّانٍ عَرَضَهَا، وَنَشَرُوا رَايَةً مِنْ سِلَاحِ بَنِي "عَزُونَ" أَيَّامَ قِيَادَتِهِمْ عَلَى جُنْدِ الرَّجُلِ، وَأَنْبَتَ فِي الْمَدِينَةِ نِدَاؤُهُمْ، وَالِدُّعَاءُ لِأَمِيرِهِمْ" (٥١).

ثم قصدوا بعدئذ فقيه ربض البيازين ليكتب لهم البيعة، ويعقد لهم كتاب الإمارة، "فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَسَدَّ بَابَهُ فِي وُجُوهِهِمْ، فَخَابَ أَمْلُهُمْ" (٥٢).

أما هذا الشيخ النصري الذي أخرجوه، فقد وصفه ابن الخطيب أشنع وصف، وصوره أقبح تصوير، كأنه رسم كاريكاتوري لاذع بقوله: "... مِنْ نِفَايَةِ الْبَيْتِ، وَدُرْدِي الْقَوْمِ، مِنْ شَيْخٍ قَمِيءِ الشَّكْلِ، قَبِيحِ اللَّغَةِ، ظَاهِرِ الْكَزَاكِ لِإِثْمَانِ الْمُعَاوَرَةِ... سَاقِطِ الْهَمَّةِ، عَدِيمِ الدِّينِ وَالْحِشْمَةِ، مَثَلٌ فِي الْكَذِبِ، مَعِيبُ الْمَثَانَةِ، لَا يَرْقَأُ بَوْلُهُ، وَلَا يَجِفُّ سَلْسُهُ" (٥٣).

والظاهر أنه كان ينطوي على كثير من هذه الأوصاف والخلال، على الرغم من المبالغة في القذع.

أما السلطان الغني بالله فكان إبان اندلاع الثورة جالساً للناس ضحوة، فطرقة الخبر، وهو في مجلسه، فانفض جلساؤه، وكان ابن الخطيب واحداً منهم، "وَدَخَلَ السُّلْطَانُ دَارَهُ، نَاطِرًا فِيمَا يَلِيقُ بِأَمْرِهِ، وَالْهَرْجُ وَالنِّدَاءُ بِالْبَلَدِ غَيْرُ غَائِبٍ عَنْ عَيْنِهِ، وَلَا مُحْتَجِبٍ عَنْ سَمْعِهِ، لِإِطْلَالِ الْقُبَّةِ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ سَاحَةِ بَلَدِهِ، فَاسْتَبْعَ الْوُضُوءَ، وَأَنْشَمَرَ، وَاسْتَدْعَى الرَّأْيَ" (٥٤).

وأُسفرت المشورة عن الخطة الآتية:

- ١ - دخول السلطان إلى بعض الأبراج المشرفة مقابلاً لمصافى العدو، في طائفة من خلاصة الجند ولباب العساكر.
- ٢ - توزيع ما انطوت عليه الخزائن من سلاح على الناس.
- ٣ - استدعاء طبول الملك، يرتج لقرعها العراء، ويرفع نداءها الفضاء.
- ٤ - رفع راية السلطان، رمز الشرعية والمصادقية.
- ٥ - إشاعة خبر الطاعة، والبذل لمن آزر وساند.
- ٦ - استركاب باقي الجيش، وإعلان نفير الجهاد.
- ٧ - ضبط جميع أبواب القلعة بالرجال والحامية.
- ٨ - تعمير جميع الأبراج بالحامية المدافعة.

تلك كانت التعبئة، والخطة، وهي كما رأينا غاية في الإحكام والتدبير، تنم عن حنكة وحصافة، وهي لاشك خطة دفاعية، تتوقع المحذور وتحسب له حسابه.

ولما رأى الناس استعداد السلطان، وتردد الثوار، طفقوا يغشون مثنواه، وينتالون حوله، فتجمع العدد الوفر من الناس قرب القلعة.

وعندما أيقن السلطان من عزم الناس، وتثاقل أهل الربرض على المضاء في تيار الثورة، توجه بالجيش، فأحاط بالربرض ثم اقتحمه.

وانطلقت طائفة من الجيش باتجاه الشيخ النصري المنسوب للإمارة، فنكص على عقبه، وفر الدليل البركي، دون مدافعة في لفيف له لا يلوي على شيء، فلحق بحصن "اللقون"، فاعتصم به، وألقى القبض على الشيخ، فعزز بين يدي السلطان، وهو يقسم بالبراءة ثم سيق إلى السجن^(٥٥).

من حيث النتائج:

أما الشيخ النصري، فقد استدعت الفتيا الشرعية في حقه، ثاني يوم إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن، وأجمع الفقهاء على حكم الإعدام قتلاً، ثم سألوا السلطان العفو عن خطيئته والإغضاء عن زلته، لإحاطة الشبهة بفعله، وعدم تمام العقد له، فأبقي عليه في السجن إلى أن هلك حتف أنفه، لوقت قريب، وقيل تم اغتياله^(٥٦).

أما الدليل البركي فقد طوى المسافات إلى حصن "اللقون" في أحواز "المرية" قريباً من حدود مملكة "أراجون"، كانت تحت نظره، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة، ذكر ابن الخطيب أن الدليل البركي كان "قَدْ أَعَدَّهُ لِلثَّوْرَةِ مُنْذُ أَزِيدَ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَدْعُ فِيهِ خَلَّةً إِلَّا سَدَّهَا، وَلَا عَوْرَةً إِلَّا حَصَّنَهَا، وَاخْتَزَنَ بِهِنَّ الْآلَةَ وَالطُّعْمَةَ، وَاسْتَجَرَى الْمَاءَ"^(٥٧).

قطع إليه هذه المسافة الطويلة التي تبلغ سبعين ميلاً، ودخله ليلة الحادثة، وخيل السلطان في أعقابه تلاحقه، فلم تدركه، وأحاطت به "فَأَلْفَتَهُ أَمْنَعُ مِنْ عُقَابِ الْجَوِّ، قَدْ اسْتَقَلَّ بِمَصَادٍ مُنْقَطِعِ السَّبَبِ، مُحْتَزَلٍ مِنَ الْأَرْضِ، مُنْسُوبٍ لِلْسَحَابِ، فَكَأَنَّ

الْقَرْحَ، وَأَثَارَ الْغَمَّةِ، وَرَجَمَ الظُّنُونِ، وَاسْتُدْعِيَتِ الْجِهَاتُ إِلَى مُنَازَلَتِهِ، وَاتَّخَذَتِ الْمَجَانِيقُ، فَلَمْ يُغْنِ ذَلِكَ شَيْئًا، وَأَهَمَّ الْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَغْلَظَ شَوْكَتُهُ، وَيَتَّصِلَ بِهِ أُولُو الْفَسَادِ، وَيَنْخَرِقَ مِنْ جِهَتِهِ عَقْدُ السَّلَامِ [مع النصاري]، أَوْ يَسْلُكَ مَسْلَكَهُ بَعْضُ الْمَجَاوِرَةِ مِنَ الْخُصُونِ" (٥٨).

وأمام هذا المأزق المحير، وبعد أن أُعيت الحيلة من استنزاله، لم يجد ابن الخطيب بداً من التدخل لتسكين الثائرة، وحسم الداء، فتدخل شخصياً لحل المشكلة، ولقد تحدث ابن الخطيب يصف الكيفية التي تمت بها المصالحة قائلاً: "... فَدَاخَلْتُهُ أَدْعُوهُ إِلَى التَّزَوُّلِ، وَأَضْمَنْ عَفْوَ السُّلْطَانِ، وَأَطْرَيْ لَهُ التَّوْبَةَ، وَأَحْذَرُهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ، فَارْجَعَنِي مُسْتَقِيمًا إِلَيَّ بِاخْجَاءٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي رَمِّ أَمْرِهِ، وَمُبَاشَرَةِ إِنْزَالِهِ مِنْ مُنْتَزَاهُ، وَعَقْدِ وَثِيقَةِ أَمَانِهِ غَيْرِي فَكَانَ ذَلِكَ" (٥٩).

ويستخلص من النص الحقائق الآتية:

- ١ - مداخلته ابن الخطيب أولاً عن طريق المراسلة.
 - ٢ - استعمال التذكير والترهيب من سوء العاقبة.
 - ٣ - مراجعة الثائر مستقيماً خاضعاً.
 - ٤ - اشتراط الثائر أن لا يكون غير ابن الخطيب وسيطاً في إنزاله.
 - ٥ - اشتراط عقد وثيقة الأمان من قبل ابن الخطيب وليس أحداً آخر.
- وهذا يفهم من إشارة النص، عظمة قدر ابن الخطيب، ومكانته وهيئته، وثقته، وأمانته، إذ الرجل لم يرض به بديلاً، وهذه لطيفة غاية في الأهمية لمن يروم الوقوف على جاه الرجل.

بعد هذا الاتفاق اضطر ابن الخطيب إلى الانتقال إلى عين المكان للوفاء بعهده، يقول: "وَتَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ تَاسِعَ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ مِنَ الْعَامِ [٧٦٣هـ]، وَصَعِدْتُ إِلَى بَابِ الْحِصْنِ، مُشَاهِدًا كَرَّكَ الْأَنْدَلُسِ سُمُومًا وَمَنْعَةً، فَنَزَلَ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ أَشْرْتُ بِإِفْرَاجِ الْمَحَلَّاتِ عَنْهُ، وَسَمَحْتُ فِي ذَاتِ اللَّيْلِ بِنَفْسِي إِلَى تَوَقُّعِ مَكِيدَتِهِ، وَاسْتَنْزَلْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ، وَقَبِضْتُ الْحِصْنَ بِمَا فِيهِ، فَتَقَفْتُهُ بِمَنْ يَضْبِطُهُ لِلْسُّلْطَانِ، وَاسْتَقَفْتُهُ سَالِكًا طَرِيقَ الثَّغْرِ مِنَ الْبَرِّ

حِيلَةً إِلَى أَنْتَقِيرَةٍ، وَأَوْصَلْتُهُ إِلَى مَأْمَنِهِ مِنَ الْعَمَالَةِ الْمَرِينِيَّةِ الْمُشَارِكَةِ لِهَذِهِ الْخُدُودِ، فَاسْتَقَرَّ بِجَبَلِ الْفَتْحِ" (٦٠).

وينطوي هذا النص على الحقائق التالية:

- ١ - انتقال ابن الخطيب إلى عين المكان، وبناء على التاريخ المذكور وتاريخ اندلاع الثورة، تكون مدة اعتصام الثائر أكثر من خمسة عشر يوماً، وهذا يفترض أن الحصار كان عليه متواصلاً لكي لا ينتقل إلى مكان آخر.
 - ٢ - أن المكان كان في غاية المنعة والحصانة، كما أكد النص آنف الذكر.
 - ٣ - نزوله إلى ابن الخطيب بعد أن أعطى ابن الخطيب الأمر بانفراج المحلات التي لاشك كانت تترصّد خروجه للانقضاض عليه.
 - ٤ - جرأة ابن الخطيب وشجاعته لاقتحام معتصمه ومباشرة استنزاله، مع افتراض انطواء الأمر على الخديعة المهلكة.
 - ٥ - أن الثائر لم يكن وحده، وإنما كان معه جماعة من أصحابه وفرسانه.
 - ٦ - استخلاص الحصن من قبل ابن الخطيب، وإحكام غلقه، وتعيين من يضبطه للسلطان.
 - ٧ - انصرافه بالثائر، وثلته، مورياً بالاتجاه نحو "ألمرية" موهماً الناقمين منهم بالاعتقال، فلما قارب "أنتقيرة" أبلغهم مأمّنهم من المناطق التي كان للدولة المرينية عليها نفوذ.
 - ٨ - استقرار الثائر وعصبته بجبل طارق الذي لا يقل منعة عن حصن "اللقون"، لكن تحت المراقبة المرينية الموالية للدولة النصرية.
 - ٩ - وفاء ابن الخطيب ومروءته وحنكته وألمعيته.
- أما ما آل إليه أمر هذا الرجل الثائر لاحقاً فقد طال عليه الأمد، وسئم من الإقامة الجبرية، فطلع إلى الإيالة النصرية والسلطان متجافياً عن خطيئته.
- ولما خرج في يوم من الأيام أحيط به، وأخذت عليه الثنايا والفجاج، واضطر إلى اللجوء إلى "أنتقيرة" فألقي عليه القبض، واحتمل إلى السلطان وصدر الحكم باعتقاله، فنقل إلى "مالقة" يرسف في أصفاده، حيث أودع السجن (٦١).

خامساً - الإشارة على السلطان بالسياسة التي تتبع:

أفادت ابن الخطيب صيرورة الأحداث، وتداعيات الأوضاع، وهو الخبير في السياسة والحكم والإدارة، أن مؤاخذه الناس على خطيئة عهد تولى وانقضى لا يزيد الأمر إلا تعقيداً، ولا يزيد النار إلا اتقاداً، فأشار عليه بطي صفحة الماضي الحالك، وبداية صفحة جديدة في سجل جديد.

قال ابن الخطيب: "وَلَمَّا عُدْتُ مِنْ اسْتِنْزَالِ هَذِهِ الشَّرْذِمَةِ النَّائِرَةِ، وَتَسْكِينِ النَّائِرَةِ، وَسَدِّ حَرْبِ الْفِتْنَةِ، أَشْرْتُ عَلَى السُّلْطَانِ بِاسْتِثْلَافِ النُّفُوسِ، وَتَسْكِينِ نَفَرَتِهَا لِاشْتِرَاكِ الْجُمْهُورِ فِي لَزِمِ الذَّنْبِ، وَضَمِّ النَّشْرِ، وَإِصْلَاحِ فَسَادِ السَّيْرِ، وَالتَّجَانِي عَنِ النَّاسِ، وَالسُّلُوكِ عَلَى نَهْجِ السُّنَّةِ، فَانْقَادَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - انْقِيَادَ مِثْلِهِ مِنَ الْمُلُوكِ أُولِي الْعُقُولِ الرَّضِيِّيَّةِ، وَالنُّفُوسِ الزَّكِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ الرَّضِيَّةِ" (٦٢).

ولا يخفى أثر الحال الذي دخل فيه ابن الخطيب منذ أن نزل بأرض المغرب، وانقطاعه على جميع أعماله، ومواقفه السياسية التي ساهم في إنجازها بشكل مباشر. والنص المذكور أكبر شاهد على زعمنا، وقد انطوى على القيم السياسية الآتية:

- ١ - استئلاف الناس بالحلم وعدم المؤاخذه، والعفو عن أخطائهم.
- ٢ - تهدئة الأوضاع بالأناة بسبب اشتراك عامة الناس فيما وقع، اضطراباً أو اختياراً، وما كانوا للغيب حافزين.
- ٣ - العمل على توحيد الكلمة، وإصلاح فساد السيرة بالإغضاء.
- ٤ - سلوك نهج السنة في المعاملات، واعتماد السياسة الشرعية في إدارة البلاد.
- ٥ - إنفاذ السلطان إشارة ابن الخطيب لعظيم خاله، وثقته، واعتقاده في صدق مشيره وحصافة أمره.

سادساً - التصدر للإعلان عن العفو العام والإصلاح:

لم يكتف ابن الخطيب بإعطاء الإشارة، وإسداء النصيحة، واقترح القيم السياسية التي تتعين على رجال الدولة، وساسة الإيالة، وإنما تصدر بنفسه للعمل

بالإشارة، وتسكين الثائرة، يصدع بها من علا أعواد المنبر من مسجد الحضرة الأعظم، معلناً عن العفو العام.

قال ابن الخطيب: " فَصَدَرَ عَنِّي مَنُتَوَرٌّ مِنْ إِنْشَائِي غَلَوْتُ بِهِ ذِرْوَةَ الْمُنْبَرِ الْأَعْظَمِ مِنْ حَضْرَتِهِ، عَقَبَ الْفَرَاغُ مِنْ صَلَاةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ الْقَرِيبِ اتِّصَالُهُ بِيَوْمِ الْإِيَّابِ [إِيَّابِهِ مِنْ اسْتِنْزَالِ الثَّائِرِ]، خَاطَبْتُ بِهِ الْجَمَّ الْغَفِيرَ، بَعْدَ التَّسْلِيمِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْلَى الْقِمَّةِ، وَالْإِجْهَاشِ فِي سَبِيلِ الْعُطْفِ عَلَيْهِمْ وَالرَّحْمَةِ " (٦٣).

أما ما ورد في نص الخطاب فنجمله من خلال هذا المختصر: " هَذَا كِتَابٌ كَرِيمٌ أَصْدَرْنَاهُ... شَارِحاً لِلصُّدُورِ، وَمُضْلِحاً بِعِنَايَةِ اللَّهِ لِلْأُمُورِ، مُلْحِفاً جَنَاحَ الْأَمَانِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، لِلْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ، يُعْلِمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَوْ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَمَنْ يَقْرَأُهُ وَيَتَذَبَّرُ مَا لَدَيْهِ مَا أَعَانَنَا عَلَيْهِ اللَّهُ مِنْ تَأْمِينِ النُّفُوسِ، وَحَقْنِ الدِّمَاءِ، وَالسَّيْرِ فِي التَّجَافِي عَنْهَا عَلَى سَنَنِ السَّوَاءِ... مِمَّا لَا يُعَارِضُ حُكْمًا شَرْعِيًّا، وَلَا يُنَاقِضُ سُنَنًا مَرْعِيًّا، فَمَنْ كَانَ رَهْنًا تَبِعَةٍ، أَوْ طَرِيدَةً تَهْمَةٍ، أَوْ مُنْبَرِأً فِي الطَّاعَةِ بِرَبِيبَةٍ، فَقَدْ سَحَبْنَا عَلَيْهِ ظِلَالَ الْأَمَانِ، وَالْحَفْنَاهُ أَثْوَابِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ... حُكْمًا عَامًّا تَامًّا، فَاشِيًّا فِي جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ... لِمَا رَأَيْنَا مِنْ وُجُوبِ اتِّفَاقِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّمَائِرِ، وَخُلُوصِ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ، فِي هَذَا الْوَطَنِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِ الْعَدُوُّ وَالْبَحْرُ " (٦٤).

ولم يقف الأمر عند حدود إعلان العفو العام، وإنما أتبع باتخاذ إجراءات عملية تؤكد صدق نوايا الدولة، وصحة عقد الإيالة، وجدية الممارسة، تمثلت في الأعمال الآتية:

١ - تعيين من ينوب عن السلطان من أهل العلم والعدالة والدين للطواف بكافة أطراف المملكة لتحقيق الغايات الآتية:

أ - مباشرة أوضاع الدولة في كافة الميادين.

ب - تبليغ تقاريرهم إلى السلطان للنظر في المصالح.

ت - التسجيل والتقييد لكل ما تحتاج إليه الثغور الجهادية.

ث - تعيين مجموعة من الفضلاء النزهاء المراقبين لله لنقل ما خفي من

ظلمات الناس، أو الإخبار عما ظهر من محدثات، أو فشا من منكرات مثل الخمر وغيره.

ج - استنهادهم كافة الناس للتشمير للانصلاح والإصلاح ترغيباً في نوال الأجر وحصول الثواب.

ولقد كان لهذا العمل أثر عظيم على العامة، لما كانوا عليه من توجس وخيفة، فانطلقوا كأنما نشطوا من عقال، أو فكوا من إسار، قال ابن الخطيب: " فَلَمَّ تَرَّ بِالْأُنْدَلُسِ يَوْمًا أَعْلَى نِدَاءٍ، وَلَا أَدْنَى دُعَاءٍ، وَلَا أَعْظَمَ بُكَاءٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ " (٦٥).

ظهور مصداقية هذا النداء عامة ذلك اليوم وبعده بإنفاذ الأمور لآتية:

أ - إطلاق سراح السجناء من الجناة.

ب - إنزال رمم رؤوس الانقلابيين المعلقة، ودفنها عملاً بحكم السنة.

ت - إفشاء الصدقة، وإذاعة العفو.

ث - الأخذ على أيدي الظلمة من أولي المناصب.

ج - تغيير المنكرات.

ونتج عن هذا سكون الناس: " وَأَنْبَسُوا بِجَنَابِ الْعَافِيَةِ، وَاسْتَرَوْحُوا رِيحَ الْأَمْنَةِ، وَأَخْلَصُوا لِلْسُلْطَانِ الدُّعَاءَ، وَأَمَحَضُوا الطَّاعَةَ، وَسَكَنَ لِهَذَا الْعَهْدِ الزَّلْزَالُ " (٦٦).

أما رجال البيت النصري الذي يُتَخَوَّفُ من خروجهم بين الفينة والأخرى تحت داعي الإنهاض والخلعان، وإثارة الفتنة، فقد ارتحلوا اختياراً أو اضطراراً للاستقرار من وراء البحار، في بلاد العدو، كما جرت عليه العادة لدى جميع دول المنطقة، وقد عرفنا جانباً من ذلك من خلال مبحث مشيخة الغزاة في بحثنا الموسوم "تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة" (٦٧).

وكان ذلك مدعاة للأمن والاستقرار، والالتفاف حول السلطان الجديد، قال ابن الخطيب: " وَاسْتَقَرَّ رِجَالُ الْبَيْتِ النَّصْرِيِّ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ، وَبَرَى مَرَضُ الْقُلُوبِ وَأَقْصَرَتْ فِي الْفَسَادِ الْأَمَالُ، وَبَدَا لِلنَّاسِ فِي أَمْرِ السُّلْطَانِ، وَوَزْنُوهُ بِمِيزَانِ النِّصْفَةِ... وَنَبَّوْا الْأَعْنَةَ إِلَى حُسْنِ الطَّاعَةِ وَسُؤَالِ الْإِمْتَاعِ بِهِ " (٦٨).

سابعاً - مراسلة سلطان مصر ووزيرها وكاتبها:

من الأعمال التي قام بها ابن الخطيب أيضاً في هذه المرحلة، وأعني بها مباشرة بعد انتقاله بولد السلطان، مراسلة زعماء الشرق، ممثلاً في سلطان مصر باعتبارها كانت تمثل الوريث الشرعي للخلافة العباسية البائدة، وكذلك وزيرها القائم بأمرها، نعرض لها لأهميتها في رصد العلاقات الدبلوماسية بين المشرق والمغرب.

مخاطبة السلطان:

أما السلطان الذي خاطبه ابن الخطيب بالرسالة فهو الملك المنصور أحمد بن الملك الناصر أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحي

وأما المعاني التي تضمنتها الرسالة فنجملها في النقاط الآتية:

التعريف بالأندلس النائية من خلال الإشارة إلى بعض مميزاتها الحضارية والسياسية والجغرافية كقوله: "... وَلَتَعْلَمَ مَجَالِسُهَا الْمُهَدَّدَةُ عَلَى النَّقْوَى، الْمُوَسَّسَةُ، وَعُلُومُهَا الْمُشْرِفَةُ الْمُقَدَّسَةُ، أَنَّ هَذَا الْقَطْرَ الَّذِي أَفْضَتْ إِلَيْنَا رِعَايَةً رَعَايَاهُ، وَمُهَّدَتْ لِسِيَاسَتِنَا أَكْوَارَ مَطَايَاهُ... قُطْرٌ مُسْتَقِيلٌ بِنَفْسِهِ... زَكِي الْمَنَابِتِ، عَذْبُ الْمَشَارِبِ... فَارِهِ الْحَيَوَانِ، مُعْتَدِلُ السُّحُنِ وَالْأَلْوَانِ، وَسَيْطٌ فِي الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ، شَاهِدٌ لِلَّهِ بِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ. أَمَّا خَيْلُهُ فَفَارِهِةٌ، وَإِلَى الرِّكْضِ شَارِهِةٌ، وَأَمَّا سَيُوفُهُ فَلِمَوَاطِنِ الْعُمُودِ كَارِهِةٌ، وَأَمَّا أَسْلُهُ فَحَسَنُ النَّعْتِ لَيِّنُ الْعِطْفِ، وَأَمَّا أَسْنَتُهُ فَمُتَدَارِكَةُ الْخَطْفِ، وَأَمَّا غَوَامِلُهُ فَبَيِّنَةُ الْحَذْفِ، أَمَّا نِبَالُهُ فَمَحْدُورَةُ الْقَذْفِ. إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ بِهِ فِي سَفْطٍ مِنَ الْحَيَاتِ، وَذَرِيئَةُ لِمَنْيَاتِ الْوَحْيَاتِ... وَقَدْ حَالَ الْبَحْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانٍ مَلَّتِهِمْ... يَقُومُونَ بِهَذَا الْفَرَضِ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ... فَلَوْلَا بُعْدُ الْمَدَى... لَسَمِعْتُمْ تَكْبِيرَ الْحَمَلَاتِ، وَزَنْزِيرَ أُسُودِ تِلْكَ الْفَلَاةِ، وَدَوِيَّ الْخَوَافِرِ، وَصَلِيلَ السُّيُوفِ، وَصُرَاخَ الثَّكَالِي، وَارْتِفَاعَ الْأَصْوَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى... " (٦٩).

ثم يعطي لمحة عن تاريخ الأندلس منذ الفتح، في أسلوب أدبي موجز بليغ مشيراً إلى الأوج الحضاري الذي بلغته الأندلس في عصرها الذهبي من خلال قوله: "...وَاسْتَوْسَقَ لِلْإِسْلَامِ مُلْكُ ضَحْمِ السُّرَايِقِ، مَرْهُوبُ الْبَوَارِقِ، رَفِيعُ الْعَمَدِ، بَعِيدُ

الْأَمَدِ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْآثَارُ وَالْأَخْبَارُ، وَالْوَقَائِعُ الْكِبَارُ، وَالْأَوْرَاقُ وَالْأَسْفَارُ، وَهَلْ يَخْفَى
النَّهَارُ" (٧٠).

ثم يشير أيضاً إلى انهيار هذا السد، وأقول هذا المجد، وكل أمر منتهٍ إلى حد،
والمد يعقبه جزر، قال: "... وَلِكُلِّ هُبُوبٍ رُكُودٌ، وَالْدَّهْرُ حَسُودٌ لِمَنْ يَسُودُ، فَارْجَعْتَ
الْفِرْنَجُ كَرَّتْهَا، وَاسْتَدْرَكَتْ مَعَرَّتْهَا، فَحَوَمَتْ جَوَارِحُهَا وَحَلَّقَتْ، وَأَوْمَضَتْ بَوَارِقُهَا
وَبَنَاءَلَقَتْ، وَتَشَبَّهَتْ وَتَعَلَّقَتْ، وَأَرْسَلَتِ الْأَعْنَةَ وَأَطْلَقَتْ، وَارْجَعْتَ الْعَقَائِلَ الَّتِي طَلَّقْتَ،
حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا الْحَاشِيَّةُ، وَلَا مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا النَّاشِئَةُ، وَسَقَطَتِ الْغَاشِيَةُ
وَأَخْلَدَتِ الْفِتْنَةُ الْمُتَلَاشِيَّةُ، وَتَقَلَّصَتِ الظَّلَالُ الْفَاشِيَّةُ" (٧١).

ثم يشير إلى هذه الدولة النصرانية التي أنقذت البقية الباقية من البلاد
الأندلسية التي كانت مترامية الأطراف، ولم تأل جهداً في التفاني من أجل هذا الوطن
الموروث، والمسكن الملهوف، ومواجهة العدو النصراني بالجهاد المتواصل.

والإشارة إلى العلاقات الأخوية والدبلوماسية المنبئة عن المواقف الجهادية التي
كانت بين جد هذا السلطان محمد الغني بالله وبين أسلاف السلطان قلاوون، وذلك
من خلال قوله: "... وَقَدْ أَوْفَدَ جَدُّنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى أَبْوَابِ سَلَفِكُمْ مِنْ وَقَائِعِهِ فِي
الْعُدُوِّ كُلِّ مُبَشِّرَةٍ، وَوُجُودِيَّةٍ مُنْتَشِرَةٍ، ضَحِكَتْ لَهَا تُغُورُ النُّغُورِ، وَسَرَتْ فِي الْأَعْطَافِ
حُمَيَّا السُّرُورِ، وَكَانَتْ الْمُرَاجِعَةُ عَنْهَا شِفَاءً لِلصَّدُورِ، وَتَمَائِمَ فِي الدُّورِ، وَخَفَرًا فِي وُجُوهِ
الْبُدُورِ، فَإِنَّ زِمَامَ الْإِسْلَامِ مَوْصُولٌ، وَفُرُوعُهُ تَجْمَعُهَا فِي اللَّهِ أَصُولٌ... وَالْمِلَّةُ وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ
وَاحِدَةٌ" (٧٢).

ثم الإشارة إلى حوادث عهده، ووقائع عصره، بدءاً من بيعته ومروراً بالحادثة
عليه، وما أعقبها من مجريات ذكرناها آنفاً، وانتهاء باسترجاعه للملكة المغتصب، وما
أعقبه من إجراءات وتطلعات ذكرناها معظمها أيضاً.

والإشارة إلى حرص هذه الدولة على تجديد وصل هذه الصلات، التي
انقطعت بينها وبين مصر، وتوثيق عراها كما يمليه الدين والمصلحة والتاريخ، وتبادل
الخبرات، يقول ابن الخطيب: "وَرَأَيْنَا أَنَّ نُطَالِعَ غُلُومَكُمْ الْمَشْرِقَةَ، بِهَذَا الْوَاقِعِ سَبَبًا

لِلْمُفَاتِحَةِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَمَتَّهِدًا لِلْمُؤَلَّاتِ الْمُجَدَّدَةِ، فَأَخْبَارُ الْأَقْطَارِ مِمَّا تُنْفِقُهُ الْمُلُوكُ عَلَى أَسْمَارِهَا، وَتَرْقُمُ بَدَائِعِهِ هَالَاتِ أَقْمَارِهَا، وَتَسْتَفِيدُ مِنْهُ حُسْنُ السَّيْرِ، وَالْأَمَانُ مِنَ الْغَيْرِ، وَتَسْتَعِينُ عَلَى الدَّهْرِ بِالتَّجَارِبِ، وَتَسْتَدِلُّ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ" (٧٣).

مخاطبة الوزير:

من الشخصيات التي وصلها ابن الخطيب بالمراسلة والمكاتبة وزير الدولة المملوكية على عهده، الأمير بُغا الخاصكي المستبد على أمر الدولة.

أما الرسالة فلم تكن طويلة كالرسالة التي خص بها السلطان، وحتى الأغراض فيها لم تتنوع، بحيث اقتصر على التعارف، ووصل الأسباب التي انقطعت، وقد كانت موصولة في العهود التي ولّت، ومن الفقرات التي دلّت على ذلك، قول ابن الخطيب: "... وَلَا زَائِدٌ إِلَّا التَّشَوُّفُ إِلَى التَّعَارُفِ بِتِلْكَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ، الَّتِي أَنْتُمْ عُنوانُ كِتَابِهَا الْمَرْقُومِ... وَتَقْرِيرُ الْمُثُولِ فِي سَبِيلِ زِيَارَتِهَا بِالْأَرْوَاحِ عِنْدَ تَعَذُّرِهَا بِالْجُسُومِ، وَإِلَى هَذَا فَإِنَّا كَانَتْ بَيْنَ سَلَفِنَا تَقَبُّلُ اللَّهِ جِهَادَهُمْ... وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ظِلَالَهَا... مُرَاسَلَةٌ يَنْمُ عَرَفُ الْخُلُوصِ مِنْ خِلَالِهَا... وَاشْتَقْنَا إِلَى أَنْ نُجَدِّدَهَا بِحُسْنِ مَنَابِكُمْ، وَنَصِلَهَا بِمُؤَاصَلَةٍ جَنَابِكُمْ" (٧٤).

مخاطبة رئيس كتابة الديوان:

من شخصيات الدولة البارزة التي توجه ابن الخطيب إليها بالكتابة أيضاً، رئيس خطة ديوان الإنشاء، أي وزير كتابة الدولة، في اصطلاح المعاصرين، وهو الشريف شمس الدين أبو عبد الله بن أبي ركب.

والملاحظ أن الرسالة من حيث المبنى أو المعنى، تختلف عن الرسالتين المذكورتين حساً ومعنى، ولا غرابة في ذلك، فهو يخاطب صاحب صنعته، ورب حرفته، فأجهد قريحته، ونثر كنانته، وعرض كتيبته، فقال مجاملاً يقرر فضل المشرق على المغرب: "... أَمَّا بِاعْتِبَارِ الْإِيَالَةِ، فَالْخِلَافَةُ أَصْلٌ، وَمَا سِوَاهَا فَرْعٌ، يُعْضَدُهَا طَبْعٌ وَشَرْعٌ، وَلَا يَتَسَّعُ فِي نَزْعِهَا ذِرْعٌ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ الْقَطْرِ، فَأَيْنَ الْقَدَمُ مِنَ الْمَفْرِقِ، وَأَيْنَ الْمَغْرِبُ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَتَشْهَدُ بِذَلِكَ الشَّعَائِرُ الْحَمْسُ، وَالْيَوْمُ وَالْأَمْسُ، لَا بَلِ

الشَّمْسُ، فَهَذَا تَنْصِبُ فِيهِ مَنْصَتَهَا، تُشْهِرُ قِصَّتَهَا، وَهَذَا تُبْتَلَعُ فِيهِ قُرْصَتَهَا، وَتَجْتَرَعُ غُصَّتَهَا" (٧٥).

وقال منوها بشرف أصله الذي كان الباعث الحثيث على مراسلته: "وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ الذَّوَاتِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا النَّسَبُ الْقُرَيْشِيُّ مُوجِبًا لِلتَّقْدِيمِ، مُسَوِّغًا بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مَزِيَّةَ الْقَدِيمِ، فَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مُحَاطَبُ الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ، وَقَدْ سُدَّتِ الْمَذَاهِبُ وَتَبَايَنَتِ الْأَنْوَارُ وَالْغَيَاهِبُ، وَاللَّهُ الْوَاهِبُ، وَلَقَدْ أَحَسَّ الْمُثْلُوكُ [ابن الخطيب] عِنْدَ تَعَاطِي هَذِهِ الذَّرِيعَةِ الَّتِي تَزِلُّ فِيهَا الْأَقْدَامُ، وَيُفْتَضِّحُ الْإِقْدَامُ، وَتُخِلُّ الدَّعْوَى بِصَاحِبِهَا كَمَا يَفْعَلُ الْمُدَامُ حَوْرًا فِي الطَّبَاعِ، وَقِصْرًا فِي الْبَاعِ، وَكَلَالًا فِي الْأَدَاةِ، وَسَهْوًا فِي فَرِيضَةِ الْبَيَانِ الْمُؤَدَّاةِ. أَمَّا الْفِكْرُ فَفَرَّ، وَأَمَّا الْيَرَاعُ فَفَنَجَلَ وَاصْفَرَ، وَأَمَّا الطَّرْسُ فَخَفَقَ فُؤَادُهُ، وَأَمَّا النَّفْسُ فَحَالَ سَوَادُهُ، مَهْلًا عَلَيْكَ، وَإِلَيْكَ عَنِّي إِلَيْكَ" (٧٦).

إلى غير ذلك من خرزات الصُّنْعِ، ولبنات السَّجْعِ، قد أُفْرِغَ الْمَعْنَى وَقَدْ لَهُ الْلَفْظُ، فيقضي الإنسان العجب من اتساع الباع، وهبة الحظ.

المبحث الثاني تمديد مدة المكث والتذمر من ذلك

المطلب الأول إنهاء المهمة وامتداد المدة

سبق الإلماع إلى أن ابن الخطيب حينما جاء بولد السلطان من المغرب، كانت رغبته العودة عقب ذلك لاستكمال رحلته العلمية وتجربته الروحية، فاجأه بالإلحاح عليه بالمكث، وأسفر الأمر في نهاية المطاف عن اتفاق تعهد فيه السلطان أن يخدمه ابن الخطيب مدة عامين، يضبط فيها الأمور، ثم ينصرف إذا شاء ومتى شاء.

ولاشك بناء على وقائع الأحداث، أن عامين كانت كافية لضبط الأمور، وإعادة الألقاب، وإرساء العوائد في دولة الغني بالله.

لذلك ما أن انتهت المدة حتى بادر ابن الخطيب بسؤال سلطانه الوفاء بعهده، والبر بوعده، إلا أن السلطان فاجأ ابن الخطيب مرة أخرى بطلب تمديد المدة، وإفساح العقدة، استئناساً بخدمته، وركوناً إلى تدبيره.

قال ابن الخطيب مشيراً إلى ذلك: " وَقَدْ اقْتَضَيْتُ خَطَّةً بِالسَّرَاحِ إِلَى أَمَدٍ مَعْلُومٍ حَلٍّ، فَتَقَلَّنِي إِلَى غَيْرِهِ، وَاسْتَدْرَجَنِي بِسِوَاهُ " (٧٧).

والظاهر أن ابن الخطيب كان كلما استدرجه السلطان إلى أمد جديد ينصاع مكرهاً لا بطلاً، حياء لا رغبة.

والظاهر أيضاً أنه كلما تجددت مدة المقام، ضاعف ابن الخطيب جهده في العمل كسباً للوقت، واستعجالاً إلى الخلاص، ظناً منه أن ذلك ينجيّه، ومن الراحة المنشودة يدينه.

يحدثنا ابن الخطيب عن منجزاته وآثارها في هذه المرحلة، فيقول: "... فَتَأْتِي

بِمِنَّةِ اللَّهِ مِنْ صَلَاحِ السُّلْطَانِ، وَعَفَافِ الْحَاشِيَةِ، وَنَشْرِ الْأَمْنِ، وَرَمِّ الثُّغُورِ، وَتَثْمِيرِ الْجِبَابَةِ، وَإِنْصَافِ الْحُمَاةِ وَالْمُقَاتِلَةِ، وَمُقَارَعَةِ الْمُلُوكِ الْمُجَاوِرَةِ فِي إِيثارِ الْمَصْلَحَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالصَّدْعِ فَوْقَ الْمَنَابِرِ، ضَمَانًا عَنِ السُّلْطَانِ بِتَرْيَاقِ سُمِّ الثُّورَةِ، وَإِصْلَاحِ بَوَاطِنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، مَا اللَّهُ الْمُجَازِي عَلَيْهِ، وَالْمَعُوضُ عَلَى سَهَرٍ خَلَعْتُهُ عَلَى أَعْطَافِهِ، وَكَدِّ أَعْمَلْتُهُ مِنْ جَرَائِهِ، وَخَطَرٍ اقْتَحَمْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ، لَا لِلتَّرِيدِ الْأَعْفَرِ، وَلَا لِلجُرْدِ تَمَرَحٍ فِي الْأَرْسَانِ، وَلَا لِلْبُدْرِ تُنْقُلُ الْأَكْتَادَ، فَهُوَ الَّذِي لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ غَامِلٍ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ الرُّجْعَى، وَالْآخِرَةُ وَالْأُولَى... " (٧٨).

وقال في موضع آخر: "فَأَكْمَلَ الْمَقَامَ بِبَابِهِ إِلَى هَذَا التَّارِيخِ [غير معروف]، مُدَّةً أَجْرَى اللَّهُ فِيهَا مِنْ يُثْمِنِ النَّقِيبَةَ، وَأَطْرَادِ السَّدَادِ، وَطَرْدِ الْهَوَى، وَرَفْضِ الزُّورِ، وَاسْتِشْعَارِ الْجِدِّ، وَنُصْحِ الدِّينِ، وَسَدِّ الثُّغُورِ، وَصَوْنِ الْجِبَابَةِ، وَإِنْصَافِ الْمُزْتَرِّقَةِ، وَمُحَاوَلَةِ الْعَدُوِّ، وَقَرْعِ الْأَسْمَاعِ بِلِسَانِ الصَّدِّقِ، وَإِقَاطِ الْعُيُونِ مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ، وَقَدْحِ زِنَادِ الرُّجُولَةِ، مَا هُوَ مَعْلُومٌ... وَأَتَّبَعَ هَذَا الْمَسْعَى مَنَاقِبَ الدَّوْلَةِ، بَلَّغَتْ أَعْنَائًا، وَأَثَارًا خَالِدَةً، مَا بَقِيَتْ الْخَضِرَاءُ عَلَى الْغُبَرَاءِ، وَأَخْبَارًا تُنْقَلُ وَتُرْوَى، إِنْ عَانَدَهَا الْحَاسِدُ، فَضَحَهُ الصَّبَاحُ الْمُنِيرُ، وَأَعْيَانُ السَّيْلِ الْمُتَدَافِعِ " (٧٩).

هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى جلييلة، لا يسع المقام لتناولها (٨٠)

أما الروح والمزاج الذي كان مهيمناً على مسيرة ابن الخطيب السياسية في هذه الآونة فهو روح القناعة والتجرد، وإيثار المصلحة العامة: "... فَاسْتَعْنْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ [السلطان]، وَعَامَلْتُ وَجْهَهُ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ تَلَبُّسٍ بِحَدِيعَةٍ، وَلَا تَشَبُّثٍ بِوَلَايَةٍ، مُقْتَصِرًا عَلَى الْكِفَايَةِ، حَذَرًا مِنَ النَّقْدِ، خَامِلَ الْمَرْكِبِ، مُعْتَمِدًا عَلَى الْمُنْسَاءَةِ، مُسْتَمْتِعًا بِخَلْقِ النَّعْلِ، رَاضِيًا بِغَيْرِ النَّبِيِّ مِنَ الثُّوبِ، مُشْفِقًا مِنْ مُوَافَقَةِ الْغُرُورِ، هَاجِرًا لِلزُّخْرَفِ، صَادِعًا بِالْحَقِّ فِي أَسْوَاقِ الْبَاطِلِ، كَافًا عَنِ السَّخَالِ بَرَاثِنِ السَّبَاعِ، مُفَوِّتًا الْأَصُولَ (٨١) فِي سَبِيلِ الصَّدَقَةِ " (٨٢).

وقال مبيناً عن نتائج إصلاحاته على كافة الميادين: "وَقَدْ عَادَتْ مَعَ ذَلِكَ عَوَائِدُ الْعَافِيَةِ، وَفُتِحَتْ عَلَى الْأَنْدَلُسِ أَبْوَابُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ، فَصُودِقَتِ الْمُلُوكُ، وَأَطْرَدَتِ الْفُتُوحُ، وَدَرَّتِ الْمُنُوحُ، وَاسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ بِمَا يَعْرِفُهُ الْحَاضِرُ لِهَذَا الْعَهْدِ، فَلَا يَسَعُهُ جَحْدُهُ، وَيَعْرِفُهُ مِنَ الْكُتُبِ فِي الزَّمَنِ الْآتِي مَنْ أَوْقَعْتُهُ عَلَيْهِ الْمُطَالَعَةُ " (٨٣).

المطلب الثاني استحكام النزعات الصوفية

المقصد الأول - ابن الخطيب والحنين إلى "سلا":

سبقت الإشارة إلى عمق الأثر الذي تركه في ابن الخطيب الانتقال إلى المغرب، والسكنى بمدينة "سلا"، ولا أدل على هذا الأثر من قول ابن الخطيب في أواخر حياته بعد فراره المودي بحياته: "... فلا أَعُدُّ مِنْ عُمْرِي إِلَّا أَيَّامَ مُقَامِي بِهَا [سلا]، وَسُكُنَايَ فِيهَا، تَفَرُّغًا إِلَى مَا أُرِيدُهُ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ، وَعَافِيَةٍ شَامِلَةٍ، وَجَنَّةٍ عَاجِلَةٍ" ^(٨٤).

فعلى الرغم من انتقال ابن الخطيب إلى وطنه، الذي تَخَلَّقَ من ترابه، وتغذى من لبانه، وحنينه إليه في غربته، ظل بعد عودته إلى بلده، واجتماعه بأهله وأحبابه، وأولاده، يرنو إلى المغرب، ويحن إلى سلا، حنيناً قوياً، ينفثُ شِعْرُهُ شَوْقَهُ، وَتَمُدُّ الْأَمَالُ حِبَالَهُ.

أمر عجيب لعمرى، وسر غريب في تقديري، لا يفسره إلا عمق الصدمة الأولى، وحلاوة الأوبة والرجعى.

إن الذي يعزو نزوع ابن الخطيب إلى المغرب، إلى الدوافع المادية والدنيوية، يظلم الرجل، ويسيء الظن به، فضلاً عن مكابرتة للقرائن التاريخية القوية التي تؤكد صدق دعواه، وخلوص نجواه، وأبلغ القرائن التي تَجِبُهُ المنكر ما ذكره:

١ - نزوحه إلى فاس واختياره الخلوة في سلا عقب لجوئه إلى المغرب أول مرة، وهو لا يعلم هل سيعود في يوم من الأيام إلى الأندلس.

٢ - رجوعه إلى الأندلس بولد السلطان راغماً، وبنائوه على العودة عازماً.

٣ - إرجاع جميع ممتلكاته التي اغتصبت منه، تلك الممتلكات التي ظل يناشد من أجلها سلاطين المغرب دون جدوى، فلو كان همه عرض الدنيا لحَوْلَ وجهته، وغير قصده ما دام المراد قد تحقق.

٤ - حنينه الدائم إلى أداء فريضة الحج، وزيارة الديار المقدسة، فقد أُلْعِنَا إلى ذلك في أكثر من موضع، ونذكر تصريحه برغبته مرة أخرى، وهو في معمرة مزاوله

نشاطه السياسي، قبل إزماعه على الفرار، وأظنه كان قبل طروق نية اتخاذ القرار قلبه وذهنه، إذ قال ذلك في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" في معرض الترجمة لسلطانه الغني بالله، بعد أن أشاد بمناقبه، وكشف النقاب عن مقدار قربيه ودنوه منه، وإيثاره على غيره، وإطلاعه على سره.

يقول ابن الخطيب راجياً داعياً: "وَاللَّهُ يُرَجِّحُ مِيزَانِي عِنْدَهُ، وَيُحْطِي وَسِيلَتِي لَدَيْهِ، وَيَحْرُكُ مُكَافَأَةً سَعْيِي فِي خَوَاطِرِ حَجَّهِ، وَيُنَبِّئُ لِتَبْلِيغِ أَمَلِي مِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ، وَزِيَارَةِ رَسُولِ اللَّهِ، بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ، فَمَا عَلَى اسْتِحْثَاتِ الْأَجَلِ مِنْ قَرَارٍ، وَلَا بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ إِغْذَارٍ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" (٨٥).

وقال في نفاضة الجراب، وهو أقدم من ذلك: "وكتبت له [السلطان] عقب رقعة، تتضمن وسائل في سبيل رغبة إليه في الانصراف إلى بيت الله:

جَعَلْتُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَالْمَلَأَ الْأَعْلَى	وَسَائِلَ لَا تُلْقَى شَفَاعَتُهَا كَلَّا
وَمَنْ يَفْتَضِي الْخَلْقَ الْحَقُّوقَ بِجَاهِهِ	أَتَيْتُ بِهِ حَتَّى النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلَا
وَلَمْ أَبْقِ أَمَّا لِلشَّفَاعَةِ أَوْ أَبَا	وَلَا ابْنًا وَلَا جَدًّا لَهُ خَبَرٌ يُتْلَى
وَبِالْقُطْبِ وَالْعَوْتُ الَّذِي بِوُجُودِهِ	وُجُودُ نِظَامِ الْكَوْنِ إِنْ عِدِمَ اخْتِلَا
فَلَا تُخْزِي فِي رَدِّ كِرَامٍ وَجُوهِهِمْ	وَمَهَّدَ لَهُمْ مِنْ بَرَكِ الرَّحْبِ وَالسَّهْلَا
وَحَاشَاكَ أَنْ تَبْذُو لَهُمْ مِنْكَ وَخْشَةً	وَمِنْ دُونِهِمْ عَرَفَتْهُ الْبِرَّ وَالْفَضْلَا (٨٦)

أما حنينه إلى "سلا" رمز الخلاص والانعتاق، وآية الوصال بالأحبة، والرفاق، فلطالما نفثه شعراً، والشعر أبلغ وسيلة في ذلك لدى الشعراء، فهو رسول الشوق الصادق، عما تجده النفس من البرحاء.

قال ابن الخطيب مقدماً لقصيدته بقوله: "وَقُلْتُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَى مَدِينَةِ سَلَا حَيْثُ أَمَلِي وَوَلَدِي، إِلَى هَذَا الْعَهْدِ" (٨٧).

نقتطف منها هذه المقطوعة ذات الدلالات والإشارات التي لا تخفى:

هَلْ لِهَذَا الْبَيْنِ [لِي] (٨٨) مِنْ مُجْتَمَعٍ	أَوْ لِهَذَا الْمُؤْتَجَى مِنْ مُرْتَجَعٍ
يَا نَسِيمَ الرِّيحِ إِنْ جُنَّتِ الْحِمَى	بَعْدَمَا طَبَّقَ غَيْمٌ وَارْتَفَعِ

تَرْفَعُ الدَّوْحَ قَلِيلًا وَتَضَعُ
يَصِلُ الْأُنْسُ لَدَيْهَا مَا قَطَعَ
إِنْ هَمَى فِي الرَّبْعِ مِنْهَا وَهَمَعَ
وَلَبِسْتُ الْحُزْنَ ثَوْبًا لَوْ نَفَعُ
فَالِي الْغَدْرِ بِلا شَكٍّ نَزَعُ
فَعَلَ اللَّهُ بِقَلْبِي وَصَنَعَ
نَظَرَ الْمِسْكُ شَذَاهَا فَاَنْقَطَعَ
فَهِيَ مَثْوَى مَنْ عَنِ الْغَيِّ نَزَعُ
فَجَأَ الْبَيْنُ فُؤَادِي وَفَجَعُ

ثم يثني على أحبائه هؤلاء الذين تجمعهم بهم صحبة العبادة، ذاكراً أسماءهم واحداً يتلو الآخر، ويقول مادحاً لهم:

بَيْنُهُمْ مِنْ مَضْمَضِ^(٨٩) الْبَيْنِ جُرْعُ
يَخْصِدُ الْإِنْسَانَ إِلَّا مَا زَرَعُ
مَا صَبَّاحُ لَاحٍ أَوْ بَرْقُ لَمَعِ^(٩١).

وَتَلَوُمْتَ بِأَكْنَافِ سَلا
قُلْ لِيَوَادِي الْقَبْطِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ
وَسَقَى شَلَّةَ عَهْدٍ مُغْفِقٍ
فِيهِ أَوْدَعْتُ فُؤَادِي فِي الثَّرَى
إِنْ سَلَ قَلْبِي مِنْ بَعْدِ سَلا
وَإِذَا جِئْتُ رُبُوعًا بَعْدَهَا
أَبْلَغُنْ صَحْبِي بِهَا مَمْحُوضَةً
وَإِلَى الزَّائِيَةِ الْعُلْيَا التَّفِثُ
أَبْلِغِ الْأَحْبَابَ عَنِّي أَنَّنِي

يَا لَهُمْ مِنْ سَادَةِ جَرٍّ عَنِّي
زَرَعُوا فِي جَمِيلًا فَجَنَحُوا^(٩٠)
سَلَّمَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ سَلا

وقال مخاطباً أحد أحبته، وجمعت الطريقة بينهما خطاباً دل على الخصوصية، من خلال تداول مصطلحات القوم، وهو أبو القاسم بن أحمد بن القاسم بن محمد بن داود الفخار^(٩٢).

"سَيِّدِي جَعَلَكَ اللَّهُ مِمَّنْ تَكَيَّفَ بِالْحَقِّ وَتَجَوَّهَرَ، وَعَلِمَ الْمَشْرِقَ^(٩٣) وَالْمَظْهَرَ، إِذَا غَلَبَ الْفَرْقُ، وَاشْتَقْتُ إِلَى لِقَائِكَ، وَارْتَحْتُ إِلَى الْبَرْقِ مِنْ تِلْقَائِكَ، وَإِذَا غَلَبَ الْجَمْعُ وَهُوَ ثَمَرَةُ الْمُجَاهَدَةِ، تَمَتَّعْتُ بِكَ عَيْنُ الْمُشَاهَدَةِ. وَإِنْ تَشَوَّفْتُ إِلَى الْحَالِ وَاسْتَشْرَفْتُ، فَلَمْ تَنْتَقِلْ عَمَّا عَرَفْتُ، خِرْقَةَ الْقَوْمِ اللَّبَّاسِ، وَمِنْ مِشْكَاةِ الْحَقِّ الْأَقْتِبَاسِ... وَلِي أَمَلٌ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى ذَلِكَ الْجَوَارِ الْحَفِيِّ بِالزُّوَارِ، وَالْجَنَابِ الْمُظَلَّلِ بِالْأَعْتَابِ، وَالنَيْبِ الْمُغْمُورِ بِالْكَلِّيَّاتِ مِنَ الْأُمُورِ، وَاللَّهُ يُبَلِّغُ الْأَرَابَ، وَيُيَسِّرُ الْمَسَارِبَ، وَيُعْذِبُ الْمَشَارِبَ^(٩٤)."

المقصد الثاني - مظاهر التصوف:

النزوع نحو التصوف عند ابن الخطيب ظاهرة أكيدة ومؤكدة، يدل على ذلك الإشارات المتعددة التي ألمعت إليها في أكثر من موضع، وتذكيراً بذلك أشير إلى أبرز دواعيها ومظاهرها المؤكدة على ذلك:

١ - صدمة الحادثة، التي استنقذ من براثنها المردية بأعجوبة، وما كان لها من أثر عميق على نفس ابن الخطيب اتعاضاً وازدجاراً.

٢ - اختيار "سلا" موطناً للاستقرار، ومجاورة "شالة" شحذاً للمشاعر والازدجار والاعتبار، ولو كان متطلعاً إلى دنيا مستعاضة عن الزاهية لاختار حضرة الملك فاس.

٣ - التصميم على عدم غمس اليد في السياسة، والإدارة مهما كان الثمن، ومهما قوي الإغراء، سواء تعلق الأمر بالمغرب أو الأندلس.

٤ - ارتياده الزاوية العليا، أو زاوية النساك، وهي الزاوية التي أنشأها أبو عنان المريني خارج مدينة سلا، وجعلها موئلاً للوارد والصادر من الغرباء والمنقطعين سنة ٧٥٧هـ، وجعل لها بابين واحداً يقابل سلا، والآخر يقابل مقبرة شالة.

٥ - حنينه الدائم إلى أحبائه من أهل هذه الزاوية المرابطين بها للعبادة والترهب، وقد أشار إلى ذلك في قصيدته المذكورة من خلال قوله:

وَالِىَ الزَّاوِيَةِ الْعُلْيَا التَّفْتُ فَهِيَ مَثْوَى مَنْ عَنِ الْغَيِّ نَزَعُ
أَبْلَغِ الْأَخْبَابِ عَنِّي أَنَّنِي فَجَأَ الْبَيْنُ فُؤَادِي وَفَجَعُ

وكذلك نص رسالته إلى أبي داود الفخار، يدل على هذا النزوع.

٦ - روح التسامح والتزام الآداب النبوية، والشريعة الإسلامية في حركته الإصلاحية السياسية والاجتماعية.

قال ابن الخطيب معدداً مناقب الدولة على عهد سلطانه، والتي كان جُلها من حسناته: "وَفِي بَابِ النَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَآزِقِ الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ مَا صَدَرَ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ مِنْ مُحَاطَبَةِ الْكَافَّةِ بِلِسَانِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، صَدَعْتُ بِذَلِكَ الْخُطْبَاءَ

مِنْ فَوْقِ أَعْوَادِ الْمَنَابِرِ، أَسْمَعَتْ أَدَانَ الْمَخَافِلِ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ بِهِ عَهْدٌ فِي الزَّمَانِ الْغَابِرِ" ^(٩٥). وقوله في موضع آخر: "وَمِنَ الْغَيْرَةِ عَلَى الدِّينِ، وَتَغْيِيرِ أَحْوَالِ الْمُلْحِدِينَ، مِنْ مَازَقِ جِهَادِ النَّفْسِ، مَا وَقَعَ بِهِ الْعَمَلُ مِنْ إِخْمَادِ الْبِدْعِ، وَإِذْهَابِ الْأَرَاءِ الْمُضِلَّةِ، وَالْإِشْتِدَادِ عَلَى أَهْلِ الرِّيْغِ وَالرَّزْنَقَةِ، وَقَدْ أَصَافَتْ أَرْبَابُ هَذِهِ الْأَصَالِيلِ الشَّرِيعَةَ، وَسَدَتْ مَضْرَهُم ^(٩٦) فِي الْكَافَّةِ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْحُكَّامُ، وَاسْتَدْعَيْتِ الشَّاهِدَاتُ، وَأَخَذَهُمُ التَّشْرِيدُ، فَهَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا" ^(٩٧).

كما أشار إلى رسائله التي واجه بها على المنابر أهل الأهواء والبدع، يقرع أذانهم ويردع قلوبهم، من خلال قوله: "وَقَيَّدَ فِي ذَلِكَ عَنِّي مَقَالَاتُ أُخْرَى مِنْهَا: رِسَالَةُ "الْغَيْرَةُ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرَةِ" "حَمْلُ الْجُمْهُورِ عَلَى السَّنَنِ الْمَشْهُورِ"، وَرِسَالَةُ "الشَّدَّةُ عَلَى أَهْلِ الرَّدَّةِ"، فَارْتَفَعَ الْخَوْضُ، وَكَسَدَتْ تِلْكَ الْأَسْوَاقُ الْخَبِيثَةُ، وَصُمَّ مِنْهَا الصَّدَا، وَوَضَّحَ نَهَارُ الْهَدْيِ" ^(٩٨).

٧ - بث الحركات الجهادية، والحملات العسكرية ابتداء من سنة ٧٦٧هـ - ١٣٥٦م، المواجهة للعدو النصراني، مبادأة لا دفاعاً من أجل استنقاذ القواعد والحصون، التي اغتصبها العدو أيام الفتنة، قال ابن الخطيب: "اِفْتَضَى نَظَرُ الْحَزْمِ، وَرَأْيُ الْاجْتِهَادِ لِلْإِسْلَامِ، إِطْلَاقُ الْغَارَاتِ عَلَى بَلَدِ الْكُفْرَةِ، مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَظُمَ الْأَثَرُ، وَشَهَرَ الذِّكْرُ، وَاكْتَسَحَتِ الْمَاشِيَةُ، وَالْحَمَّ السَّيْفُ" ^(٩٩).

وأعمل ابن الخطيب الحيلة بالمراسلة والمناصحة للعدو النصراني، فيما تجري فيه المناصحة عادة، فكانت سبباً في إغراء العداوة، ونشر الفتنة فيهم، واتصال الحروب فيهم بينهم.

قال ابن الخطيب: "... وَوَقَعَ لِي إِذْنُ السُّلْطَانِ، الْمُخْلِ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّصَائِحِ، فِي مَخَاطَبَةِ سُلْطَانِ النَّصَارَى الْمَنُكُوبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، فَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ بِالِاخْتِرَانِ مِنْ قَوْمِهِ، وَالتَّفَطُّنِ لِمَكَايِدِ مَنْ يَحْطُبُ فِي حَبْلِ أَخِيهِ، وَأَرَيْتُهُ اتِّخَاذَ مَقْعَلٍ يَحْرِزُ وَلَدَهُ وَذَخِيرَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ بِهِ الْخِيَارُ عَلَى دَهْرِهِ، وَاسْتَنْظَهَرْتُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، بِالْحِكَايَاتِ الْمُتَدَاوِلَةِ،

وَالْتَوَارِيخِ الْمَعْرُوفَةِ، لَتَتَّصِلَ الْفِتْنَةُ بِأَرْضِهِمْ، فَقَبِلَ الْإِشَارَةَ، وَشَكَرَ النَّصِيحَةَ... وَأُظْهِرَ
اللَّهُ نُجْحَ الْحِيلَةِ، وَصَدَّقَ بِهَا الْمَخِيلَةَ... فَأَمِنَ الْإِسْلَامُ عَادِيَةَ الْعَدُوِّ، بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ^(١٠٠).

وقال في موضع آخر مجملاً الفكرة عن حال النصارى، وسياسة المسلمين
تجاههم، وهي سياسة تحكمت في مجريات الحكم لدى دول المنطقة عموماً:
"وَأَشْتَغَلَتِ الْفِتْنُ بَيْنَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ وَأَخِيهِ، بِمَا أَوْجَبَ الْهُدْنَةَ، وَإِنْ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ
عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بِلَادِ الْعَدُوِّ فِي سَبِيلِ إِعَانَةِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ"^(١٠١).

أولاً - الدفاع عن التصوف والدعوة إليه:

دافع ابن الخطيب عن قناعته واختياره أشد ما يكون الدفاع تأكيداً على صدق
توجهه، بل إنه لم يكتف بذلك إذ تجاوزه إلى الدعوة إلى مذهبه، تمثل ذلك في طغيان
أسلوب الموعظة على كتاباته ومخاطباته، في الأعم الأغلب، والنصح لأصدقائه
وأوليائه، بعدم مماسة السياسة والابتعاد عن الحكام، والاهتمام بما ينفعهم في
معادهم وأجل أمرهم، فهو الذي لدغته عقربها، ولسعته حيثها.

وخاصة بعد أن اشتهر عليه نزوعه إلى الاعتزال والانقباض، واختياره أرض
المغرب داراً للقرار والانتباز.

ولقد رام أحد أصدقائه المشهورين صرفه عن ذلك وعذله في ذلك، فدارت
بينهما المخاطبة والمراجعة الآتيتان:

مخاطبة واردة من أبي جعفر بن خاتمة^(١٠٢):

ولقد قدم لها ابن الخطيب حين جلبها في الإحاطة ضمن ترجمة ابن خاتمة
بقول يؤكد صدق دعواه، وتمسكه بمنحاه، ويثمن ما أردناه، يقول: "وَمَا قَضَى اللَّهُ
بِالْإِدَالَةِ، وَرَجَعْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا مِنَ الْعُدْوَةِ، وَاشْتَهِرَ عَنِّي مَا اشْتَهِرَ مِنَ الْانْقِبَاضِ عَنِ
الْخِدْمَةِ، وَالتَّيِّهِ عَنِ السُّلْطَانِ وَالِدَوْلَةِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى أَعْلَى رُتَبِ الْخِدْمَةِ، وَتَطَارَحْتُ عَلَى
السُّلْطَانِ فِي اسْتِنْجَازِ وَعْدِ الرَّحْلَةِ، وَرَغَبْتُ فِي تَبْرِئَةِ الذِّمَّةِ، وَنَفَرْتُ عَنِ الْأَنْدُلُسِ
بِالْجُمْلَةِ، خَاطِبُنِي بَعْدَ صَدْرٍ..."^(١٠٣)

والنص يؤكد كما هو ملحوظ على أن أمر النزوع الصوفي لم يعد شأنًا خاصاً تُغيبه الأسرار، ويُخفيه الاستتار، وإنما أصبح خبراً شائعاً، وموقفاً ذائعاً، بل وقضية جَرَّتْ مذاكرة، وربما أثارت مناظرة، كما هو باد مما ذكره من نصوص.

ومما خاطبه به ابن خاتمة ما نقتطفه بياناً وإمحاضاً:

"وَالِإِى هَذَا يَا سَيِّدِي، وَمَحَلَّ تَعْظِيمِي وَإِجْلَالِي... فَإِنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَغِبْ عَنْ رَأْيِ الْعُقُولِ... أَنْتُمْ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ شَمْسُ أَفْقِهَا، وَتَاجُ مَفْرِقِهَا، وَوَاسِطَةُ سِلْكِهَا، وَطِرَارُ مُلْكِهَا، وَقِلَادَةُ نَحْرِهَا، وَفَرِيدَةُ دُرِّهَا... ثُمَّ أَنْتُمْ مَدَارُ أَفْلَاكِهَا، وَسِرُّ سِيَاسَةِ أَمْلَاكِهَا، وَتَرْجُمَانُ بَيَانِهَا، وَلِسَانُ إِحْسَانِهَا، وَطَبُّ مَارِسَاتِنِهَا، وَالَّذِي عَلَيْهِ عَقْدُ إِدَارَتِهَا، وَبِهِ قِوَامُ إِمَارَتِهَا، فَلَدَيْهِ يُحَلُّ الْمُشْكِلُ، وَالِإِيهِ يُلْجَأُ فِي الْأَمْرِ الْمُغْضِلِ، فَلَا غَرَوْ أَنْ تَتَّقِيَدَ بِكُمْ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ... وَيُسْتَنْبَأُ عَنْكُمْ مَا تَطْرَفُ عَنْهُ الْعَيْنُ، وَتَخْتَلِجُ عَنْهُ الْجَوَارِحُ، اسْتِقْرَاءً لِمَرَامِكُمْ، وَاسْتِطْلَاعًا لِصَالِحِ اعْتِرَامِكُمْ... لَاسِيْمَا إِقَامَتَكُمْ عَلَى جَنَاحِ حَقُوقِ، وَظُهُورِكُمْ فِي مُلْتَمَعِ بُرُوقِ، وَاضْطِرَابِ الظُّنُونِ فِيكُمْ مَعَ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ، حَتَّى تَسْتَقَرَّ بِكُمْ الدَّارُ، وَيَلْقَى عَصَاهُ النَّسْيَارُ، وَلَهَا الْغُدْرُ فِي ذَلِكَ إِذْ صَدَعَهَا بِفِرَاقِكُمْ لَمْ يَنْدَمِلْ، وَسُرُورُهَا بِلِقَائِكُمْ لَمْ يَكْتَمِلْ...

وَإِنِّي لَيَحْطُرُ بِخَاطِرِي مَحَبَّةَ فِيكُمْ... مَا نَالَ جَنَابَكُمْ فِي هَذَا الْوَطَنِ مِنَ الْجَفَاءِ، ثُمَّ أَنْكَرُ مَا لَكُمْ مِنْ حُسْنِ الْعَهْدِ، وَكَرَمِ الْوَفَاءِ... فَيَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّكُمْ لِحُسْنِ الْعَهْدِ أَجْنَحُ... وَكَمَا فِي عِلْمِكُمْ مَا فَارَقَ ذُو الْأَرْحَامِ مَوَاطِنَ اسْتِقْرَارِهِمْ، وَأَمَّا كَيْنَ قَرَارِهِمْ، إِلَّا بِرَغْمِهِمْ وَاضْطِرَارِهِمْ، وَاسْتِثْبَالِ خَيْرٍ مِنْ دَارِهِمْ، وَمَتَى تَوَازَنَ الْأَنْدَلُسُ بِالْمَغْرِبِ، أَوْ يُتَعَوَّضُ مِنْهَا إِلَّا بِمَكَّةَ، أَوْ يَثْرِبَ، مَا تَحْتَ أَيْمِهِ أَشْلَاءُ أَوْلِيَاءِ وَعُبَادٍ وَمَا فَوْقَهُ مَرَابِطُ جِهَادٍ... " (١٠٤).

مراجعة ابن الخطيب:

"لَمْ فِي الْهَوَى الْغُدْرِي أَوْ لَا تَلَمْ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي
شَأْنُكَ تَغْنِيَتِي وَشَأْنِي الْهَوَى كُلُّ امْرئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي
أَهْلًا بِخُفَّةِ الْقَائِمِ، وَرِيحَانَةِ الْمُنَائِمِ، وَذِكْرِي الْمُتَقَائِمِ... لَقَدْ جَبَّتْ لِي مِنْ هُمُومِي

لَيْلًا، وَجَسَتْ رَجُلًا وَخَيْلًا، وَوَفَّيْتُ مِنْ صَاعِ الْوَفَاءِ كَيْلًا، وَظَنَنْتُ بِي الْأَسْفَ عَلَى مَا
فَاتَ، فَأَعْمَلْتُ الْإِلْتِفَاتَ لِكَيْلًا...

قَسَمًا بِالْكَوَاعِبِ الزُّهْرِ وَالزُّهْرُ عَاتِمَهُ
إِنَّمَا الْفَضْلُ مِلَّةٌ خُتِمَتْ بِابْنِ خَاتِمِهِ
كَسَانِي حُلَّةَ فَضْلِهِ، وَقَدْ ذَهَبَ زَمَانُ التَّجْمُلِ... وَنَظَرْنِي بِالْعَيْنِ الْكَلِيلَةِ عَنِ
الْعُتْبِ، فَهَلَّا أَجَادَ التَّأْمُلَ، وَاسْتَطَلَعَ طَلْعَ بَثِّي، وَوَالَى فِي مَبْرَكِ الْهَجْرَةِ حَتَّى، وَإِنَّمَا
أَشْكُو بَثِّي...

وَقَدْ حَالَ شَمْلٌ وَبَدُهُ مَفْرُوقٌ، وَقَاعِدَتُهُ فُرُوقٌ، وَصَوَاعُ بَنِي أَبِيهِ مَسْرُوقٌ، وَقَلْبٌ
قَرَحَهُ مِنْ عَضَّةِ الدَّهْرِ دَامٌ... هَذَا وَقَدْ صَارَتْ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْكُبْرَى لِمَشِيبٍ لَمْ
يَدْعُ أَنْ هَجَمَ كَمَا نَجَمَ، ثُمَّ تَهَلَّلَ غَارِضُهُ وَأَنْسَجَمَ...

نَظَرْتُ فَإِذَا الْجَنْبُ نَابٍ، وَالنَّفْسُ فَرِيَسَةٌ ظُفْرٍ وَنَابٍ، وَالْمَالُ أَكِيلَةٌ انْتِهَابٍ، وَالْعُمُرُ
رَهْنٌ ذِهَابٍ، وَالْيَدُ صِفْرٌ مِنْ كُلِّ اكْتِسَابٍ...

وَهَبْ أَنْ الْعُمُرَ جَدِيدٌ، وَظِلُّ الْأَمْنِ مَدِيدٌ، وَرَأْيِي الْإِغْتِبَاطُ بِالْوَطَنِ سَدِيدٌ، فَمَا
الْحُجَّةُ لِنَفْسِي إِذَا مَرَّتْ بِمَطَارِحِ جَفَوْتِهَا، وَمَلَاعِبِ هَفَوْتِهَا، وَمَتَاقِبِ قَنَاتِهَا، وَمَظَاهِرِ
عَزَاهَا وَمَنَايِهَا، وَالزَّمَانُ وَلَوْ، وَزِنَادُ الْكُونِ غَيْرُ صَلُودٍ...

ثُمَّ إِنَّ الْمَرْغَبَ قَدْ ذَهَبَ، وَالِدَّهْرَ قَدْ اسْتَرْجَعَ مَا وَهَبَ، وَالْعَارِضَ قَدْ اشْتَهَبَ،
وَأَرَاءَ الْاِكْتِسَابِ مَرْجُوحَةً مَرْفُوضَةً... وَالنِّيَّةَ مَعَ اللَّهِ عَلَى الزُّهْدِ فِيمَا بِيَايِ خَلْقِهِ
مَعْقُودَةً، وَالتَّوْبَةَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شُرُوطَهَا مَنْقُودَةً... وَالْاِقْتِصَادَ قَدْ قَرَّتِ الْعَيْنُ
بِصُحْبَتِهِ، وَاللَّهُ قَدْ عَوَّضَ حُبَّ الدُّنْيَا بِمَحَبَّتِهِ... إِنِّي إِلَى اللَّهِ مُهَاجِرٌ، وَلِلْعَرْصِ الْأَدْنَى
هَاجِرٌ، وَلِأَطْعَانِ السَّرَى زَاجِرٌ... لَكِنِّي دَعَانِي إِلَى الْهَوَى إِلَى الْمَوْلَى الْمُنْعَمِ هَوَى، خَلَعْتُ
نَعْلِي وَمَا خَلَعْتُهُ، وَشَوَّقْتُ أَمْرَنِي فَأَطَعْتُهُ، وَغَالَبَ وَاللَّهُ صَبْرِي فَمَا اسْتَطَعْتُهُ، وَالحَالُ
أَغْلَبَ، وَعَسَى أَنْ لَا يَخِيبَ الْمُطْلَبُ... فَإِنْ يَسَّرَهُ رِضَاهُ فَأَمَلْتُ كَمَلٌ... وَإِنْ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ
فَالزَّمَانُ جَمُّ الْعَوَائِقِ وَالتَّسْلِيمُ بِمَقَامِي لَا يُقَى...

وَأَمَّا تَفْضِيلُ هَذَا الْوَطَنِ عَلَى غَيْرِهِ...فَحَقُّ بَرٍّ مِنَ الْمَيِّنِ، لَكِنِّي لِلْحَرَمَيْنِ جَنَحْتُ،
وَفِي جَوِّ الشَّوْقِ إِلَيْهِمَا سَرَحْتُ...» (١٠٥).

ويستفاد من رسالة ابن خاتمة ومراجعة ابن الخطيب له المعاني والقيم الآتية:

١ - أن ابن الخطيب بلغ من القناعة بالحظ الذي سلكه والعزم الذي قطعه إلى غاية الصمم عن عذل العادلين، ولوم اللائمين، وعتب العاتبين، وشغب المشاغبين، الراغبين في إثناء ابن الخطيب عن قصده.

٢ - التأكيد على فضل ابن الخطيب، ومكانته العظيمة في قطره، على كافة الأصعدة، والمستويات السياسية والثقافية، بحيث يمكن القول إن ثناء ابن خاتمة عليه وهو ما هو في الأعلام الأندلسية، والأكبر منه سناً، أكد بحق على أن لسان الدين بن الخطيب كان ألمع شخصية أنجبتها الأندلس في تلك الأعصر العجاف دون مدافع.

٣ - أن رسالة ابن خاتمة، أثارت هموم ابن الخطيب، وأحزنت قلبه الرطيب؛ لأنها أخطأت فهم مقاصد ابن الخطيب، وجنحت في تفسير بواعث ما فات، وردّها إلى حسرة على ما ضاع من ممتلكات.

٤ - تأكيد ابن الخطيب أن صاحب الرسالة زاهل عن حقيقة أمره، وكنه تجربته، غافل عن لب ما يجده لأنها أمر مستبطن، وقلما تتجاوب حوله القلوب التي لم تتذوقه، لذلك كان بثه سدى، وترجيع سدى.

٥ - التأكيد على أن المصيبة التي عرضت له عقب الحادثة على سلطانه، والتي جردته من عزه وجاهه، كانت الجذوة التي قدحت فيه زناد الأوبة، والقبس الذي أثار طريق الاقتباس ودل على سلوك طريقة تلك الطائفة من الناس.

٦ - التأكيد على أن هذا الحال الذي دخله حتى وإن لم تكن النكبة هي الباعث عليه، فقد تكون التوبة قد سوّغت إليه، والعودة قد نبهت عليه، لرجحان الدواعي إلى ذلك، إذ الإنسان لا يخلو من الخطيئة على الدوام، فما أمراه أن يمسك العنان، وقد أيقظت الذكرى عزمة الوسنان.

٧ - التأكيد على المضي على طريق الزهد والقناعة الذي اختاره، واستمسك بالعروة الوثقى منه، خاصة بعد أن ذاق تلك الحلاوة التي ربما لم يتذوق طعمها قبل،

ولا شك في أن للأمر خبرته وامتعته، وأسراره، هنالك تكمن حقيقة إصرار الرجل، على الرغم من انصلاص الحال، وانجبار الكسر، وافتكاك الأسر.

٨ - التأكيد على فضل بلده الأندلس، ولكن الرجل لم يرغب في الهجرة إلى المغرب، باتخاذها وطناً بدلاً عن موئله، وإنما كان اختاره نقطة انطلاق إلى مرمى هجرته، وغاية أمله، أرض الحجاز، وقبلة الحجاج، ومرقد سيد ولد آدم، صلى الله عليه وسلم، الذي لم يستثنه في بث نجواه طالما توجه إليه بشكواه، كلما أظلمته ذكراه:

مثل قوله من قصيدة مولدية، نظمها أيام كان في المغرب، وهي من عيون مدائحه، نقتطف منها ما له صلة بالغرض المطروق:

بَرَانِي شَوْقٌ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَادَاكَ ضَارِعٌ
مَشَوْقٌ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ
إِذَا مَا حَدِيثٌ عَنْكَ جَاءَتْ بِهِ الصَّبَا
وَتَقَرَّبُهُ الْأَمَالُ مِنْكَ تَعَلُّلاً
يَسُومُ فُؤَادِي بَرْحُهُ مَا يَسُومُهُ
عَلَى الْبُعْدِ مَحْفُوظُ الْوِدَادِ سَلِيمُهُ
تُهُمُّ بِهِ تَحْتَ الظَّلَامِ هُمُومُهُ
شَجَاهُ فِي الشَّوْقِ الْحَدِيثِ قَدِيمُهُ
وَيُبْعِدُهُ الْمَقْدَارُ عَمَّا يَرُومُهُ^(١٠٦).

وقال في قصيدة أخرى، وقد نظمت في عيد مولد سنة ٧٦٤هـ - ١٢٦٢م:

"مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحٍ
وَعَلَى الشَّوْقِ أَنْ يَشِيبَ إِذَا هَبَّ
جِيرَةُ الْحَيِّ وَالْحَدِيثُ شَجُونٌ
أَتَرُونَ السَّلَوَ خَامَرَ قَلْبِي
ضَايَقْتَنِي فِيكُمْ صُرُوفُ اللَّيَالِي
وَسَقَتَنِي كَأْسُ الْفِرَاقِ دِهَاقًا
يَا تُرَى وَالنَّفُوسُ أَسْرَى الْأَمَانِي
هَلْ يُبَاحُ الْوُرُودُ بَعْدَ زِيَادٍ
وَإِذَا أَعْوَزَ الْجُسُومَ التَّلَاقِي
أَنْ يُرَى طَائِرًا بَغِيرَ جَنَاحٍ
بِأَنْفَاسِكُمْ نَسِيمُ الصَّبَاحِ
وَاللَّيَالِي تَلِينُ بَعْدَ جَمَاحٍ
بَعْدَكُمْ؟ لَا وَقَالِقِ الْإِصْبَاحِ
وَاسْتَدَارَتْ عَلَيَّ دُورُ الْوِشَاحِ
فِي اغْتِبَاقِ مُوَاصِلِ الْبَاصْطِبَاحِ
مَا لَهَا عَنْ وَثَاقِهَا مِنْ سَرَاحٍ
أَوْ يُتَاحُ اللَّقَاءُ بَعْدَ انْتِزَاحِ
نَابٍ عَنْهَا تَعَارُفُ الْأَزْوَاحِ

أَسْفِي كَمْ أَرَى طَرِيدَ ذُنُوبٍ أَوْبَقْتَنِي فَلَيْسَ لِي مِنْ بَرَّاحٍ
 قَدْ غَرَّتَنِي الْخُطُوبُ غَرَوُ الْأَعَادِي وَبَرَّتَنِي الْهُمُومُ بَرِّي قَدَّاحٍ
 لَا لِدُنْيَا جَنَحَتْ أُولُغٌ فِيهَا لَا لِدِينٍ خَلَصَتْ لَا لِصَلَاحٍ^(١٠٧).

مراسلة ابن الخطيب ابن مرزوق:

من مظاهر هذا النزوع أيضاً الرسالة الزاجرة الواعظة التي بعثها إلى صديقه الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق، عقب افتكاكه من الاعتقال و خلاصه من نكبة عرضت له، وهي من رسائله التي كتبها عقب انتقاله بولد السلطان.

وهي من أبلغ وأعظم المواعظ التي كشفت عن حقائق عميقة تتعلق بأحوال الساسة والحكام، فضلاً عن حال ابن الخطيب النفسية خاصة.

قال ابن الخطيب: "سَيِّدِي الَّذِي يَدُهُ الْبَيْضَاءُ لَمْ تَذْهَبْ بِشُهِرَتِهَا الْمُكَافَأَةُ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَدْحِهَا الْأَفْعَالُ، وَلَا تَغَايَرَتْ فِي حَمْدِهَا الصِّفَاتُ...أَطْلَقَكَ اللَّهُ مِنْ أَسْرِ الْكَوْنِ كَمَا أَطْلَقَكَ مِنْ أَسْرِ بَعْضِهِ، وَزَهَّدَكَ فِي سَمَائِهِ الْفَانِيَةِ وَفِي أَرْضِهِ، وَحَقَّرَ الْحَطَّ فِي عَيْنِ بَصِيرَتِكَ...اتصلَ بِي الْخَبَرُ السَّارُّ مِنْ تَرْكِ لِسَانِكَ، وَإِنْجَاءِ اللَّهِ إِيَّاكَ مِنْ ثَمَرَةِ إِحْسَانِكَ...وَاسْتَعْبَرْتُ لِتَضَاوُلِ الشَّدَّةِ بَيْنَ يَدَيِ الْفَرَجِ...وَنَسَأَلُهُ جَلَّ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا آخِرَ عَهْدِكَ بِالدُّنْيَا وَبَيْنِهَا، وَأَوَّلَ مَعَارِجِ نَفْسِكَ الَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ الْحَقِّ وَتُدْنِيهَا، وَكَأَنِّي وَاللَّهِ أَجْسُ بِثَقَلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ عَلَى سَمْعِكَ...وَأَنَا أَنَا فَرُكَ إِلَى الْعَقْلِ الَّذِي هُوَ قِسْطُاسُ اللَّهِ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ...فَأَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي غَبَطَ سَيِّدِي بِالدُّنْيَا، وَإِنْ بَلَغَ مِنْ زَبْرِجِهَا الرُّتْبَةَ الْعُلْيَا...

أَلْتَوَقَّعُ الْمَكْرُوهَ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟...وَلُزُومِ الْمُنَافَسَةِ الَّتِي تُعَادِي الْأَشْرَافَ وَالرُّؤَسَاءَ؟

أَلْتَرْتَّبُ الْعَنْبَ حَتَّى التَّقْصِيرِ فِي الْكُتُبِ؟ وَضَعِيْنَةَ جَارٍ؟ وَوُلُوعِ الصَّدِيقِ بِإِحْصَاءِ الذَّنْبِ؟

أَلْيَنْسَبُ وَقَائِعِ الدَّوْلَةِ إِلَيْكَ وَأَنْتَ بَرِيءٌ؟ وَتَطْوِيْقَكَ الْمُوْبِقَاتِ وَأَنْتَ مِنْهَا عَرِيٌّ؟...

الَّتَقْلِيدَ التَّقْصِيرِ فِيمَا ضَاقَتْ عَنْهُ طَاقَتُكَ؟...

الْقَطْعِ الرِّمَانِ بَيْنَ سُلْطَانٍ يُعْبَدُ؟...الْوَزِيرِ يُصَانَعُ وَيَدَارَى؟...

الْمُبَاكَرَةِ كُلِّ غَائِبٍ حَاسِدٍ، وَعَدُوٍّ مُسْتَأْسِدٍ؟...

الْلُفُودِ تَتَزَاخَمُ لِسُدَّتِكَ، مُتْكَلِّفَةً لَكَ غَيْرَ مَا فِي طَوْقِكَ؟...

الْجُلَسَاءِ بَابِكَ لَا يَقْطَعُونَ زَمَانَ رُجُوعِكَ وَإِيَابِكَ إِلَّا بِقَبِيحِ اغْتِيَابِكَ؟...وَالْمَسَاجِدُ يُشْتَكَى فِيهَا الْبُتُّ يَفْتَقِدُونَ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي يَدِكَ بِمَنْزِلَةِ الْجَمَارِ الْمَذْبُورِ، وَالْيَتِيمِ الْمَخْجُورِ، وَالْأَسِيرِ الْمَأْمُورِ، لَيْسَ لَهُ شَهْوَةٌ وَلَا غَضَبٌ، وَلَا أَمَلٌ فِي الْمَلِكِ وَلَا أَرْبٌ...وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ عَنْ رَأْيٍ نَفَرَةٌ، وَلَا بِإِزَاءِ مَا لَا يَقْبَلُهُ نَزْوَةٌ وَطَفَرَةٌ، إِنَّمَا هُوَ جَارِحَةٌ لِصَيْدِكَ...وَالَّةٌ لِنَصْرَفِ كَيْدِكَ...ثُمَّ يُمَرَّقُونَ بِالْغَيْبَةِ مِرْقَ جِسْمِكَ...إِذِ الْخَبْرُ يَسْتُرُهُ اللَّهُ عَنِ الدُّوَلِ وَيَخْفِيهِ...وَمَا الْفَائِدَةُ فِي فِرَاشٍ تَحْتَهُ جَمْرُ الْغَضَا، وَمَالٌ مِنْ وَرَائِهِ سُوءُ الْقَضَا، وَجَاهٌ يُحَلِّقُ عَلَيْهِ سَيْفٌ مُنْتَضِي؟

وَإِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ إِلَّا الْإِلْتِذَاذَ بِمَا لَا تَمْلِكُ، وَاللُّجَاجَ حَوْلَ الْمَسْقَطِ الَّذِي تَعْلَمُ أَنَّهَا فِيهِ تَهْلِكُ...

وَإِنْ وَجَدَتْ فِي الْقُفُودِ بِمَجْلِسِ التَّحِيَّةِ بَعْضَ الْأَرِيحِيَّةِ، فَلَيْتَ شِعْرِي أَيَّ شَيْءٍ زَادَهَا؟...إِلَّا مُبَاكَرَةً وَجْهَ الْحَاسِدِ، وَذِي الْقَلْبِ الْفَاسِدِ...هَلِ النَّدْتُ إِلَّا بِخُلْمٍ كَاذِبٍ؟...إِنَّمَا رَاكِبُكَ مَنْ يُحْدِثُ إِلَى الْحِلْيَةِ وَالْبَرَّةِ، وَيَسْتَطِيلُ مَدَّةَ الْعِرَّةِ، وَيَرْتَابُ إِذَا حَدَّثَتْ بِخَبْرِكَ، وَيَتْبَعُ بِالنَّقْدِ وَالتَّجَسُّسِ مَوَاقِعَ نَظْرِكَ...وَأَيُّ رَاحَةٍ لِمَنْ لَا يُبَاشِرُ قَصْدَهُ، وَيَسِيرُ مَتَى شَاءَ وَحْدَهُ؟...

لَكِنَّ الْوَقْتَ أَشْغَلَ، وَالْفِكْرَ أَوْغَلَ، وَالزَّمْنَ قَدْ غَمَرَتْهُ الْحِصَصُ الْوَهْمِيَّةُ...

أَمَّا لَيْلُهُ فَفَكَّرَ أَوْ نَوَّمَ...وَأَمَّا يَوْمُهُ فَتَدَبَّرَ، وَقَبِيلٌ وَدَبِيرٌ، وَأُمُورٌ يَعْيَا بِهَا تَبِيرٌ...وَبَلَاءٌ مُبِيرٌ، وَأَنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ خَبِيرٌ.

...وَأَحْسَرَتَا لِلْأَحْلَامِ ضَلَّتْ، وَلِلْأَقْدَامِ زَلَّتْ...وَلَيْسِيْدِي أَنْ يَقُولَ: حَكَمْتُ عَلَيَّ بِاسْتِثْقَالِ الْمَوْعِظَةِ وَاسْتِجْفَائِهَا، وَمُرَاوَدَةِ الدُّنْيَا مِنْ خِلَانِهَا وَكُنَافِهَا...

فَأَقُولُ: الطَّبِيبُ بِالْعِلَالِ أَدْرَى، وَالشَّفِيقُ بِسُوءِ الظَّنِّ مُغْرَى، وَكَيْفَ لَا؟
وَأَنَا أَقِفْ عَلَى السَّجَلَاتِ بِخَطِّ يَدِ سَيِّدِي مِنْ مَطَارِحِ الاِغْتِقَالِ، وَمَثَاقِبِ النُّوبِ
التَّقَالِ، خَلَوَاتِ الاِسْتِغْدَادِ لِلِقَاءِ الْخُطُوبِ الشَّدَادِ...

وحيثُ يَجْمَلُ بِمِثْلِهِ أَلَا يَصْرِفَ فِي غَيْرِ الْخُضُوعِ لِلَّهِ بَنَانًا، وَلَا يَتَنَّى لِمَخْلُوقٍ عَنَانًا،
وَأَتَعَرَّفُ أَنَهَا قَدْ مَلَأَتْ الْجَوَّ وَالْدَّوْءَ... تَقْتَحِمُ أَكْفَ أُولَى السَّمَاتِ، وَحَفَظَةَ الْمَذْمَاتِ...
إِلَى مَا أَحْفَظَنِي وَاللَّهِ، مِنَ الْبَحْثِ عَنِ السُّمُومِ، وَكُتُبِ النُّجُومِ وَالْمَذْمُومِ مِنَ
الْعُلُومِ... وَأَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِرِزْمَنِ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ مِيقَاتًا، وَأَنَا لَا نَمْلِكُ مَوْتًا وَلَا
نُشُورًا وَحَيَاةً...

اللَّهُ، اللَّهُ، يَا سَيِّدِي فِي النَّفْسِ الْمُرْشَحَةِ، وَالذَّاتِ الْمُحَلَّاةِ بِالْفَضَائِلِ الْمُوشَّحَةِ،
وَالسَّلَفِ الشَّهِيرِ الْخَيْرِ، وَالْعُمَرِ الْمُشْرِفِ عَلَى الْمَرْحَلَةِ بَعْدَ حَتِّ السَّيْرِ، وَدَعِ الدُّنْيَا
لَأَهْلِهَا فَمَا أَوْكَسَ حُظُوظَهُمْ...

وإِنْ رَمَيْتُ بِأَحْجَارِي، وَأَوْجَرْتُ الْمُرَّ مِنْ أَشْجَارِي، فَوَاللَّهِ مَا تَلَبَّسْتُ مِنْهَا الْيَوْمَ
بِشَيْءٍ قَدِيمٍ وَلَا حَدِيثٍ، وَلَا اسْتَأْثَرْتُ بِطَبِيبٍ فَضْلًا عَنْ حَبِيبٍ، وَمَا أَنَا إِلَّا عَابِرُ سَبِيلٍ،
وَهَاجِرُ مَرْعَى وَبَبِلٍ، وَمُرْتَقَبٌ وَعَدَا بَدْرٍ فِيهِ الْإِنْجَارُ، وَعَاكِفٌ عَلَى حَقِيقَةٍ لَا تُعْرَفُ
الْمَجَازُ، قَدْ فَرَزْتُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يُفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ، وَحَاوَلْتُ قَطْعَ الْمُدَاخَلَةِ حَتَّى بَيْنَ رُوجِي
وَالْجَسَدِ، وَغَسَلَ اللَّهُ قَلْبِي مِنَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ، فَلَمْ أَبْقِ عِلَاقَةً إِلَّا قَطَعْتُهَا وَلَا جُنَّةً
لِلصَّبْرِ إِلَّا اِدْرَعْتُهَا.

أَمَّا اللَّبَاسُ فَالْصُّوفُ، وَأَمَّا الزُّهُدُ فِيمَا بِأَيْدِي الْخَلْقِ فَمَعْرُوفٌ، وَأَمَّا الْمَالُ فَعَلَى
الصَّدَقَةِ مَصْرُوفٌ... وَمَعَ هَذَا سَيِّدِي فَالْمَوْعِظَةُ تُتَلَقَّى مِنْ لِسَانِ الْوُجُودِ...

وَلَقَدْ أَعْمَلْتُ نَظْرِي فِيمَا يُكَافِي عَنِّي بَعْضَ يَدِكَ، أَوْ يَنْتَهِي فِي الْفَضْلِ إِلَى أَمْدِكَ،
فَلَمْ أَرَ لَكَ الدُّنْيَا كَفَاءً لَوْ كُنْتُ صَاحِبَ دُنْيَا، وَوَجَدْتُ بِذَلِكَ النَّفْسَ قَلِيلًا لَكَ مِنْ غَيْرِ
شَرْطٍ وَلَا تَنْيَا، فَلَمَّا أَلْهَمَنِي جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى مُخَاطَبَتِكَ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ الْمُفْرَعَةِ، فِي قَالِبِ
الْجَفَاءِ، تَبَيَّنَ لِي أَنَّي قَدْ كَافَيْتُ صَنِيعَتَكَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَخَرَجْتُ عَنْ عَهْدَتِكَ الْمُتْلَزِمَةِ،
وَأَمَحَضْتُ لَكَ النَّصِحَ الَّذِي يُعِزُّ بِعِزِّ اللَّهِ ذَاتَكَ، وَيُطَيِّبُ حَيَاتَكَ...

وَأِنْ اغْتَدَرَ سَيِّدِي بِقَلَّةِ الْجَلْدِ، لِكَثْرَةِ الْوَلَدِ، فَهُوَ ابْنُ مَرْزُوقٍ لَا ابْنُ رَازِقٍ، وَبِيَدِهِ
مِنْ التَّسَبُّبِ مَا يَتَكَفَّلُ بِامْتِسَاكِ أَرْمَاقٍ.

أَيُّ النَّسَخِ الَّذِي يَتَبَلَّغُ الْإِنْسَانُ بِأُجْرَتِهِ فِي كُنْ حُجْرَتِهِ؟

لَا بَلِ السُّؤَالُ الَّذِي لَا غَارَ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِمَعَرَّتِهِ، السُّؤَالُ وَاللَّهِ أَقْوَمُ طَرِيقًا،
وَأَكْرَمُ فَرِيقًا مِنْ يَدٍ تَمْتَدُّ إِلَى حَرَامٍ، لَا تَقُومُ بِمَرَامٍ، وَلَا يُؤْمَنُ مِنْ ضِرَامٍ، أُحْرِقَتْ فِيهِ
الْخُلُلُ، وَقُلِبَتِ الْأَيَّانُ وَالْمِلَلُ، وَضُرِبَتِ الْأَبْشَارُ وَنُحِرَتِ الْعِشَارُ، وَلَمْ يَصِلْ مِنْهُ عَلَى يَدٍ
وَأَسِطَةِ السُّوءِ الْمُعْشَارُ...

وَحَقِيقٌ عَلَى الْفُضْلَاءِ، إِنْ جَنَحَ سَيِّدِي مِنْهَا إِلَى إِشَارَةٍ، وَإِنْ أَعْمَلَ فِي اجْتِلَائِهَا
إِضْبَارَةً، أَوْ لَبَسَ مِنْهَا شَارَةً، أَوْ تَشَوَّفَ لِحُدُومَةِ إِمَارَةٍ، أَلَّا يُحْسِنُوا ظُنُونَهُمْ بَعْدَهَا بِابْنِ
نَاسٍ... يَفْتَحِضِي الْعَمَرَ فِي سِجْنٍ وَقَيْدٍ...

فَمَتَى تَظْهَرُ الْأَفْكَارُ، وَيَقْرَأُ الْقَرَارُ؟ وَتُلَازِمُ الْأَذْكَارُ؟ وَتُشَامُ الْأَنْوَارُ؟ وَتُجْتَلَى
الْأَسْرَارُ؟ ثُمَّ يَقَعُ الشُّهُودُ الَّذِي تَذْهَبُ مَعَهُ الْأَخْبَارُ، ثُمَّ يَحِقُّ الْوُصُولُ الَّذِي إِلَيْهِ مِنْ
كُلِّ مَا سِوَاهُ الْفِرَارِ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ، وَحَقُّ الْحَقِّ الَّذِي مَا سِوَاهُ الْبَاطِلِ، وَالْفَيْضُ
الرَّحْمَانِيِّ الَّذِي سُبْحَانَهُ^(١٠٨) هَاطِلٌ.

مَا شَابَتْ مُخَاطَبَتِي هَذِهِ شَائِبَةً تُرِيبُ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ مَا يَمَحُضُهُ لِلْحَبِيبِ
الْحَبِيبِ، فَتَحَمَّلْ جَفَائِي الَّذِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ الْغَيْرَةَ، وَلَا تَظُنَّ بِي غَيْرُهُ.

وَأِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْرِي مُكَاشَفَةُ سَيَادَتِكَ بِهَذَا الْبَثِّ فِي الْأَسْلُوبِ الْغَثِّ، فَالْحَقُّ أَقْدَمُ،
وَبِنَاوُهُ لَا يُهْدَمُ، وَشَأْنِي مَعْرُوفٌ فِي مُوَاجَهَةِ الْجَبَابِرَةِ، عَلَى حِينِ يَدِي إِلَى رِفْدِهِمْ
مَمْدُودَةٌ، فَكَيْفَ بِي الْيَوْمَ؟...

إِنَّمَا أَنَا الْيَوْمَ عَلَى مَنْ عَرَفَنِي ثَقِيلٌ، وَسَيْفُ الْعَدْلِ فِي كَفِّي صَقِيلٌ، أَعْذِلْ أَرْبَابَ
الْهَوَى، وَلَيْسَتْ النُّفُوسُ فِي الْقَبُولِ سَوَاءً، وَلَا لِكُلِّ مَرَضٍ دَوَاءٌ، وَقَدْ شَفِيتُ صَدْرِي
وَأِنْ جَهَلْتُ قَدْرِي، فَاحْمِلْنِي حَمْلَكَ اللَّهُ عَلَى الْجَادَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَسَحَبَ عَلَيْكَ سِرَّ
الْأُبُوءَةِ الصَّالِحَةِ^(١٠٩).

ولا مراء أن الناظر في هذا الخطاب الموعظة بعين التأمل والتدبر البصير، يجده من أبلغ الخطابات، وأقوى المراسلات الدالة على حال ابن الخطيب الذي ما فتى يدعو الناس إليه. حال القطيعة الباتة، بين ماضيه وحاضره، ومستقبله، فيما يتعلق بملاينة الدول وأربابها، حتى إن المقرري لما ساقها قدم لها بهذا التقريض الطريف، والتنبيه اللطيف: "وَمِنْ كَلَامِ لِسَانِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، رِسَالَةٌ فِي أَحْوَالِ خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ وَمَصَائِرِهِمْ، وَتَنْبِيهِهِمْ عَلَى النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ الرِّيَاسَةِ بِعُيُونِ بَصَائِرِهِمْ، عَبْرَ فِيهَا عَنْ نَوْقٍ وَوِجْدَانٍ، وَلَيْسَ الْخَبْرُ كَالْعِيَانِ، وَخَاطَبَ بِهَا الْإِمَامَ الْخَطِيبَ عَيْنَ الْأَعْيَانِ، سَيِّدِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْزُوقٍ، وَكَأَنَّهُ أَغْنَى لِسَانُ الدِّينِ أَشَارَ بِبَعْضِ فُصُولِهَا إِلَى نَفْسِهِ، وَنَطَقَ بِالْغَيْبِ فِي نَكْبَتِهِ، الَّتِي قَادَتْهُ إِلَى رَمْسِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَمَا أَرَادَ التَّخَلِّيَ عَنْ خِدْمَةِ الْمُلُوكِ، وَالتَّخَلِّيَ بِرِزْيَةِ التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ" (١١٠).

ولمزيد من استجلاء المعاني الطريفة التي نضحت بها الرسالة، وتيسيراً لاستيعاب عيونها، نعرضها كعادتنا مع غيرها في كثير مما سلف، في النقاط الآتية:

١ - دعوة ابن مرزوق إلى التخلي عن الدنيا، وقد من عليه بالخلاص من الورطة المهلكة، وهي نفس الدعوة التي دعا ابن الخطيب إليها نفسه لما عضته النكبة، وفجعتة الصدمة.

٢ - المنافرة إلى العقل، والمناظرة بالحجة، من خلال بيان سوء حال الملابس للسلطان التي من أعراضها:

- أ - توقع المكروه في كل وقت.
- ب - لزوم المنافسة التي تستعدي الأقران وتستجلب الأضغان.
- ت - توالي العتب على التقصير حتى في أدق الأمور وأتفهاها.
- ث - تعرضه للملاحظة التي تحصي العيوب وتعدد الذنوب.
- ج - إلصاق وقائع الدولة وعيوبها بشخصه وهو منها براء.
- ح - تحميله مسؤولية ما ضاقت عنه طاقته.
- خ - صرف الزمان الثمين بين يدي سلطان يعبد.

- د - مصانعة الوزراء ومجاملة الكبراء من رجال الدولة.
- ذ - مجادلة ومشاجرة أصحاب الحق ودفع حجتهم بالباطل ركوناً إلى سلطان الدولة، ووازع الإيالة.
- ر - مكابرة الحاسد، والعدو الجاحد، في غياب الإنصاف والشفقة.
- ز - مقابلة الوفود المرتادة لساحته تسأله ما لا طاقة له به.
- س - جلساء الباب في الغياب لا يملأون الأوقات إلا بسوء الاغتيال.
- ش - شكاوى العامة في المساجد قد استقر لديهم الظن أن السلطان أداة في يد الوزير يتصرف بها كيف يشاء، وما يستتبع ذلك من لوم وغيبة.
- ٣ - تقرير أن النعيم الذي يلتذ به الوزير في ظل السلطان إنما هو حلية معارة، سرعان ما تنتهبها الغارة.
- ٤ - إذا التذ الوزير يوماً منتشياً بأريحية الجلوس على دست الأريكة، فما قيمة ذلك في جنب الاستهداف بالشر، والنظر الشرز من عدو وحاسد ومنكر وجاحد.
- ٥ - ارتفاع الأمن عن حياة الوزير لتوقع الشر دائماً؛ لأنه في كل حال متهم.
- ٦ - تقرير أن الأموال والذخائر العظيمة المتحصلة من ملابسة الدول زائلة لا محالة عن الدول لسنة التعاقب، وتصير المكاسب تراثاً إلى الوارث، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.
- ٧ - تقرير أن ملابس السلطان غالباً ما ينتهي به المطاف إلى ظلمة السجن، وعضة القيد، وشبهة القتل.
- ٨ - التحسر على نوي النفوس الأبية، والأعراق الشريفة، التي في هوة السلطان زلت.
- ٩ - الغيرة على ابن مرزوق، وهي غيرة على كل شريف تورط في الخدمة، فألجأته الظروف إلى الذلة والانخفاض للأندال من نوي الشماتة والنكاية.
- ١٠ - انحراف الأعلام عقب التورط في الخدمة إلى الاهتمام بأمور لا تليق بمقامهم الذي شيده لهم العلم، فالبحت في السموم، وكتب النجوم والذميم من العلوم.

١١ - التنبيه على شرف الزمان، وفرصة العمر، وحكمة الخلق، والخير والشر بضاعة الأقدار، والتجرد فيها سنة الواحد القهار، وبغية الخير رغبة الأختيار من ذوي الأقدار.

١٢ - تقرير ابن الخطيب لحاله التي آل إليها بعد النكبة، من عدم التلبس، وهجر الزخرف، ولبس الصوف، واستشعار القلعة، والتبلغ بالبلغة، وصرف المال في الصدقة.

١٣ - تقرير أنه ينتظر انتهاء مدة العهدة التي حصل الاتفاق عليها بينه وبين سلطانه، والتي لاح له ضوؤها، وطلع فجر موعودها.

١٤ - تنبيه ابن الخطيب ابن مرزوق ونصحه بالحدز والحيطة من كل إنسان، إن دعت الضرورة على ملابسة السلطان على سبيل المشاورة والمناصحة، وهي الحال التي ابتلي بها ابن الخطيب.

١٥ - التأكيد على أن هذه المخاطبة التي جاءت نصيحة في قالب الجفاء، بعث عليها الود والحب الذي يكنه ابن الخطيب لصاحبه ابن مرزوق، وهي في ذات الوقت نصيحة مكافئة له على سالف أيادي، وسابق مننه عليه، وقد كان في أمس الحاجة إليه.

١٦ - سد الذريعة على ابن مرزوق إذا ما احتج بخلو اليد، وكثرة الولد، والإشارة عليه بانتساح الكتب، وإن اقتضى الأمر مد اليد بالسؤال إلى ذوي النوال، تحرياً للحلال، وبعداً عن الحرام.

١٧ - تساءل ابن الخطيب مستنكراً على صاحبه قعوده، ويستحثه إلى المبادرة بالتحول، وتحويل الوجهة إلى الله، والتماس طريق أهل الحقيقة.

١٨ - وأخيراً يعتذر ابن الخطيب مرة أخرى، لصاحبه على غريب طريقته في البث، ذات الأسلوب الغث، والجفاء الكث، فهو لا يرحمه في الحق الذي لاح له، والود الذي يكنه له، إذ كيف يرحمه وهو الذي لم يرحم في مجابهة الجبابرة الأكاسرة، في الوقت الذي كان عطاؤهم إليه معروفاً، فكيف وقد أصبح وجهه عنهم مصروفاً.

ثانياً - وصيته الفريدة لأولاده الثلاثة:

من مظاهر هذا النزوع أيضاً وصيته الخالدة لأولاده، تلك الدرة اليتيمة في بابها، لا نعلم لها مثيلاً في الأدب الإسلامي، برمته قديمه وحديثه، جمعت أشتات الفضائل، ودعت إلى عظيم الشمائل، تترد إلى اعتقاد صحيح ودين صريح، حازت فضل السبق، وتشرفت بشرف القصد، ذاعت لنبل الغرض، نطق فيها بلسان كل أب شفيق أصيل في الخير عريق.

أجتزئ منها بعض الفقرات، قال ابن الخطيب: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَرَوْعُهُ الْجَمَامُ الْمَرْقُوبُ... وَلَا يَبْغَتْهُ الْأَجَلُ الْمَكْتُوبُ... وَجَاعِلُ النَّصِيحَةِ الصَّرِيحَةِ فِي قِسْمِ الْوُجُوبِ، لِاسِيَمَا لِلْوَلِيِّ الْمَحْبُوبِ، وَالْوَلَدِ الْمَنْسُوبِ..."

وَبَعْدُ: فَإِنِّي لَمَّا عَلَانِي الْمَشِيبُ بِعُمَّتِهِ، وَقَادَنِي الْكِبَرُ فِي رُمَّتِهِ، وَانْكَرَتْ الشَّبَابُ بَعْدَ أُمِّهِ، أَسِفْتُ لِمَا أَضَعْتُ، وَنَدِمْتُ بَعْدَ الْفُطَامِ عَلَى مَا رَضَعْتُ، وَتَأَكَّدْتُ نُسْجِي لِمَنْ لَزِمَنِي رَعِيَّتُهُ، وَتَعَلَّقَ بِسَعْيِي سَعْيُهُ، وَأَمَلْتُ أَنْ تَتَعَدَّى إِلَيَّ ثَمَرَاتُ اسْتِقَامَتِهِ، وَأَنَا رَهِيْنُ فَوَاتٍ...

فَقُلْتُ أَخَاطِبُ الثَّلَاثَةَ الْوَلَدِ [عبد الله، محمد، علي] وَثَمَرَاتِ الْخَلَدِ، بَعْدَ الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ فِي تَوْفِيقِهِمْ، وَإِضَاحِ طَرِيقِهِمْ، وَجَمْعِ تَفْرِيقِهِمْ...

اعْلَمُوا هَذَاكُمْ مَنْ بِأَنْوَارِهِ يَهْتَدِي الضَّلَالُ، وَبِرِضَاهُ تُرْفَعُ الْأَعْلَالُ... أَنِّي مُودِّعُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتَنِي الرَّدَى، وَمُفَارِقُكُمْ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى... فَكَيْفَ وَأَدَوَاتُ السَّفَرِ تُجْمَعُ، وَمُنَادِي الرَّحِيلِ يُسْمَعُ، وَلَا أَقَلُّ لِلْحَبِيبِ مِنْ وَصِيَّةٍ مُخْتَصَرٍ، وَعُجَالَةٍ مُقْتَصَرٍ... وَنَصِيحَةٍ تَكُونُ نَشِيدَةً وَاعٍ وَمُبْصِرٍ، تَتَكَفَّلُ لَكُمْ بِحُسْنِ الْعَوَاقِبِ مِنْ بَعْدِي...

وَكَأَنِّي بِشَبَابِكُمْ قَدْ شَاخَ، وَبِرَاحِلِكُمْ قَدْ أَنَاخَ... وَالْدُّنْيَا بِأَهْلِهَا سَاخِرَةٌ، وَالْأَوَّلَى تَعْقُبُهَا الْآخِرَةُ، وَالْحَازِمُ مَنْ لَمْ يُنْعَظْ بِهِ فِي أَمْرِ... فَافْتَنُّوْهَا وَصِيَّةً، وَمَرَامٍ فِي النَّصْحِ قَصِيَّةً، وَخُصُّوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا...

وَلْتَلَقُّوْا تَلَقِّيًّا، وَتَعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينًا أَنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرَدَ بِذَنْبِي،

وَيَفْتَرِشَ الثُّرَابَ جَنْبِي... أَحْرَصَ مِنِّي عَلَى سَعَادَةِ إِلَيْكُمْ تُجْلَبُ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبَبِكُمْ تُزْتَادُ وَتُطْلَبُ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا أَوْرَفَ مِنْكُمْ ظِلًّا، وَلَا أَشْرَفَ مَحَلًّا...

وَلَا أَقَلَّ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصِيحُوا إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ، وَتَتَلَمَّحُوا صُبْحَ نُصْحِي فَقَدْ بَانَ، وَسَاعَيْدُ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ: [وَذَكَرَ الْآيَاتِ] " (١١١).

ثُمَّ قَالَ: "وَالدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَكْمَلَهُ وَوَفَّاهُ... إِذَا أَعْمَلَ فِيهِ افْتِقَادُ، فَهُوَ عَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ" (١١٢)

ثم قال فيما يخص الاعتقاد في النبي وصحبه في كلام جامع: "وَأَمِنُوا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَتِهِ، وَاجْعَلُوا مَحَبَّتَكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ، وَاشْمَلُوهُمْ بِالتَّوْقِيرِ، وَفَضِّلُوا مِنْهُمْ أُولِي الْفَضْلِ الشَّهِيرِ، وَتَبَرَّؤُوا مِنَ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَدْعُكُمْ إِلَيْهَا دَاعٍ، وَلَا تَعِ التَّشَاوُجَ بَيْنَهُمْ أَنْزَاعٍ، فَهُوَ غُنَوَانُ السَّدَادِ، وَعَلَامَةُ سَلَامَةِ الْاِعْتِقَادِ" (١١٣).

وقال في الأدب تجاه علماء الأمة: "... ثُمَّ اسْحَبُوا فَضْلَ تَعْظِيمِهِمْ [الصحابه] عَلَى فُقَهَاءِ الْمِلَّةِ، وَأَيَّمَّتِهَا الْجَلَّةُ، فَهُمْ صَقَلَةُ نُصُولِهِمْ، وَفُرُوعُ نَاشِئَتِهِ عَنْ أَصُولِهِمْ، وَوَرَثَتُهُمْ وَوَرَثَةُ رَسُولِهِمْ..." (١١٤)

وقال أيضا يمدح شريعة الإسلام: "... وَاعْلَمُوا أَنِّي قَطَعْتُ فِي الْبَحْثِ زَمَانِي، وَجَعَلْتُ النَّظَرَ شَأْنِي... فَلَمْ أَجِدْ ضَابِطَ وَرَقٍ، وَلَا مُصِيبَ عِرْقٍ... إِلَّا وَغَايَتُهُ الَّتِي يَقْصِدُهَا قَدْ فَضَّلْتُهَا الشَّرِيعَةَ وَسَبَقْتُهَا" (١١٥)

وقال في الاعتزاز بهذا الدين والموت دونه: "وَابْدُلُوا ثَوْبَهُ النُّفُوسَ فِعْلَ الْمُهْتَدِينَ، فَلَنْ يَنْفَعَ مَتَاعُ بَعْدِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، أَبَدَ الْأَبْدِينَ، وَلَا يَضُرُّ مَفْقُودٌ مَعَ الْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْوَاعِدِينَ" (١١٦)

ثم أوصاهم بالصلاة، ثم بالطهارة، ثم بالصيام، ثم بالحج، ثم بالجهاد.

وعقب على ذلك قائلاً: "هَذِهِ عُمْدُ الْإِسْلَامِ وَفَرُوضُهُ، وَنَقُودُ مَهْرِهِ وَفَرُوضُهُ، فَحَافِظُوا عَلَيْهَا تَعِيشُوا مَبْرُورِينَ..." (١١٧)

ثم أوصاهم بالعلم النافع، فقال: "وَاعْلَمُوا أَنَّ بِالْعِلْمِ تُسْتَكْمَلُ هَذِهِ الْأَلْقَابُ... فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ... فَالْعِلْمُ مِفْتَاحُ هَذَا الْبَابِ... وَالذُّخْرُ الَّذِي قَلِيلُهُ يَشْفَعُ وَيَنْفَعُ، وَكَثِيرُهُ يُغْلِي وَيَرْفَعُ، لَا يَغْصِبُهُ الْغَاصِبُ، وَلَا يَسْلُبُهُ الْعَدُوُّ الْمُنَاصِبُ... مَنْ لَمْ يَنْلُ ذَلِيلٌ وَإِنْ كَثُرَتْ أَمَالُهُ، وَقَلِيلٌ وَإِنْ جَمَّ مَالُهُ... وَخَيْرُ الْعُلُومِ عُلُومُ الشَّرِيعَةِ..." (١١٨)

وقال محذراً من العلوم القديمة: "... وَإِيَّاكُمْ وَالْعُلُومَ الْقَدِيمَةَ، وَالْفُنُونَ الْمَهْجُورَةَ، الدَّمِيمَةَ، فَأَكْثَرُهَا لَا يُفِيدُ إِلَّا تَشْكِيكًا، وَرَأْيًا رَكِيكًا... هَذَا ابْنُ رُشْدٍ قَاضِي الْمِصْرِ وَمُفْتِيهِ، وَمُلْتَمَسُ الرُّشْدِ وَمُؤْتِيهِ، عَادَتْ عَلَيْهِ بِالسَّخَطَةِ الشَّنِيعَةِ، وَهُوَ إِمَامُ الشَّرِيعَةِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى اقْتِحَامِهَا، وَالتَّوَرُّطِ فِي أَرْبِحَامِهَا..." (١١٩)

ثم أوصاهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأمانة، ونهاهم عن الخيانة، وأوصاهم بالوفاء بالعهد.

ثم قال أيضاً: "وَاللَّهُ اللَّهُ، أَنْ تَعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ، وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ" (١٢٠).

ونصحهم أيضاً باجتنباب الزنا، والخمر، والربا، والظلم.

ثم نهاهم عن النميمة والحسد والغيبة والبخل ومواقف الخزي، ومظنات الفضائح (١٢١).

وأمرهم بالفضائل الآتية: "... وَتَفَقَّدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ فِي الطَّرِيقِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَرَقُّوا عَلَى زُوي الزَّمَانَاتِ وَالْعَاهَاتِ، وَتَاجَرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُزْبِحُكُمْ فِي الْبِضَاعَاتِ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ..." (١٢٢).

ثم أوصاهم برعاية الجار، وتعهد أولي الأرحام، وحذرهم من شهادة الزور، والرشوة، والمسامحة في لعب القمار، وتكلف الكهانة والإرجاف.

ثم أوصاهم بحفظ العهود وصون الأيمان، ونهاهم عن التعلق بالآمال العجاف، ثم أوصاهم بالصبر والرجاء في نص طريف جاء فيه: "... واعلموا أنَّ الخيرَ أو الشرَّ في الدنيا مُحالٌ أن يدومَ، وقابلوا بالصَّبْرِ أَدِيَّةَ المؤذِنِ، ولا تُفَارِضُوا مقالاتِ الظَّالِمِينَ، فاللهُ لمن بُغِيَ عليه خيرُ النَّاصِرِينَ، ولا تستعظمُوا حوادثِ الأيامِ كُلَّما نزلَتْ، ولا تَصْجُبُوا للأمراضِ إذا أَعْضَلَتْ، فَكُلُّ مُنْقَرِضٍ حَقِيرٌ، وَكُلُّ مُنْقَضٍ وإن طال فَقَصِيرٌ، وانتظروا الفرجَ، وانتشِقُوا من جَنابِ اللهِ الفرجَ، وأوسعوا بالرجاءِ الجوانحَ..." (١٢٣).

وأوصاهم برعاية الأخوة بينهم قائلًا: "واللهُ اللهُ لا تنسُوا الفضلَ بينكم، ولا تذهَبُوا بِذَهابِهِ رَيْنَكُمْ، وَلْيَلْتَزِمْ كُلُّ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ، ما يَشْتَدُّ بِهِ تَوَاحِيهِ... وأظهروا التَّعاضُدَ والتَّنَاصُرَ، وصلُّوا التَّعَاهُدَ والتَّزاورَ... ولا تنافسوا في الحُطُوظِ السَّخِيفَةِ... وطاعةُ النِّساءِ شرٌّ ما أَفسَدَ بينَ الإِخوانِ... وإذا أَعْطَمَ النِّساءُ أَمراً فاحْتَقِرُوهُ" (١٢٤).

كما أوصاهم بالوجه الذي ينبغي أن يكون عليه التصرف في الأموال قائلًا: "وَمَنْ رَزَقَ مِنْكُمْ مَالاً بِهَذَا الوَطَنِ القَلِيقِ المِهَادِ، الذي لا يَصْلُحُ لِغَيْرِ الجِهادِ فلا يَسْتَهْلِكُهُ أَجْمَعُ في العَقَارِ، فَيُصْبِحُ غُرْضَةً لِلْمَذَلَّةِ والِاخْتِقَارِ، وساعياً لِنَفْسِهِ إنْ تَغَلَّبَ العَدُوُّ على بَلَدِهِ في الافتِضاحِ والافتِقارِ، ومُعَوَّقاً عَنِ الانْتِقَالِ، أَمَامَ النُّوبِ التَّقَالِ" (١٢٥).

كما حذرهم الآفات مثل: "معاداة الرجال، ومَزَلَّاتِ الإِذْلالِ، وفَسَادِ الخِيالِ، ومُدَاخَلَةِ العِيالِ، وإِفْشاءِ الأسرارِ، وسُكْرِ الاغْتِرارِ" (١٢٦).

ونهاهم عن: "طَلَبِ الوِلايَاتِ رَغْبَةً وَاسْتِجْلَاباً، وَاسْتِظْهَاراً عَلَى الحُطُوظِ وَغِلَاباً، فَذَلِكَ ضَرَرٌ بالمُرُوءَاتِ والأَقْدَارِ، وداعٍ إلى الفَضْحِ والعارِ، وَمِنْ امْتُحِنَ مِنْكُمْ بِهَا اخْتِبَاراً، أو جَبَرَ عَلَيْهَا إِكْرَاهاً وإِثَاراً، فَلْيَتَلَقَّ وظائِفُها سَعَةً صَدْرِهِ... فالوِلايَاتُ فَتْنَةٌ، وَمِخْنَةٌ، وَأَسْرٌ، وَإِخْنَةٌ" (١٢٧).

وأخيراً ختم وصيته قائلًا: "هذه أسعدكم اللهُ وصيَّتِي التي أَصْدَرْتُها، وَتَجَارِئِي التي لِرَبِّجُكُمْ أَدْرُتُها، فَتَلَقَّوْها بِالقَبُولِ لِنُصْجِها، وَالاِهْتِدَاءِ بِضَوْءِ صُبْحِها، وَبِقَدْرِ ما أَمْضَيْتُمْ مِنْ فُرُوعِها، وَاسْتَعْشَيْتُمْ مِنْ دُرُوعِها، أَقْتَنَيْتُمْ مِنَ المَنَاقِبِ الفَاخِرَةِ،

وَحَصَلْتُمْ عَلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِقَدْرِ مَا أَضَعْتُمْ مِنْ لَائِلِهَا النَّفِيسَةِ الْقِيَمِ،
اسْتَكْتَرْتُمْ مِنْ بَوَاعِثِ النَّدَمِ، وَمَهْمَا سَمِئْتُمْ إِطَالَتَهَا، وَاسْتَغْرَزْتُمْ مَقَالَتَهَا، فَاعْلَمُوا أَنَّ
تَقْوَى اللَّهِ فَذَلِكَ الْحِسَابِ، وَضَابِطُ هَذَا الْبَابِ.

كَانَ اللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ فِي كُلِّ حَالٍ، وَالْدُّنْيَا مَنَاحُ ارْتِحَالٍ، وَتَأْمِيلُ الْإِقَامَةِ
فَرَضٌ مُحَالٌ، فَالْمَوْعِدُ لِلِالْتِقَاءِ دَارُ الْبَقَاءِ، جَعَلَهَا اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ حُطَّةِ النَّجَاةِ، وَنَفَقَ
بِضَائِعِهَا الْمُرْجَاةِ بِلَطَائِفِ الْمُرْتَجَاةِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ، مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمُودِعِ، وَاللَّهُ يَلَامُهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمْلٍ
مُنْصَدِّعٍ، وَالِدُكُمْ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" (١٢٨).

ثالثاً - التأليف في التصوف:

من مظاهر توجهه الصوفي تأليفه كتاب: "روضة التعريف بالحب الشريف"
ولتأليفه قصة، ولاغتيال ابن الخطيب به صلة، ولنسبته إلى الزندقة بموجبه علة، فما
قصة تأليفه؟

ذلك ما نستوضحه من مقدمة الكتاب نفسه، حتى إذا ما انتهينا من ذلك
عرضنا لبعض القضايا المعرفية، الصوفية، التي لها علاقة بالاعتقاد من جهة،
وبموضوع الزندقة من جهة ثانية لما لذلك من علاقة بنهاية ابن الخطيب المأساوية.

١ - قصة تأليف الكتاب:

الكتاب من حيث المنوال الذي نسج عليه، يندرج تحت فن المعارضة والمساجلة
لكتاب "ديوان الصبابة" لابن أبي حجلة، وإن كان الناظر في مضمون الكتاب
ومنهاجه لا يسلم بالمعارضة التامة، التي تعني الإلحام والإسداء على شاكلة واحدة،
موضوعاً وطريقة، وهذا ما لم يتحقق بين "ديوان الصبابة" و"روضة التعريف"
للهم إلا موضوع "الحب" لغة لا اصطلاحاً.

والحب أنواع، يتنوع بتنوع المحبوبين والمحبين، ويسمو بسمو المقاصد،

ويشرف بشرف الموارد، "وَلِلنَّاسِ فِيْمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجُنُونَ فُنُونٌ، وَكُلُّ جَرْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ" (١٢٩)

قال ابن الخطيب متحدثاً عن الباعث: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمَّا وَرَدَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ... دِيَوَانُ الصَّبَابَةِ... وَأُنْهِيَ خَبْرُهُ لِلْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ الْمُقَدَّسَةِ... مولانا السُّلْطَانُ... أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ... فَخَصَّتْهُ عَيْنُ اسْتِحْسَانِهِ... بِلِحْظَةٍ لَحْظٍ... وَصَدَرَتْ إِلَيَّ مِنْهُ الْإِشَارَةُ الْكَرِيمَةُ بِالْإِمْلَاءِ فِي فَنِّهِ، وَالْمُنَادِمَةُ عَلَى بِنْتِ دَنِّهِ... وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُنِي عِنْدَ ظَنِّهِ (١٣٠).

وفي هذا الباعث يلتقي الكتابان، فابن أبي حجلة هو الآخر أشار إلى الباعث الذي استحثه، فكان من هذا القبيل، وإن كانت مسوداته مكتوبة، وأوراقه مصفوفة، ثم إنه أثر به السلطان خاصة، يفهم هذا من قوله: "... وَلَمْ يَزَلْ كِتَابُنَا هَذَا فِي مُسَوِّدَاتِهِ مُنْذُ حَجَجٍ، وَبُيُوتُهُ مِنْ بُحُورِهَا فِي لُجَجٍ، لَا أُبَيِّحُ مَا فِيهِ مِنْ مَنَازِلِ الْأَحْبَابِ، لِسَاكِنِ، وَلَا أُمَكِّنُ عَاشِقًا مِنَ الْمُرُورِ بِتِلْكَ الْأَمَاكِنِ... حَتَّى بَرَزَ لَطَلِبِهِ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْمَلَكِيُّ النَّاصِرِيُّ... فَبَادَرْتُ إِلَى تَجْهِيزِهِ، وَسَبَّكُ إِبْرِيذِهِ... وَلَمْ أَبْغِ زَهْرَ مَنْثُورِهِ لِغَيْرِ حَضْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الْأَنَامِ (١٣١)

ولعل هذه العبارة هي التي حركت مكامن المنافسة والغيرة لدى السلطان الغني بالله، ودعته إلى سؤال هذا الطلب من ابن الخطيب، المصنف البارع، وهذه أمور تقع في الدول والممالك.

بيد أن ابن الخطيب عاد، وناقض هذا الخبر في رسالة بعثها إلى صديقه ابن خلدون مؤرخة بتاريخ ٢ جمادى الأولى من عام ٧٦٩هـ - ١٣٦٧م، حيث نص على باعث آخر غير الذي ذكر، إذ قال وهو يطلع ابن خلدون بعض نتاجه في تلك الآونة: "وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ مِنْ شُغْلِ الْوَقْتِ، فَصَدَرَتْ تَقَايِيدُ وَتَصَانِيفُ... مِنْهَا كِتَابٌ رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْمَحَبَّةِ، مِنْ تَصْنِيفِ ابْنِ أَبِي حَجَلَةَ مِنَ الْمَشَارِقَةِ، أَشَارَ الْأَصْحَابُ بِمُعَارَضَتِهِ، فَعَارَضْتُهُ" (١٣٢).

ولا خفاء بالزيادات التي أشار إليها هذا النص فهي:

الإشارة إلى أن كتاب "ديوان الصبابة" رفع إلى السلطان، ولا ندري من رفعه إليه، ولا شك في أن الضجة الإعلامية التي أحدثها هي التي رفعتة إلى السلطان.

١ - الإشارة إلى أن الأصدقاء والأصحاب هم الذين أشاروا على ابن الخطيب بمعارضته، وشتان بين القول والقول.

٢ - ويمكن التوفيق بين القولين، القول باتفاق الآراء في الإشارة، ولما كان كتاب "روضة التعريف" مرفوعاً إلى السلطان الغني بالله، ذكرت إشارته تنويهاً بمحله ومقامه عادة العلماء مع ملوكهم، في امتثال أمرهم، أو إهداء تصنيف من مصنفااتهم بمحض إرادتهم، ولما كانت الرسالة موجهة إلى صديقه ابن خلدون ذكرت إشارة الأوصحاب تنويهاً بمحلهم أيضاً ولكل مقام مقال، ولكل حال لبوسه.

٢ - تاريخ تأليفه:

لا تحليل القرائن على التاريخ الدقيق الذي ألف فيه هذا الكتاب، ولكن نستطيع من خلال بعض الإشارات أن نقدر الفترة التاريخية التي يمكن أن يكون الكتاب قد أنجز فيها، ونعتمد في ذلك على معطيات أوردها ابن خلدون في كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"

تمثلت في نقطتين أساسيتين:

١ - رسالة بعثها ابن الخطيب إلى ابن خلدون، يطلعه من خلالها على أحواله، ألم فيها بأخبار تتعلق بالكتاب.

٢ - تاريخ انتقال ابن خلدون من الأندلس إلى تونس على عهد الحفصيين.

استناداً إلى هذين الأمرين نستطيع أن نقدر تاريخ صدور الكتاب، كما سنبين في الخطوات الآتية:

من الحقائق المتعلقة بالكتاب التي تضمنتها رسالة ابن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون قوله وهو يخبر بنشاطاته العلمية: "... منها أَنَّ كِتَابًا رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْمَحَبَّةِ، مِنْ تَصْنِيفِ ابْنِ أَبِي حَجَلَةَ مِنَ الْمَشَارِقَةِ، أَشَارَ الْأَصْحَابُ بِمُعَارَضَتِهِ،

فَعَارَضَتْهُ، وَجَعَلْتُ الْمَوْضُوعَ أَشْرَفَ، وَهُوَ مَحَبَّةُ اللَّهِ، فَجَاءَ كِتَابًا، ادَّعَى الْأَصْحَابُ غَرَابَتَهُ، وَقَدْ وُجِّهَ إِلَى الْمَشْرِقِ صُحْبَةً كِتَابٍ "تَارِيخِ غَرْنَاطَةِ" وَغَيْرِهِ مِنْ تَأْلِيفِي، وَتُعَرِّفَ تَحْبِيسُهُ بِخَانِقَاهُ سَعِيدُ السُّعْدَاءِ مِنْ مِصْرَ، وَأَنْثَالَ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي لَطَافَةِ الْأَعْرَاضِ يَتَكَفَّفُ أَعْرَاضَ الْمَشَارِقَةِ" (١٣٣)

من الحقائق التي يفتر عنها هذا النص فضلاً عما ذكر آنفاً ما يلي:

- أ - أن الكتاب وجه إلى المشرق، مع مجموعة من مصنفاته الأخرى.
- ب - أنه حبس على خانقاه سعيد السعداء (١٣٤) في مصر.
- ت - أن الناس من الطلبة والعلماء وغيرهم انكبوا على قراءته ودراسته.
- ث - أن ابن الخطيب حينما بعث إلى ابن خلدون بهذا الخبر، كان الكتاب قد وصل إلى القاهرة، وعاد خبره إلى صاحبه، وهذا يقتضي مدة لا تقل عن سنة؛ لبعد الشقة.

أما الفائدة الأخرى المتعلقة بالكتاب والمستفادة من الرسالة عموماً، فهي تاريخ كتابة ابن الخطيب هذه الرسالة وقد ذكر في ختامها وهو: ٢ جمادى الأولى عام ٧٦٩هـ-١٣٦٧م.

أما السند الثاني الذي نعتمده في تقرير صدور الكتاب فهو تاريخ انتقال ابن خلدون من الأندلس.

من المعلوم أن ابن خلدون قام برحلة إلى الأندلس بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ٧٦٤هـ-١٣٦٢م، ومكث هناك مدة أنافت عن السنتين، حيث كان صدور الظهير السلطاني المؤذن لابن خلدون بالانصراف هو ١٩ جمادى الأولى عام ٧٦٦هـ-١٣٦٤م.

ومعلوم أيضاً أن ابن الخطيب كتب كتابه عقب انصراف ابن خلدون بمدة، وإلا كان في غنى عن إخباره، ويؤكد هذا أيضاً قوله في الرسالة المشار إليها: "وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ مِنْ شُغْلِ الْوَقْتِ، فَصَدَرَتْ تَقَايِيدُ وَتَصَانِيفُ، يُقَالُ فِيهَا بَعْدَ مَا أَعْمَلْتَهُ السِّيَادَةُ مِنَ الْإِنْصِرَافِ يَا إِبْرَاهِيمَ، وَلَا إِبْرَاهِيمَ الْيَوْمَ" (١٣٥).

يحصل مما سلف المعطيات الآتية:

- ١ - تاريخ الرسالة وهو ٢ جمادى الأولى ٧٦٩هـ-١٣٦٧م.
- ٢ - تاريخ انصراف ابن خلدون وهو ١٩ جمادى الأولى ٧٦٦هـ-١٣٦٤م.
- ٣ - تقدير المدة الزمنية لوصول الكتاب إلى المشرق ووصول خبره إلى ابن الخطيب التي لا تقل عن سنة.

ويستفاد من المعطيات الآتية الاستنتاج الآتي:

- أ - أن الكتاب تقديرًا يكون قد كتب خلال سنة ٧٦٨هـ-١٣٦٦م، والله أعلم.
- ب - وإذا كان هذا التقدير سديدًا يكون كتاب "ديوان الصبابة" قد وصل الأندلس في هذه السنة، أو أواخر سنة ٧٦٧هـ؛ لأن ما بين وصوله ومعارضة ابن الخطيب له مدة وجيزة فقط، إذا علمنا أن المدة التي استغرقها ابن الخطيب في إنجازه لم تتجاوز شهرين فقط.

٣ - موضوع التأليف:

لما كان الكتاب معارضة لكتاب "ديوان الصبابة" تعين بيان غرض هذا الكتاب وفحواه، انطلاقاً من مقدمته، وإن كان ابن الخطيب قد أشار هو الآخر في مقدمة "الروضة" إلى موضوعه، لكن بصفة عامة، ولكن الأمانة العلمية، تقتضي تحصل "ديوان الصبابة" لدينا الاعتماد في تقرير موضوعه على صاحبه، يقول ابن أبي حجلة: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ كِتَابَنَا هَذَا كَمَا قِيلَ: كِتَابٌ حَوَى مِنْ قَتْلِ الْهَوَى، وَسَارَ بِهِمْ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ... عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَتَبَايُنِ مَرَاتِبِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ... وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثِينَ بَابًا وَخَاتِمَةٍ^(١٣٦)

ثم شرع في تفصيل عناوين الأبواب، وقد أملت بجميع متعلقات الحب والمحبين، وأخبارهم وطرائفهم^(١٣٧).

وقال ابن الخطيب مجملًا فيه قوله: "... وَهُوَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي اشْتَمَلَ مِنْ أَبْطَالِ الْعُشَّاقِ عَلَى الْكَثِيرِ، وَاسْتَوْعَبَ مِنْ أَقْوَالِهِمُ الْحَدِيثَةَ وَالْقَدِيمَةَ كُلَّ نَظْمٍ وَنَثِيرٍ، وَأَسْدَى فِي غَزَلِ غَزَلِهِمْ، وَدَلَّ عَلَى مَصَارِعِ شَهَدَائِهِمْ مَنْ وَقَفَ وَتَرَحَّمَ^(١٣٨)".

أما الضجة التي أحدثها هذا الكتاب لغرابته موضوعه في الأندية الأندلسية، والمجالس الأدبية، فكانت غارمة وواسعة، يقول ابن الخطيب: "... وَتَارَجَ مِنْ مَسْرَاهُ الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ، وَقَالَتِ الْعُشَّاقُ عِنْدَ طُلُوعِ قَمَرِهِ: اللَّهُ أَكْبَرُ... وَلَا غَرَوْ أَنْ أَقَامَ بِهِذِهِ الْأَفَاقِ أَسْوَاقَ الْأَشْوَاقِ، وَزَاخَمَ الرَّفَرَاتِ فِي مَسَالِكِ الْأَطْوَاقِ... فَعَمَرَ الْمَحَافِلَ وَالْمَجَالِسَ، وَاسْتَجْلَسَ الرَّكِيبَ، وَاسْتَرْكَبَ الْجَالِسَ، يَدْعُو الْأُدَبَاءَ إِلَى مَادِبَتِهِ، فَلَا يَتَوَقَّفُ، وَيُلْقِي عَصَا سِخْرِهِ الْمِصْرِيَّ فَتَتَلَقَّفُ، مَا شِئْتَ مِنْ تَرْتِيبٍ غَرِيبٍ، وَتَطْرِيبٍ مِنْ بَنَانٍ أَرِيبٍ" (١٣٩).

أما موضوع كتاب ابن الخطيب "روضة التعريف" فهو الحُبُّ أَيْضًا، وَلَكِنَّهُ فَنٌّ آخَرٌ مِنْ فُنُونِ الْحُبِّ، إِنَّهُ أَسْمَى وَأَرْفَى، وَأَدْوَمُ وَأَبْقَى، قال ابن الخطيب: "وَعَنِّي لِي أَنْ أُنْهَبَ بِهَذَا الْحُبِّ الْمَذْهَبَ الْمُؤَدِّي إِلَى الْبَقَاءِ الْمُوَصِّلَ إِلَى زُرُورَةِ السَّعَادَةِ فِي مَعَاجِرِ الْإِرْتِقَاءِ، الَّذِي غَايَتُهُ نَعِيمٌ لَا يَنْقُضِي أَمَدُهُ، وَلَا يَنْقُذُ مَدَدُهُ، وَلَا يُفْصَلُ وَصْلُهُ، وَلَا يُفَارِقُ الْفَرْعَ أَصْلُهُ، حُبٌّ اللَّهُ الْمُبْلَغُ إِلَى قُرْبِهِ، الْمُسْتَدْعِي لِرِضَاهُ وَحُبِّهِ، الْمُؤَثِّرُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ، وَيَا لَهَا مِنْ غَايَةٍ، تُلْقَى رَحْلَ الْمُتَصِفِ بِهَا بَعْدَ قَطْعِ بَحَارِ الْعَنَاءِ عَلَى سَاحِلِ الْوَلَايَةِ" (١٤٠).

وابن الخطيب حينما لبي نداء هذا الوازع الذي تملكه، نحا بالكتاب النهج الذي سلكه، والباب الذي طرقه، ليس ممن لا يفقهون في الموضوع "ديوان الصبابة"، إنما صده عن المساجلة في فنه، والارتشاف من بنت دنه، وروده عليه، ولسان حاله يقول: "حَالِ السَّوَادِ فَحَالَ الْفُؤَادِ، وَصَوَّحَ الْمَرْعَى، فَانْقَطَعَتِ الرُّوَادُ، وَنَهَانِي أَرْوَارُ خَيَالِ الرُّوَرَاءِ، وَالتَّفَاتُ غَاذِلِ الشَّيْبِ عَنِ الْمُقَلَّةِ الْحَوَرَاءِ، وَكَيْفَ الْأَمَانُ وَقَدْ طَلَعَ مِنْهُ النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ، يَدُلُّ عَلَى الْخُبْرِ بِخَبْرِهِ، وَيُنْذِرُ بِهَازِمِ اللَّذَاتِ عَلَى أَثَرِهِ" (١٤١).

ويعتذر ابن الخطيب لقرائه ومن سألته معارضة ديوان الصبابة والكتابة في فنه، والخوض في حوضه، بما يدل على طول باعه، في ميدانه، يقول مستدركاً: "وَلَوْ لَا أَنَّ طَيْفَ هَذَا الْكِتَابِ الْوَارِدِ، طَرَقَ مَضْجَعِي، وَقَدْ كَادَ يَبْدُو الْحَاجِبُ، وَيَضِيعُ مِنْ

الْفَرَضِ الْوَاجِبِ، وَيَعْجَبُ مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ الْعَاجِبِ، لَجَرِيَتْ مَعَهُ فِي مِيدَانِهِ، وَعَقَدْتُ بَنَانِي بِبَنَانِهِ" (١٤٢).

كما يميّط ابن الخطيب اللثام عما يكنه من المعرفة في هذا الباب، والاطلاع على مجال الكتاب، فيقول مصداقاً على ذلك: "وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ آثَرَ الْجِدَّ عَلَى الْهَزْلِ، وَاعْتَاضَ مِنَ الْغَرَلِ الرَّقِيقِ الْغَرْلَ بِشِيْمَةِ الْجَزْلِ، وَلَا آتَفُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوَى بَعْدَ أَنْ خُضْتُ غِمَارَهُ، وَاجْتَنَيْتُ ثِمَارَهُ، وَأَقَمْتُ مَنَاسِكَهَ، وَزَمَيْتُ جِمَارَهُ، "وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ"، فَالْهَوَى أَوَّلُ تَمِيمَةٍ قَلَّدَنِي الدَّايَةُ، وَالتَّرْبُ الَّذِي عَرَفْتُهَا فِي الْبِدَايَةِ، وَأَنَا الَّذِي عَنْ عُرْوَتِهِ نُبْتُ، وَبُعِثْتُ إِلَى الرُّصَافَةِ لِأَرْقَ فَذُبْتُ، إِلَى أَنْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، وَصَارَ النَّشْرُ إِلَى الطَّيِّ، تَشَايِخَ وَلَدَانِ الْحَيِّ، وَتَذَكَّرَ الْفَحْرُ لِأَيَّامِ الرَّيِّ، "كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ"، كَمَا مَنَّ عَلَيَّ" (١٤٣).

ولم يكن نهوض ابن الخطيب لتأليف الكتاب المعارض أمراً سهلاً، نشطت له الهمة، واستجابت له القريحة، دون مراوضة، بعد ممانعة.

لقد وافق ابن الخطيب على ذلك حياء من طلب السلطان والأصحاب، لما كان يستغرق وقته من أعمال، يقول ابن الخطيب: "وَلَكِنِّي امْتَنَلْتُ، وَرَشْتُ وَنَلْتُ، وَمَكْرَهَا لَا بَطْلًا مَنَلْتُ، وَكَيْفَ يَتَفَرَّغُ لِلتَّأْلِيفِ، وَيَتَبَرَّعُ بِالْوَفَاءِ بِهَذَا التَّكْلِيفِ مَنْ حَمَلَ الدُّنْيَا فِي سِنِّ الْكُهُولَةِ عَلَى كَاهِلِهِ... وَاشْتَرَى السَّهَرَ بِالنَّوْمِ، وَاسْتَنْفَدَ سَوَادَ اللَّيْلِ وَبَيَاضَ الْيَوْمِ، فِي بَعْثٍ يُجَهِّرُ، وَفُرْصَةٍ تُنْتَهَرُ، وَنَغْرٍ لِلدِّينِ يُسَدُّ، وَأَرْزٍ لِلْمُلْكِ يُشَدُّ، وَقِصَّةٍ تُرْفَعُ، وَوَسَاطَةٍ تُنْفَعُ، وَعَدْلٍ يُحْرَصُ عَلَى بَذْلِهِ، وَهَوَى يُجْهَدُ فِي عَذْلِهِ، وَكَرِيمٌ قَوْمٌ يُنْصَفُ مِنْ نَذْلِهِ، وَدَيْنٌ تُرَاحُ الشَّوَائِبُ عَنْ سَبْلِهِ، وَسِيَاسَةٌ تَشْهَدُ لِلسُّلْطَانِ بِبُئْلِهِ، وَإِصَابَةٌ نَبْلِهِ، مَا بَيْنَ سَيْفٍ وَقَلَمٍ، وَرَاحَةٍ وَالْمِ، وَحَرْبٍ وَسَلَمٍ، وَنَشْرِ عِلْمٍ أَوْ عِلْمٍ، وَجَيْشٍ يُعْرَضُ، وَعَطَاءٍ يُفْرَضُ، وَقَرْضٍ حَسَنِ لِلَّهِ تَعَالَى يُفْرَضُ، فِي وَطَنِ تَوْفَرُ الْعَدُوُّ عَلَى خَصْرِهِ، وَدَارَ بِهِ نَوْرُ السُّوَارِ عَلَى خَصْرِهِ... وَعَدَدُ نِسْبَتِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الْعَظِيمِ الطَّاقَةِ الشَّدِيدِ الْإِضَاقَةِ، نِسْبَةُ الشَّعْرَةِ مِنْ جُلْدِ النَّاقَةِ..."

وَسَأَلْتُ مِنْهُ أَيْدَهُ اللَّهُ الْقُنُوعَ بِمَا يَسْرُهُ الْوَقْتُ، مِمَّا لَا يَنَالُهُ الْمَقْتُ وَالذَّهَابُ بِهَذَا
الْغَرَضِ لِمَا يَلِيْقُ بِالْتُّرْبِ وَالسَّنِّ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ اغْتَرَضَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ" (١٤٤).

وهذا ينطوي على الحقائق الآتية:

- ١ - أن ابن الخطيب استجاب للتأليف مكرهاً لا بطلاً.
- ٢ - أن عواقب الوفاء بهذا المطلب كثيرة، معظمها يعود إلى الأعباء السياسية التي أرهقتها، وأنهكتها منذ كان شاباً، وهذه بعض المهام التي كان يسهر عليها:
 - أ - السهر على البعوث العسكرية للجهاد.
 - ب - شدّ أزر الملك، بالحفاظ على المكتسبات، والحيطة من المهلكات.
 - ت - الوقوف للمظالم التي ترفع إلى السلطان ورجاله للبت فيها.
 - ث - التدخل عن طريق الشفاعة لحل المشاكل العارضة لذوي الجاه.
 - ج - الحرص على تحري العدل والنزاهة في الرعية.
 - ح - الحرص على تلميع سياسة السلطان بتحري المواقف التي تعين على ذلك.
 - خ - الاضطلاع برئاستي السيف والقلم التي تعني القيادة العليا، ورئاسة الكتابة العليا.
 - د - الحرص على نشر العلم، ونشر الإسلام في الربوع.
 - ذ - الإشراف على عرض الجيش، وتفقدته، وسد خلله.
 - ر - السهر على مراقبة العطاء، وتسليمه لمستحقه في الوقت المحدد حتى لا تختل أحوال الجند.
 - ز - الإشارة إلى قلة راحة ابن الخطيب الذي اضطلع بحمل هذا الكل الذي تنوء به العصبية ذات القوة، فاستغرق العمل الليل والنهار، ودفع عنه الراحة، وأجلب عليه الهموم.
 - س - كما يشير النص أيضاً إلى قلة نسبة المسلمين المذهلة بالإضافة إلى عدوهم الذي أحاط بهم، فهو يتربص بهم الدوائر.
 - ش - أنفة ابن الخطيب الذي تحيط به وبأتمته هذه الظروف الأسيفة، من أن

يستدرجه الهوى، ويهبط به إلى مستنقع للخوض الآسن فيما لا يليق بالمقام، ولا يعكس همه وهاجسه على الأيام.

ص - سؤال السلطان أن يتغاضى عما سيسفر عنه اختياره، ويؤدي إليه اجتهاده إن لم يوافق رغبته ويحقق طلبته.

٤ - لسان حال المصنّف والمُصنّف:

أما لسان الحال الذي كتب به ابن الخطيب هذا المصنّف، فلا يزعم أنه لسان حال أهل الطريقة الذين وصلوا، وأنوار الحقيقة التي حصلوا، وإنما هو لسان حال التائبين المبتدئين، الشائقين إلى جني ثمار أفانين المحبة، المقتبسين لأنوارها اللائحة لوح الشهاب في الأفق المبين، وعلى الرغم من ذلك فهو يرجو من الله الذي أنطقه على لسان الشائقين أن ينطقه على لسان العاشقين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من المخلوقين، قال ابن الخطيب: "أَجَلْ، بِلَانِي بِالْغَرَضِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْقُلُوبِ سِرٌّ أَسْرَارِهَا، وَمِنْ أَفْنَانِ الْأَذْهَانِ بِمَنْزِلَةِ أَزْهَارِهَا، وَمِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَأَطْوَارِهَا قُطْبٌ مَدَارِهَا، لِكُونِ كِتَابِي هَذَا الْمُقَدِّمِ عَلَى الْمَازِقِ الْمُهِلِكِ، الْمُتَشَبِّعِ بِمَا لَا يَمْلِكُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ الْإِتِّصَافُ، فَعَسَى أَنْ يَشْفَعَ الْإِنْصَافُ وَالْإِقْتِرَافُ يَدْرُؤُهُ الْإِعْتِرَافُ. أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ، وَكُلُّ يَنْفُوقٍ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ..."

وَعَسَى الَّذِي أَنْطَقَ شَوْقًا، أَنْ يُنْطِقَ نَوْقًا، وَالَّذِي حَرَّكَ سَفْلًا أَنْ يَحْرَكَ فَوْقًا، وَالَّذِي يَسْرُهُ مَقَالًا أَنْ يَكْفِيَهُ^(١٤٥) حَالًا... وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى الْكَفِّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نُوَ حَظٌّ عَظِيمٌ^(١٤٦).

وعلى الرغم من ذلك لم يخل الكتاب من شطحات صوفية خطيبية، أكدت صدق نزوعه، وصحيح تذوقه، وعذب مورده، في ثنايا الكتاب كله، من أوله إلى آخره.

فقال منوها بالترتيب الذي ذهب إليه فيه، وقد نسجه على منوال شجرة باسقة، يانعة، ورافة، أصلها في أعماق الأرض نابت، وفرعها لعنان السماء مُسامت، وللشجرة في النصوص الدينية دلالة حقيقية ومجازية، لذلك جعل ابن الخطيب بينها وبين المحبة غرض كتابه علاقة رمزية: "... وَجَعَلْتُ شَجَرَةً وَأَرْضًا، فَالْشَّجَرَةُ الْمَحَبَّةُ

مُنَاسَبَةً وَتَشْبِيهًا، وَإِشَارَةً لِمَا وَرَدَ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَتَنْبِيهًا، وَالْأَرْضُ النَّفُوسُ الَّتِي تُغْرَسُ فِيهَا، وَالْأَعْصَانُ أَقْسَامُهَا الَّتِي تَسْتَوِفِيهَا، وَالْأوراقُ حِكَايَاتُهَا الَّتِي نَحْكِيهَا، وَأَزْهَارُهَا أَثْمَارُهَا الَّتِي نَجْنِيهَا، وَالْوُصُولُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثَمَرَتُهَا الَّتِي نَدْخِرُهَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَنَقْتَنِيهَا.

شَجَرَةٌ لَعَمْرُ اللَّهِ يَانِعَةٌ، عَلَى الرَّعَازِعِ مُتَمَانِعَةٌ، ظِلُّهَا ظَلِيلٌ، وَالطَّرْفُ عَنْ مَدَاهَا كَلِيلٌ، وَالْفَائِزُ بِجَنَاهَا قَلِيلٌ، رَسَتْ فِي التُّخُومِ، وَسَمَتْ إِلَى النُّجُومِ، وَتَنَزَّهَتْ عَنْ أَغْرَاضِ الْجُسُومِ، وَالرِّيَاحِ الْحَسُومِ، وَسَقَيْتِ بِالْعُلُومِ، وَغَذَّيْتُ بِالْفُهُومِ، وَحَمَلْتِ كَمَايُمُهَا بِالرَّهْرِ الْمَكْتُومِ، وَوَقَّتْ ثَمَرَتَهَا بِالْغَرَضِ الْمُرُومِ" (١٤٧).

وقال منبها على بعد مرامها، وتفرد عنصرها، ونفاسة معدنها، ووعورة مقصدها، وتهالك الواردين عليها، وتباين أحوال السالكين إليها:

"فَازَ مَنْ اسْتَأَثَرَ بِجَنَاهَا، وَنَعْنَى مَنْ غَنِيَ بِلَفْظِهَا دُونَ مَعْنَاهَا، فَمَنْ اسْتَصْبَحَ بِدَهْنِهَا اسْتَضَاءَ بِسَنَاهَا.

مَا أَبْعَدَهَا وَمَا أَدْنَاهَا، عَيْنًا مَلَأَتْ الْأَكْفَ بِغِنَاهَا، كَمْ بَيْنَ أَوْرَاقِهَا مِنْ قَلْبٍ مُقَلَّبٍ، وَفِي هَوَائِهَا مِنْ هَوَى مُغَلَّبٍ، وَكَمْ فَوْقَ أَفْنَانِهَا مِنْ صَادِحٍ، وَكَمْ فِي التِّمَاسِ سَقِيطُهَا مِنْ كَادِحٍ، وَكَمْ نُونُهَا مِنْ خَطْبٍ فَادِحٍ، وَلَازِبَابِهَا مِنْ هَاجٍ وَمَادِحٍ، تَنَوَّعَتْ أَسْمَاؤُهَا، وَلَمْ تَتَنَوَّعْ أَرْضُهَا وَلَا سَمَاؤُهَا، فَسُمِّيَتْ نَحْلَةً تَهْزُ وَتُجْنَى، وَزَيْتُونَةً مُبَارَكَةً يُسْتَصْبَحُ بِزَيْتِهَا الْأَسْنَى، وَسِدْرَةً إِلَيْهَا يَنْتَهِي الْمَعْنَى، أَصْلُهَا لِلْوُجُودِ أَصْلٌ، وَلَيْسَ لَهَا كَالشَّجَرَةِ جِنْسٌ وَلَا فَصْلٌ، وَتَرُبَّتْهَا رُوحٌ وَنَفْسٌ وَعَقْلٌ، وَشَرَفُهَا يُعْضِدُ بِدِيهَةٍ وَنَقْلٌ، يُحِيطُ الْهَائِمُونَ بِفَنَائِهَا، وَيَصْعَدُ السَّالِكُونَ فَوْقَ بِنَائِهَا، وَتَحْتَرِّقُ السَّبْعُ الطَّبَاقُ بِبِرَاقِهَا، وَتَمْجِي ظِلْمَ الْحَسِّ بِنُورِ إِشْرَاقِهَا" (١٤٨).

وقال مؤكداً على الحب الحقيقي الذي ينبغي أن يسعى إليه، ويستمسك به، في عبارات بلغت الذروة أدباً، والقمة بلاغة، والأوج نوقاً، والقنة جمالاً، والغاية جرساً وطرباً: "إِنَّمَا الْحُبُّ الْحَقِيقِيُّ يُصْعِدُكَ وَيَرْقِّيكَ، وَيُخَلِّدُكَ وَيُبْقِيكَ، وَيُطْعِمُكَ وَيَسْقِيكَ، إِلَى فِتْنَةِ السَّعَادَةِ مِمَّنْ يُشْقِيكَ، وَيَجْعَلُ لَكَ الْكَوْنَ رَوْضًا، وَمَشْرَبَ الْحَقِّ حَوْضًا،

وَيُجْنِكَ زَهْرَ الْمُنَى، وَيُغْنِيكَ عَنْ أَهْلِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَيُخْضِعُ التَّيْجَانَ لِنَعْلِكَ، وَيَجْعَلُ الْكَوْنَ مُتَصَرِّفًا فَعْلِكَ.

لَيْسَ إِلَّا الْحُبُّ، ثُمَّ الْوَصْلُ وَالْقُرْبُ، ثُمَّ الشُّهُودُ، ثُمَّ الْبَقَاءُ بَعْدَمَا اضْمَحَلَّ الْوُجُودُ، فَشَفِيتِ الْأَلَامَ وَسَقَطَ الْمَلَامُ، وَذَهَبَتِ الْأَضْغَاتُ وَالْأَحْلَامُ، وَاخْتَصَرَ الْكَلَامُ، وَمُحِيتِ الرُّسُومُ، وَخَفَقَتِ الْأَعْلَامُ، وَلَمِنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ وَالسَّلَامُ" (١٤٩).

٥ - علاقة الكتاب بالزندقة:

من المعلوم أن هذا الكتاب كانت له علاقة مباشرة بالنهاية المساوية التي مني بها ابن الخطيب، إذ اتهم أنه تزندق في هذا الكتاب، وتنكب به الصراط المستقيم، واقتفى أثر الفلاسفة الملحدين، ومعلوم من الناحية الشرعية أن الدماء لا تباح شرعاً إلا بكفر بواح، وارتداد صراح، وقتل نفس مؤمنة بغير حق، أو زنى بعد إحصان. فهل كفر ابن الخطيب بموجب ما ذكره في هذا الكتاب؟ ذلك ما سنبينه من خلال ما نقتبسه من نصوص لها علاقة بالاعتقاد وما يشته به.

أ - أسباب المعرفة وحكمها وأدواتها:

يقول: "... وَالْأَسْبَابُ الْقُصُوى، تَنْحَصِرُ مِنْ هَذِهِ الْجُرُثُومَةِ [جرثومة المعرفة] فِي بَاطِنٍ هُوَ الشَّرْعُ وَالنَّقْلُ، وَظَاهِرٍ هُوَ الطَّبْعُ وَالْعَقْلُ... وَأَوَّلُهُمَا: نُبُوَّةٌ تُرْشِدُ إِلَى سَبِيلٍ، وَتَهْدِي بِمَنَارٍ دَلِيلٍ... وَثَانِيَهُمَا: عَقْلٌ يَهْدِي، وَفِطْرَةٌ سَلِيمَةٌ إِلَى الصَّوَابِ تُؤَدِّي (١٥٠).

ويقول في حكمها: "... وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ، بِإِجَابِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ لَا بِالْعَقْلِ... فَالْأَنْبِيَاءُ الْهُدَاةُ أَوَّلُ الْعَزْمِ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الصَّحَائِفِ وَالْهُدَايَاتِ، وَوَرَأَتْهُمْ هُمْ تَلَامِيذُ الْأَطْبَاءِ الْمَهَرَّةِ... ثُمَّ قَفَى عَلَى آثَارِهِمْ بِخَاتِمِ أَطْبَاءِ الْقُلُوبِ، وَآخِرِ أَسَاةِ النُّفُوسِ (١٥١).

فهل تتم المعرفة بالعقل دون الشرع؟

قال: " وَرَأَيْ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ كَافِيَةٌ لِدَرْكِ الْحَقِّ فِي الْبَرَاهِينِ

الْمُنْطِقِيَّة، وَلَا حَاجَةَ بِهَا إِلَيْهَا، وَكَافِيَةً لِمَعْرِفَةِ اللَّهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى بَعْثِ الرُّسُلِ، وَقَدْ تَقَرَّرَ
الرَّدُّ عَلَى الْمَذْهَبَيْنِ فِي مَحَلِّهِ... وَالْحَقُّ أَلَا مُوَصَّلَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِنُورِ النُّبُوَّةِ" (١٥٢).

ب - عرض أصناف المحبين:

إن الذي يريد أن يقف على رأي ابن الخطيب وموقفه، من طرائق التصوف،
التي اختلفت مناهجها، وتباينت وسائلها، وإن اتفقت غاياتها، فليتمسك ذلك في
فصل: "غُصْنُ الْمُحِبِّينَ وَأَصْنَافُهُمُ الْمُرتَبِينَ" الذي يشتمل على مقدمة بيان، وستة
أفنان.

حيث يعرض من خلاله لأصناف المحبين على اختلاف مشاربهم، وتباين
أزمانهم منذ أقدم العصور إلى عصره، بدءاً بالفلاسفة وانتهاً بالصوفية، إذ في تقديره
كلهم توخى المحبة، من خلال البحث عن الحق، ومعرفة الحق، والتقرب إلى الحق بما
يليق بمقام الحق كما أدى إليه منهاج معرفة الحق.

قال في المقدمة مهولاً من كثرة المحبين: "أَصْنَافُ الْمُحِبِّينَ وَالْعُشَاقِ كَثِيرٌ، وَهَبَاءٌ
نَثِيرٌ، وَجَرَادٌ أَثَارَهَا مُثِيرٌ، بِحَيْثُ يَشُقُّ إِحْصَاؤُهُمْ، وَلَا يَتَأَنَّى اسْتِقْصَاؤُهُمْ" (١٥٣).

فقال في الفلاسفة القدماء: "فَمِنْ الْحُكَمَاءِ الْقَدَمَاءِ وَالْفَلَّاسِفَةِ الْأَوَّلِ، الَّذِينَ لَا
يَذْكُرُ التَّارِيخُ زَمَانَهُمْ، الْفَلَّاسِفَةُ الْمَشْهُورُونَ، وَالْفَلْسَفَةُ الْحِكْمَةُ، وَالْفِيلَسُوفُ مُجِبُّهَا،
وَفِيلُو فِي لِسَانِهِمْ مُجِبٌّ، وَسُوفِيَا حِكْمَةً، وَمِنْهُمْ الْأَسَاطِينُ وَهُمْ أَهْلُ مَلْطِيَّةَ، وَأَهْلُ
أَصْطَرَاخِيَا، وَقُونِيَّةَ وَسَامِيَا" (١٥٤).

ثم ذكر أسماء معظمهم، في جميع الأمم من يونان وهنود، وصابئة، وحنفاء،
وعبداء الأصنام من العرب، كما ذكر بعض طوائفهم (١٥٥).

وعقب على ذلك بقوله فيهم: "وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مُجِبٌّ عَاشِقٌ مُسْتَهْلِكٌ" يُضِلُّ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ"، "وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ" (١٥٦).

ثم يذكر بعد ذلك أهل الأديان السماوية من الأنبياء والمرسلين، وما تفرع عن أديانهم من ملل ونحل وفرق وطوائف.

فيقول: "وَأَرْبَابُ الْمَلَلِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَاتَّبَاعِهِمْ مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِكُتُبِ اللَّهِ مِمَّنْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا وَمَنْ بَدَّلَهَا بَعْدَ مَا سَمِعَهَا، مِنَ الْيَهُودِ... وَمِنَ النَّصَارَى... وَكُلُّهُمْ عَشَّاقٌ وَإِنْ خَابَ مُرَادُهُمْ، وَضَاعَ اجْتِهَادُهُمْ...

ثُمَّ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءُ عَلَى الْكُلِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَى اللَّهِ، الْحَبِيبِ إِلَى اللَّهِ، الْخَاتِمِ الْمُكْمَلِ، وَمَنْ وَرَثَتُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ...

ثُمَّ أَتْبَاعُهُمْ مِنْ فُقَهَاءِ الْمِلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ...

ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَالذَّابِّينَ عَنِ الْعَقَائِدِ...

ثُمَّ الطَّوَائِفُ الْمُتَنَازِعَةُ، وَالْفِرَقُ الْمُتَخَالِفَةُ، مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ الْقَائِلِينَ بِالْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ، وَأَنَّ الْمَعَارِفَ كُلَّهَا عَقْلِيَّةٌ قَبْلَ الشَّرْعِ... وَمِنْ مُرْجِيَةِ الْقَائِلِينَ بِإِرْجَاءِ الْعَمَلِ عَلَى لَازِمِ النِّيَّةِ... وَمِنَ الشَّيْعَةِ الْقَائِلِينَ بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّنْ أَتَّبَعَ رَأْيَهُمْ... وَمِنَ الْخَوَارِجِ عَلَى عَلِيٍّ... وَرَأْيُهُمْ فِي الْخُرُوجِ عَلَى الْإِمَامِ إِذَا خَالَفَ، وَالتَّكْفِيرِ بِالذُّنُوبِ^(١٥٧).

هَذَا مَعَ ذِكْرِ أَشْهُرِ الطَّوَائِفِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ثُمَّ عَقَّبَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِقَوْلِهِ: "وَأِنَّمَا اسْتَكْتَرْنَا مِنْ ذِكْرِهِمْ عِبْرَةً لِمَنْ تَأَمَّلَ حَوَمَانَ هَذَا الْفَرَّاشِ، الْمُخْتَلِفِ الْآرَاءِ، عَلَى ذُبَالِ الْحَقِّ، يَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ قَوْمٌ بِالطَّاعَةِ، وَقَوْمٌ بِالْمَعْصِيَةِ^(١٥٨)."

ثم ذكر أسماء من اشتهر بالحكمة في الملة الإسلامية، من المشرق إلى المغرب، ويعني بهم فلاسفة المسلمين، وعقب على ذكرهم بقوله: "وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مُحِبُّ عَاشِقٌ، مُسْتَهْلِكٌ... " وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ "، " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " " فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ "...

وَالْخَلْقُ قَدْ مَدُّوا أَبْصَارَهُمْ وَأَمَالَهُمْ، وَتَحَرَّكُوا طَوْعًا وَكَرْهًا يَعْيشُونَ^(١٥٩) إِلَى

نُورِ اللَّهِ، فَمِنْ أَعْمَى أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَأَعْمَى فَقَطْ يَجْتَزِي عَنِ الْعَيْنِ بِالْخَبَرِ،
وَأَحُولَ يُبْصِرُ الشَّيْءَ شَيْئَيْنِ... وَضَعِيفٌ لَا يُبْصِرُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَجْهَرُ لَا يُبْصِرُ مِنْ
قَرِيبٍ، وَأَعْمَشَ تَكَثَّرَ فِي عَيْنَيْهِ الْأَشْعَةُ، وَرُبَّمَا تَنْدُرُ، وَرَزَقَاءُ الْيَمَامَةِ^(١٦٠).

هذا ما ذكره في مقدمة "غصن المحبين وأصنافهم المرتبين"، ثم يشرع في
تفصيل الكلام في بيان أفنان هذا الغصن التي حصرها في ستة، وهي:

ت - رأيه في أصناف المحبين:

"الفن الأول - في رأي القدماء من الفلاسفة:

وهؤلاء قرظهم بعد أن عرض فلسفتهم^(١٦١)، من خلال رسالته التي تشبه
المقامة والتي اختتم بها عرضه لجميع الأفانين بقوله مخاطباً إياهم: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ" قَلَدْتُمْ الْعَقْلَ، وَلَهُ طَوْرٌ، وَرَأَيْتُمْ الْحَرَكَاتِ لَا
يَتَنَاهَى لَهَا دَوْرٌ، وَعَالَمُ الْجَزَائِيَّاتِ لَا يُسَبِّرُ لَهُ غَوْرٌ، وَخَوْرُ الْمَعَادِ فِي بَعْضِ الْفُرُوضِ لَا
يَكُونُ لَهُ كَوْرٌ، وَيَا شَرًّا مَا أَصْبَحْتُمْ فِي الْمَبْدَأِ الْأَوَّلِ تَعْتَقِدُونَهُ، إِذْ جَعَلْتُمْ التَّصَرُّفَ فِي
عَالَمِ الْمَلِكِ لِمَنْ دُونَهُ، قِفُوا مَكَانَكُمْ، وَلُومُوا إِمْكَانَكُمْ، وَاسْتَرُوا شَأْنَكُمْ" (١٦٢).

الفن الثاني - في رأي أهل الأنوار من الأقدمين:

خاطبهم ابن الخطيب بعد أن عرض مقومات فلسفتهم^(١٦٣)، بقوله في
رسالته: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا" أَسَاطِينَ
الْحِكْمَةِ الْمَشْرِقِيَّةِ، وَفَرَاشَ الْأَنْوَارِ الْخَفِيَّةِ، دَعَوْنَا مِنْ اسْتِخْثَارِ الْأَنْوَارِ، وَاحْتِشَادِ
الْأَطْوَارِ، الْحَقُّ نُورٌ، لَا يُعَيِّنُ حُسْنَ ذَاتِهِ إِلَّا مَنْ رَكِبَ ظَهَرَ افْتِنَاتِهِ، فَارْفَعُوا الْكُلْفَ،
وَاجْرُوا مَجْرَى مَنْ تَقَدَّمَ وَسَلَفَ" (١٦٤).

"الفن الثالث - في رأي الحكماء المتملِّين من الإسلاميين"

قال ابن الخطيب مشيراً إلى أبرز أعلامهم: "وَمِنْهُمْ الرَّئِيسُ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا،

وَأَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ، وَابْنُ طَفِيلٍ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الصَّائِغِ، إِلَى مَا لَا يُحْصَى" (١٦٥).

وقال رأيهم فيه بعد عرض آرائهم^(١٦٦) من خلال خطابهم، كما تقدم مع الفَنَّيْنِ السابقين: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"، لَمْ تَتْرَكُوا الْبَرَاهِينَ عَلَى أَصْلِهَا، وَلَا نَاسَبْتُمْ جِنْسَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ بِفَضْلِهَا، وَأَتَرْتُمْ شَعْبًا طَوِيلًا، وَأَوَسَعْتُمْ الْمُتَشَابِهَ تَأْوِيلًا، وَلَمْ يَعْتَمِدُوا مِنَ الْعَقْلِ دَلِيلًا، وَلَا وَقَفْتُمْ فِي مُجَارَاةِ الْعُقُولِ قَلِيلًا، وَهَوَلْتُمْ بِاصْطِلَاحِ غَيْرِكُمْ تَهْوِيلًا، وَادَّعَيْتُمْ الشُّهُودَ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِي الْاِحْتِجَاجِ بِهِ لِلْأَنْبِيَاءِ سَبِيلًا، وَبَنَيْتُمْ الْحَقَائِقَ عَلَى قِيَاسِ النَّظَرِ، مِنْ غَيْرِ عَيْنِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَلَا أَثَرٍ، وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ أَخْطَأَ بِاجْتِهَادٍ وَأُثِيبَ" (١٦٧).

"الفن الرابع - في من بعدهم من المتَمِّمِينَ بزعمهم المكملين":

قال مشيراً إلى أبرز الأعلام في هذا الفن أيضاً: "مِثْلَ ابْنِ الْفَارِضِ، وَسَعْدِ الدِّينِ الْفِرْعَانِيِّ، وَمُحْيِي الدِّينِ الْخَاتَمِيِّ، وَابْنِ سَوْدَكِينَ الدَّمَشْقِيِّ، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرِيفِ، وَأَبِي الْحَكَمِ بْنِ بَرَجَانَ، وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ قَسِي، وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْبُوتِي" (١٦٨).

انتقدهم بعد عرض آرائهم^(١٦٩)، من خلال خطابهم بقوله: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" وَالتَّعَدُّ الْمَقْصُودُ فِي عَيْنِ الْخَبَرِ، شَاهِدٌ بِفَسَادِ رَأْيِكُمُ الَّذِي لَيْسَ بِالْمُعْتَبَرِ... ذَهَبَ بِوُجُودِكُمُ الْعَدَمُ، وَابْتَلَعَ خُدُونُكُمُ الْقَدَمُ، وَرَضِيْتُمْ بِالْإِسْرَافِ فِي الْاِسْتِشْرَافِ. وَالتَّوَعُّلُ لَزِيمُ الْاِنْحِرَافِ، وَمَنْ جَعَلَ الْجَسَّ وَهْمًا فَقَدْ كَابَرَ الْعِيَانَ ظُلْمًا، وَالْعَقْلُ الَّذِي عَطَلْتُمْ هُوَ إِلَهَ حُكْمِكُمْ، وَادَّاهُ عَمَلِكُمْ، وَالْعَوَالِمُ أَوْثَقُ مِنْ أَنْ تَكُونَ تَمْوِيَةً رَاقِشَ، وَالْوُجُودُ الْمُطْلَقُ أَبْسَطُ مِنْ أَنْ يَصِيرَ أَبَا بَرَاقِشٍ" (١٧٠). ثُمَّ مَا لَكُمْ وَالتَّبَجُّحُ وَالتَّشَيُّعُ، وَالتَّعَقُّبُ وَالتَّتَبُّعُ، وَلَمْ يُغْنِ الْعِرَاكُ، وَوَقَعَ فِي تَمَرَّتِكُمُ الْاِشْتِرَاكُ، فَالْفَيْلَسُوفُ يَتَّحِدُ بِالْعِلَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْحَقِّ، ثُمَّ يَتَلَاشَى فِي

ذَاتِ الْحَقِّ، وَالْحَكِيمُ يَجُوزُ إِلَى عَيْنِ الْحَقِّ، رُتِبَ الْفَنَاءُ وَالْمَحَقُّ، وَالْمُتَشَرُّعُ قَدْ عَصَدَهُ وَنَصَرَهُ "كُنْتُ سَمِعُهُ وَبَصَرَهُ" وَإِنْ كَانَ مُعْظَمُ الْقَوْلِ هَذَا، فَفِيكُمْ بَعْدَ نَظَرٍ " (١٧١).

"الْفَنُّ الْخَامِسُ - فِي رَأْيِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الْمُتَوَعِّلِينَ :

قال وأشار إلى بعض أعلامهم: "وَمِمَّنْ اشتهرَ بِهِ مِنْهُمْ الشَّوْذِيُّ، الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ، وَابْنُ الدَّهَّاقِ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ سَبْعِينَ، وَأَصْحَابُهُ، مِثْلُ أَبِي الْحَسَنِ الشُّشْتَرِيِّ، وَابْنِ مُطَرِّفِ الْأَعْمَى، وَابْنِ أَحْلَى، وَالْحَاجِّ الْمَغْرِبِيِّ، وَالْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنْ أَهْلِ شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ، وَوَادِي رَقُوطٍ" (١٧٢).

قال فيهم بعد أن أشار إلى مجمل آرائهم (١٧٣): "ارْتَكَبْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ الشَّوْذِيَّةَ وَالسَّبْعِيَّةَ وَأَصْحَابَهُمْ، مُرْتَكِبًا غَرِيبًا مِنَ الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَهَامُوا بِهِ، وَرَمَزُوهُ، وَاخْتَقَرُوا النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ" (١٧٤).

وقال بعد أن عرض لمصطلحهم: "قُلْتُ: وَظَوَاهِرُ الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ تُوْهِمُ مُعَارَضَةَ الشَّرَائِعِ، وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: مَنْشَأُ هَذَا الرَّأْيِ عَلَى الْإِتِّحَادِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ بُطْلَانُهُ، وَقُضَاءُ نَحْلَتِهِمْ يَتَرَاوَعُونَ عَنْهُ، وَيُلَفَّقُونَ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَحْمِلِهِ مَا يَطُولُ شَرْحُهُ... وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَقْصُودَ الشَّرَائِعِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ عَرَفَهُ، إِنَّمَا يَرْجِعُ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَأَنَّ كُلَّ دُنْدَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ حَدِيثَةٍ، إِنَّمَا هِيَ تَحْوِيْمٌ عَلَيْهِ، وَهَذَا الرَّأْيُ قَرِيبٌ مِنْ رَأْيِ مَنْ قَبْلَهُمْ لَوْلَا تَعَالِيهِ وَأَشَانِيْعُ تَتَبَعُهُ، وَأَقَاوِيلُ سُوفِسْطَائِيَّةٍ تَلْزِمُهُ... وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيُرْشِدُ إِلَى قَصْدِ السَّبِيلِ، وَهُمْ مَحْسُوبُونَ مِنَ الْمُحِبِّينَ" (١٧٥).

"الْفَنُّ السَّادِسُ - فِي الصُّوْفِيِّ وَهُمْ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ :

قال مزيجاً النقاب عن حقيقتهم: "أَمَّا بَيَانُ أَعْرَاضِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ قَرَرْنَا أَنَّهَا أَشْهَرُ وَأَبْهَرُ وَأَجْلَى وَأَظْهَرُ... وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ قَدْ أَنْدَرَجُوا فِي جَمْعِيَّةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ غَيْرِ تَفَرُّقَةٍ عِنْدَنَا وَلَا خِلَافٍ... ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدَهُ عَلَى سَبِيلِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَمُجَاهَدَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالرِّيَاضَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ تَزَلْ تَظْهَرُ عَلَيْهِمُ النَّتَائِجُ مِنَ الْكَشْفِ وَالْفِرَاسَةِ مِنْ غَيْرِ اتِّسَامٍ بِنَخْلَةٍ وَلَا اخْتِصَاصٍ بِطَرِيقَةٍ، وَلَا انْتِسَابٍ إِلَى غَيْرِ صُحْبَةِ النَّبُوَّةِ، وَالْاجْتِهَادِ فِي

الرُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، فَكَانَ الْمَشَارُ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ جُمْلَةً، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ أَعْلَامُ دِينٍ وَعُلَمَاءُ سُنَّةٍ، مِثْلُ مَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَأَبِي حَنِيفَةَ... وَطَائِفَةٌ يَشُقُّ إِحْصَاؤُهُمْ... وَيُنْقَلُ عَنْهُمْ مِنَ الرُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، مَا يَلِيقُ بِمَنَاصِبِهِمْ مِنْ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَتَشْيِيدِ أَرْكَانِ الدِّينِ... ثُمَّ اسْتَنْهَرَ خَوَاصَّ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُرَاعِينَ نَفُوسَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ مَعَ اللَّهِ الْخَافِظِينَ قُلُوبَهُمْ مِنْ طَوَارِقِ الْغَفَلَةِ بِاسْمِ النَّصُوفِ الْخُلُقِيِّ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ، وَالْفَضِيلُ، وَمَعْرُوفٌ^(١٧٦).

ثم ذكر طائفة من أسماء من كان على شاكلة المذكورين بلغت واحداً وثمانين علماً، وعقب عليهم قائلاً: "هَؤُلَاءِ أَحْصَى الْخَلْقَ بِاسْمِ الْمَحَبَّةِ إِنْشَاعًا لِمَنْ يَرَى أَنََّّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَايَاتِ وَيُسَمِّيهِمْ بِالصِّمِّ. وَالْمَحَبَّةُ كَذَلِكَ بَحْرٌ مُتَّسِعٌ وَمَقَامٌ رَحْبٌ، وَنَظَرًا لِمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ عِلَامَاتِ الْمَحَبَّةِ فِي الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ، وَهُمْ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ تَسْلِيمًا فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّوَائِفِ"^(١٧٧).

وقال يمدحهم ويثني عليهم في رسالته المقامة مخاطباً إياهم كما فعل مع السابقين: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" أَنْتُمْ الْأَحْبَابُ، وَلَكُمْ تَفْتَحُ الْجَنَانُ وَالْأَبْوَابُ، رَكِبْتُمْ ظُهُورَ الْأَعْمَالِ، وَرَكِبَ غَيْرُكُمْ الْأَمَالَ... فَبِدَايَاتِكُمْ الْأَسَاسُ الْوَثِيقُ، الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ التَّحْقِيقُ، وَنَهَايَاتِكُمْ إِلَيْهَا يَنْتَهِي الطَّرِيقُ... أَوْلَكُمْ الْمُهَذَّبُ الْمُدْرَبُ، وَأَوْسَطُكُمْ الْمُفْرَدُ الْمُعْرَبُ، وَآخِرُكُمْ الْوَلِيُّ الْمُقَرَّبُ، حَضَرْتُمْ بِذِكْرِ مَحْبُوبِكُمْ حَتَّى غَبِطْتُمْ، فَهَنِيئًا لَكُمْ طِبُّكُمْ"^(١٧٨).

هكذا وغير هذه الأفانين الستة من شجرة المعرفة الوارفة عرض لسان الدين ابن الخطيب أنواع المعرفة الإنسانية القديمة والحديثة، الوضعية والسمائية، والتي تلخص في تقديره تواصل المخلوق مع الخالق، بجميع صوره السديدة والمتنكبة، كل ذلك في سبيل البحث عن الحق والتواصل مع الحق.

ومن هذا المنطلق يكون ابن الخطيب بهذا العمل قد ترفع بنفسه عن الحب البشري، فتحدث عن الحب الإلهي.

ويكون أيضاً قد عرض لموضوع المحبة من خلال التجربة الفلسفية والدينية

والذوقية الإنسانية منذ أقدم العصور إلى عصره، من خلال الثقافة الإسلامية والإنسانية بصفة عامة.

ويكون أيضاً قد كشف لنا بذلك جانباً آخر من جوانب ثقافة ابن الخطيب الموسوعية، والعميقة في ذات الوقت، ونعني بها علوم الفلسفة، والكلام والتوحيد، والتصوف، وتاريخ العلوم.

ويكون قد بين لنا موقفه من التصوف من خلال ترشيح واختيار الطريق الذي رجحه، وأثنى عليه في صراحة ووضوح.

وابن الخطيب حينما خاض غمار الموضوع، خاضه بأدوات الباحث المتخصص على عادته في التأليف والتصنيف، حيث اتخذ من التصوف موضوعاً للبحث قبل أن يتخذه طريقة للسلوك.

عرض الآراء والمذاهب بكل أمانة وتجرد، وتوخى الاستيعاب والإيجاز، والإنصاف، ولا أدل على ذلك من عده جميع أصحاب المذاهب على اختلافها، ومباينتها لكثير من قواعد الإسلام، أهل المحبة وإن نكبوا الصراط.

وكذلك قوله معلقاً على آراء أصحاب الفن الرابع: "وَكِتَابُنَا غَيْرُ مَوْضُوعٍ لِّلْمُشَاحَنَةِ، وَهُمْ مُجِبُونَ مُسْتَهْلِكُونَ" (١٧٩).

ث - رسالة ابن الخطيب من خلال الكتاب:

وابن الخطيب بكتابه هذا- في تقديري - يكون أول مصنف صنّف في فن التصوف كتاباً قائماً على أساس المحبة من بدايته إلى نهايته، استقصى فيه جميع الآراء والمذاهب وجعله في متناول العموم، رفع به الحظر عن سائر كتب التصوف، وكشف به حجب الأستار عن علم التصوف، الذي ربما استأثر أصحابه تداوله بطريقة الممارسة والسلوك لأن تجربتهم عملية بالدرجة الأولى، يقوم على أساس المشيخة والإرادة، والإرشاد والتلقين.

قال ابن الخطيب في خاتمة الكتاب معتذراً عن خمول هذا الفن في عصره: "إِنَّ

هَذَا الْغَرَضَ الْيَوْمَ بِأَكْثَرِ الْأَرْضِ مَيِّدَانٌ غَدِمَ فِيهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، مَنْ يُجِبِلُّ
كَمَا يَجِبُ جَوَادًا، وَنَقِيرٌ لَا يُجِيبُهُ مَنْ يَكْثُرُ سَوَادًا، قَدْ طُمِسَتْ الْأَعْلَامُ، وَسَقَطَ الْحَمْدُ
وَالْمَلَامُ، وَمَا لِحَرْجٍ بِمَيِّتٍ إِلَّا لَامٌ، فَمَذْلُولُ هَذَا الْفَنِّ بِهَذِهِ التُّخُومِ عَنَقَاءَ مُغْرِبٍ، وَإِكْسِيرٌ
يُحْدِثُ عَنْهُ غَيْرٌ وَاصِلٍ وَلَا مُجَرَّبٍ، إِنَّمَا يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى كُتُبٍ مُقْفَلَةٍ، وَأَعْرَاضٍ
مُقْفَلَةٍ" (١٨٠).

أما عن حظ ابن الخطيب من هذا الفن وهذا الطريق من حيث الذوق والتجربة،
فقد أبان عنه أيضاً في خاتمة الكتاب، وهو بيان بناه على الاعتذار، اعتذار له مذاق
الشوق والحرمان، والصد والهجران، تجل ذلك من محكم العنوان: "وَهَذَا طَائِرٌ عَلَى
الشَّجَرَةِ صَادِحٌ، وَلَا حَقُّ كَادِحٌ، وَمُعْتَذِرٌ إِنْ قَدَحَ قَادِحٌ، أَوْ تَعَارَضَ هَاجٍ وَمَادِحٌ" (١٨١).
ولا يخفى أن الطائر المعني هو لسان الدين بن الخطيب ولا أبلغ في الرمزية
وأدل في الإشارة من استلهم الطائر، فهو الأورفُ ظللاً وإيحاء، والأوفى مجازاً
ومناسبة.

قال ابن الخطيب معتذراً عن العوائق: "وَالْأَعْدَاؤُ الَّذِينَ تُقَرَّرُ عَنْاءَ هَذَا الطَّائِرِ
عَبِيدَةٌ، وَمُيَدِيَّةٌ فِي الصَّدْقِ وَمُعِيدَةٌ، وَقَرِيبَةٌ مِنَ الْحَقِّ لَا بَعِيدَةٌ فَمِنْهَا... شَوَاغِلُ الدُّنْيَا،
الَّتِي احْتَنَطَتْ مِنَ الْمَكَاتِبِ، وَمَوَهَتْ بِالْمَرَاتِبِ، وَلَقَبَتْ بِالْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ، وَأَقَامَتْ الْعَبْدَ
الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئاً... مَقَامَ الْعَاتِبِ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، وَإِنْ عُدَّ يَقْظًا حَازِمًا،
وَبَحْرِيْرًا عَالِمًا، فَإِنَّمَا هُوَ غَرِيقٌ، وَتَائِهٌ لَا يَبْدُو لَهُ طَرِيقٌ... وَنَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَالَّذِي أَلْهَمَ
هَذِهِ الْغُيُوبَ، يَتَكَفَّلُ بِإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَمُكَاشَفَةِ الْغُيُوبِ...

وَمِنْهَا الْاِسْتِغَالُ بِالْهَذَرِ عَنِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ، مُنْذُ أَرْمَانَ عَبِيدَةٍ، وَمُدَدِ مَدِيدَةٍ، فَلَمْ
يَبْقَ مَا تَحْصُلُ ...

وَمِنْهَا أَنِّي لَمْ أَتَدَبَّرْ إِلَى هَذَا الْوَظِيفِ الَّذِي قَلَّ مَنْ يَتَعَاطَاهُ... مَنْ تَلَقَّاءِ نَفْسٍ
جَاهِلَةٍ بِبُعْدِ مَدَاهَا... وَلَكِنِّي خُضْتُ عَلَى عَدَمِ السَّبَاحَةِ غَمْرًا، وَامْتَثَلْتُ مَعَ سُقُوطِ
الْاِسْتِطَاعَةِ أَمْرًا، وَجِئْتُ بِمَا فِي وَسْعِي انْقِيَادًا وَامْتِنَالًا، وَمَثَلْتُ مِثَالًا، فَضْرُورَتِي
بِفَضْلِ اللَّهِ مَشْرُوحَةً، وَالِدَّعْوَى عَنْ كَتْفِي مَطْرُوحَةً" (١٨٢).

من هذا النص يستشف حال ابن الخطيب النفسية في تلك الآونة، وكذلك علاقته بالموضوع فهو لا يجهل خطورته وصعوبته، وعلى الرغم من ذلك اقتحم هوله، وخاض لجته، امتثالاً لا طوعاً، وإن كان الأمر قد صادف في القلب رغبة، وفي الوجدان محبة.

٦ - مدة تدوينه وملابسات انتساخه:

يتحف ابن الخطيب القارئ على عاداته في هذه الخاتمة أيضاً بالكشف عن المدة القياسية الوجيزة التي أنجز فيها هذا الكتاب بما دل على سيلان ذهن، وطواعية يراعة، وشفوف براعه، قال: "وَعَلَى ذَلِكَ فَقَدْ عَلِمَ الَّذِي يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ، وَيُقَرِّبُ الْأَبْرَارَ، وَيُقِيلُ الْعَثَارَ، وَيَقْبَلُ الْأَعْذَارَ، أَنَّ مُدَّةَ الْأَشْتَغَالِ بِهِ لَمْ يَتَجَاوَزْ شَهْرَيْنِ اثْنَيْنِ، بَيْنَ كَتْبِ وَكُتْمِ، وَابْتِدَاءِ وَخَتْمِ، مَعَ مَا يَخْلُلُ الزَّمْنَ مِنْ حِمْلِ، لَوْ رُمِيَ بِهِ رَضْوَى لَتَدْعَدَعَ، أَوْ أَنْزَلَ عَلَى ثَبِيرٍ لَخَشَعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَصَدَّعَ، بِمُدَارَاةِ عَدُوٍّ قَدْ تَكَالَبَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَسِيَاسَةِ سَوَادٍ صُمٌّ عَنِ الْمَلَامِ، وَتَعَدَّى حُدُودَ النَّهْيِ وَالْأَخْلَامِ" (١٨٣).

وقال مشيراً إلى الظرف والزمن الذي كان يكتب فيه: "وَجَعَلْتُ لِنَفْلِهِ حِصَّةً مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ الْغَاسِقِ، وَاللَّيْلِ الْوَاسِقِ، وَعَاطَيْتُ حُمَيَّاهُ نَدِيمَ الْبَارِقِ، وَتَعَرَّضْتُ لِاقْتِنَاصِ حَيَالِهِ الطَّارِقِ، قَبْلَ فَضِيحَةِ السَّارِقِ، وَسَرَقْتُهُ مِنْ أَيْدِي الشَّوَاعِلِ، وَاللَّيْلِ يُعِينُ السَّارِقَ" (١٨٤).

وقال مشيراً إلى انتساخه من مسوداته دون تبييض، ولا مراجعة بما شهد له بالبراعة واستغراق الوقت: "وَلَمْ يُعْمَلْ فِيهِ عَبْدُ الْقَيْسِ نَظْرًا مُعَادًا، وَلَا أَنْجَرَ مِنْ تَصْحِيحِهِ عَلَّمَ اللَّهُ مِيعَادًا.

إِنَّمَا هُوَ كَرَّاسٌ يُفْرَغُ مِنْ تَسْوِيدِهِ، رَجْرَاجُ الْجَبْرِ، مُخْتَلِطُ التُّرَابِ بِالتَّيْرِ، فَيُدْفَعُ مَلْمُومُ الْمَاسِيخِ إِلَى يَدِ النَّاسِيخِ، وَكُلْفُهُ الْمُتَنَاقِلِ إِلَى كَفِّ النَّاقِلِ، وَيَقْدَفُ صَحِيفَتُهُ مِنَ الرَّبْرِةِ إِلَى الصَّاقِلِ، إِذْ كَانَ الْأَمْرُ بِهِ، أَيْدُهُ اللَّهُ وَنَفْعُهُ، حَرِيصًا عَلَى تَعْجِيلِ الْمُعَارَضَةِ" (١٨٥).

خلاصة:

تلك كانت قصة الكتاب بدءاً بدواعي التأليف، وانتهاءً بملاحظات التصنيف، مروراً بأهم مضامين الكتاب لاختبار صلتها بقضية الإلحاد والتجديف. وقد تبين لكل من ألقى السمع وهو شهيد، براءة لسان الدين بن الخطيب براءة الذيب من دم ابن يعقوب.

المبحث الثالث

اليأس من الخلاص وإعمال الفرار وآثاره

المطلب الأول

اليأس من الخلاص ونشدان الراحة واستنجاز الوعد

المقصد الأول - اليأس من الخلاص وأعراضه:

ظل ابن الخطيب يستنجز سلطانه وعده، والسلطان في صمم عن رغبته، مؤثر لخدمته، وقد أعاد إلى الدولة هيبتها، واسترجع لها رونقها، وثبت قواعدها، ونفى شوائبها، فطال عليه الأمد بما شوّش ذهنه، وشغّب فكره، وأجلب همومه، وقد حال خوضه، بينه وبين ما كان قد استمرأه، وأمل دوامه، فأصبح في ضيق شديد، وقلق مديد.

ولقد استشعر ابن الخطيب ذلك من جميع المحيطين به الذين ربما لم ترقهم سياسته، وخصوصية العلاقة التي كانت بينه وبين سلطانه، والتي ربما حالت دون طموحاتهم، وقطعت حبال آمالهم، فأذكت النعمة نيران الحسد، وأنفدت الجلد.

وقال معبراً أيضاً عن ذلك بصورة أكثر تفصيلاً وأبلغ تعبيراً " ... وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَادَتْ هَيْفٌ إِلَى أَذْيَانِهَا، مِنْ الْإِسْتِهْدَافِ لِلشُّرُورِ، وَالْإِسْتِعْرَاضِ لِلْمَحْذُورِ، وَالنَّظَرِ الشَّرِّ الْمُنْبَعِثِ مِنْ خُزْرِ الْعُيُونِ، شَيْمَةٍ مَنِ ابْتِلَاهُ اللَّهُ بِسِيَاسَةِ الدُّهْمَاءِ، وَرِعَايَةِ سَخَطَةِ أَرْزَاقِ السَّمَاءِ، وَقَتْلَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَبْدَةِ الْأَهْوَاءِ، مِمَّنْ لَا يَجْعَلُ لِلَّهِ إِرَادَةً نَافِذَةً لَا مَشِيئَةً سَابِغَةً، وَلَا يَقْبَلُ مَعْذِرَةً، وَلَا يُجْمِلُ فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَتَلَبَّسُ مَعَ اللَّهِ بِأَدَبٍ " (١٨٦).

وقال أيضاً: " وَصِرْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْوُجُوهِ، فَأَلْحَ الشَّرَّ فِي نَظَرَاتِهَا، وَأَعْتَبِرُ الْكَلِمَاتِ، وَأَتَّبِعُ الْحَسَائِفَ فِي لُغَاتِهَا، وَالصَّبْغَةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَسْتَحْكِمُ، وَالشَّرَّ يَتَصَاعَفُ، وَنِعْمَةُ الْوَلَدِ تُطْلَقُ لِسَانَ الْحَسُودِ، وَشَبَعُ الْكِلَابِ الْمُطِيفَةِ فِي تَهْيِيجِ حَسَائِفِ النُّمُورِ الْجَائِعَةِ وَالْأَسُودِ، وَالْأَصْحَابُ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمُ الْمَائِدَةُ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ يَفْتَنُونَ فِي الْإِطْرَاءِ

وَالْمَدِيحِ، وَتَحْسِينِ الْقَبِيحِ... وَالتَّقَرُّبِ بِالسَّعْيِ، أَنْظِرُ إِلَيْهِمْ يَتَنَاقَلُونَ الْإِشَارَاتِ بِالْعُيُونِ،
وَالْمُغَامَزَةِ بِالْجُفُونِ، وَالْمُخَاطَبَةِ بِاللُّغُوزِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، فَقَلَّبُوا
الْأُمُورَ، وَنَفَّوْا الْعُيُوبَ، وَأَفْسَدُوا الْقُلُوبَ" (١٨٧)

وكلا النصين يؤكد على الحقائق الآتية:

١ - استشعار ابن الخطيب الشر من جميع من حوله قولاً وعملاً، حسداً من عند أنفسهم، بسبب مكانته المؤثرة، وهذا يؤكد أيضاً غربة ابن الخطيب وعزلته على الرغم من ممارسته لمهامه.

٢ - استشعار ابن الخطيب المداينة والنفاق، والغيبة والنميمة، التي تفسد ما بين الأصدقاء والرفاق.

٣ - استياء الناس من سياسة الاستبداد التي كان ابن الخطيب يعتمد عليها في إدارة البلاد حرصاً على المصلحة العامة، واستفادة من دروس العهد السابق، تلك السياسة التي ربما ضاق بها ذرعاً كثير من رجال الدولة المرنين، وتجلى ذلك من خلال:

أ - المؤاخذه الشديدة.

ب - عدم التماس الأعذار.

ت - عدم الإجمال في الطلب.

ث - عدم التحلي بالأدب.

ج - عدم اعتبار مشيئة الله.

ولعل أبلغ نص وأعظمه، بلغ الذروة في تعرية الذات، وتجريد الخطرات، في هذا المشهد الطريف الذي ربما دل بما لا يدع مجالاً للشك والمبالغة على أنه من عيون النصوص الأدبية في الآداب العربية والعالمية قاطبة، وخاصة في فن الخاطرة، وحديث النفس المباشر، لشحته وندرته في الأدب العربي.

واعتذر عن كتابته بهذه الطريقة مبالغة في التنويه، وتفصيلاً لمبانيه ومعانيه.

يقول: "وَفِي كُلِّ آوَنَةٍ، وَسَاعَةٍ، وَأَثْنَاءِ كُلِّ تَفَرُّدٍ وَخُلُوعٍ، بَعْدَ أَنْ كَبَرَ الْوَلَدُ،
وَاسْتَرَاخَ مِنْ هَمِّ الْحَرْصِ الْخَلْدِ، أَخَاطَبُ نَفْسِي، فَأَقُولُ لَهَا:
يَا مَشْؤُومَةً!

أَمَا تَشْعُرِينَ لِمَا نَزَلَ بِكَ.

حَمَلْتِ هَذَا الْكَلَّ عَلَى ضَعْفِكَ.

وَأَوْسَعْتَ هَذَا الشَّعْبَ فِي فِكْرِكَ.

وَعَمَرْتَ بِهَذِهِ الْخُطُوطِ حَظَّ رَبِّكَ.

وَتَعَرَّضْتَ لِأَنْ تُسَخِّطِي الطَّالِبَ الْمَمْنُوعَ بِخِيْبَتِهِ.

وَتُسَخِّطِي الْمُعْطَى بِمَا يَرَى أَنَّكَ قَدْ مَنَعْتِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي عَطِيَّتِهِ.

وَتُسَخِّطِي الْأَجْنَبِيَّ بِالْقَبُولِ عَلَى عَدُوِّهِ.

وَالْمَيْلَ إِلَى ضِدِّهِ.

وَبِالْإِعْرَاضِ عَلَى صَدِيقِهِ.

وَتُسَخِّطِي الْجَانِيَّ بِإِنْفَازِ الْعُقُوبَةِ فِي جِنَائِيَّتِهِ.

وَالْمُجْنِيَّ عَلَيْهِ بِالنَّقْصِيرِ عَنْ غَرَضِهِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ شِفَاءُ نَفْسِهِ.

وَتُسَخِّطِي الْجَيْشَ بِاخْتِبَارِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْعِ الْمَدْفُوعِ إِلَيْهِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ.

وَتُسَخِّطِي الرَّعِيَّةَ بِاسْتِقْصَاءِ الْجَبَايَةِ وَأَخْذِهَا بِالْإِعْدَادِ لِعَدُوِّهَا فِي الشَّدَّةِ، فِي

تَحْصِينِ ثَلَمَةٍ، وَإِعْدَادِ عُدَّةٍ، وَاخْتِزَانِ مَاءٍ أَوْ قُوَّةٍ لِشِدَّةٍ.

وَتُعَادِينَ طُلَابَ الْوِلَايَاتِ إِذْ مُجِي مِنْهَا رُبْعٌ عَدِيدُهُمْ، وَأَنْتِ مُضْطَرَّةٌ إِلَى مَطْلٍ

مُدَّةٍ، وَارْتِقَابٍ مُدَاوَلَةٍ.

وَتُعَادِينَ الْأَهْلَ وَالْقَرَابَةَ وَالْوَلَدَ بِمَنْعِ الْأَيْدِي وَالْعَدْلِ فِي الشَّهَوَاتِ، وَسَدِّ أَبْوَابِ

الشَّفَاعَاتِ.

وَتُعَادِينَ خَاصَّةَ السُّلْطَانِ بِالْإِنْفِرَادِ بِهِ نُوْنَهُمْ.

وَتُعَادِينَ الْمُلُوكَ الْمُجَاوِرَةَ بِالنَّوْقِفِ فِي أَغْرَاضِهِمُ الَّتِي يَصْعَبُ قَضَاؤُهَا، وَيَضُرُّ
بِالدَّوْلَةِ إِفْضَاؤُهَا.

وَتُعَادِينَ وَلَدَ السُّلْطَانِ وَخَظِيئَتَهُ، فَلِكُلِّ مِنْهُمْ مَطْلَبٌ يَخْتَصُّ بِهِ.

وَطَوْرٌ مِثْلُكَ بَعِيدٌ عَنِ التَّهَجُّمِ فِيهِ، وَالْاِفْتِثَاتِ عَلَى صَاحِبِ الدَّارِ.

وَتُعَادِينَ السُّلْطَانَ بِعَدْلِهِ فِي الشَّهَوَاتِ، وَالْقِيَامِ دُونَهُ ذُونَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ،
وَمُخَالَفَةِ أَمْرِي يُخْطِيهِ بِحَسَبِ الْهَوَى مِنَ الْخُدَامِ، وَتَقْرِيعِهِ فِي بَابِ إِفْسَادِ الْأَمْوَالِ، إِذْ
لَا تُعْطِيهِ بِسَبَبِ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ، وَالتَّرْبِيَةِ لَهُ، وَالْأَمْنِ مِنْ بَارَادَتِهِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لَهُ بَعْدُ
أَنْ عَلَتِ السِّنُّ وَكَبِرَ الْوَلَدُ، وَتَأْتَلَ الْعِزُّ.

وَهَذَا كُلُّهُ بَعْضٌ مِنْ كُلِّ، وَقَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، فَلَا تَجِدُ عَنْهُ حُجَّةً، وَلَا لِشَيْءٍ عَنْهُ
مُدَافَعَةً « (١٨٨) »

هذه لعمر الله الرعاية التي تقصم الظهر، والمسؤولية التي تهد الصخر،
كشفت عن المهام التي كان ينهض بها كاهله، ويستقلها عاتقه، صورت معنى
الاستبداد، ودلالة الانفراد، الذي يجر البلاء، وينذر بسوء القضاء.

وهذه هي حال ابن الخطيب في سره وجهره، أطلع عليها غيره، وسد الباب على
عدوه، ليكون محكماً من أمره.

ويزداد لدى الناظر درك حدة التوتر النفسي لدى ابن الخطيب مع ثقل الكل الذي
يحملة، تصور حال الاستقرار والهناء الذي كان عليه في سلا، والوظيفة التعبدية التي
كان قد أخذها على نفسه، والتزمها في خاصة أمره، المؤكدة على صادق عزمه، وصحيح
رجوعه، يقول: "وَكُنْتُ وَصَلْتُ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَلِي وَرْدٌ مِنَ اللَّيْلِ، وَوُظِيفْتُ مِنَ الذِّكْرِ، وَحَظُّ
مِنَ الْخَيْرِ، ضَايِقُنِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فُضُولُ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فَهَجَرْتُ السُّبْحَةَ، وَقَطَعْتُ الْوَرْدَ،
وَمَا طَلْتُ الْفَرْضَ بِوَقْتِهِ، وَعَمَرْتُ الزَّمَانَ بِمَا لَا يُعْنِي عَنِّي مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" « (١٨٩) ».

الأمر الذي انعكس على حاله سلباً، وأرداه في مهاوي الكآبة النفسية: "فَلَا مُتْعَةً
بِالْمَطْعُومِ لِاخْتِلَالِ الصَّحَّةِ، وَلَا بِالنِّسَاءِ لِذَهَابِ الشَّيْبَةِ، وَضَيْقِ زَمَانِ الرَّاحَةِ، وَلَا

بِالْبَاسِ لِيَتَبَدَّلَ الْكِبَرَةُ، وَلَا فِي اكْتِسَابِ الْمَالِ لِضَعْفِ الْأَمَلِ، وَلَمْ أَكُنْ قَطُّ اتَّخَذْتُ الْكَسْبَ بِضَاعَةً، وَلَا صَرَفْتُ إِلَيْهِ هِمَّةً، وَلَا عَمِلْتُ عَلَيْهِ، وَلَا فِي الْوَطَنِ فَضْلٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ" (١٩٠).

ولما بلغ به السيل زباده، واليأس منتهاه، والصبر مداه، استبدت به الهواجس المؤرقة، والظنون المقلقة، يقول: "وَصِرْتُ أَسْهَرُ اللَّيْلِ، وَأَتَوَقَّعُ الشَّرَّ، وَأَقِفُ لِلدُّنْيَا مَوْقِفَ الْمُتَوَقِّفِ، فِي تَلَقِّي السِّلَاحِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وَلَا حُصُولَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا عَلَى قُوَّةٍ مَكْدُودٍ، وَلَا يُعَوِّزُ فِي قَرْيَةٍ، وَلَا يُفْقَدُ بَيْنَ أُمَّةٍ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ حِبَالَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَسَقُوطِ الْأَمَلِ، وَتَوَقُّعِ الشَّرِّ، وَفَسَادِ الْفِكْرِ" (١٩١).

المقصد الثاني - التطلع إلى الراحة والتفرغ:

أمام هذا الشغب الذي كثف حجابيه، وحلكت غياهبه، وحط بكله، لاح له أمل في غسق الوحشة فانوساً يخلصه من غربة أنسه، يلحقه بروضة أمسه.

إنها الراحة نشيدة أمله وضالة سعيه، يقول: "وَجَمَعَ [الله] الْمَطَالِبَ كُلَّهَا، وَالْأَمَالَ بِأَسْرِهَا، وَالْغَايَاتِ بِأَجْمَعِهَا، فِي الْحُصُولِ عَلَى رَاحَةٍ، وَتَمَنِّي خُلُوةٍ، وَقَطَعَ مَا بَقِيَ لِلْعُمْرِ مِنْ بُرْهَةٍ، فِي دَارِ أَمْنٍ، وَخُلُوٍّ مِنْ شَغْبٍ" (١٩٢).

لقد بلغ بابن الخطيب تعشقه للراحة والخلة الغاية القصوى، حتى صار يتخيلها كائناً حياً، وجوهرأ فرداً، فلو تنشقت لكانت روحاً وريحاناً، أو تجسمت لكانت حورية تجلى، بل لكانت الفردوس الأعلى، يقول: "وَصِرْتُ أَتَخَيَّلُ ذَلِكَ، وَأُمَثِّلُ الْفَوْزَ وَالْحُصُولَ عَلَيْهِ، كَمَا يَتَخَيَّلُ مَجْنُونٌ بَنِي عَامِرِ الظَّفَرِ بِلَيْلَى، وَالْأَفْرَادَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ لِهَوَى يُرِيدِي، وَلَا سَبْعٍ يَغْتَدِي، وَلَا وَادٍ يُغْرِقُ وَلَا نَارٍ تُحْرِقُ، عَمَى الْهَوَى، وَاحْتِجَابِ النَّمَى [النَّهَى] وَتَأْمِيلِ السَّمَى [السُّهَى]، كَأَنَّ سِعَرَ الرَّاحَةِ رَخِيصٌ، وَمَطْلَبُ الْخَلَاصِ لَا يُعْثِرُ عَلَيْهِ تَخْصِيصٌ، وَلَا يَتَعَيَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَمْحِيصٌ، وَسُبْحَانَ الَّذِي يَقُولُ: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" (١٩٣).

إنها قمة التطلع إلى الانعتاق، وذروة التشوف إلى الافتكاك، وأوج التعشق للخلاص، لقد تحولت الخلة في قلبه إلى "ليلي" وتحول طالبها إلى "مجنون ليلي" وما أوفق المناسبة: المحبة والمحب، العشق والجنون، المعرفة والصوفي.

إنها الدلالة الصوفية الرمزية، ولسنا ندري أهو توفيق؟ أم توقيف؟ أو تجلي الحال؟ أم تعلق الآمال؟

المقصد الثالث - الإلحاح في استنجاز الوعد:

لم ييأس ابن الخطيب من أمل وفاء السلطان بوعده بسرعة، فقد عاناه زمناً، وكابده ردىحاً وهو يتعلل بالأمني، والأوقات في انتهاب، والآمال سراب وراء سراب، والسلطان يماطله والعهود مواعيد عرقوب، تخايله وتكذبه، يقول ابن الخطيب مخبراً عن صموده وإصراره ونضاله في سبيل مطلبه وحقه: "فَالْحَحْتُ عَلَى السُّلْطَانِ، تَارَةً أُطَالِبُهُ بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ، وَالْوَفَاءِ بَعْهْدِهِ، وَأَقْتَضَاءِ مُضْمَنِ خَطِّهِ، وَتَارَةً بِالْعَمَلِ عَلَى اكْتِسَابِ بَعْضِهِ، وَالْجَفَاءِ الَّذِي يَحُلُّ عُقْدَةَ اغْتِبَاطِهِ، وَيُذْهِبُ الْخَطَّ مِنْ بَاطِنِهِ، بَلَغْتُ فِي ذَلِكَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مُحْكَمٌ مِنْ عَقْلِهِ، وَلَا مُحَافِظٌ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ يَحْمِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ الْمَظَاهِرَةِ بِي عَلَى أَمْرِهِ، وَعَمَلِهِ بِمَحَلِّ مِنَ الصِّيَانَةِ لِمَلِكِهِ، وَالنَّظَرِ بَعَيْنِ الْأُبُوءِ لِأَهْلِهِ، إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ يَذْهَبَ الْقَشْرُ وَيُنْكَأَ الْقَرْحُ" (١٩٤).

إنه تواصل الصم البكم، الذي عميت فيه الأسباب عن المقاصد، وضلت فيه السبل عن الغايات.

ولقد ظل ابن الخطيب إلى آخر عهده بالأندلس، يبيت شكواه لأقرب الناس إليه، ويبيوح بآناته لخاصة أحبائه، نفثاً عن صدره، وترويحاً عن نكبته، وتفريجاً عن كربته، فهذه آخر رسالة له من غرناطة بعثها إلى صديقه ابن خلدون تحمل تاريخ ٢ ربيع الثاني من عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م، من جملة ما بثه فيها من شكاته، وتقرير عجزه، قوله: "فَاغْلَمُوا أَنِّي قَدْ بَلَغَ الْمَاءُ الرُّبَى، وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ سُوءُ الْمَزَاجِ الْمُنْخَرِفِ، وَتَوَالَتِ الْأَمْرَاضُ، وَأَعْوَرَ الْعِلَاجُ، لِإِبْقَاءِ السَّبَبِ، وَالْعَجْزِ عَنْ دَفْعِهِ، وَهِيَ هَذِهِ الْمُدَاخَلَةُ جَعَلَ اللَّهُ الْعَاقِبَةَ فِيهَا إِلَى خَيْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ الْحِيلَةِ إِلَّا بَذَلْتُهُ، فَمَا أَعْنَى ذَلِكَ عَنِّي شَيْئًا، وَلَوْ لَا أَنَّنِي بَعْدَكُمْ شَغَلْتُ الْفِكْرَ بِهَذَا التَّأْلِيْفِ، مَعَ الرُّهْدِ، وَبَعْدِ الْعَهْدِ، وَعَدَمِ الْإِنْمَاعِ لِطَالَعَةِ الْكُتُبِ، لَمْ يَتَمَشَّ حَالِي مِنْ طَرِيقِ فُسَادِ الْفِكْرِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ" (١٩٥).

المطلب الثاني الفرار عن الأندلس وماجرياتة

المقصد الأول - العزم على الفرار:

لاشك في أن رجلاً بلغ به الحال ما بلغه ابن الخطيب، كان سينفجر لا محالة انفجاراً يكافئ قوة الضغط الذي تجمع في باطنه، وقد جسسنا من خلال النصوص التي تنبض معانيه الدالة بما لا شيء فوقه، وبما لا يدع مجالاً للريبة وحيزاً للشك. لقد أولد الضغط انفجاراً، وكان الانفجار فراراً، والخلص بعداً، والنجاة صدوداً، فكيف كانت تداعيات ذلك، وقد عرفنا شيئاً من ذلك، يقول ابن الخطيب: "وَنَابَ لِي النَّظَرُ بِإِزْمَاعِ الْفَرَارِ عَنْهُ، وَمُصَانَعَتِهِ بَيْنَ يَدَيَّ ذَلِكَ بِالتَّائِي لَهُ وَالْإِنْحِطَاطِ فِي هَوَاهُ، وَشَرَعْتُ فِي عَقْدِ السَّلَامِ مَعَ الْعَدُوِّ لِسِنِينَ، وَرَتَّبْتُ الْأَمْرَ تَرْتِيبَ الْأَبَاءِ لِلْبَنِينَ، وَرَجَوْتُ إِحْسَانَ اللَّهِ لِي، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ..."

وَقُلْتُ: أَحُجُّ نَفْسِي، وَأَقْضِي فَرْضِي، وَأَشْغِلُ النَّاسَ بِغَيْرِي، وَأَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُحْكِمًا مِنْ أَمْرِي" (١٩٦).

والنص كما يتضح ينطوي على الحقائق الآتية:

- ١ - أن العزم على الفرار جاء بعد إعمال فكر ونظر، ولم يكن ارتجالياً.
- ٢ - أن القرار تقدمه مصانعة ومجاملة ومداهنة دفعاً للريبة والشبهة التي تفسد الخطة، وتعيق الوصلة.
- ٣ - أن العزم كان سراً دفيناً، ربما لم يطلع عليه غيره، باستثناء ولده.
- ٤ - أن العزم على الفرار تقدمه ترتيبات إدارية وسياسية، لكي لا يحدث فراره فراغاً في الدولة، فتختل الأمور بعده، وذلك أمر يهمله أيضاً، لأنه راع ومسؤول، والأمانة تملي عليه ذلك.
- ٥ - أن العزم على الفرار كان الباعث الحثيث عليه أداء فريضة الحج.
- ٦ - أنه أراد بفراره إفساح المجال لغيره من الطامحين، من رجال الدولة، ليسد مسده، وينشغل الناس عنه بغيره.

٧ - أنه يكون له الخيار بعد إنجاز هذه المهمة إن شاء رجع إلى وطنه، وإن شاء اختار غيره.

المقصد الثاني - الإعداد للفرار:

من الإجراءات القانونية والتدابير السياسية التي كانت مستقرة في الدول الإسلامية وخاصة في العصور المتأخرة، أن الشخصيات التي لها وزنها السياسي والثقافي والديني، كانت حركاتها مرصودة، ونشاطاتها معروفة، وإذا ما رامت الانتقال من منطقة إلى أخرى، كان ينبغي لها ليكون انتقالها مشروعاً ليس له تبعات، أن تستأذن الجهات المسؤولة، وخاصة الجنب السلطاني، فإذا تمت الموافقة، صدر في ذلك ظهير سلطاني يخول له الطلبة ويسير له البغية، وقد عرفنا شيئاً من ذلك في رحلات ابن الخطيب داخل المغرب، وخارجه بما أكد هذه السنة.

من المعلوم أن السلطان النصري محمد الغني بالله، كان دائم الإعراض عن طلب ابن الخطيب كما عرفنا، ولذلك تعذر خروجه طيلة المدة.

وكما كان يلزم لرفع الحظر عن حركة الشخصية المعنية ظهير من جهة الدولة المشيعة، كان يلزمه أيضاً ظهير من جهة الدولة المستقبلية المضيفة، لما في ذلك من حفظ للمودات، وصيانة للعلاقات، إذ كان يكون لذلك أحياناً عواقب وخيمة، اختلت من جرائها العلاقات كما سنرى، أثار خروج ابن الخطيب نفسه على الأندلس والمغرب على حد سواء.

إذا كان على ابن الخطيب وقد يئس من الحصول على ظهير سلطاني يؤذن له بالخروج أن يبحث عن جهة أخرى خارجية تيسر له ذلك، وتضمن له خروجاً آمناً على الأقل من جهة واحدة.

ولما كان تطلع ابن الخطيب الدائم إلى المغرب، سعى لهذا عند سلطانه أبي فارس عبد العزيز، يقول ابن الخطيب: "... فَأَقْتَضَيْتُ مِنَ الْمَوْلَى الْمُقَدَّسِ أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ... وَقَدْ اتَّصَلَ بِي فَضْلُ دَوْلَتِهِ وَطَهَارَةُ نَشَأَتِهِ، وَاعْتِدَالُ طَرِيقَتِهِ، عَهْدًا بِخَطِّهِ،

ضَمِنَ لِي فِيهِ الْمُشَارَكَةَ فِي أَعْرَاضِي مِنْ إِقَامَةٍ تَحْتَ حُرْمَةٍ، وَإِعَانَةٍ عَلَى حَجٍّ وَزِيَارَةٍ، وَمُبَالَغَةٍ فِي شَفَاعَةٍ أَوْ تَسْوِيعٍ قُفُولٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ إِنْ شِئْتُ وَعَوْدَةٍ" (١٩٧).

والنص يشي بالقيم التاريخية الآتية:

١ - اقتضاء عهد من السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز، مكتوب بخطه، يضمن له فيه ما يبتغيه.

٢ - ولاء ابن الخطيب الكبير لدولة هذا السلطان لما تقرر بينهما من صلات أكدت على فضل الدولة، واعتدال الطريقة وحسن السيرة.

٣ - تعهد السلطان أبي فارس عبد العزيز بمساعدة ابن الخطيب، والوقوف إلى جانبه، حَتَّى يَحْقُقَ مَا يَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ آمَالٍ، وتتمثل في الأمور الآتية:

أ - التعهد بإعانتته على الإقامة تحت حرمة، إعانة مادية ومعنوية.

ب - التعهد بالإعانة على أداء فريضة الحج التي طالما عرض بها.

ت - التعهد بالشفاعة لدى سلطانه الغني بالله إذا اقتضى الأمر ذلك.

ث - التعهد بتسويق الرجوع إلى الأندلس متى شاء إن شاء.

لم تكن التعهدات التي حصل عليها ابن الخطيب من قبل السلطان عبد العزيز المريني مجانية، لأن الملوك لا يعطون بالمجان، والسياسيين أيضاً لا يهبون بالمجان، وإنما كانت هناك مصالح متبادلة، فما هي المصالح التي قدمها ابن الخطيب للدولة المرينية على عهد هذا السلطان؟

ذلك ما سيفصح عنه ابن خلدون صديق ابن الخطيب والخبير بأسراره، وأسرار سياسته؛ لأن التواصل لم ينقطع بينهما حتى في أحلك الظروف وأسوأ الأزمات.

نذكر ابن خلدون في تاريخه إذ هو العمدة والأصل في ذلك، أن السلطان أبا فارس عبد العزيز، لما استنقذ الملك من براثن استبداد الوزير عمر بن عبد الله، وقتل من والاه، وصفا له الجو بتوحيد أطرافه، ومسك أزمته، لم يقلقه إلا أمر الأعياص من

الأمراء المقيمين بالأندلس، خشية أن يتطلعوا في يوم من الأيام إلى التشغيب عليه، سنة من درجوا قبله من الأمراء كما رأينا في أكثر من موضع.

وكان أشهرهم وأشدّهم ابن عمه الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن علي بن عمر بن عثمان، الذي عيّن رأساً لمشیخة الغزاة بالأندلس، أواخر محرم من عام ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م، وقد رأينا نفوذ هذه المؤسسة وجاه وصوله من يتقلدها.

ولما كان ابن الخطيب هو صاحب الشأن في الأندلس، بيده مقاليد الأمور، خاطبه السلطان عبد العزيز في شأنه وشأن وزيره ونصيره مسعود بن ماساي، قال ابن خلدون: "وَكَانَ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ قَدْ اسْتَبَدَّ بِمُلْكِهِ بَعْدَ مَقْتَلِ الْوَزِيرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَغَضَّ بِمَا فَعَلَ السُّلْطَانُ الْمَخْلُوعُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَوَقَّعَ انْتِقَاصَ أَمْرِهِ مِنْهُمْ، وَوَقَفَ عَلَى مُخَاطَبَاتِ مَنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُسِرُّ بِهَا فِي بَنِي مَرِينٍ، فَجَزَعَ لِذَلِكَ، وَدَاخَلَهُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي اغْتِقَالِ ابْنِ أَبِي يَفْلُوسَنَ وَابْنِ مَاسَايَ، وَإِرَاحَةِ نَفْسِهِ مِنْ شَغْبِهِمْ، عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمَكَانُ مِنْ دَوْلَتِهِ مَتَى نَزَعَ إِلَيْهِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَكَتَبَ لَهُ الْعَهْدَ بِخَطِّهِ، عَلَى يَدِ سَفِيرِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَكَاتِبِهِ أَبِي يَحْيَى بْنِ أَبِي مَدِينٍ، وَأَعْرَى ابْنُ الْخَطِيبِ سُلْطَانَهُ بِالْقَبْضِ عَلَى ابْنِ أَبِي يَفْلُوسَنَ، وَابْنِ مَاسَايَ، فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِمَا وَاعْتَقَلَهُمَا" (١٩٨).

والنص يدل فضلاً عما ذكرنا على الحقائق الآتية:

١ - وقوف السلطان أبي فارس عبد العزيز على مراسلات سرية، بعث بها عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى الزعماء من بني مرين، للتأليب على السلطان عبد العزيز.

٢ - إذا كان هذا الأمر صحيحاً لا يستبعد من مثله يكون الذي أثار قلقه - في تقديرنا - ليس ولاية مشیخة الغزاة وإنما المراسلات، وإلا فقد تقدمه شيوخ للغزاة من بني مرين، ولم يقلق ذلك سلاطين بني مرين، بل كان ذلك أحياناً مبعثاً للافتخار والاعتزاز.

٣ - النص يشير إلى أن مداخلة السلطان الغني بالله كانت من قبل لسان الدين بن الخطيب، ويفهم من هذا أن السلطان أبا فارس عبد العزيز، لم يخاطب مباشرة السلطان النصري، وإنما كان سراً بينه وبين ابن الخطيب، وهذا يدعو إلى

الارتياح في مصداقية الخبر، إذ كيف يقنع ابن الخطيب سلطانه بإمضاء الأمر دون مبررات موجبة لذلك، الأمر الذي يؤكد أن الخطاب وجه إلى السلطان ووزيره، وتدوول الأمر بينهما في عرضه، ولعل ابن خلدون في خبره هذا كان متأثراً بالحملة الدعائية الواسعة التي روجت ضد ابن الخطيب كما سنرى.

٤ - أن مبررات القبض على عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره، وإقصائهما عن مشيخة الغزاة، كانت بموجب الخيانة العظمى، والمساس بأمن الدولة، عن طريق تسريب المراسلات المثيرة للفتنة، وهذا ربما كان بنداً من بنود الشراكة السياسية والاستراتيجية، التي تحكمت في العلاقات السياسية الدبلوماسية، بين المغرب والأندلس كما سيدل الاستقراء.

٥ - النص يقرر أن المكافأة المقابلة لمساعي ابن الخطيب كانت الإذن له بالنزوح إلى المغرب تحت ظل دولة السلطان عبد العزيز متى شاء.

٦ - أن إذن السلطان عبد العزيز سلم إلى ابن الخطيب مكتوباً بخط يده، وهذا أمر لا ننكره، إذ كان لابد من هذه الوثيقة تأشيرة وجواز سفر يسمح له بالانتقال إلى التراب المغربي.

٧ - أن إصدار الأمر باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، ووزيره تم على يد السلطان الغني بالله، أما دور ابن الخطيب فكان إغراء السلطان والتأثير عليه، وهذا أيضاً يندرج في إطار تقدير استبداد ابن الخطيب، وعزو معظم وقائع الدولة إليه حتى وإن لم تجر على يديه.

٨ - يحتمل أيضاً انطلاقاً من تقدير أثر مؤسسة مشيخة الغزاة، ومسألة اللاجئين السياسيين لكل دولة في الدول الأخرى، والخشية من العواقب لدى كلتا الدولتين كان أيضاً دافعاً قوياً من وراء استجابة السلطان الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب، دفعاً للمكروه المتوقع.

المقصد الثالث - عملية الفرار إلى المغرب:

لم يكن فرار ابن الخطيب عملية ارتجالية عفوية، وإن كانت مفاجئة متفردة، لغرابتها، وصورتها، وتداعياتها.

لقد خطط لها ابن الخطيب تخطيطاً محكماً، وهو رجل السياسة والتدبير ضمناً لنجاحها وتحقيقها على أحسن ما يرام.

قال ابن خلدون يصف حيثيات فراره: "... فَأَجْمَعَ التَّحَوُّلَ عَنِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَاسْتَأْذَنَ السُّلْطَانَ فِي تَفْقِيدِ الثُّغُورِ الْغَرْبِيَّةِ، وَسَارَ إِلَيْهَا فِي لَمَّةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ، وَمَعَهُ ابْنُهُ عَلِيُّ الَّذِي كَانَ خَالِصَةً لِلْسُّلْطَانِ وَذَهَبَ لِطَبِيعِهِ، فَلَمَّا حَازَى جَبَلَ الْفَتْحِ، فُرْضَةَ الْمَجَازِ إِلَى الْعُدُودِ، مَالَ إِلَيْهِ وَسَرَّحَ إِذْنَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَخَرَجَ قَائِدُ الْجَبَلِ لِتَلْقَائِهِ، وَقَدْ كَانَ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ أَوْعَرَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَجَهَّزَ الْأُسْطُولَ لِتَلْقَائِهِ مِنْ حِينِهِ، فَأَجَارَ إِلَى سَبْتَةٍ، وَتَلَقَّاهُ وَلَاتُهَا، بِأَنْوَاعِ التَّكْرُمَةِ وَامْتِثَالِ الْمَرَاسِيمِ" (١٩٩).

والنص كما نرى يمكن تفكيكه إلى المكونات التاريخية الآتية:

- ١ - التورية بتفقد الثغور، والمواقع الغربية المحاذية للتخوم القشتالية، لأجل الحصول على إذن السلطان بذلك، وهذا يعني أن السلطان كان مستأمناً لابن الخطيب إلى أقصى الحدود، على الرغم من الجفاء الذي كان بينهما، وعدم شكه في حركة ابن الخطيب، لاستبعاده ذلك على جنبه، أو لاستخفافه بمطلبه.
- ٢ - الخروج في سرية من الفرسان صحبة ابنه علي الذي كان أحد خدام الدولة النصرية منخرطاً في سلك كتابها.
- ٣ - ويحتمل أن يكون ابن الخطيب قد ورى حتى على هذه اللمة من الفرسان التي رافقته، بما في ذلك ابنه علي.
- ٤ - اختيار مجموعة من الفرسان داخل في إحكام خطة التمويه على السلطان، بإيهامه أن غاية الرحلة تفقدية، والاهتداء لهذه الحيلة الذكية يضمن له الوصول إلى غايته في هدوء وراحة، دون كبير شبهة، إذ لو اختار ابن الخطيب الخروج وحده ليلاً ربما أتبعه السلطان جنده، وعاق سبله، وكان عاقبة أمره خسراً.
- ٥ - الخروج على هذه الصورة ربما بعث على ظن به حمل بعض الذخائر والنفائس، وهذا يجعله في موضع التهمة الشنيعة.

٦ - أن ابن الخطيب سار باتجاه الثغور الغربية قصداً، إلى أن سامت جبل طارق ثم انحرف إليه، مبالغاً في التعمية والتورية، فلا يتهم في حركته، ولا تتسرب أخباره مما يفسد عليه خطته.

٧ - أن ابن الخطيب كان يحمل معه التأشيرة وجواز السفر المؤذن بالدخول إلى التراب المغربي، متمثلاً في رسالة الإذن التي كتبها له السلطان عبد العزيز، وأرسلها له مع سفيره إلى الأندلس، كما مرت الإشارة.

٨ - خروج قائد جبل الفتح لتلقيه، بناء على الأوامر الصادرة من القصر المريني بذلك، وهذا يعني أن ابن الخطيب لم يخرج من غرناطة حتى رتبت الأمور، وعلم أن الأوامر الصادرة قد وصلت.

٩ - تجهيز قائد جبل طارق الأسطول البحري، على الفور لإجازته إلى سبتة وهذا يؤكد من جديد على إحكام الخطة، وتبنيّت النية مع الترصّد وسبق الإصرار، وقد دل التاريخ على الحالات التي تكون فيها الإجازات البحرية مفاجئة، كيف تتعثر الرحلة عبر البحر، ولو لمدة وجيزة.

١٠ - استقبال ولاية سبتة لابن الخطيب والاحتفاء به غاية الاحتفاء، تنوياً بمقامه، وتأكيداً على سابق إطلاعهم على خبر إجازته، وهذا يحيل على تطور تقنيات التواصل إبّانئذ.

هذه هي صيغة ابن خلدون في عرض خبر ابن الخطيب.

أما ابن الخطيب فقد عرض خبر خروجه بصورة تختلف نوعاً ما عن تلك التي عرضه بها صديقه ابن خلدون.

فعرضه أولاً محدداً تاريخ دخوله إلى سبتة، ملماً بشيء مما ذكره ابن خلدون قائلاً: "وَتَيَسَّرَ لِلْحَاقِّ بِيْلَادِهِ، [السلطان عبد العزيز]، وَالْحُصُولُ بِجَبَلِ الْفَتْحِ مِنْ إِيَالَتِهِ، وَالْجَوَازُ إِلَى سَبْتَةَ غُرَّةِ جُمَادَى الْآخِرِ مِنْ سَنَةِ ٧٧٣هـ - ١٣٧١م، فِي أُسْطُولِهِ، وَكَتَحَتْ أَقْصَى مَا يُؤَمَّلُ مِنْ بَرِّهِ" (٢٠٠).

تنبيه:

هذا هو التاريخ المذكور في نص الجزء الثاني من كتاب أعمال الأعلام الذي

حققه الأستاذ ليفي بروفنسال، وإني أشك في صحته، وأجزم أن التاريخ الصحيح هو سنة ٧٧٢هـ-١٣٧٠م، وذلك للاعتبارين الآتين:

١ - أنه مكتوب بالأرقام، وليس من عادة ابن الخطيب أن يؤرخ كذلك، لذلك لا أستبعد أن يكون هذا من عمل ليفي بروفنسال محقق الجزء الثاني الذي أرى أنه يحتاج إلى تحقيق آخر.

٢ - أن تاريخ الرسالة التي كتبها ابن خلدون إلى ابن الخطيب ردًا على رسالته التي بعثها إليه يخبره فيها عن فراره هو "يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعمائة" ^(٢٠١)، فيكون بين دخول ابن الخطيب سبتة وكتابة ابن خلدون الرسالة المذكورة حوالي أربعة أشهر، وهي مدة معقولة. كما عرض ابن الخطيب خبر خروجه مرة ثانية في رسالة الوداع التي كتبها لسلطانه، وقد انحرف إلى جبل الفتح.

ولاشك في أن ابن الخطيب كان قد أعد رسالة الوداع التي بعثها إلى سلطانه، وحينما وصل إلى الجبل، وودع ربعة الفرسان التي شيعته، أعطى الرسالة لابنه ليسلمها إلى سلطانه، والرسالة في غاية الطرافة، رقة وشدة، شفقة وقساوة، تواضعاً ورفعة، ضعفاً وقوة، فضلاً عن جمالها أسلوباً وبلاغة، ونصاعتها معنى، وعذوبتها جرساً حتى إن ابن خلدون، وهو الوحيد الذي جلبها، لم يخف إعجابه بها لفائدتها وغرابتها في بابها، ولولا هذه الدواعي لربما كانت في عداد الضائع والمفقود.

قال ابن خلدون مقدماً لهذه الرسالة: "وَكَانَ بَعَثَ إِلَيَّ [ابن الخطيب] مَعَ كِتَابِهِ نُسخةَ كِتَابِهِ إِلَى سُلْطَانِهِ ابْنِ الْأَحْمَرِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ، عِنْدَمَا دَخَلَ جَبَلَ الْفَتْحِ، وَصَارَ إِلَى إِيَالَةِ بَنِي مَرِينٍ، فَخَاطَبَهُ مِنْ هُنَالِكَ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَرَأَيْتُ أَنَّ أَثْبَتَهُ هُنَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ غَرَضِ التَّأْلِيفِ لِعَرَابَتِهِ وَنَهَائِيَّتِهِ فِي الْجُودَةِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَهْمَلُ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْإِطْلَاعِ، عَلَى أَحْبَارِ الدُّوَلِ فِي تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا" ^(٢٠٢).

ونحن بدورنا لا نهمل هذه البحث من بعض مضامين هذا الكتاب:

من جملة ما ذكره ابن الخطيب في هذه الرسالة التحفة شكلاً ومضموناً، حساً ومعنى، حتى لقد كادت المعاني فيها أن تتجسم، ومشاعره فيها أن تُنَسَم، وخلجات

نفسه فيها أن تتكلم، قوله مودعاً سلطانته، معزياً معذراً: "...مولاي كان الله لكم... وَتَوَلَّى أَمْرَكُمْ، أَسَلَّمْ عَلَيْكُمْ سَلَامَ الْوَدَاعِ، وَأَدْعُو اللَّهَ فِي تَيْسِيرِ الْلِقَاءِ وَالْاجْتِمَاعِ، بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالْانْصِدَاعِ.

وَأَقَرَّرْ لَدَيْكُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَسِيرُ الْأَقْدَارِ، مَسْلُوبُ الْاِخْتِيَارِ، مُتَقَلَّبٌ فِي حُكْمِ الْخَوَاطِرِ وَالْأَفْكَارِ، وَأَنَّ لَابْدَ لِكُلِّ أَوَّلٍ مِنْ آخِرٍ، وَأَنَّ التَّفَرُّقَ لَمَّا لَزِمَ كُلَّ أَشْيَيْنِ يَمُوتُ أَوْ فِي حَيَاةٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ، كَانَ خَيْرٌ أَنْوَاعِهِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ الْأَحْبَابِ مَا وَقَعَ عَلَى الْوُجُوهِ الْجَمِيلَةِ الْبَرِيَّةِ مِنَ الشُّرُورِ" (٢٠٣).

وقال معرباً عن حاله منذ قدم من المغرب بولده: "وَيَعْلَمُ مَوْلَايَ حَالَ عَبْدِهِ مُنْذُ وَصَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْمَغْرِبِ بِوَلَايَتِكُمْ، وَمَقَامِهِ لَدَيْكُمْ بِحَالِ قَلْقٍ وَقَلْعَةٍ، لَوْلَا تَغْلِيلُكُمْ، وَارْتِقَابُ اللَّطَائِفِ فِي تَقْلِيلِ قَلْبِكُمْ" (٢٠٤).

وقال مذكراً إياه الظروف السياسية التي تركه عليها حينما أعمل الفرار عنه، وجهده في ذلك، وتفانيه من أجل مصلحة الوطن: "... وَقَطَعَ مَرَاجِلَ الْأَيَّامِ حَرِيصًا عَلَى اسْتِكْمَالِ سِنِّكُمْ، وَنُهْوِصِ وَلَدِكُمْ، وَاضْطِلَاعِكُمْ بِأَمْرِكُمْ، وَتَمَكُّنِ هُدْنَةِ وَطَنِكُمْ، وَمَا تَحَمَّلَ فِي ذَلِكَ مِنْ تَرْكِ غَرَضِهِ لِغَرَضِكُمْ، وَمَا اسْتَقَرَّ بِيَدِهِ مِنْ عُهْوِيكُمْ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَمَّا تَسَبَّبَ لَكُمْ فِي الْهُدْنَةِ مِنْ بَعْدِ الظُّهُورِ وَالْعَزِّ، وَنُجْحِ السَّغِيِّ، وَتَأْتَى لِسِنِينَ كَثِيرَةً الصُّلْحُ، وَمِنْ بَعْدِ أَنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ بِالْأَنْدَلُسِ مُشْغَبٌ مِنَ الْقَرَابَةِ" (٢٠٥).

وقال مبرراً فراره على تلك الحال، وكاشفاً خواطره التي كانت باعثة على الانتقال: "... وَتَحَرَّكَ [ابن الخطيب] لِمُطَالَعَةِ الثُّغُورِ الْغَرْبِيَّةِ، وَقَرَّبَ مِنْ فُرْضَةِ الْمَجَارِ، وَاتَّصَالَ الْأَرْضِ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ، طَرَفَتُهُ الْأَفْكَارُ، وَزَعْرَعَتْ صَبْرَهُ رِيَا حُ الْخَوَاطِرِ، وَتَذَكَّرَ إِشْرَافَ الْعُمْرِ عَلَى التَّمَامِ، وَعَوَاقِبَ الْاسْتِغْرَاقِ، وَسِيرَةَ الْفُضْلَاءِ، عِنْدَ شُمُولِ الْبَيَاضِ، فَغَلَبَتْهُ حَالٌ شَدِيدَةٌ هَزَمَتْ التَّعَشُّقَ بِالشَّمْلِ الْجَمِيعِ، وَالْوَطَنِ الْمَلِيحِ، وَالْجَاهِ الْكَبِيرِ، وَالسُّلْطَانِ الْقَلِيلِ النَّظِيرِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ: "مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا" (٢٠٦).

وقال معترفاً بخطورة هذا المرتكب الذي ارتكبه، ومشيراً إلى ما سهله لديه لاستدراار شفاعته وإغضائه: "وَهَذَا الْمُرْتَكَبُ مَرَامٌ صَعْبٌ، لَكِنْ سَهْلَةٌ عَلَيَّ أُمُورٌ مِنْهَا:

أَنَّ الانْصِرَافَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ، لَمْ يَتَّعَيْنْ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصُّورَةِ، إِذْ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ
بَابِ الْمَحَالِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ مَوْلَايَ لَوْ سَمَحَ لِي فِي غَرَضِ الانْصِرَافِ لَمْ تَكُنْ لِي قُدْرَةٌ عَلَى مَوْقِفِ
وَدَاعِهِ، لَا وَاللَّهِ، وَلَكَانَ الْمَوْتُ أَسْبَقَ إِلَيَّ، وَكَفَى بِهِذِهِ الْوَسِيلَةَ الْحَبِيبَةَ الَّتِي يَعْرِفُهَا
وَسِيلَةً.

وَمِنْهَا: حِرْصِي عَلَى أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ دَعْوَايَ فِيمَا كُنْتُ أَهْتِفُ بِهِ، وَأُظَنُّ أَنِّي لَا
أُصَدِّقُ.

وَمِنْهَا اغْتِنَامُ الْمَفَارِقَةِ فِي زَمَانِ الْأَمَانِ، وَالْهُدْنَةِ الطَّوِيلَةِ، وَالِاسْتِغْنَاءِ، إِذْ كَانَ
الانْصِرَافُ الْمَفْرُوضُ ضَرُورِيًّا قَبِيحًا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالِ.

وَمِنْهَا: وَهُوَ أَقْوَى الْأَعْذَارِ: أَنَّنِي مَهْمَا لَمْ أُطِقْ تِمَامَ هَذَا الْأَمْرِ، أَوْ ضَاقَ نَزْعِي
بِهِ لِعَجْزٍ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ خَوْفِ طَرِيقٍ، أَوْ نَفَادِ زَادٍ، أَوْ شَوْقٍ غَالِبٍ، رَجَعْتُ رُجُوعَ الْأَبِ
الشَّفِيقِ، إِلَى الْوَلَدِ الْبَرِّ الرَّضِيِّ " (٢٠٧).

وقال منوهاً ببراءة ساحته، وعظيم آثاره، ونبل قصده، وإن أرايت صورة
خروجه: "... إِذْ لَمْ أُخْلَفْ وَرَائِي مَانِعًا مِنَ الرُّجُوعِ مِنْ قَوْلٍ قَبِيحٍ أَوْ فِعْلٍ، بَلْ خَلَفْتُ
الْوَسَائِلَ الْمَرْغِيَّةَ، وَالْآثَارَ الْخَالِدَةَ، وَالسَّيَرَ الْجَمِيلَةَ، وَانْصَرَفْتُ بِقَصْدٍ شَرِيفٍ، فَقُتْ بِهِ
أَشْيَاخِي، وَكِبَارَ وَطَنِي، وَأَهْلَ طُورِي، وَتَرَكْتُكُمْ عَلَى أَتَمِّ مَا أَرْضَاهُ، مُثْنِيًّا عَلَيْكُمْ، دَاعِيًا
لَكُمْ " (٢٠٨).

وقال مستعطفاً متذمماً، مستعذراً، مستغضياً: "فَإِنْ كَانَ تَصَرُّفِي صَوَابًا،
وَجَارِيًا عَلَى السَّدَادِ، فَلَا يُلَامُ مَنْ أَصَابَ، وَإِنْ كَانَ عَنْ حُمَقٍ، وَفَسَادِ عَقْلِ، فَلَا يُلَامُ مَنْ
اخْتَلَّ عَقْلُهُ، وَفَسَدَ مِزَاجُهُ، بَلْ يُعْذَرُ، وَيُشْفَقُ عَلَيْهِ، وَيُرْحَمُ " (٢٠٩).

وقال مستشفعاً بحسناته عن ذنوبه: "وَإِنْ لَمْ يُعْطِ مَوْلَايَ أَمْرِي حَقَّهُ مِنْ
الْعَذْلِ، وَجَلِبَتِ الذُّنُوبُ، وَخَشِرْتُ بَعْدِي الْعُيُوبُ، فَحَيَاؤُهُ وَتَنَاصُفُهُ يُنَكِّرُ ذَلِكَ،
وَيَسْتَحْضِرُ الْحَسَنَاتِ، مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّغْلِيمِ، وَخَدَمَةِ السَّلَفِ، وَتَحْلِيدِ الْآثَارِ، وَتَسْمِيَةِ
الْوَلَدِ، وَتَلْقِيبِ السُّلْطَانِ، وَالْإِرشَادِ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْمُدَاخَلَةِ وَالْمُلَابَسَةِ، لَمْ يَخْلُلْ

ذَلِكَ قَطُّ حَيَاتُهُ، فِي مَالٍ وَلَا سِرٍّ، وَلَا غِشٍّ فِي تَدْبِيرٍ، وَلَا تَعَلُّقٍ بِهِ عَارٍ، وَلَا كَدَرُهُ نَقْصٌ، وَلَا حَمْلُهُ عَلَيْهِ خَوْفٌ مِنْكُمْ، وَلَا طَمَعٌ فِيمَا بِيَدِكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ دَوَاعِي الرَّغْبِ وَالْوُصْلَةِ وَالْإِبْقَاءِ، فَفِيمَ تَكُونُ بَيْنَ بَنِي آدَمَ؟" (٢١٠).

وقال في حنو وتعطف موصياً إياه: "وَأَنَا قَدْ رَحَلْتُ، فَلَا أُوصِيكُمْ بِمَالٍ، فَهُوَ عِنْدِي أَهْوَنُ مَتْرُوكٍ، وَلَا بَوْلَدٍ فَهُمْ رِجَالُكُمْ، وَخُدَّامُكُمْ، وَمِمَّنْ يَخْرِصُ مِثْلَكُمْ عَلَى الْاِسْتِثْنَاءِ مِنْهُمْ، وَلَا بَعِيَالٍ، فَهِيَ مِنْ مُرَبِّيَاتِ بَيْتِكُمْ، وَخَوَاصِ دَارِكُمْ.

إِنَّمَا أُوصِيكُمْ بِحَظِّي الْعَزِيزِ، كَانَ عَلَيَّ بِوَطْنِكُمْ، وَهُوَ أَنْتُمْ، فَأَنَا أُوصِيكُمْ بِكُمْ، فَارْعُونِي فِيكُمْ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْعَمَلِ لِعَدٍ، وَقَبْضِ عِنَانِ اللَّهِ فِي مَوَاطِنِ الْجِدِّ، وَالْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ الَّذِي مَحَصَ وَأَقَالَ وَأَعَادَ النِّعْمَةَ بَعْدَ زَوَالِهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

وَأَطْلُبُ مِنْكُمْ عَوَضَ مَا وَفَّرْتُهُ عَلَيْكُمْ، مِنْ زَادٍ طَرِيقٍ، وَمُكَافَأَةٍ، وَإِعَانَةٍ، زَادًا سَهْلًا عَلَيْكُمْ، وَهُوَ أَنْ تَقُولُوا لِي: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا ضَيَعْتَ مِنْ حَقِّي خَطَأً أَوْ عَمْدًا، وَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيتُ" (٢١١).

وقال معتداً بنفسه مفتخراً بشخصه: "وَأَعْلَمُوا أَيُّضًا عَلَى جِهَةِ النَّصِيحَةِ أَنَّ ابْنَ الْخَطِيبِ مَشْهُورٌ فِي كُلِّ قُطْرٍ، وَعِنْدَ كُلِّ مَلِكٍ، وَاعْتِقَادُهُ وَبِرُّهُ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ، وَذِكْرُهُ بِالْجَمِيلِ، وَالْإِذْنُ فِي زِيَارَتِهِ، نَجَابَةٌ مِنْكُمْ، وَسَعَةُ ذَرْعٍ، وَدَهَاءٌ، فَإِنَّمَا كَانَ ابْنُ الْخَطِيبِ بِوَطْنِكُمْ سَحَابَةً رَحْمَةً، نَزَلَتْ، ثُمَّ أَقْشَعَتْ، وَتَرَكْتَ الْأَزْهَرَ تَفُوحَ، وَالْمَحَاسِنَ تُلُوحَ" (٢١٢).

وقال ممتناً عليه: "وَمِثَالُهُ [ابن الخطيب]، مَعَكُمْ مِثَالُ الْمَرْضِعَةِ أَرْضَعَتْ السِّيَاسَةَ، وَالتَّدْبِيرَ الْمَيْمُونَ، ثُمَّ رَقَدَتْكُمْ فِي مَهْدِ الصُّلْحِ وَالْأَمَانِ، وَغَطَّتْكُمْ بِقِنَاعِ الْعَافِيَةِ، وَأَنْصَرَفَتْ إِلَى الْحَمَامِ تَغْسِلُ اللَّبَنَ وَالْوَضْرَ، وَتَعُودُ فَإِنْ وَجَدَتِ الرِّضِيعَ نَائِمًا فَحَسَنَ، أَوْ قَدْ انْتَبَهَ فَلَمْ تَتْرُكْهُ إِلَّا فِي حَدِّ الْفِطَامِ" (٢١٣).

وقال مقسماً على شرفه ونزاهته وصدقه: "وَنَحْتِمُ لَكُمْ هَذِهِ الْغَزَارَةَ بِالْخَلْفِ الْأَكِيدِ، إِنِّي مَا تَرَكْتُ لَكُمْ وَجْهَ نَصِيحَةٍ فِي دِينٍ، وَلَا دُنْيَا، إِلَّا وَقَدْ وَفَّيْتُهَا لَكُمْ، وَلَا

فَارْقُتْكُمْ إِلَّا عَنْ عَجْزٍ وَمِنْ ظَنٍّ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ ظَلَمَنِي وَظَلَمَكُمْ، وَاللَّهُ يُرْشِدُكُمْ وَيَتَوَلَّى أَمْرَكُمْ.

وَنَقُولُ خَاطِرُكُمْ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ" (٢١٤).

ذلك كان جل مضمون الرسالة جلبته لأهميته بالنسبة لمن يتطلع إلى دقائق الأمور من حياة ابن الخطيب، جرّأتها بحسب الأغراض دفعا للملل الاسترسال في القراءة، وإن كانت ممتعة، وتوخيا لما يقتضيه المنهج في التعامل مع النصوص المقتبسة.

وقال أيضاً مجملاً قصده كاشفاً عن بواعث فراره، مدافعاً عن طهارة ذيله، وزكاء نمته، وبراءة ساحته، ونبل غايته، وشرف بغيته على صعوبة مرتكبه: "وَفَارَقْتُ الْأَهْلَ وَالْمَالَ، وَالْوَلَدَ وَالْجَاهَ، الَّذِي بَلَغَ الْأَمَدَ، لَا لِذُنْيَا ثَانِيَةٍ نَفْتَاضُهَا مِنَ الْمُطْلَقَةِ، وَلَا لِخِدْمَةٍ نَسْتَأْنِفُهَا عَوْضَ تِلْكَ الْمُطْرَحَةِ، وَلَا لِفِرَارٍ أَمَامَ جِنَايَةٍ، وَلَا لِفَتَكَةٍ فِي مَالٍ جَبَايَةٍ، وَلَا لِتَفْوِيتٍ مَعْقِلٍ لِعَدُوِّ الْمِلَّةِ، وَلَا لِسَفْكَ دَمٍ يَطْلُبُنِي بِتَبَعَةٍ، وَلَا لِخِيَانَةٍ فِي أَهْلِ، وَلَا لِسَعْيٍ إِلَى مَلِكٍ، نَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، إِنَّمَا تَلَخَّصَ قَصْدِي بَعْدَ تَبْخِيلِهِ فِي الْفِرَارِ إِلَى الرَّاحَةِ، وَالتَّفَادِي مِنْ حَمْلِ الْكُلْفَةِ، وَالْاشْتِغَالِ بِمَا يَعْنِي لَكِنْ فِي ظِلِّ الْعَافِيَةِ، وَتَحْتَ سَحَابِ النُّعْمَةِ، وَذِمَّةِ الْحُرْمَةِ" (٢١٥).

ومخاطبة ابن الخطيب ابن خلدون على وجه الخصوص في هذه الظروف لها دلالتها الروحية والسياسية، فابن خلدون كان من أقرب الناس نفساً إلى ابن الخطيب دلّ على ذلك الماضي المشترك، وكذلك الرسائل الحميمية المتبادلة بينهما، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية كان ابن خلدون من الشخصيات التي لها وزنها السياسي والروحي في المنطقة برمتها، سواء تعلق الأمر بالمغرب الأقصى، أو بالمغرب الأوسط، أو المغرب الأدنى، فالمحافظة على التواصل الدائم بينهما مهم وضروري، خاصة بالنسبة لابن الخطيب الذي ربما احتاج إلى وساطته وشفاعته، إن تحرّز به أمر، أو طرده شأن، ومستقبل الأيام أكد ذلك كما سنرى.

المطلب الثالث

تداعيات عملية الفرار

المقصد الأول - ردود الأفعال من فراره:

أولاً - رد فعل ابن خلدون:

أما موقف ابن خلدون من فرار ابن الخطيب على هذه الصورة، فيهمنا معرفته لأنه كان نجيّه الذي أثره بخبره، وخاصته التي باح لها بمكنون سره قبل غيره، ولأنه أيضاً عمدة ووثيقة في كثير من خاصة أمره وخاصة قصة فراره، وعواقبها ونهايتها، ولا أدل على ذلك من الرسالة التحفة التي حفظها لنا تاريخه.

لقد كان فرار ابن الخطيب على هذه الصورة مفاجأة لابن خلدون نفسه، لما أكد على الاحتمالين الآتيين:

إما أن يكون الفرار سبيلاً اهتدى إليه قبيل إعماله أدى إليه نفاذ صبره.

وإما أنه كان سرّاً دفيناً في صدره ضنّ به حتى على خاصته، وأقرب الناس إلى نفسه، حرصاً على سلامته.

يقول ابن خلدون في رسالته المشار إلى تاريخها والتي كتبها رداً على رسالة ابن الخطيب التي أخبره فيها بفراره: "وَأَقْدْتُ فِي كِتَابِكُمُ الْعَزِيزِ عَلَيَّ، الْجَارِي عَلَى سَنَنِ الْفَضْلِ، وَمَذْهَبِ الْمَجْدِ، غَرِيبَ مَا كَيْفَهُ الْقَدَرُ، مِنْ تَنْوِيعِ الْحَالِ لَدَيْكُمُ، وَعَجِبْتُ مِنْ تَأْتِي أَمْلِكُمُ الشَّارِدِ فِيهِ كَمَا كُنَّا نَسْتَبْعِدُهُ عِنْدَ الْمَفَاوِضَةِ" (٢١٦).

ثم قال يهنئه ويحمد له خلاصة بهذه الكيفية: "... فَحَمَدْتُ اللَّهَ لَكُمْ عَلَى الْخَلَاصِ مِنْ وَرَطَةِ الدَّوْلِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، وَأَجْمَلَ الْمَخَارِجِ الْحَمِيدَةِ الْعَوَاقِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْدِّينِ، وَالْعَائِدَةِ بِحُسْنِ الْمَالِ فِي الْمُخْلَفِ، مِنْ أَهْلِ وَكَلَدٍ وَمَتَاعٍ، وَأَثَرٍ، بَعْدَ أَنْ رُضْتُمْ جَمُوحَ الْأَيَّامِ، وَتَوَقَّلْتُمْ قَلِيلَ الْعِزِّ، وَقُدْنْتُمْ الدُّنْيَا بِخَذَافِيرِهَا، وَأَخَذْتُمْ بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَى أَهْلِهَا، وَهَنِيئاً فَقَدْ نَالَتْ نَفْسُكُمْ التَّوَاقَةَ أَبْعَدَ أَمَانِيهَا، ثُمَّ تَأَقَّتْ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ لِمَا أَلْهَمْتُمْ لِلْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا، وَنَزَعَ الْيَدِ مِنْ حُطَامِهَا عِنْدَ الْأَصْحَابِ

وَالْإِقْبَالِ، وَنَهَى الْأَمَالَ إِلَّا جَذْبًا وَعِنَايَةً مِنَ اللَّهِ، وَحُبًّا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا يَسِّرْ أَسْبَابَهُ" (٢١٧).

وقال في خاتمة الرسالة يطمئنه ويقوي جنانه، محسنًا لما فعله: "... فَأَطْلِعُونِي طُلُعَ ذَلِكَ وَلَا يَهْمُكُمْ، فَالْفِرَاقُ الْوَاقِعُ حَسَنٌ، وَالسُّلْطَانُ كَبِيرٌ، وَالْأَثَرُ جَمِيلٌ، وَالْعَدُوُّ السَّاعِي قَلِيلٌ وَحَقِيرٌ، وَالنِّيَّةُ صَالِحَةٌ، وَالْعَمَلُ خَالِصٌ، وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ لَهُ" (٢١٨).

وقال مقررًا غبطته على ما عقد عليه عزمه من انقطاع وانقباض وخلوة، في لغة فيها شغوف كبير، وتسجل بدايات نزوع ابن خلدون نفسه إلى ما نزع إليه صديقه ابن الخطيب: "... فالظنُّ أنَّ هَذَا الْبَاعِثَ الَّذِي هَزَمَ الْأَمَالَ، وَنَبَذَ الْحُظُوظَ، وَهَوَّنَ الْمَفَارِقَ الْعَزِيزَ، يَسُومُكُمْ الْفِرَارَ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى يَأْخُذَ بِيَدِكُمْ إِلَى فُضَاءِ الْمَجَاهِدَةِ، وَيَسْتَوِي بِكُمْ عَلَى جُودِي الرِّيَاضَةِ، وَاللَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَكَأَنِّي بِالْأَقْدَامِ نَقَلْتُ، وَبِالْبَصَائِرِ بِإِلْهَامِ الْحَقِّ صَقَلْتُ، وَالْمَقَامَاتِ خُلُفْتُ بَعْدَ أَنْ اسْتَقْبَلْتُ، وَالْعِرْفَانِ شِمِثْتُ أَنْوَارَهُ وَبَوَارِقَهُ، وَالْوُصُولِ انْكَشَفَتْ حَقَائِقُهُ لَمَّا ارْتَفَعَتْ عَوَائِقُهُ" (٢١٩).

ثانياً - قلق أولاده وتدخل السلطان المريني لإيفادهم:

كانت نية ابن الخطيب بعد التقاط أنفاسه، واستجماع قوته، واستراحته في سبته برهة، أن ينصرف مباشرة إلى سلا، حيث يستريح قليلاً، ثم يشرع بعدئذ في الإعداد لرحلته الحجازية، لكنه فوجئ في طنجة وهو مغذ سيره إلى "سلا" برسالة بعثها إليه أولاده، يعبرون له عن وحشتهم وقلقهم من مضايقة السلطان لهم، بعد شيوع خبر فرار ابن الخطيب المفاجئ، قال ابن الخطيب: "وَكَانَتِ النِّيَّةُ صَرَفَ الْوَجْهِ إِلَى مَدِينَةِ سَلَا، حَتَّى أُبْلِعَ النَّفْسَ رَيْقَهَا، وَأَخْطَبَ لِأَفْكَارِي هُدُوءَهَا، ثُمَّ أَمَدُّ الْيَدَ إِلَى ثَمَرَةِ الْهَجْرَةِ، وَأُسْرِعُ فِي الرَّحْلَةِ، فَاتَّصَلَ بِي وَأَنَا بِطَنْجَةِ، كِتَابٌ وَلَدِي، وَقَدْ اسْتَوْحَشُوا وَرَابَهُمْ اسْتِيحَاشُ السُّلْطَانِ، وَتَوَقَّعُوا الْإِغْرَاءَ بِهِمْ، وَتَطَرَّقَ الشَّرُّ إِلَيْهِمْ" (٢٢٠).

هذا الطارق الجديد الذي طرقه، جعله يصرف وجهه إلى السلطان عبد العزيز لاستشفاعه بالوساطة في شأن ولده المتخلف، ولما كان السلطان في تلمسان التي

دخلها فاتحاً منتزعا إياها من يد أصحابها بني عبد الواد، اضطر ابن الخطيب إلى الانتقال إلى تلمسان، يقول: "فَصَرَفْتُ وَجْهِي إِلَى الْبَابِ الْعَزِيزِيِّ فِي سَبِيلِ اسْتِحْلَاصِهِمْ، وَقَدِمْتُ عَلَيْهِ بِتِلْمَاسَانَ، فِي التَّاسِعِ عَشَرَ لِرَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ [٧٧٢هـ - ١٣٧٠م]" (٢٢١).

وكان الاستقبال حاراً، والحفاوة بالغة أقصى غايات التجلة والتشريف، والإكرام تنويهاً واعترافاً بالجميل والفضل، يقول: "فَتَلَقَّانِي بِمَا يَلِيقُ بِحَسَبِهِ، وَشَرَفَ مَذْهَبِهِ، مِنْ إِرْكَابِ الْخَاصَّةِ، وَرَفْعِ الْحُجْبَةِ، وَرَغْيِ الْوَسِيلَةِ، وَدُنُو الْجُلْسَةِ، وَإِجْرَاءِ النُّعْمَةِ" (٢٢٢).

ومن تلمسان كتب ابن الخطيب رسالته آنفة الذكر إلى صديقه ابن خلدون يطلعه بخبره، وينبئه بفراره، ولقد أشار ابن خلدون إلى هذا الاستقبال النبهي الذي خص به ابن الخطيب بقوله: "... وَسَارَ [ابن الخطيب] إِلَى السُّلْطَانِ بِتِلْمَاسَانَ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمَا [السلطان ووزيره] فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَتَلَقَّاهُ السُّلْطَانُ مِنَ الْخُطْوَةِ وَالتَّقَرُّبِ وَإِدْرَارِ النِّعَمِ بِمَا لَا يُعْهَدُ مِثْلُهُ" (٢٢٣).

كما أشار إلى ذلك في مراجعته ابن الخطيب رداً على كتابه الذي بعثه من تلمسان، محقراً فخامة التكريم الذي خص به، لأنه جاء في زمن عزوف ابن الخطيب عن الدنيا وزخارفها، قال مخاطباً إياه: "وَأَتَّصَلَ بِي مَا كَانَ مِنْ تَحْفِيِ الْمَثَابَةِ الْمُؤَلَوِيَّةِ بِكُمْ، وَاهْتِزَازِ الدَّوْلَةِ لِقُدُومِكُمْ، وَمِثْلُ تِلْكَ الْخِلَافَةِ، أَيَّدَهَا اللَّهُ، مَنْ يُثَابِرُ عَلَى الْمَفَاجِرِ، وَيَسْتَأْثِرُ بِالْأَخَابِرِ، وَلَيْتَ ذَلِكَ عِنْدَ إِقْبَالِكُمْ عَلَى الْحِظِّ، وَأَنْتُمْ بِاجْتِلَابِ الْأَمَالِ، حَتَّى يَخْسَنَ الْمَتَاعُ بِكُمْ، وَيَجْمَلَ السَّرِيرُ الْمُؤَكِّي بِمَكَانِكُمْ" (٢٢٤).

وانطلاقاً من نص ابن الخطيب الأنف الذي وردت فيه الإشارة إلى تاريخ لحوقه بالسلطان في تلمسان، تكون المدة الزمنية الفاصلة بين دخوله سبته، ودخوله تلمسان حوالي شهر وتسعة عشر يوماً.

ومن تلمسان بادر السلطان عبد العزيز المريني بالاستجابة لرغبة ابن الخطيب

وحسم داء هواجسه وقلقه على أولاده المتخلفين بالأندلس، يقول ابن الخطيب: "وَبَادَرَ إِلَى طَلَبِ الْأَهْلِ بِإِعْمَالِ بَنَانِهِ، بِحَسَبِ مَا رَسَمْتُهُ مِنَ الْعِبَارَةِ" (٢٢٥).

وقال ابن خلدون: "...وَأُخْرِجَ [السلطان عبد العزيز] لَوْقَتِهِ كَاتِبُهُ أَبَا يَحْيَى بْنَ أَبِي مَذِينٍ سَفِيرًا إِلَى صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ فِي طَلَبِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ" (٢٢٦).

ولم تكن مسألة استقدام ولد ابن الخطيب وأهله صعبة، أو مثيرة للضغينة والأحقاد كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل كانت سهلة وميسرة تجلت فيها جميع معاني الفضل والوفاء، والاعتراف بالجميل، كما أكدت النصوص التاريخية، بل وسجلت أيضاً حزن السلطان عليه وحرقة على فراره، امتعاضاً لفراقه، واشتياقاً لقربه، لا أقل ولا أكثر تأكيداً على تفهمه، وتبرئة لساحته، يقول ابن الخطيب متأثراً لذلك شفقة وحنواً، على عادته: "وَتَلَقَّى رَسُولُهُ [رسول السلطان عبد العزيز] مِمَّنْ فَرَرْتُ عَنْهُ [السلطان الغني بالله] مَا يَرِيقُ لَهُ نُوْ النَّفْسِ الْحُرَّةِ، وَيُؤْثِرُهُ مُبْتَغِي الْوَسِيلَةِ، وَإِزْسَالِ الْعَبْرَةِ، وَاسْتِفْظَاعِ الْفُرْقَةِ، وَتَقْرِيرِ مَا كَانَ لِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمُحَافَظَةِ وَالْمُودَّةِ، وَاعْتِرَافِ بِبِرَائَتِي فِي وَطَنِهِ مِنَ التَّبِعَةِ، وَصَرْفِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، قَاضِيًا لِلْحَاجَةِ، مُقَدِّرًا فِي الطَّرِيقِ بِنِيَّةِ الْجَرَايَةِ" (٢٢٧).

ولقد أكد هذا الأمر ابن خلدون أيضاً بقوله: "... فَجَاءَ بِهِمْ [السفير] عَلَى أَكْمَلِ حَالَاتِ الْأَمْنِ وَالتَّكْرَمَةِ" (٢٢٨).

وهذه النصوص تؤكد أنه لحد التاريخ الذي ذكر لم يثر فرار ابن الخطيب أية حساسية بالنسبة لقصر الحمراء، واعتبر حقاً طبيعياً مشروعاً وواجباً شرعياً مرعياً. كما أكد على أن التحول الذي سيطر بشأنه لاحقاً، وانقلابه إلى ضده مستقبلاً سيكون بسعاية الساعين، ووشاية الواشين، وإرجاف المرجفين.

المقصد الثاني - السعاية ضده:

ما أن وصل ولد ابن الخطيب إلى المغرب، واستقرارهم فيه حتى بدأ في الإعداد لوجهته المشرقية، التي طالما حلم بها، منتظراً توجه الربعة، وانطلاق السفرة،

يقول: "وَشَرَعْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى وَجْهَتِي الْحَاجِزِيَّةِ، فَعَلِقَ لِي الْوَعْدُ بِتَوَجُّعِهِ الرَّبُّعَةِ، وَالشُّرُوعَ فِيمَا يَخُصُّ ذَلِكَ مِنَ الْعَزْمَةِ، فَأَخَذْتُ فِي تَقْدِيرِ الْإِقَامَةِ، وَانْتِظَارِ رَكْبِ الرَّحْلَةِ" (٢٢٩).

بيد أن الذي لم يتوقعه ابن الخطيب داهمه، كالسيل العارم يَمُمُهُ، فتحول الفرار خيانه، والنزوح جريمة، فدبت إليه عقارب السعاية، وحيات الوشاية، واستهدف بالتهمة والنكاية.

قال ابن خلدون: "ثُمَّ لَغَطَ الْمُنَافِسُونَ لَهُ فِي شَأْنِهِ وَأَغْرَوْا السُّلْطَانَ بِتَتَبُعِ عَثَرَاتِهِ، وَأُبْدِيَ مَا كَانَ كَامِنًا مِنْ سَقَطَاتِ دَالَّتِهِ، وَإِخْصَاءِ مَعَايِبِهِ" (٢٣٠).

أما ابن الخطيب فقد أدرك بواعث هذا التحول، وأرجعه إلى الحسد والغيرة، يقول: "وَبَلَغَ الْخَبْرُ بِهَذَا الْاِخْتِصَاصِ وَالْاِصْطِفَاءِ [من قبل الإيالة المرينية] وَالْمِزِيَّةِ عَلَى الْجُلَسَاءِ، وَإِعْمَالِ النَّوَاءِ بِهَذَا الْبَابِ السَّامِيِّ الْعَلَاءِ، فَعَجَزَ مِنْهُ الصَّبْرُ، عَنْ تَحْمُلِ الْغَيْبَةِ" (٢٣١).

ولقد أشار النص أيضاً إلى بواعث هذه الغيرة، وهي:

- ١ - الاختصاص والاصطفاء.
 - ٢ - إثارة المزية على كافة الجلساء.
 - ٣ - قرار ابن الخطيب الإقامة والنواء بالإيالة المرينية.
- الأمر الذي جعل سلطانه بالأندلس يظن أنه بنى على الإقامة الدائمة، وخدمة المثابة السلطانية بالمغرب، فآثار غضبه، وقوى حنقه، يقول ابن الخطيب: "وَحَكَّمَ الْمَسْئَلَةَ، وَقَطَعَ بِأَنِّي بَنَيْتُ فِي الْبَابِ الْمَرِينِيِّ عَلَى الْخِدْمَةِ" (٢٣٢).

عندئذ، جدَّ جدُّ الوشاة والساعين، واشتد كلبهم، وأكلت نيران الغيرة أفئدتهم. وكان الذي تولى كبر ذلك أولاً، قرابة السلطان النصري المقيمين بالمغرب اللاجئين، ولعله كان من ضمنهم أولئك الذين تم تغريبهم، وإقصاؤهم من الأندلس. عل عهد ابن الخطيب، وبإيعاز منه، إثارة للأمن ودفعاً للشغب عن الملك كما عرفنا.

واستطاعت الدعاية أن تنجح في طي فضائل الرجل، ونشر مثالبه التي نقروا عنها في جميع آثاره، وما أكثر عيوب الرجال في عين الحاسد الحاقد، وخاصة إذا تعلق الأمر برجل أمضى أكثر من شطر حياته في العمل السياسي، الذي لا يخلو من العثرات والزلات.

قال ابن الخطيب كاشفاً عن جهة الإتهام: "وَكثُرَتْ عَلَيْهِ [السلطان] فِي جِهَتِي كُتُبُ السُّعَايَةِ، مِمَّنْ جَلَا عَنْ وَطَنِهِ مِنَ الْقَرَابَةِ" (٢٣٣)

المقصد الثالث - تهمة الزندقة:

أما التهمة التي لفقت له مبالغة في تفخيم الحجة، ودفع الحاجة، وقطع السنة الرد، فهي جريمة الزندقة، تلك التهمة التقليدية، التي طالما تذرع بها من بيده الأمر، لتغليظ العقوبة واستباحة الدم البريء.

إنها الامتعاظ الكاذب للدين، والغيرة المغرضة على العقيدة، قال ابن خلدون: "وَشَاعَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَعْدَائِهِ كَلِمَاتٌ مَنُشُوبَةٌ إِلَى الزُّنْدَقَةِ أَحْصَوْهَا عَلَيْهِ وَنَسَبُوهَا إِلَيْهِ" (٢٣٤).

وقال ابن الخطيب معرضاً بذلك دون أن يصرح بحقيقة التهمة، مدافعاً بالحجة عن نفسه: "فَتَنَأَتَى لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا خُلِصَ لِي أَجْرُهُ، وَعَظُمَ لَدَيْهِمْ وَرْزُهُ، لَا بِشَهَادَةِ عَدْلٍ مَقْبُولٍ، وَلَا ثَبُوتِ حُطِّ مَعْرُوفٍ، إِنَّمَا هِيَ أَلَا قِي رَاشَهَا الْهَوَى وَبَرَاهَا، مَعَ بَرَاءَتِي مِنْ لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا، وَمَوْحِدِهَا وَمُنْتَاهَا، زُورٌ حُسَّادٍ، وَبَضَائِعُ أَسْوَاقٍ فَسَادٍ" (٢٣٥).

ويسجل التاريخ أيضاً معرة من معرات من ينسبون إلى الفقه والدين، وفضيحة من فضائح أشباه المتفقيين، من رجال الدين الذين لا يعظمون حرمة المسلمين، ويخلطون السياسة بالدين، عند الانتصار للسياسة على حساب الدين.

ومن غريب الأقدار، أن زعماء هذه الوصمة كانوا حسنة من حسنات لسان الدين بشهاداتهم التي حفظها عنهم التاريخ قبل تنكرهم للسان الدين.

فكان الأول قاضي قضاة حضرة الملك، تولى كبر القضية إفتاء، وأقر التهمة

افتراء، دون تبين أو تثبت، كأنها قضية نكاح أو طلاق، أو بيع أو شراء، إنه: القاضي أبو الحسن النباهي^(٢٣٦).

وكان الثاني تلميذه ونتيجة تربيته، وصنيعة تأديبه، الأديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن زمرك الذي رقاها ابن الخطيب في معارج الخطة حتى طار في سمائها نجماً.

وكلاهما حفظ التاريخ ثناءهما عليه، وإجلالهما له، بأسمى آيات التبجيل والتقدير، قبل تحولهم وتغيرهم.

قال ابن خلدون: "ورُفِعَتْ [الكلمات المنسوبة إلى الزندقة] إِلَى قَاضِي الْخَضِرَةِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ، فَاسْتَرْعَاهَا، وَسَجَّلَ عَلَيْهِ بِالزُّنْدَقَةِ، وَرَاجَعَ صَاحِبُ الْأَنْدَلُسِ رَأْيَهُ فِيهِ، وَبَعَثَ الْقَاضِي أَبَا الْحَسَنِ إِلَى السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ بِتِلْكَ السَّجَلَاتِ وَإِمْضَاءِ حُكْمِ اللَّهِ فِيهِ" ^(٢٣٧).

أما ابن الخطيب الذي كان واثقاً من نفسه، مستنكراً للتهمة، فقد أدرك دوافع القوم، وهو السياسي الذي لا تخفى عليه أطماع الطامعين، وطموحات الطامحين، قائلاً دون أن يعين أو يسمي: "وَأَعْمَلَ مَنْ لَدَيْهِ مِنَ الْخُدَّامِ الَّذِينَ خَلَا لَهُمُ الْجَوُّ مِنِّي، وَسَرَحَتْ حَبْلُهُمْ، بَعْدَ رَحِيلِ صَفَرِي، أَقْصَى الْقُدْرَةِ فِي إِفْسَادِ حَالِي لَدَيْهِ، بِأَنْوَاعِ السَّعَايَةِ، وَفُنُونِ النِّكَايَةِ، سَدًّا يُؤَمِّنُهُمْ مِنَ الرَّجْعَةِ، وَيَجِيرُهُمْ مِنَ الْقُفُولِ وَاللُّقْيَةِ" ^(٢٣٨).

لقد أرادوا أن يسدوا عليه الباب بهذا الشغب الذي أجلبوه، فلا يعود إلى الأندلس البتة، ولقد أفلحوا في ذلك غاية الفلاح.

ولما كانت التهمة سخيفة في جنب ما يعرف لابن الخطيب من فضل، وعمل يبيعه عن هذه السبة الملفة، لم تكن استجابة سلطان المغرب عبد العزيز سهلة، خشية اشتراكه في الذنب، ومروءة بما سلف من بره، فأعرض عن السفارة وردها خائبة، خاسئة، قال ابن خلدون: "... فَصَمَّ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنْفَ لِيْذَمَّتِهِ أَنْ تُخْفَرَ، وَلِجَوَارِهِ أَنْ يُرَدَّ، وَقَالَ لَهُمْ: هَلَا أَنْتَقَمْتُمْ مِنْهُ وَهُوَ عِنْدَكُمْ، وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ؟ وَأَمَّا أَنَا فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ أَحَدٌ مَا كَانَ فِي جَوَارِي" ^(٢٣٩).

هذه أبلغ الحجج في تبرئة ابن الخطيب واتهام الطالبين، فالزندقة تهمة لا يماطل صاحبها كل هذا الحين، أزيد من خمس سنين اعتباراً من تاريخ تأليف كتاب " المحبة " وأزيد من ذلك، إذ اعتبرت جميع كتاباته وأقصيت جميع سقطاته، وبناء على ذلك كان ينبغي أن يعاجل مقترف الزندقة بالحكم أول الأولين.

فالصمت كل هذه المدة، والكلام في زمن النقلة شبهة، لا يسلم لها نورو المروءة من المسلمين، فضلاً عن نوي الديانة من المؤمنين.

ولما أعجز السلطان الأندلسي وحاشيته طلب لسان الدين، تولوا على أعقابهم، يشفون غيظ صدورهم، ويصلتون سيوف انتقامهم، يستأصلون حسناته، ويعفون عن آثاره بما لا يزيد عليه، دل على ضعفتهم وقلة فهمهم، ونوك عقولهم وسخافة سياستهم، وقبح جهلهم، وفسل أخلاقهم، قال ابن الخطيب: "وَأَسْتَبْلَغُ الْمَجْهُودُ فِي اسْتِفْسَادِ هَذِهِ الْجَهَةِ الَّتِي أَنْقَلْتُ إِلَيْهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ، فَمَا وَجَدَ السَّعْيُ مَحَلًّا، وَلَا أَلَقِيَ الْمَكَائِدَ رَحْبًا لَدَيْهَا وَلَا أَهْلًا، فَعَادَ التَّشْفِي عَلَى النَّعَمِ، وَإِهَانَةِ الرَّمَمِ، وَإِحْرَاقِ الْمُصَنَّفَاتِ، وَمَحْوِ الْحَسَنَاتِ، وَتَغْيِيرِ الصَّدَقَاتِ" (٢٤٠).

وقال متأسفاً متحسراً على ذلك: "وَكُنْتُ لِغُرُورِي بِالزَّمَانِ، وَثِقْتِي مِنْهُ بِالْأَمَانِ، أَظُنُّ أَنَّ لَا سَبِيلَ لِلدَّهْرِ عَلَيَّ، وَلَا تَطَرُّقَ لَهُ إِلَيَّ، وَأَنَّ مُفَارَقَتِي لِمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ، إِنَّمَا هِيَ مُفَارَقَةُ أَبِي لَوْلَدٍ، وَقَلْبٍ لِخَلْدٍ، وَأَنَّ عَقَارِي الْمَوْرُوثِ وَالْمُكْتَسَبِ جَارٍ مَجْرَى الْوَقْفِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ، وَصَرِيحِ الشَّرِيعَةِ الَّذِي لَا يُتَأَوَّلُ، وَأَنَّ فَوَائِدَهُ تُلْحَقُ بِي حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْمَعْمُورِ" (٢٤١).

ولم يبخل السلطان عبد العزيز شأن جميع الملوك ممن سبق بإغداق الجراية على ابن الخطيب، وحفظ رسوم الود، ورعاية الفضل، الأمر الذي جعل ابن الخطيب يتطلع لبناء حياته المادية، وترتيب شؤونه العائلية من جديد، طلباً للاستقرار، ونشداً للأمن، خاصة إذا علمنا أن ابن الخطيب انتقل هو وولده صفر الدين من ممتلكاته.

ولما كان وجوده في تلمسان وجوداً عابراً، رهيناً بوجود السلطان عبد العزيز، لم يتخذ أي مبادرة لذلك في هذه المدينة، وربما كان ينتظر رجوعه إلى المغرب ليمد يده

إلى ذلك، وهكذا ستضطر الظروف السلطان وجمعه المكث في تلمسان إلى غاية الخميس ٢٢ من ربيع الثاني عام ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م، وهو تاريخ وفاة السلطان عبد العزيز.

فيكون ابن الخطيب بمقتضى هذا التاريخ وتاريخ دخوله تلمسان، وهو ١٩ رجب عام ٧٧٢هـ - ١٣٧٠م، قد قضى في هذه المدينة الجزائرية مدة واحد وعشرين شهراً وعشرة أيام تقريباً.

المقصد الرابع - تهمة الإغراء بملك الأندلس:

لاشك في أن مكث ابن الخطيب كل هذه المدة إلى جوار السلطان عبد العزيز، كان مبعث قلق لسلطان بني نصر وحاشيته، التي لم تنجح في الإيقاع بابن الخطيب، وربما بعث ذلك على الوسوس والشكوك، والريب والظنون.

ولقد طالعنا ابن خلدون بخبر غريب تفرد بذكره، وتبعه في ذلك من أخذه عنه، مفاده أن ابن الخطيب رغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس، قال ابن خلدون: "ثُمَّ تَأَكَّدَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ الْأَحْمَرِ، فَرَعَّبَ السُّلْطَانُ فِي مُلْكِ الْأَنْدَلُسِ، وَحَمَلَهُ عَلَيْهِ وَتَوَاعَدُوا لِذَلِكَ عِنْدَ مَرْجِعِهِ مِنْ تِلْمَسَانَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَنُمِيَ ذَلِكَ إِلَى ابْنِ الْأَحْمَرِ، فَبَعَثَ إِلَى السُّلْطَانِ بِهَدِيَّةٍ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا، انْتَقَى فِيهَا مِنْ مَتَاعِ الْأَنْدَلُسِ، وَمَاغُونَهَا، وَبِغَالِهَا الْفَارِهَةِ، وَمَغْلُوجِي السَّبْيِ وَجَوَارِيهِ، وَأَوْفَدَ بِهَا رُسُلَهُ، يَطْلُبُ إِسْلَامَ ابْنِ الْخَطِيبِ إِلَيْهِ، وَأَبَى السُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ وَنَكَرَهُ" (٢٤٢).

وينخل من هذين النصين استناداً إلى السياق الذي وردا فيه، ومقابلة بنصوص أخرى لها علاقة من قريب أو بعيد بوضع ابن الخطيب في هذه الآونة الأمور الآتية:

- ١ - فرار ابن الخطيب وبنائوه على الاستقرار بالمغرب أعطى الانطباع لدى القصر النصري أنه ربما بنى على خدمة السلطان عبد العزيز، وهذا أمر يزعجه.
- ٢ - ولد هذا الأمر ردود فعل عنيفة لدى السلطان النصري، فنهض ساعياً جهده في صرف ابن الخطيب عن ذلك، والاجتهاد في إبعاده عن القصر المريني.

٣ - أنه كان ينبغي على الجهة النصرية لكي تنجح مساعيها في الوصول إلى غاياتها أن تعدّ في شأن ابن الخطيب ملف تهمة تثبت بموجبه إدانته، ويعطي الحق لمتابعته قضائياً وسياسياً.

وهنا نجد أنفسنا أمام تهمتين ينفرد ابن خلدون بجلهما كما تأكدت الإشارة، تهمة الزندقة، وتهمة الإغراء بملك الأندلس.

ويجد الباحث بناء على السياقات المختلفة التي ورد فيها ذكر التهمتين صعوبة في ترتيبهما من حيث الأولوية للاعتبارات الآتية:

١ - أن ابن خلدون العمدة في هذا ذكر عند أول سياقته خبر فرار ابن الخطيب ومسألة التفاوض في شأنه بين القصر النصري، والقصر المريني، أن التهمة التي وجهت ضده كانت الزندقة، التي كان من ورائها منافسوه وحساده، وأن السلطان رفض الاستجابة لطلبهم.

٢ - أن ابن خلدون أيضاً حينما ألمّ بذكر فرار ابن الخطيب مرة أخرى في موضع آخر، وأشار إلى التصعيد الذي شهده الصراع بين ابن الخطيب وبين سلطانه من جهة، وبين السلطان النصري والسلطان المريني من جهة ثانية، ذكر النص آنف الذكر الذي يشير إلى إغراء ابن الخطيب السلطان عبد العزيز بتملك الأندلس.

لكنه ذكر ذلك في سياق آخر نرى ضرورة الإلماع إليه يقول: "... وَكَانَتْ عَيْنُهُ [ابن الخطيب] مُمَنَّدَةً إِلَى الْمَغْرِبِ، وَسُكْنَاهُ إِنْ نَزَلَتْ بِهِ آفَةٌ فِي رِيَاسَتِهِ، فَكَانَ لِذَلِكَ يُقَدِّمُ السَّوَابِقَ وَالْوَسَائِلَ عِنْدَ مُلُوكِهِ... وَلَمَّا لَحِقَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ [ابن أبي يفلوسن] بِالْأَنْدَلُسِ، اصْطَفَاهُ ابْنُ الْخَطِيبِ، وَاسْتَخْلَصَهُ لِنَجْوَاهُ، وَرَفَعَ فِي الدَّوْلَةِ رُتْبَتَهُ... وَحَمَلَ السُّلْطَانُ عَلَى أَنْ عَقَدَ لَهُ عَلَى الْغَزَاةِ الْمَجَاهِدِينَ...

وَلَمَّا اسْتَبَدَّ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بِأَمْرِهِ، وَاسْتَقَلَّ بِمُلْكِهِ، وَكَانَ ابْنُ الْخَطِيبِ سَاعِيًا فِي مَرْضَاتِهِ، عِنْدَ السُّلْطَانِ، فَدَسَّ إِلَيْهِ بِاعْتِقَالِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَفْلُوسَنَ، وَوَزِيرِهِ... وَأَدَارَ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي ذَلِكَ مَكْرَهُ، وَحَمَلَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِمَا، إِلَى أَنْ سَطَا بِهِمَا، وَاعْتَقَلَهُمَا، سَائِرَ أَيَّامِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَتَغَيَّرَ الْجَوُّ بَيْنَ ابْنِ الْأَحْمَرِ، وَوَزِيرِهِ ابْنِ

الخطيب، وأظلم، فَنَتَكَرَّ لَهُ فَتَزَعَ عَنْهُ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ... ثُمَّ تَأَكَّدَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ الْأَحْمَرِ، فَرَغَّبَ السُّلْطَانُ فِي مُلْكِ الْأَنْدَلُسِ^(٢٤٣).

والناظر في كلا الخبرين في كلا السياقين، يلحظ استناداً إلى النص الأول وسياقه، أن تهمة الزندقة كانت هي الأولى.

ويلحظ استناداً إلى النص الثاني وسياقه أن مسألة الإغراء بالملك كانت الأولى، مع ملاحظة غياب ذكر تهمة الزندقة.

كما يلاحظ أيضاً أن ابن خلدون عند ذكره للزندقة ذكرها في سياق يفيد أنها مجرد تهمة، بينما عند ذكره لمسألة الإغراء ذكرها في سياق يفيد أنها حقيقة، وهذا أمر محير يشي بالتناقض والاضطراب.

وفي تقديري أن التوفيق بين النصوص لأجل ترتيب الوقائع ترتيباً تاريخياً واقعياً مقبولاً يقتضي الأمرين الآتين:

١ - أن كلتا التهمتين، أشاعهما الصراع الدائر بين ابن الخطيب وبين منافسيه، وسلطانة المتأثر، بسبب الغيرة من جهة، والخوف من جهة ثانية.

٢ - أنه لما لم تجد تهمة الزندقة نفعاً، وهي قضية دينية تستثير العداوة بينه وبين عامة المسلمين، اخترعت تهمة الإغراء بالملك، وهي قضية سياسية تثير العداوة بينه وبين السلطان على وجه الخصوص.

وهكذا تستحكم المؤامرة فإذا سككت الأمة على ابن الخطيب لريبتها وتردها وعدم القدرة على الوصول إليه، فإن السلطان لا يمكن أن يسكت عليه لأن المسألة تتعلق بملكه ومصيره، وهو أمر لا يسلم فيه بأي ثمن.

وهذا يؤكد أن قضية الإغراء كانت هي الأخرى وشاية من الوشايات وإشاعة من الإشاعات التي ما فتئت تُخْتَلَقُ في شأن ابن الخطيب.

والآن وبعد هذه المعطيات والمبررات التي حاولنا من خلالها دفع التهمة عن ابن الخطيب هل بلغ بابن الخطيب الحنق إلى درجة إغراء سلطان المغرب بملك الأندلس؟

- في تقديره هناك قرائن كثيرة تتضافر للتأكيد على استبعاد مجازفة ابن الخطيب بهذه المجازفة الخطرة نذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:
- ١ - أن ابن الخطيب السياسي المحنك المعروف، بتوجهاته المعتمدة على حسن الحوار، وحفظ العوائد، وحرصه على الاستقرار، لا يمكن أن يفكر في هذا الأمر الذي ليس من السهل تحقيقه.
 - ٢ - أن الدولة المرينية وعلى رأسها السلطان عبد العزيز، حتى وإن أغراها ابن الخطيب بذلك لا يمكن أن تستجيب لما ينطوي عليه ذلك من خطورة، وآثار سلبية على أوضاع كلتا الدولتين.
 - ٣ - أن الدولة النصرية لم تكن من الضعف بمكان بحيث يغرى بملكها، ومستقبل الأيام أكد ذلك.
 - ٤ - أن ابن الخطيب إنما جاء إلى المغرب لطلب الاستقرار والراحة، فكيف تسول له نفسه العمل على أمر تشبُّ من خلاله فتنة لا ينطفئ أوارها، ولا تتوقف رحاتها.
 - ٥ - أن ابن الخطيب كان أمامه أكثر من حل عوض هذا الذي أشيع ضده، بل الرجل كان مستأماً للزمان، غافلاً عما تخبئه الأيام، حتى دارت عليه الدائرة، وواجه مصيره مواجهة الشجعان، الذين فاجأهم الحدثان، كما سئرى.
 - ٦ - أن ابن الخطيب، وهو الأعرف بأحواله ذكر حيثيات أخرى سنذكرها، ضمن العنصر اللاحق، أكد تسلسلها وتدرجها على موضوعيتها ووثوقيتها، ودفعت إشاعة الإغراء التي ذكرها ابن خلدون.

المطلب الرابع

ابن الخطيب عقب هلاك السلطان عبد العزيز

توفي السلطان عبد العزيز فجأة بسبب مرض مزمن كان مستولياً عليه، قال ابن خلدون: "وَكَانَ السُّلْطَانُ مُنْذُ أَوَّلِ نَشَأَتِهِ قَدْ أَرْمَنَتْ بِهِ الْحُمَى، بِمَا أَصَابَهُ مِنْ مَرَضِ النُّحُولِ... وَلَمَّا شَبَّ أَفَاقَ مِنْ مَرَضِهِ، وَصَلَحَ بَدَنُهُ، ثُمَّ عَاوَدَهُ وَجَعُهُ فِي مَثْوَاهُ بِتِلْمَسَانَ، وَتَزَايَدَ نُحُولُهُ، وَلَمَّا كَمَلَ الْفَتْحُ، وَاسْتَفْحَلَ الْأَمْرُ اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، وَصَابَرَ

الْمَرْضَ، وَكَتَمَهُ عَنِ النَّاسِ خَشْيَةَ الْإِزْجَافِ. وَاضْطَرَبَ مُعْسَكَرُهُ خَارِجَ تِلْمَسَانَ لِلْحَاقِّ بِالْمَغْرِبِ، وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ قَضَى مُتَوَدِّعًا بَيْنَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ (٢٤٤).

نزلت وفاة السلطان على ابن الخطيب كالصاعقة الداهية، لأنها كانت مفاجئة، ولأنه كان في جوار الذي هلك، فارتفع الأمن، واستبد الخوف، ونجمت الوساس والهواجس، ولقد عبّر ابن الخطيب عن هذه المصيبة بما أكد على يأسه قائلاً: "ثُمَّ ذَكَرَ الْجَبَلَ الْعَاصِمُ مِنَ الطُّوفَانِ، وَالْمُسَيْكُ لِلْأَرْضِ عِنْدَ الرَّجْفَانِ، فَكَانَ مَوْتُ الْمَوْلَى الْمَرْحُومِ أَبِي فَارِسٍ، الَّذِي أَوَيْنَا إِلَيْهِ، وَعَوَّلْنَا عَلَيْهِ، وَوَثِقْنَا بِوَعْدِهِ، وَتَمَسَّكْنَا بِعَهْدِهِ، فَأَنْحَرَقَ الْحِجَابُ، وَاسْتَأْسَدَتِ الذُّبَابُ، وَاسْتَنْسَرَتِ الْبُغَاةُ، وَالذُّبَابُ، وَظَنَّ أَنَّهَا الدَّاهِيَةُ الَّتِي لَا تُرْفَعُ، وَأَنَّ الْوَطْنَ بَعْدَهُ إِنَّمَا هُوَ السَّرَابُ الْبَلَقُ" (٢٤٥).

لكن سرعان ما حفظ الأمر، واستتب الأمن بكافل ولد السلطان الهالك، الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس، الذي احتمل ابن السلطان عبد العزيز الصبي الذي لم يبلغ الاحتلام، وأطلع الناس بخبر وفاة سلطانهم، وعرض عليهم بيعته ابنه هذا، فانعقدت البيعة تحت حجابته، وتصرفه، ثم انتقل الركب مغذاً السير إلى فاس، حيث أجلس الصبي للبيعة العامة (٢٤٦)، واستقامت الأمور.

وهذا الصبي هو الذي كتب ابن الخطيب في شأنه "إعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام".

قال ابن الخطيب في حق هذا الوزير: "... وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَدَّ مَسَدَهُ بِالْوَزِيرِ الَّذِي خَلَفَ الْعِمَادَ، وَصَانَ الْحَرِيمَ وَالْأَوْلَادَ، وَحَفِظَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَأَقَامَ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ، الْمَعْرُوفَ الْحَقَّ، الْمَشْهُورَ الْجِدَّ" (٢٤٧).

ولقد سار هذا الوزير تجاه ابن الخطيب سيرة سلطانه الهالك، جارياً في حقه على مذاهب الكرم والسداد، والصيانة والجوار، حيث انتقل صحبته إلى فاس وهناك شرع ابن الخطيب في بناء عشه، وإيواء ولده، وأهله، وقد طال بهم الطواف وسئمو نوال الكواف، قال ابن خلدون: "فَلَمَّا هَلَكَ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ

وَرَجَعَ بَنُو مَرِينٍ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتَرَكُوا تِلْمِصَانَ، سَارَ هُوَ [ابن الخطيب] فِي رِكَابِ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرِ بْنِ غَازِي الْقَائِمِ بِالدَّوْلَةِ، فَنَزَلَ بِفَاسٍ وَاسْتَكْتَرَّ مِنْ شِرَاءِ الضِّيَاعِ وَتَأَثَّقَ فِي بِنَاءِ الْمَسَاكِينِ، وَإِغْرَاسِ الْجَنَّاتِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ الْقَائِمُ بِالدَّوْلَةِ الرُّسُومَ الَّتِي رَسَمَهَا لَهُ السُّلْطَانُ الْمُتَوَفَّى، وَاتَّصَلَتْ خَالُهُ عَلَى ذَلِكَ " (٢٤٨).

وقد تثير عبارة "وَاسْتَكْتَرَّ مِنْ شِرَاءِ الضِّيَاعِ، وَتَأَثَّقَ فِي بِنَاءِ الْمَسَاكِينِ، وَإِغْرَاسِ الْجَنَّاتِ" التي ركن كثير من المؤرخين المعاصرين إليها موجة من التشكيك في نوايا الرجل، وإبطال صدق دعواه التي طالما لهج بها وتشوَّف إليها، وهي دعوى الانقطاع، إذ توحى هذه العبارة بالتعارض والتناقض، إذ كيف يجتمع في القلب بغض الدنيا الذي يدل عليه الإعراض عن الأعراض، وحب الدنيا الذي تدل عليه العبارة بما لا سبيل إلى الاعتراض.

والذي يتابع أحوال ابن الخطيب عن كُتُب، ويتأمل أطواره عن قرب، خلال المدة التي مكثها في المغرب، لجوئه الأول، يلاحظ كيف أن ابن الخطيب في الوقت الذي كان يدعو فيه إلى العزوف عن الدنيا، سعيداً بحال الراحة، والطمأنينة، التي تظله في مقبرة شالة، متفرداً مختلياً متخلياً، كما عرفنا، كان مُجِدِّاً أيضاً في سعيه عن طريق الوساطات المختلفة، لتأمين معاشه، وإعالة أهله، ولده، دفعاً للتكفف، والعوز، الباعث عن القلق والشقاء.

هذه هي سيرة ابن الخطيب، وهذه هي نفسيته، جمع كيانه بين العديد من المتناقضات، وهو جمع محمود في تقديرنا لأن التوازن يعني النجاح في خلق انسجام وتناغم بين مطالب الحياة، ومطالب الآخرة، التي يحرص عليها كل مسلم فقيه متبصر.

ثم ينبغي ألا ننسى أنه كان رب أسرة لها مطالبها، ويتعين باسم الواجب الشرعي الالتزام تجاهها.

ثم لا يغيب عن الذهن أيضاً أن رغبة الانقطاع والتخلي عن الهموم السياسية، مطلب شخصي ذاتي، وليس مطلباً عائلياً جماعياً.

وهنا نرى أن من حق ابن الخطيب أن يستكثر ويتأنق في البناء والغراس، وقد فعل ذلك من هو دونه، أفلا يفعل ذلك وهو الوزير الجليل، ذو الجاه العريض، والإرث الطارف والتلبد، وهو الأندلسي العريق في الحضارة والنضارة والكسب الجديد.

كان القصر الغرناطي وما اشتمل عليه يختلس النظرات من بعيد، ويطلع حركات وسكنات ابن الخطيب، وكلما آنس من ذلك ما يؤكد على استقرار الرجل، استبد به الحق، وعصفت به الوسوس، ودفعت به إلى رد فعل معاكس.

ذلك ما ينبئنا به التاريخ، إذ بمجرد ما هلك السلطان عبد العزيز، وتقلد الوزير أبو بكر بن غازي، مراسيم النيابة والحجابه، أعاد الساسة الأندلسيون الكرّة، وأجازوا السفراء يفافوضونه في شأنه من جديد، يقول ابن خلدون: "وَلَمَّا هَلَكَ [السلطان] وَاسْتَبَدَّ الْوَزِيرُ ابْنُ غَازِي بِالْأَمْرِ تَحَيَّرَ إِلَيْهِ ابْنُ الْخَطِيبِ، وَدَاخَلَهُ، وَخَاطَبَهُ ابْنُ الْأُخْمَرِ فِيهِ بِمِثْلِ مَا خَاطَبَ السُّلْطَانَ، فَلَجَّ وَاسْتَنْكَفَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَقْبَحَ الرَّدَّ، وَأَنْصَرَفَ رَسُولُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ رَهَبَ سَطَوَتَهُ" (٢٤٩).

أما ابن الخطيب فقد عرض لهذا بأسلوبه الخاص كعادته، لكي يكشف عن حقائق ربما كانت غائبة عن ابن خلدون: "وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ [ابن الأحمر] وبين صَاحِبِي [ابن غازي] الْمُرَاسَلَةُ وَالْمُكَاتَبَةُ، وَالْمُحَاوَرَةُ وَالْمُخَاطَبَةُ، وَدُسَّ الْإِغْرَاءُ، وَتَحَامَلَتِ الشُّعْرَاءُ، وَوَصَلَتِ الْوَزِيرَ الْبَرَاءَةُ بِخَطِّهِ سَالِكَةً سَبِيلَ التَّلَطُّفِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، مُعَلِّقَةً رُسُومَ الْوُدِّ بِأَمْرِ غَيْرِ كِبَارٍ، مُقَرَّرًا أَنَّ خَاطِرَهُ مَعَ مُدَاخَلَتِهِمْ إِيَّايَ لَا يَتَّصِفُ بِقَرَارٍ، وَلَا يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى تَحْكُمٍ بِاسْتِقْهَارٍ، وَلَا جَهْلٍ بِمَا لِحُرْمَةِ الْبَابِ الْمَرِينِيِّ مِنْ غُلُوبِ الْمِقْدَارِ" (٢٥٠).

وهذا ينطوي على الحقائق التاريخية الآتية:

١ - أنه تمّ في شأن ابن الخطيب بين القصر النصري والنائب عن السلطان المريني القاصر التفاوض عن طريق المراسلة والمحاورة، بما يؤكد على أهمية قضية وجود ابن الخطيب في المغرب بالنسبة للقصر النصري.

٢ - وصول رسالة من قبل السلطان النصري، تتصف بالتلطف وحسن الأدب، تعرض بنقض عهد الهدنة وتعليق ميثاق الود بين الدولتين في حالة المزيد من مداخلته وتقريب لسان الدين بن الخطيب.

٣ - أمام هذا التهديد الذي ينذر بتصدع الأوضاع، وارتفاع الأمن، لم يملك الوزير ابن غازي من عرض الرسالة على ابن الخطيب ليضع نصب عينيه الأمر الواقع؛ ليختار لنفسه السبيل الذي يراه.

قال ابن الخطيب: "وَعَرَضَ الْوَزِيرُ ذَلِكَ عَلَيَّ فَسَهَّلْتُهٗ، وَمَخَضْتُ فِيهِ نُصْحَهُ، وَاخْتَرْتُهٗ رَأْيًا وَبَدَلْتُ فِي تَحْسِينِهِ سَعْيًا، وَقُلْتُ: هَذَا الرَّجُلُ [السلطان النصري] لَمْ يَطْلُبْ فِي أَمْرِي شَطَطًا، وَلَا اقْتَحَمَ عَلَيَّ مُسْتَكْرَهًا، إِنَّمَا عَرَضَهُ انْصِرَافِي وَاشْتَغَالِي بِشَأْنِي.

فِيمَا أَنُ نَسَافِرَ فَيَسْتَرِيحُ مِنْ قُرْبِي، وَمَا تَتَوَقَّعُ ظُنُونُهُ مِنْ أَجْلِي، أَوْ أَعْمَلَ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِ بَعْدَ قَضَاءِ وَطَرِي مِنْ حَاجِي.

وَأَمَّا أَنُ تَضْطَرَّنِي الْحَاجَةُ إِلَى اسْتِرْفَادِهِ وَاسْتِصْلَاحِهِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي، فَأَرْضَى بِتَحْكِيمِهِ" (٢٥١).

لقد أدرك ابن الخطيب أن مطلب السلطان النصري الرئيس هو إبعاده عن ملابسة ومداخلته القصر المريني، الأمر الذي جعله يتفهم ذلك، لحسم داء وسائسه وهواجس ظنونه، فقرر الانصراف إلى "سلا" المدينة التي تجمعها بها ذكريات جميلة وأمال حميمة.

يقول ابن الخطيب: "... وَسَأَلْتُهُ [الوزير] أَنُ يَجْمَعَ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ بِانْصِرَافِي إِلَى سُكْنَى مَدِينَةِ "سلا" (٢٥٢).

وقال ابن الخطيب في موضع آخر كاشفاً عن فشل المفاوضات والبناء على سوء النيات: "وَأَنْصَرَفَ الرَّسُولُ [السفير الأندلسي المفاوض] عَنْ ظَاهِرِ مُجَامَلَةٍ وَعَدَةٍ بِإِزْفَادٍ وَمَوَاصَلَةٍ، وَإِجْرَاءِ عَادَةٍ، وَإِبْدَاءٍ فِي الْجَمِيلِ وَإِعَادَةٍ" (٢٥٣).

ولكن الظاهر أن القصر النصري كان همّه ابن الخطيب وليس الأمر الذي فهمه ابن الخطيب من الرسالة.

والظاهر أيضاً أن بطء المراسلات، ونجوم السعيات، وشيوع الإشاعات، وتوقع السيئات، جعل القصر النصري يبادر باتخاذ إجراء سياسي كان الأخطر من نوعه في تاريخ المفاوضات التي تقدّمت، وهو الإجراء الذي طالما هدّدت به كل دولة من دول المنطقة جارتها إذا ساءت العلاقات، وهو نفس الإجراء الذي ربما كان القصر النصري يتوقعه من الجانب المريني، ولكنه لم يقع بما أكد على تهافت السياسة النصرية في هذه المرحلة التاريخية لخلو دستها من رجل سياسي حكيم حسن تدبير الأمور.

وسبق ذلك الإجراء التهديد والوعيد، قال ابن الخطيب: "فَجَاءَتْ عَوَاصِفُ الْأَنْفَاسِ الْعَالِيَةِ، وَرَسَخَتْ جِبَالُ الْهَمِّ السَّامِيَةِ، وَوَقَعَ لِمَا جُنْتُ بِهِ [اختيار سلا] الْإِنْكَارُ، وَفِي شَأْنِ فَسَادِهِ الْإِيرَادُ وَالْإِصْدَارُ، وَعَظُمَتْ فِي تَحْمُلِ ذَلِكَ الْأَنْفَةِ، وَلَمْ تُرْضِهِ الْمُلْكَةُ الْمُؤْتَنَفَةُ، وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَقَرَّ فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِينٍ عَلَى الْهَضِيمَةِ لَهَا بِيَدِ الْحَطِيطَةِ حَتَّى تَكُونَ لِيُغَيِّرَهَا تَابِعَةً، وَلِسِوَاهَا مُصَانِعَةً" (٢٥٤).

وكان الحكام الأندلسيون لما لم يصلوا إلى غايتهم على عهد السلطان عبد العزيز الذي وقف حائلاً دونهم، اغتتموا فرصة هلاكه بغته، فطفقوا ينتقدون ويندبون بتولية الصبي أبي سعيد المريني على البلاد، ويروجون الإنكار على أوسع نطاق، بغية الإرجاف وإثارة الفتنة، وتهيج الطامعين من أمراء بني مرين، المتحينين للفرصة كل حين.

يقول ابن الخطيب: "... وَظَنَّ الدَّاهِيَةُ، الَّتِي لَا تُرْفَعُ، وَأَنَّ الْوَطْنَ بَعْدَهُ إِنَّمَا هُوَ السَّرَابُ الْبَلَقُّعُ، وَأَنَّ وَلَدَ السُّلْطَانِ لَا تَنْعَقِدُ لَهُ بَيْعَةٌ، وَلَا تَقُومُ لَهُ دَوْلَةٌ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لَوْلَاهِ دَعْوَةٌ" (٢٥٥).

إلا أن الأمر حفظ بحجابه الوزير أبي بكر بن غازي.

ولما لم يستطع الحكام الأندلسيون، على الرغم من الضغوط المختلفة التأثير

على هذا الوزير، أخفقت مساعيهم المتكررة، حوّلوا الوجهة إلى التي هي أدهى وأطم، معلّنين عن المواجهة المكشوفة، منتقمين من الدولة المرينية التي وقفت حاجزاً منيعاً بينهم وبين وصولهم إلى ابن الخطيب عدوهم.

وكانت الورقة التي أعلنوا استخدامها بطبيعة الحال، هي ورقة الأعياص المدّخرين احتكاراً، لترويجهم بضاعة في سوق الفتنة التي ستفت من عضد الدولتين معاً بصفة مباشرة وغير مباشرة على المدى القريب والبعيد.

قال ابن الخطيب: "إِلَّا أَنَّ سَمَاسِرَةَ الْفِتْنَةِ، وَأَعْدَاءَ الدَّوْلَةِ، دَسُّوا لَهُ أُمُورًا مِّنَ الْعَمَلِ عَلَى اجْتِيَازٍ مَّنْ يَطْلُبُ مُلْكَ الْأَنْدَلُسِ وَالْعَزَمَ عَلَى إِجَازَتِهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ قَدْ أُبْرِمَ، وَالتَّدْبِيرَ قَدْ أُحْكِمَ، مِّنْ غَيْرِ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِذَلِكَ سُلْطَانًا... فَأَقْدَمَ إِقْدَامَ الْمُسْتَمْتِ، وَعَاجَلَ الْأُلْفَةَ بِالتَّشْتِيتِ، وَانْقَادَ فِي هَوَى غَضَبِهِ، وَجَنَى عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى وَطَنِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" (٢٥٦)

وهذا النص على ظاهره يحيل على الحقائق الآتية:

- ١ - أن الجهة التي أوحى إلى سلطان الأندلس بإجازة من يطلب الملك، كانت مقيمة ساعتئذ بالمغرب.
- ٢ - أن هذا الأمر تم سراً عن طريق دسّ الرسائل أو الدّيسيس.
- ٣ - أن الجهة الباعثة لضمان الاستجابة أشعرت بأن أمر استقبال ملك مطالب قد هياأ له بالمغرب، وأعد له غاية الإعداد.
- ٤ - أن سلطان الأندلس له واسع الخيار في اختيار المرشح بناء على معرفته، فأهل مكة أدري بشعابها.
- ٥ - أن هذه المبادرة التي تمت من جهة المغرب، قد تكون لا علاقة لها بقضية ابن الخطيب بصفة مباشرة، بمعنى قد لا يكون الباعث على ذلك عداؤهم لابن الخطيب، وإنما أرادوا أن يستفيدوا من هذا الوضع، ويستغلوا ظروف التوتر بين القصر النصري والقصر المريني، لتحقيق مطامحهم، وهو الوصول إلى الحكم.

ولقد دلت القرائن التاريخية الكثيرة، في الظروف المشابهة، أي حينما يكون

الملك الوارث صبيّاً، والنائب حاجباً مستبدّاً، وأبانت كيف ينقسم المتحكمون المؤثرون في الشؤون السياسية وتتطلع كل جهة إلى الاستحواذ على الأمر، وسد الباب على الجهة أو الجهات الأخرى.

٦ - أن النص يشير إلى فداحة الخطأ السياسي، الذي أقدم عليه السلطان النصري، استسلاماً لهوى غضبه، في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يلجمه، فجنى جناية كان لها أثرها السيئ على المنطقة برمتها، على المدى البعيد، وكان سبباً غير مباشر في ضياع وطنه، وإبادة أُمته.

٧ - قد توحى عبارة "وجنى على نفسه وعلى وطنه" أن الوزير المريني ربما كان يستعد هو الآخر لمعاملة القصر النصري بالمثل، فيجيز من عنده من الأعياص، كما قد تشي العبارة، بظن ابن الخطيب الذي ربما كانت تقديراته تغلب كفة الجانب المريني، إلا أن العكس هو الذي حصل.

قال ابن خلدون مشيراً إلى أمر العمل على إجازة أمراء نصريين من قبل هذا الوزير: "وَحَدَّثَ بَيْنَ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ غَازِي، وَبَيْنَ السُّلْطَانِ ابْنِ الْأَحْمَرِ، مُنَافَرَةً بِسَبَبِ ابْنِ الْخَطِيبِ، وَمَا دَعَا إِلَيْهِ ابْنُ الْأَحْمَرِ مِنْ إِبْعَادِهِ عَنْهُمْ، وَأَنْفَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَظْلَمَ الْجَوُّ بَيْنَهُمَا، وَآخَذَ الْوَزِيرُ فِي تَجْهِيزِ بَعْضِ الْقَرَابَةِ مِنْ بَنِي الْأَحْمَرِ، لِلْإِجْلَابِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ" (٢٥٧).

وهذا يتفق مع ما ذكره ابن الخطيب في نصه آنف الذكر، إذ يقرر رغبة سلطان بني نصر التي تمثلت في إبعاد ابن الخطيب عن القصر المريني، كما لا يتفق مع ابن الخطيب الذي يشير إلى قرار إزماع الانتقال إلى "سلا" الذي لم يلتفت إليه القصر النصري.

٨ - كما دل النص على أن الوزير ابن غازي أخذ في تجهيز بعض قرابة سلطان بني الأحمر.

ولا ندري هل كان هذا مبادرة سابقة عن مبادرة ابن الأحمر أم لاحقة؟ وإن كانت القرائن تؤكد أن الأسبق في المبادرة كان ابن الأحمر، لأنه كان لها آثار تاريخية في الوقت الذي لم نشهد لمبادرة الوزير المريني أي آثار.

حتى لنكاد نجزم أن كلام ابن خلدون مجرد ظن، أو إشاعة لم يعضدها التاريخ، فضلاً على كونه انفراد بهذا دون غيره من المؤرخين.

وتتطور الأحداث بوتيرة سريعة، حيث بادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، ووزيره مسعود بن رحو بن ماساي، اللذين أشرت إليهما آنفاً، كانا محتجزين في سجنه، بإشارة من ابن الخطيب كما ذكر ابن خلدون^(٢٥٨). وأجازهما في أسطوله إلى سواحل غساسة^(٢٥٩)، ولحق ومن معه بقبائل بطوية في شهر ذي القعدة عام ٧٧٤هـ-١٣٧٢م، وهذا يعني حوالي تسعة أشهر من وفاة السلطان عبد العزيز، وبيعة ابنه "السعيد".

وتمت له المبايعة هناك، واتصل الخبر بالوزير، فنهض إليه ونازله ببطوية، فامتنع عليه، فانكفاً إلى "تازة" ثم فاس، والأمير عبد الرحمن يتقدم، ويضم ما مرّ عليه إلى أن استولى على تازة.

ونهض ابن الأحمر من غرناطة لمنازلة جبل طارق الذي كان تحت الإيالة المرينية، وبلغ هذا أبا بكر بن غازي، فجهز على الفور ابن عمه محمد بن الكاس، إلى سبتة، لإمداد حامية جبل طارق ضد ابن الأحمر، وسد فروج سبتة، ومن هناك وقعت المراسلة بين ابن الأحمر ومحمد بن الكاس، واستطاع ابن الأحمر أن يميل ابن الكاس إلى صفه، بعد تشديد النكير "عَلَى إِخْلَائِهِمُ الْكُرْسِيِّ مِنْ كُفِّهِ، وَتَنْصِيهِهِمُ السَّعِيدَ صَبِيًّا لَمْ يَنْغَرُ، فَاسْتَعْتَبَ لَهُ مُحَمَّدٌ وَاسْتَقَالَ مِنْ ذَلِكَ" (٢٦٠).

فأقنعه بالإفراج عن أحد الأمراء من أبناء السلطان أبي سالم السجناء بطنجة، وأخذ البيعة له، وهو الأمير أبو العباس أحمد بن أبي سالم، فبويع له أولاً بطنجة، في شهر ربيع الثاني من عام ٧٧٥هـ-١٣٧٣م.

وهذا يعني بعد مبايعة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بحوالي خمسة أشهر. وأمد ابن الأحمر هذا الأمير بعونه: "وَأَشْرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلُوا لَهُ عَنِ الْجَبَلِ، [جبل طارق]، إِذَا انْعَقَدَ أَمْرُهُمْ، وَيُشْخَصُوا بَيْعَةَ الْأُبْنَاءِ وَالْقَرَاتَةِ مِنْ طُنْجَةَ، لِيَكُونُوا فِي إِيَالَتِهِ تَحْتَ حَوَاطَتِهِ، وَأَنْ يَبْعَثُوا إِلَيْهِ ابْنَ الْخَطِيبِ مَتَى قَدَرُوا عَلَيْهِ" (٢٦١).

وهكذا يزول نفوذ الدولة المرينية من وراء البحر الأبيض المتوسط، وامتد نفوذ بني الأحمر إلى سبتة.

وكان الاتفاق قد أبرم بين الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، والأمير أبي العباس أحمد، أن يتعاضدا ويتناصرا ولا يختلفا في سبيل تحقيق الغاية على أن يكون عبد الرحمن سلطاناً على الجنوب سجلماسة ودرعة، والأمير أبو العباس سلطاناً على سائر أعمال المغرب^(٢٦٢).

وأمام هذه الأوضاع المتردية، التي فتت من عضد ابن غازي، حيث اتسع الفتق على الراقق، لم يملك إلا الانصياع والاستسلام لمطالب المناهضين، والمبادرة إلى خلع السلطان الصبي، مفسحاً المجال أمام السلطان الجديد، أبي العباس أحمد ابن أبي سالم، الذي بويع ببيعته العامة بفاس الجديد، يوم الأحد ٦ محرم ٧٧٦هـ - ١٢٧٤م. هكذا تواترت الأحداث وأسرعت متطورة، باتجاه ليس في صالح ابن الخطيب بطبيعة الحال، تلك التي ربما جاءت على عكس تخميناته وتقديراته.

المطلب الخامس

محاكمة ابن الخطيب واغتياله

المقصد الأول - محضر اتهام ابن الخطيب:

لم تكشف النصوص التاريخية عن المحضر المفصل الذي تمت بموجبه إدانة ابن الخطيب وتنفيذ الحكم الذي نفذ فيه، وكل ما أشارت إليه النصوص كما جاء عند ابن خلدون في موضع "مَقَالَاتٌ سُجِّلَتْ عَلَيْهِ"^(٢٦٣)، وفي موضع آخر "شُيُوعُ كَلِمَاتٍ مَنْسُوبَةٍ إِلَى الزُّنْدَقَةِ أَحْصَوْهَا عَلَيْهِ وَنَسَبُوهَا إِلَيْهِ"^(٢٦٤)

إلا أن رسالة حفظها لنا التاريخ أيضاً، جلبها المقرئ في نفح الطيب، وكذلك أزهار الرياض، تكشف عن كثير من التهم التي التقت لابن الخطيب.

والرسالة مدبجة بقلم قاضي قضاة الحضرة الغرناطية، أبي الحسن النباهي، وموجهة إلى ابن الخطيب، ويستشف من مضمونها أن الرجل هو الآخر كان حانقاً

على ابن الخطيب، خصّ به هذا القاضي، كما توجي الرسالة أنها ردّ على خطاب أو كتاب كتبه ابن الخطيب فيه تقرير وهجاء، وسب وشتم، للأسف لم يكشف التاريخ بعد عن مصيره.

ويهمنا في هذا الباب أن نقف على التهم والانتقادات التي وجهها القاضي إلى ابن الخطيب.

وتجدر الإشارة إلى أن القاضي النباهي كان من الذين سعوا في محنته، وأفتوا بقتله، قال المقرئ مشيراً إلى عدوِّي ابن الخطيب اللوديين المتسببين في هلاكه، القاضي المذكور، والشاعر ابن زمرك "اللَّذِينَ تَسَبَّأَ فِي هَلَاكِهِ حَتَّى صَارَ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ مَعَ تَنْوِيهِهِ بِهِمَا" (٢٦٥).

وقال في موضع آخر مشيراً إلى العداوة التي استحكمت، فيما بعد، فانقلب المدح قدحاً، والثناء هجاء: "وَلَمَّا حَصَلَ لِلدِّينِ رَجْمُهُ اللَّهُ تَعَالَى، مَا حَصَلَ مِنْ النَّفَرَةِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ، وَإِعْمَالِ الْحِيلَةِ فِي الْأَنْفِصَالِ عَنْهَا، لِعِلْمِهِ أَنَّ سَعَايَاتِ ابْنِ زُمْرِكٍ وَأَبِي الْحَسَنِ، وَمَنْ يُعْضِدُهُمَا، تَمَكَّنَتْ فِيهِ عِنْدَ سُلْطَانِهِ، وَشَمَّرَ الْقَاضِي ابْنُ الْحَسَنِ عَنْ سَاعِدِ إِذَائِيهِ، وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِ بِمَا يُوجِبُ الزُّنْدَقَةَ، فَحِينَئِذٍ أَطْلَقَ لِسَانُ الدِّينِ عِنَانَ قَلَمِهِ فِي سَبِّ الْمَذْكُورِ وَتَلْبِيهِ" (٢٦٦).

أما الانتقادات التي وجهها القاضي النباهي إلى ابن الخطيب فنذكرها في النقاط التي نذكرها عقب التنبيهات الآتية:

— أن التقديم الذي قدم به المقرئ للرسالة يؤكد ما جاء ذكره عند ابن خلدون من تأنقه في البنيان، قال: "وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى كِتَابٍ لِلْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَذْكُورِ، يُخَاطِبُ ابْنَ الْخَطِيبِ وَيَعِظُهُ، وَيُشِيرُ إِلَى مَا اشْتَغَلَ بِهِ مِنَ الْبُنْيَانِ، وَفِيهِ مَا يُبَيِّنُ كَلَامَ ابْنِ خَلْدُونٍ وَزِيَادَهُ" (٢٦٧).

— أن التقديم أيضاً أكد بالدليل أن القاضي النباهي متورط في مسألة تهمة الزندقة، التي أودت بحياة ابن الخطيب.

— أن تاريخ كتابة الرسالة التي ذيلت به، وهو أخريات جمادى الأولى من عام ٧٧٣هـ-١٣٧١م، يؤكد أن بعض التهم سابقة لأوانها مثل مسألة اقتناء الدور، والتأنق في المساكن، وهذا الأمر كما رأينا عقب رجوعه من تلمسان إلى فاس.

الانتقادات:

من الانتقادات التي قرع سمعه بها، ولامه من خلالها، قوله: "... فَشَرَعْنُم فِي الشَّرَاءِ، وَتَشْيِيدِ الْبِنَاءِ، وَتَرَكْتُمُ الاسْتِعْدَادَ لِهَازِمِ اللَّذَاتِ " (٢٦٨).

اتهماه بتزكية النفس، والاعتداد بحسناته، دون الالتفات إلى سيئاته، وقبائحه، فيقول: "وَتَرَكُ الْكَلَامَ مَعَ النَّاقِدِ فِيمَا ارْتَكَبَهُ، مِنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ، وَعَدَّ مَا جَلَبَهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ، مَا عَدَا مَا هَدَّدَ بِهِ مِنْ حَدِيدِ لِسَانِهِ" (٢٦٩). ويندرج تحت هذه التهمة مجموعة من التهم المفصلة منها:

- أ - اتهماه بالفحش في القول.
- ب - اتهماه بالغيبة المحرمة.
- ت - اتهماه بعدم الحياء.
- ث - اتهماه بصفة الإفلاس من خلال الحديث المعروف.
- ج - نصحه بإتلاف مصنفاته، يقول: "... مِنْهَا الْإِشَارَةُ عَلَيْكُمْ بِإِذْهَابِ عَيْنِ مَا كَتَبْتُمْ بِهِ فِي التَّارِيخِ وَأَمْثَالِهِ، فَإِنَّكُمْ نَفَعْتُمْ بِمَا وَقَعْتُمْ فِيهِ مِنَ الْغِيْبَةِ الْمُحَرَّمَةِ، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، لِغَيْرِ شَيْءٍ حَصَلَ بِيَدِكُمْ... وَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ غَيْرَ مَا مَرَّةٍ عَنْ أَطْرَاسِكُمُ الْمُسَوَّدَةِ، بِمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالتَّلَاغِبِ بِالشَّرِيعَةِ، أَنَّ حَقَّهَا التَّخْرِيقُ وَالتَّخْرِيقُ" (٢٧٠).
- ح - اتهماه بالمن، والأذى، قال: "وَأَكْثَرْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ مِنَ الْمُنِّ، بِمَا نَكَرْتُمْ أَنَّكُمْ صَنَعْتُمْ، وَعَلَى تَقْدِيرِ الْمُوَافَقَةِ لَكُمْ، لَيْتَكُمْ فَعَلْتُمْ فَسَلِمْنَا مِنَ الْمَعْرَِةِ وَسَلِمْتُمْ... وَقَلَمَّا شَارَكْتُمْ أَنْتُمْ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِأَعْرَاضٍ حَاصِلَةٍ فِي يَدِكُمْ، أَوْ لِأَعْرَاضٍ دُنْيَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِكُمْ" (٢٧١).

خ - اتهماه بخيانة وطنه، وكذب دعوى حبه له، يقول: "وَأَمَّا مَا أَظْهَرْتُمْ بِمُقْتَضَى حَرَكَاتِكُمْ وَكَلَامِكُمْ مِنَ التَّنَدُّمِ عَلَى فِرَاقِ مَحَلِّكُمْ وَالتَّلَعُّلِ بِأَحْبَارِ قُطْرِكُمْ وَأَهْلِكُمْ، فَتَنَاقُضٌ مِنْكُمْ... لَمَا وَقَعْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَدْرِ لِسُلْطَانِكُمْ وَالْخُرُوجِ لَا لِضُرُورَةٍ غَالِبَةٍ عَنْ أَوْطَانِكُمْ... سِيَمَا وَقَدْ مَدَدْتُمْ إِلَى التَّمَتُّعِ لِعِغْرِهَا عَيْنَكُمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُدٍ

الْجَزِيرَةَ الْفَرِيدَةَ مِنَ الْفَضِيلَةِ إِلَّا مَا خُصِّتْ بِهِ مِنْ بَرَكَاتِ الرَّبِّاطِ، وَرَحْمَةِ الْجِهَادِ، لَكَفَّاهَا فَخْرًا عَلَى مَا يُجَاوِرُهَا مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ" (٢٧٢).

د - التشكيك في نية التشريق بقصد الحج التي طالما ذكرها ابن الخطيب، يقول: "وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يَا أَخِي فِرَارُكُمْ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ بِالتَّوْبَةِ الْمُكْمَلَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَعَ الْإِنْقِطَاعِ، فِي أَحَدِ الْمَوَاطِنِ الْمُكْرَمَةِ الْمُعْظَمَةِ بِالْاجْتِمَاعِ، وَهِيَ طَبِيبَةُ أَوْ مَكَّةُ، أَوْ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَقَدْ خَسِرْتُمْ صَفْقَةً رَحَلْتِكُمْ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ لِعَیْرِ وَجْهَ اللَّهِ الْعَظِيمِ كَانَتْ نِيَّةُ هَجْرَتِكُمْ" (٢٧٣).

ذ - نصحه بترك القيل والقال، يقول: "فَعَلَيْكُمْ إِذَا بَتَرَكِ الْقِيلَ وَالْقَالَ وَكَسِرَ حَرْبَةَ الْجِدَالِ وَالْقِتَالِ، وَقَصُرَ مَا بَقِيَ مِنَ الْعُمْرِ عَلَى الْإِسْتِغَالِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ" (٢٧٤).

ر - انتقاده باستعمال بعض الألفاظ التي جاءت في القرآن والحديث، وإيرادها في معرض السخرية والاحتقار، يقول: "وَوَقَعَتْ فِي مَكْتُوبِكُمْ كَلِمَاتٌ أَوْرَدَهَا النَّقْدُ فِي قَالِبِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالْإِزْدِرَاءِ، وَالْجَهَالَةِ بِمَقَادِيرِ الْأَشْيَاءِ، مِنْهَا: رِيحٌ صَرَصَرَ، وَهُوَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَقَاعٌ قَرَقَرَ، وَهُوَ لَفْظُ سَيِّدِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، مُحَمِّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢٧٥).

ز - اتهامه بنسب كثير من الأعمال إلى نفسه، وقد شاركه فيها رامياً إياه بالتقصير، قال: "أَنْتُمْ عَدَدْتُمْ مَا شَارَكْتُكُمْ فِيهِ بِحَسَبِ الْأَوْقَاتِ، وَقَطَعْتُمْ بِنِسْبَةِ الْأُمُورِ كُلِّهَا لِنَفْسِكُمْ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا صَدَرَتْ عَنْ أَفْرِكُمْ، وَبِإِذْنِكُمْ، مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لَكُمْ، ثُمَّ مَنْنْتُمْ بِهَا الْمَنَّ الْقَبِيحَ الْمُبْطِلَ لِعَمَلِ بَرِّكُمْ عَلَى تَقْدِيرِ التَّسْلِيمِ فِي فِعْلِهِ لَكُمْ، وَرَمَيْتُمْ غَيْرَكُمْ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَالِهِ كُلِّهِ" (٢٧٦).

س - رد مسألة تعيينه على خطة القضاء إلى قدر الله ولا فضل له في ذلك، قال: "وَأَقْصَى مَا تَسَنَّى لِلْمُحِبِّ، أَيَّامَ كَوْنِكُمْ بِالْأَنْدَلُسِ، تَقْلِيدُ كُلِّفَةِ قَضَاءِ الْجَمَاعَةِ، وَمَا كَانَ إِلَّا أَنَّ وَلِيَّتْهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ" (٢٧٧). ويتعلق بهذا الأمر الإشارة إلى تدخل ابن الخطيب في القضاء، حيث أشار إلى ذلك من خلال الأمور الآتية:

ش - مكابته ومعاناته في القضاء بسببه، قال: "... فكابدت أَيَّامَ تِلْكَ الْوَلَايَةِ النَّكَدَةَ مِنَ النَّكَايَةِ، بِاسْتِحْقَارِكُمْ لِلْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةِ، وَتَهَاوُنِكُمْ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ " (٢٧٨).

كما ذكره ببعض القضايا التي تؤكد ذلك منها:

- ص - استكراه ابن الخطيب قتل أحد المتهمين بالزندقة، وقد ثبتت موجبات ذلك.
- ض - مسألة إطلاق سراح أحد المتهمين بآرائه المضلة بعد الحكم عليه بالسجن.
- ط - مسألة أحد الفتيان الموالين له طولب بدم قتيل، وصدر في حقه السجن، إلا أن ابن الخطيب أطلق سراحه.

ظ - اتهامه بإنكار جدوى الرقية الشرعية، قال: "وَكَذَلِكَ رَأَيْتُكُمْ تَكْثُرُونَ فِي مُحَاطَبَاتِكُمْ مِنْ لَفْظِ الرُّقِيَّةِ فِي مَعْرِضِ الْإِنْكَارِ لَوْجُودِ نَفْعِهَا، وَالزَّمِي بِالْمَنْقَصَةِ وَالْحَقِّ لِمُسْتَعْمِلِهَا وَلَوْ كُنْتُمْ تَنْظُرُونِ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ السُّنَّةِ، وَسِيرِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ نَظَرَ مُصَدِّقٍ، لَمَا وَسِعَكُمْ إِنْكَارُ مَا أَنْكَرْتُمْ " (٢٧٩).

ع - اتهامه بالوقوع في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: "وَكَذَلِكَ أَحْذَرُكُمْ مِنَ الْوُقُوعِ بِمَا لَا يَنْبَغِي فِي الْجَنَابِ الرَّفِيعِ، سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ... فَإِنَّهُ نُقِلَ عَنْكُمْ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءٌ مُنْكَرَةٌ، يَكْبُرُ فِي النُّفُوسِ التَّكَلُّمُ بِهَا أَنْتُمْ تَعْلَمُونَهَا " (٢٨٠). إلا أن النباهي لم يذكر شيئاً من ذلك على سبيل المثال، لنقف على حقيقته كما فعل في بعض الأمور التي ذكرت. كما يذكر أنها كانت سبباً في بغضه، ومطالبته، قال: "وَهِيَ الَّتِي زَرَعَتْ فِي الْقُلُوبِ مِنْ بَغْضِكُمْ... وَلَوْ لَا أَنْتُمْ سَافَرْتُمْ قَبْلَ تَقْلُصِ ظِلِّ السُّلْطَانَةِ عَنْكُمْ، لَكَانَتِ الْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ امْتِعَاضًا لِدِينِهَا وَدُنْيَاهَا، قَدْ بَرَزَتْ بِهَذِهِ الْجِهَاتِ لِطَلَبِ الْحَقِّ مِنْكُمْ " (٢٨١).

غ - اتهامه بالظلم والفساد، من خلال قبائح جامعة، قال: "... فَلَيْسَ يُعْلَمُ أَنَّهُ صَدَرَ عَنْ مِثْلِكُمْ مِنْ خُدَامِ الدُّوَلِ مَا صَدَرَ عَنْكُمْ، مِنَ الْعَبَثِ بِالْأَبْشَارِ وَالْأَمْوَالِ، وَهَتِكِ الْأَعْرَاضِ، وَإِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ، وَكَشْفِ الْأَسْتَارِ، وَاسْتِعْمَالِ الْمَكْرِ وَالْغَدْرِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ " (٢٨٢).

ف - اتهامه بسوء العهد مع سلطانه، قال: "وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوُجُودِ مِنَ الدَّلَائِلِ... مَنْ الْأَتْسَامِ بِسُوءِ الْعَهْدِ، وَالتَّجَاوُزِ الْمَخْصِ، وَكُفْرَانِ النِّعَمِ، وَالرُّكُونِ إِلَى مَا تَحْصَلُ مِنَ الْخَطَامِ الرَّائِلِ، إِلَّا مَا عَمِلْتُمْ مَعَ سُلْطَانِكُمْ مَوْلَاكُمْ وَابْنِ مَوْلَاكُمْ... وَمَا ثَبَتَ

مِنْ مَقَالَاتِكُمْ السَّيِّئَةِ فِيهِ، وَفِي الْكَثِيرِ مِنْ أَهْلِ قُطْرِهِ لَكَفَاكُمُ وَصَمَّةٌ" (٢٨٣). ثم يذكر المواقف الدالة على ذلك:

- ق - تركه لسلطانه أيام كان لاجئاً بالمغرب.
- ك - سقوطه عليه سقوط الذباب لما عاد إلى ملكه.
- ل - ضرب وجوه رجاله بعضها ببعض.
- م - إخلاء الجو لنفسه والاستبداد بالأمر والنهي.
- ن - الفرار بالأثقال والأموال.

ملاحظة:

إن الرسالة بناء على تاريخ وصولها وهو أخريات جمادى الأولى من عام ٧٧٣هـ-١٣٧١م، تكون قد بعثت إلى ابن الخطيب وهو بتلمسان، ويكون بينه وبين خروجه من الأندلس والتحاقه بتلمسان حوالي سنة، مما يؤكد على أن الصراع بين ابن الخطيب وأعدائه بدأ مبكراً، وأن الأحداث كانت تتطور بسرعة من سيئ إلى أسوأ. كما أكد التاريخ أيضاً أن هذه التهم هي نفسها تلك التي رفعت إلى السلطان عبد العزيز، حين عرض عليه محاكمة ابن الخطيب الذي أصبح بموجبها زنديقاً تتعين إدانته. هذه هي التهم، أو معظمها، التي تشكل منها محضر الاتهام لابن الخطيب، وهي تهم إن صحت وروعت فيها النزاهة صفائح لا ترقى إلى الكبائر، كما أنها ذنوب لا توجب كل هذه الملاحقة، التي شفعت في نهاية المطاف بسفك دمه، وهدر نجيعه. إنها في حقيقة الأمر ضغائن وأحقاد، أذكأها روح التنافس المثير للغيرة والحسد، وهما غُظْمُ بضاعة سوق السياسة، التي لا يسلم داخلها من النقد في الإيراد والإصدار، ولا ينجو النازع عنها من الفك والإهدار.

المقصد الثاني - القبض على ابن الخطيب وإدانته واغتياله:

سبقت الإشارة إلى أن قضية ابن الخطيب كانت شرطاً من شروط اتفاقية النصر بين السلطانين الجديدين بالمغرب، ولذلك ما أن ضببت الأمور حتى بورد بإلقاء القبض على لسان الدين بن الخطيب لمحاكمته، والبت في شأنه.

وكان الذي تولى كبر العجلة إلى حبسه قبل محاكمته سليمان بن داود للعداوة التي استحكمت بينه وبين ابن الخطيب، يقول ابن خلدون: "وَلَمَّا اسْتَوَلَى السُّلْطَانُ عَلَى الْبَلَدِ الْجَدِيدِ، أَقَامَ أَيَّامًا ثُمَّ أَغْرَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ^(٢٨٤) بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ، فَقَبَضُوا عَلَيْهِ، وَأَوْدَعُوهُ السَّجْنَ، وَطَيَّرُوا بِالْخَبَرِ إِلَى السُّلْطَانِ ابْنِ الْأَخْمَرِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِابْنِ الْخَطِيبِ، بِمَا كَانَ سُلَيْمَانُ قَدْ بَايَعَهُ السُّلْطَانُ ابْنُ الْأَخْمَرِ عَلَى مَشِيخَةِ الْغُرَاةِ بِالْأَنْدَلُسِ مَتَى أَغَادَهُ اللَّهُ إِلَى مُلْكِهِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ سُلْطَانُهُ، أَجَازَ إِلَيْهِ سَفِيرًا عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، مُقْتَضِيًا عَهْدَهُ مِنَ السُّلْطَانِ، فَصَدَّهُ ابْنُ الْخَطِيبِ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ تِلْكَ الرِّيَاسَةَ لِأَعْيَاصِ الْمَلِكِ مِنْ آلِ عَبْدِ الْحَقِّ لَأَنَّهُمْ يَعْسُوبُ زَنَاتَهُ، فَرَجَعَ سُلَيْمَانُ يَائِسًا وَحَقَدَ ذَلِكَ لِابْنِ الْخَطِيبِ" ^(٢٨٥).

ولما بلغ سلطان غرناطة خبر القبض على ابن الخطيب، بعث على الفور كاتبه ووزيره بعد لسان الدين بن الخطيب، أبا عبد الله محمد بن زمرك، يحمل محضر الاتهام، وربما الحكم المسبق الجاهز، الذي طالما لُوحَّ به، يستنجز الشرط، ويشهد المحاكمة، قال الناصري: "فَقَدِمَ [ابْنُ زَمْرَك] عَلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ، وَأَخْضَرُوا ابْنَ الْخَطِيبِ بِالْمَشُورِ فِي مَجْلِسِ الْخَاصَّةِ، وَأَهْلِ الشُّورَى مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ وَقَعَتْ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ، فَعَظُمَ عَلَيْهِ النِّكَيرُ فِيهَا، فَوَبَّخَ، وَنَكَلَ، وَامْتَحَنَ بِالْعَذَابِ، بِمَشْهَدِ ذَلِكَ الْمَلَأِ، ثُمَّ ثَلَّ إِلَى مَحْبَسِهِ" ^(٢٨٦).

وهكذا تلفق له تهمة الزندقة، وهي التهمة التي تبيع دمه.

وتقع المصيبة غير المتوقعة، والمعرة التي لا معرة فوقها، والجريمة التي دلت حيثياتها المتهافئة على خلوها من ركنها الأساس، وهو التثبت والتبين الذي يفضي إليه التحقيق الدقيق في المسألة.

قال ابن خلدون: "وَاسْتَوَرَّوْا فِي قَتْلِهِ بِمُقْتَضَى تِلْكَ الْمَقَالَتِ الْمُسْجَلَةِ عَلَيْهِ، وَأَفْتَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ فِيهِ" ^(٢٨٧).

وعبارة "بَعْضُ الْفُقَهَاءِ" التي نص عليها قول ابن خلدون، تؤكد أنه لم يكن هناك إجماع من الفقهاء، لما في القضية من لبس وشبهة، ولكن لا يخلو الزمان من

متحيز خائن، أو حاكم ظالم، يعمى عن النزاهة والعدالة، إذ الإنصاف في بني الإنسان عزيز.

ولم يقف الأمر عند حد التعزير والتعذيب أمام الملاء، وإيداعه السجن، وإنما دُسَّ عليه من يقتله غيلة في محبسه، قال ابن خلدون: "وَدَسَّ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لِبَعْضِ الْأَوْغَادِ مِنْ حَاشِيَتِهِ بِقَتْلِهِ، فَطَرَقُوا السَّجْنَ لَيْلاً وَمَعَهُمْ زَعَانِفَةٌ جَاءُوا فِي لَفِيفِ الْخَدَمِ مَعَ سُفَرَاءِ السُّلْطَانِ ابْنِ الْأَحْمَرِ، وَقَتَلُوهُ خَنْقًا فِي مَحْبَسِهِ" (٢٨٨).

والنص يشي بالتسيب والانفلات، والاستهانة بالقضاء والعدالة، إذ كيف يتم قتله عن طريق الدس، إذا كان الحكم صائباً؟!

هذا يدل على الطعن الذي يمكن أن يتطرق إلى الحكم، كما يدل على الانقسام الحاصل بين الفقهاء.

لذلك يختفي دور القضاء الشرعي، ليحل محله الاغتيال السياسي، المحتكم إلى المزاج والحزازات الشخصية.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تجاوز إلى أشنع وأقبح من ذلك، يقول ابن خلدون أيضاً: "وَأُخْرِجَ شِلْوُهُ مِنَ الْغَدِّ، فَدُفِنَ بِمَقَرَّةِ بَابِ الْمَحْرُوقِ، ثُمَّ أَصْبَحَ مِنَ الْغَدِّ عَلَى شَافَةِ قَبْرِهِ طَرِيحًا، وَقَدْ جُمِعَتْ لَهُ أَعْوَادٌ، وَأُضْرِمَتْ عَلَيْهِ نَارٌ، فَاحْتَرَقَ شَعْرُهُ، وَاسْوَدَّ بَشَرُهُ، فَأُعِيدَ إِلَى حُفْرَتِهِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ انْتِهَاءُ مُحْنَتِهِ" (٢٨٩).

وهذه الأفعولة الأشنعوة، تؤكد مدى الحقد والغل الذي تجمع في صدور هؤلاء الذين اقترفوها، وتؤكد أيضاً على انعدام أبسط معاني الرحمة، والشفقة التي هي جبلة في الإنسان والحيوان.

ولقد استنكر الناس عامة هذا الفعل، واستقبحوه، بما رد الاعتبار إلى شخص ابن الخطيب رحمه الله، وكذلك أهله وذويه، قال ابن خلدون: "وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الشَّنْعَاءِ الَّتِي جَاءَ بِهَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، وَاعْتَدُّوا مِنْ هِنَاتِهِ، وَعَظَمَ النِّكَيرُ فِيهَا عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ، وَأَهْلُ دَوْلَتِهِ وَاللَّهُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ" (٢٩٠).

أما ابن خلدون الذي تفرّد برواية محنة ابن الخطيب مفصلة، بما دلّ على طلّعه وخبرته في هذا الشأن لما كانت تربطه بابن الخطيب من مشاعر الود، والصداقة الحميمة، فلم يدخر وسعاً في الحيلولة دون هلاك ابن الخطيب.

إلا أنه لم يفلح، بل انعكست وساطته عليه، الأمر الذي أكد على ضعف مركزه في تلك المدة، وانحسار جاهه لتورطه في ولاءات سياسية متباينة، وأحياناً متناقضة، جرّت عليه بلاء ووحشة.

قال ابن خلدون: "وَكَاثُوا قَدْ اغْتَقَلَوْهُ [ابْنَ الْخَطِيبِ] لِأَوَّلِ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الْبَلَدِ الْجَدِيدِ، وَظَفَرَهُمْ بِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ ابْنَ الْخَطِيبِ مِنْ مَحْبَسِهِ مُسْتَضْرِحًا بِي وَمُتَوَسِّلًا، فَخَاطَبْتُهُ فِي شَأْنِهِ أَهْلَ الدَّوْلَةِ، وَعَوَّلْتُ فِيهِ مِنْهُمْ عَلَى وَزَرَمَارٍ، وَابْنِ مَسَايٍ فَلَمْ تَنْجَحْ تِلْكَ السَّعْيَاءُ، وَقُتِلَ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي مَحْبَسِهِ" (٢٩١).

هذه هي مأساة اغتياله، وقصة محنته، ورواية نكبته رحمه الله. هذا ولم يحفظ التاريخ المفصل لوفاته، واكتفى صاحب الاستقصا بقوله: "وَكَاثُ نَكَبَتْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَّلَ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ" (٢٩٢).

أما ابن الخطيب الذي توقع موته وأيقن حينه، فكان دائم الشكوى والبكاء في سجنه، ولات حين شكوى وبكاء، قال ابن خلدون: "وَكَانَ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ أَيَّامَ امْتِحَانِهِ بِالسَّجْنِ، يَتَوَقَّعُ مُصِيبَتَهُ، فَتَجِيشُ هَوَاتِفُهُ بِالشَّعْرِ يَبْكِي نَفْسَهُ، وَمِمَّا قَالَ فِي ذَلِكَ:

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرْتَنَا الْبُيُوتُ	وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنْتْ دَفْعَةً	كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقُنُوتُ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا	وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتُ
وَكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا	غَرَبَتْ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السُّمُوتُ
فَكَمْ جَدَلْتُ ذَا الْخُسَامِ الظُّبَا	وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلْتَهُ الْبُخُوتُ
وَكَمْ سَيَقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ	فَتَى مُلِئْتُ مِنْ كُسَاءِ التُّخُوتُ
فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ	وَفَاتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتُ
وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ	فَقُلْ يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ" (٢٩٣).

هوامش الفصل الثاني

- (١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧.
- (٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٥-٢٩٦.
- (٣) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٤) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ١٣، ص ٦٩٣.
- (٥) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١١٨-١١٩.
- (٦) في نفح الطيب [ينفع].
- (٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ١٤٧-١٤٨.
- (٨) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١٣.
- (٩) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٤٥.
- (١٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٤.
- (١١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٤٤٤-٤٤٥.
- (١٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٢، ص ٣٢.
- (١٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦١-١٦٢.
- (١٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٤٤٥.
- (١٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠.
- (١٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٤٥.
- (١٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٥.
- (١٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.
- (١٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦-١٤٧.
- (٢٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.
- (٢١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧-١٥٠.
- (٢٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٠.
- (٢٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٠.
- (٢٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥١.
- (٢٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥١.
- (٢٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥١.
- (٢٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٧.
- (٢٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٧.
- (٢٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٥.
- (٣٠) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٣٣.
- (٣١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٥.

- (٣٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٣٣) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٣٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٤٥.
- (٣٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٤٤٥، وج ٢، ص ٣٣-٣٤.
- (٣٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٥، وج ٢، ص ٣٣-٣٤.
- (٣٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٠-٤٥٢.
- (٣٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٦٨.
- (٣٩) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٤٠) رابع عبدالله المغراوي، تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣هـ-٧٧٦هـ)، الرسالة ١٤٠، الحولية العشرون، ١٩٩٩-٢٠٠٠م.
- (٤١) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٤٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٦٢.
- (٤٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٦.
- (٤٤) انظر ترجمته في الإحاطة، ج ٣، ص ٥٥٥-٢٩٦.
- (٤٥) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ١٦٧.
- (٤٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٧.
- (٤٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٨.
- (٤٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٤٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
- (٥٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩-١٧٦.
- (٥٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٦.
- (٥٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.
- (٥٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.
- (٥٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.
- (٦٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.
- (٦١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.
- (٦٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٩.
- (٦٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٩.
- (٦٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٩.

- (٦٥) المصدر السابق، ج٣، ص ١٨٠.
- (٦٦) المصدر السابق، ج٣، ص ١٨٠.
- (٦٧) الرسالة ١٤٠ الحولية ٢٠، ١٩٩٩-٢٠٠٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ص ١٠٢.
- (٦٨) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٣، ص ١٨٠.
- (٦٩) المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٥-١٩٦.
- (٧٠) المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٦.
- (٧١) المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٦.
- (٧٢) المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٦.
- (٧٣) المصدر السابق، ج٣، ص ١٩٩.
- (٧٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٠-٢٠١.
- (٧٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠١.
- (٧٦) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠١-٢٠٢.
- (٧٧) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج٣، ص ٣١٤.
- (٧٨) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٦.
- (٧٩) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤.
- (٨٠) للمزيد من الاطلاع على مناقب ابن الخطيب وإنجازاته في هذه الدولة، يراجع الإحاطة، ج٢، ص ٣١-٩١. وج٢، ص ٤٤٤ فما فوق. وإعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٤-٣١٦.
- (٨١) كذا في النسخة المحققة، وأظنها تحريف لـ [الأموال].
- (٨٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٥-٤٤٦.
- (٨٣) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥.
- (٨٤) المصدر السابق، ج٢، ص ٣١٣.
- (٨٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٦.
- (٨٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٣، ص ٢٢٣.
- (٨٧) هذه العبارة تشير إلى أنه حتى حدود شهر ربيع الأول من عام ٧٦٤هـ، لم يزل ولد ابن الخطيب وأهله بالمغرب، ومن تاريخ خروجه إلى التاريخ المذكور تكون مدة الفراق قرابة ثمانية أشهر، ويفهم من نصوص أخرى، ستأتي أنهم سيلحقون به، ولكن لا نعرف تاريخ ذلك.
- (٨٨) أضيفت ليستقيم الوزن.
- (٨٩) كذا في التحقيق، وأظنها [غُصَصَ].
- (٩٠) كذا في التحقيق، وأظنها [فجئوا].
- (٩١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٣، ص ٢٢٦-٢٢٨.
- (٩٢) توفي في حدود ٨٠٠هـ.
- (٩٣) كذا في النسخة المعتمدة، ولا معنى له.
- (٩٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج٣، ص ٢٣٢.

- (٩٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٥٣.
- (٩٦) كذا في النسخة المحققة، وأرجح أن تكون العبارة [وَسَرَتْ مَضَارُهُمْ].
- (٩٧) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٦٥.
- (٩٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٥.
- (٩٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨. وانظر: ص ٧٩.
- (١٠٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦-٨٧.
- (١٠١) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٠.
- (١٠٢) ابن خاتمة: هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة، أبو جعفر، الأنصاري، المريبي، المعروف بابن خاتمة، وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله: «حسنة من حسنات الأندلس، وطبقة في النظم والنثر، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد... عقد الشروط، وكتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء ببلده، مشكور السيرة» توفي في سنة ٧٧٠هـ. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٢٣٩-٢٥٩.
- (١٠٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٣.
- (١٠٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج ٣، ص ٢٣٠-٢٣١.
- (١٠٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٨-٢٣٠.
- (١٠٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩١-٢٩٢.
- (١٠٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩١-٢٩٢.
- (١٠٨) كذا في النسخة المحققة، وأظنها [الذي منه سبحانه هائل].
- (١٠٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٢-٢٣٧.
- (١١٠) أحمد المقري، نفح الطيب، ج ٥، ص ١٤٥.
- (١١١) أحمد المقري، أزهار الرياض، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢٣.
- (١١٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٣.
- (١١٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٣.
- (١١٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤.
- (١١٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤-٣٢٥.
- (١١٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٥.
- (١١٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٨.
- (١١٨) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٩.
- (١١٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٩-٣٣٠.
- (١٢٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣١.
- (١٢١) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٢.
- (١٢٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٢.
- (١٢٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٣.
- (١٢٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٤.
- (١٢٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٤.

- (١٢٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٤.
- (١٢٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٥.
- (١٢٨) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٦-٣٣٥.
- (١٢٩) أحمد بن أبي حجلة، ديوان الصبابة، بيروت، لبنان، دار ومكتبة الهلال، طبعة ١٩٨٤م، ص ٥.
- (١٣٠) ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، الطبعة الأولى، ج ١، البيضاء، المغرب، دار الثقافة، ١٩٧٠، ص ٩٠-٩٣.
- (١٣١) ابن أبي حجلة، ديوان الصبابة، ص ٥-٦.
- (١٣٢) ابن خلدون، كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، طبعة ١٩٧٩، ص ١٢٨.
- (١٣٣) المصدر السابق، ص ١٢٨.
- (١٣٤) الخانقاه والخانكاه وجمعه خوانق وخوانك، وهي كلمة فارسية معناها البيت، والخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة للهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة. ويقع الخانقاه المذكور بخط رحبة باب العيد من القاهرة، مقابل دار الوزارة. المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٨٠-٢٨٤.
- (١٣٥) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ١٢٨.
- (١٣٦) ابن أبي حجلة، ديوان الصبابة، ص ٤-٨.
- (١٣٧) المصدر السابق، ص ٨-١٠.
- (١٣٨) ابن الخطيب، روضة التعريف، ج ١، ص ٩٠.
- (١٣٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٠-٩١.
- (١٤٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٧-٩٨.
- (١٤١) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٥-٩٦.
- (١٤٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٦.
- (١٤٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٤-٩٥.
- (١٤٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٣-٩٤.
- (١٤٥) في بعض النسخ [يُكَيَّفُ].
- (١٤٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.
- (١٤٧) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠١-١٠٢.
- (١٤٨) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٢.
- (١٤٩) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٩.
- (١٥٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٨-٢٥٣.
- (١٥١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٧.
- (١٥٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٠-٢٨٣.
- (١٥٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٣.
- (١٥٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٣-٥٣٤.

- (١٥٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٤-٥٣٩.
- (١٥٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٩.
- (١٥٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٩-٥٤٩.
- (١٥٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٩.
- (١٥٩) كذا في التحقيق، وأظنه [يَعْشُونَ].
- (١٦٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥١-٥٥٢.
- (١٦١) انظر آراءهم في روضة التعريف، ج ٢، ص ٥٥٥-٥٦٤.
- (١٦٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣٥-٦٣٦.
- (١٦٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦٤-٥٧٤.
- (١٦٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣٦.
- (١٦٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٧٤.
- (١٦٦) انظر آراءهم في ج ٢، ص ٥٧٤-٥٨٣.
- (١٦٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣٦.
- (١٦٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨٣-٥٨٤.
- (١٦٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨٣-٦٠٣.
- (١٧٠) أبو براقش: طائر صغير يتلون، لا سيما في موسم التزاوج، ويضرب به المثل في التقلب والتلون.
- (١٧١) ابن الخطيب، روضة التعريف، ج ٢، ص ٦٣٧-٦٣٨.
- (١٧٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٠٤.
- (١٧٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٠٤-٦٢٠.
- (١٧٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١٩.
- (١٧٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١٩-٦٢٠.
- (١٧٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢٠-٦٢١.
- (١٧٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢٦.
- (١٧٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣٨.
- (١٧٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٠٣.
- (١٨٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٧.
- (١٨١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٧.
- (١٨٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٧-٧٠٩.
- (١٨٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٩.
- (١٨٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٩-٧١٠.
- (١٨٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١٠.
- (١٨٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٤٤٦.
- (١٨٧) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٦.
- (١٨٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٥-٣١٦.

- (١٨٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٦.
- (١٩٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٦.
- (١٩١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٦.
- (١٩٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٦-٣١٧.
- (١٩٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧.
- (١٩٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧.
- (١٩٥) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ١٣٨.
- (١٩٦) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٧.
- (١٩٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧-٣١٨.
- (١٩٨) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ١٣، ص ٦٩٥.
- (١٩٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٩٦. وانظر ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ١٤٩.
- (٢٠٠) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢٠١) ابن خلدون، التعريف، ص ١٥٧. وانظر أيضاً كتاب العبر، ج ١٣، ص ٧٠١.
- (٢٠٢) ابن خلدون، التعريف، ص ١٥٧-١٥٨.
- (٢٠٣) المصدر السابق، ص ١٥٨.
- (٢٠٤) المصدر السابق، ص ١٥٨-١٥٩.
- (٢٠٥) المصدر السابق، ص ١٥٩.
- (٢٠٦) المصدر السابق، ص ١٥٩.
- (٢٠٧) المصدر السابق، ص ١٥٩-١٦٠.
- (٢٠٨) المصدر السابق، ص ١٦٠.
- (٢٠٩) المصدر السابق، ص ١٦١.
- (٢١٠) المصدر السابق، ص ١٦١.
- (٢١١) المصدر السابق، ص ١٦١-١٦٢.
- (٢١٢) المصدر السابق، ص ١٦٢.
- (٢١٣) المصدر السابق، ص ١٦٢-١٦٣.
- (٢١٤) المصدر السابق، ص ١٦٣.
- (٢١٥) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢١٦) ابن خلدون، التعريف، ص ١٥٣.
- (٢١٧) المصدر السابق، ص ١٥٣-١٥٤.
- (٢١٨) المصدر السابق، ص ١٥٦.
- (٢١٩) المصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥.
- (٢٢٠) ابن الخطيب، إعمال الأعلام، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢٢١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢٢٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢٢٣) ابن خلدون، التعريف، ص ١٤٩. وانظر: العبر، ج ١٣، ص ٦٩.

- (٢٢٤) ابن خلدون، التعريف، ص ١٥٤.
- (٢٢٥) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٢٢٦) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٦. وانظر: الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ٥٩.
- (٢٢٧) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩.
- (٢٢٨) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٦. وانظر: الاستقصا، ج ٤، ص ٥٩.
- (٢٢٩) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٠) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٦.
- (٢٣١) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٤) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٦.
- (٢٣٥) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٦) هو أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي النباهي سليل قضاة، ولد سنة ٧١٣هـ، تولى قضاء الجماعة في مملكة غرناطة على عهد ابن الخطيب وبتنصيب منه، ساءت علاقته بابن الخطيب حينما تحول ابن الخطيب وكان من الساعين المباشرين ضده والداعين إلى قتله بذريعة الزندقة غير الثابتة سامحه الله. تاريخ وفاته غير معروف.
- (٢٣٧) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٦-٦٩٧.
- (٢٣٨) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٣٩) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٧.
- (٢٤٠) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٢٤١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٩-٣٢٠.
- (٢٤٢) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠١.
- (٢٤٣) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٧٠١-٧٠٠.
- (٢٤٤) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٦٩٧-٦٩٨.
- (٢٤٥) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٢٤٦) انظر ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٨. وانظر أحمد الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٠.
- (٢٤٧) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٢٤٨) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٩٧.
- (٢٤٩) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٧٠١.
- (٢٥٠) ابن الخطيب، إعمال الأعمال، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٢٥١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٠-٣٢١.
- (٢٥٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١.
- (٢٥٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١.

- (٢٥٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١.
- (٢٥٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٢٥٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١.
- (٢٥٧) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٤٣.
- (٢٥٨) المصدر السابق، ص ٢٣٤-٢٣٥. وانظر: العبر، ج ١٣، ص ٧-١-٧٠٢. الاستقصا، ج ٤، ص ٦٠-٦٢.
- (٢٥٩) غساسة: تقع عند مصب نهر ملوية، بين السعديين ورأس كبدانة، حيث كانت تقطن قبائل بطوية.
- (٢٦٠) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٣٥-٢٣٦.
- (٢٦١) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٣.
- (٢٦٢) انظر ابن خلدون، التعريف، ص ٢٣٩-٢٤٠. وانظر: ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٥.
- الناصرى، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٠-٦٢.
- (٢٦٣) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٩.
- (٢٦٤) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٦٩٦.
- (٢٦٥) المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ١٣٦.
- (٢٦٦) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣٨.
- (٢٦٧) المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ١٢١.
- (٢٦٨) المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ٢١٢. ونفح الطيب، ج ٥، ص ١٢٢.
- (٢٦٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٢.
- (٢٧٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٣.
- (٢٧١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٣.
- (٢٧٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٤-٢١٥. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٣-١٢٤.
- (٢٧٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٤.
- (٢٧٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٤.
- (٢٧٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٤.
- (٢٧٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٦-٢١٧. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٥.
- (٢٧٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٧. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٥.
- (٢٧٨) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٧. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٦.
- (٢٧٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٨. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٦.
- (٢٨٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٩. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٧.
- (٢٨١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٩. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٧.
- (٢٨٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٠. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٨.
- (٢٨٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٠. المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٨.
- (٢٨٤) ذكر ابن خلدون أنه كان من أعراب بني عسكر، وكان رديفاً في الوزارة، لوزير السلطان الجديد، محمد بن عثمان المستبد عليه. العبر، ج ١٣، ص ٧٠٨.

- (٢٨٥) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٨.
- (٢٨٦) أحمد الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٣. وانظر ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٩.
- (٢٨٧) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٩. أحمد المقري، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٣.
- (٢٨٨) العبر، ج ١٣، ص ٧٠٩. الاستقصا، ج ٤، ص ٦٣-٦٤.
- (٢٨٩) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٧٠٩. المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٤.
- (٢٩٠) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٧٠٩. المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٤.
- (٢٩١) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٤٤.
- (٢٩٢) أحمد الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٤.
- (٢٩٣) ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٧٠٩-٧١٠. المقري، أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٣١.
- الناصرى، الاستقصا، ج ٤، ص ٦٤.

المصادر والمراجع

- ١ - ابن أبي حجلة، شهاب الدين أحمد بن حجلة، ديوان الصبابة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
- ٢ - ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، ١٩٧٢م.
- ٣ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الملقب بعز الدين، الكامل في التاريخ، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
- ٤ - ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف:
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.
- نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.
- ٥ - ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: د. محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٨٤.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وهي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون تاريخ الطبع.
- ٦ - ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨٢م.
- ٧ - ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله:
- لسان الدين الغرناطي الأندلسي، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق:

- د.أحمد مختار العبادي، مراجعة: د. عبدالعزيز الأهواني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، بدون تاريخ طبع.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج ٣، تحقيق: سعدية فاغية، مطبعة النجاح، البيضاء، المغرب.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب، تحقيق: د. محمد عبدالله عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١م.
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ طبع.
- رقم الحل في نظم الدول، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، ١٩١٦م.
- رقم الحل في نظم الدول، تحقيق: عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٠م.
- روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق: محمد الكتاني، الطبعة الأولى، دار الثقافة، البيضاء، المغرب، ١٩٧٠م.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، القسم الأول، تحقيق: رابح عبدالله المغراوي، تحت الطبع.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٧٣م.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، القسم الثاني، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.

- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد كمال شبانة وحسن محمود، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بدون تاريخ الطبع.
- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، تحقيق: عبدالمجيد تركي، المؤسسة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٣م.
- السحر والشعر، تحقيق ودراسة: محمد كمال شبانة - إبراهيم محمد حسن الجمل، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ١٩٩٥م.
- السحر والشعر، تحقيق: خ. م. كونتينتي فيري Jose Maria Continente، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مطابع غرافيكاس مولينا للطباعة العربية، مدريد، ١٩٨١م.
- اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م، ونسخة أخرى، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧هـ.
- ٨ - ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ طبع.
- ٩ - ابن القاضي، ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، طبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.
- ١٠ - ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملح، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين، علي عبدالستار، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

- ١١ - بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، تعريب: عبدالحليم النجار، الطبعة الخامسة، دار المعارف، ١٩٨٣م.
- ١٢ - البستاني، الفريد، دائرة المعارف اللبنانية، طبعت بيروت ١٨٧٦.
- ١٣ - البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني البغدادي، إيضاح المكنون في النيل على كشف الظنون، طبعة استانبول، ١٩٤٥م.
- ١٤ - التطواني، محمد بن أبي بكر التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، دار الطباعة المغربية، تطوان، المغرب، طبعة ١٩٥٤م.
- ١٥ - جوليان، شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقية الشمالية، تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٠٣، ترجمة محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨م.
- ١٦ - حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، العراق.
- ١٧ - الحريري، محمد عيسى صابر، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، الطبعة الثانية، دار القلم، الكويت، ١٩٨٧م.
- ١٨ - الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
- ١٩ - الحنبلي، ابن العماد، شهاب الدين عبدالله بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢٠ - الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الحادية عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
- ٢١ - العسقلاني، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي:

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: سالم الكرنكوي الألماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ الطبع.
- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: محمد عبدالمعين خان، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
- ٢٢ - العمري: ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨م.
- ٢٣ - عنان، محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.
- لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٢٤ - فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، دراسة حضارية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- ٢٥ - مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبدالحاميد يونس، مصر، ١٩٥٧م.
- ٢٦ - المراكشي، العباس بن إبراهيم، الأعلام بمن حل مراکش وأغمات، دار الكتب، الدار البيضاء، الطبعة الملكية، الربا، ١٩٧٤م.
- ٢٧ - المغراوي، رابح عبدالله:
- تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣هـ - ٧٧٦هـ)، الرسالة ١٤٠، الحولية العشرون، ٢٠٠٠م، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
- قضية بيعة الصبي بين الفقه والتاريخ وكتاب: "إعمال الأعلام" لابن الخطيب،

- الرسالة ٢٠٠، الحولية الثالثة والعشرون، ٢٠٠٣م، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
- ٢٨ - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد:
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مجموعة من الباحثين، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات، ١٩٨٧م.
- ٢٩ - المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، وضع حواشيه: خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.
- ٣٠ - الناصري، أبو العباس أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: د. جعفر الناصري ود. محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- ٣١ - النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله بن الحسن المالقي الأندلسي، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بدون تاريخ الطبع.
- ٣٢ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
- ٣٣ - Arie Rachel, L'Espagne Musulmane au temps des Nasrides, Editions e. — De Boccard. Paris 1973.

مجلة فصلية أكاديمية

محكمة تعنى بنشر البحوث

والدراسات القانونية والشرعية

مجلة الحقوق



تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقي أبو الليل



صدر العدد الأول في
يناير ١٩٧٧

الاشتراكات

في الكويت	في الدول العربية	في الدول الأجنبية	
٣ دنانير	٤ دنانير	١٥ دولاراً	الأفراد
١٥ ديناراً	١٥ ديناراً	٦٠ دولاراً	المؤسسات

المراسلات

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:

مجلة الحقوق - جامعة الكويت ص.ب: ٦٤٩٨٥ الشويخ - ب 70460 الكويت

تلفون: ٤٨٣٥٧٨٩ - ٤٨٤٧٨١٤ فاكس: ٤٨٣١١٤٣

E-mail: jol@kuc01.kuniv.edu.kw

عنوان المجلة في شبكة الإنترنت <http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jol>

ISSN 1029 - 6069



المجلة العربية للعلوم الإدارية



Arab Journal of Administrative Sciences

رئيس التحرير : أ.د. عبد الكريم عبد العزيز الصفار

- First Issue, November 1993 صدر العدد الأول في نوفمبر ١٩٩٣
- A refereed Journal Publishes Original Research in Administrative Sciences علمية محكمة تعنى بنشر البحوث الأصلية في مجال العلوم الإدارية
- Published by the Academic Publication Council, Kuwait University, 3 Issues (January, May, September) تصدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت كل أربعة أشهر (يناير، مايو، سبتمبر)
- The Journal Intends to Develop and Exchange Business Thoughts تهدف المجلة إلى الإسهام في تطوير الفكر الإداري واختبار الممارسات الإدارية واثرائها
- Listed in Several International Databases مسجلة في قواعد البيانات العالمية

ISSN:1029-855X

الاشتراكات

الكويت : 3 دنائير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات الدول العربية : 4 دنائير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات الدول الأجنبية : 15 دولاراً للأفراد - 60 دولاراً للمؤسسات

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتبع :

المجلة العربية للعلوم الإدارية - جامعة الكويت ص.ب. : 28558 الصفاة 13055 - دولة الكويت
هاتف : (965) 4827317 بدالة : (965) 4846843 داخلي : 4415 - 4416 - 4734 فاكس : (965) 4817028
E-mail: ajoas@kuc01.kuniv.edu.kw Web Site: http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajas

المجلة التربوية



مجلة فصلية، تخصصية، محكمة
تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت
رئيس التحرير: أ. د. صالح عبدالله جاسم



نشر:

- البحوث التربوية المحكمة
- مراجعات الكتب التربوية الحديثة
- محاضر الحوار التربوي
- التقارير عن المؤتمرات التربوية
- وملخصات الرسائل الجامعية

❖ تقبل البحوث باللغتين العربية والإنجليزية.
❖ تنشر لأساتذة التربية والمختصين بها من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية.

الاشتراكات:

في الكويت: ثلاثة دنائير للأفراد، وخمسة عشر دينارا للمؤسسات.
في الدول العربية: أربعة دنائير للأفراد، وخمسة عشر دينارا للمؤسسات.
في الدول الأجنبية: خمسة عشر دولارا للأفراد، وستون دولارا للمؤسسات.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير المجلة التربوية - مجلس النشر العلمي ص. ب. ١٣٤١١ كيفان - الرمز البريدي 71955
الكويت هاتف: ٤٨٤٦٨٤٣ (داخلي ٤٤٠٣ - ٤٤٠٩) - مباشر: ٤٨٤٧٩٦١ - فاكس: ٤٨٣٧٧٩٤
E-mail: TEJ@kuc01.kuniv.edu.kw.

مَجَلَّةُ الشَّرِيعَةِ وَالْأَسْأَلِ الْإِسْلَامِيِّ

نضلية علمية معتمدة تصدر عن مجلس النشر العلمي بجماعة الكويت
تُعنى بالبحر والدراسات الإسلامية

رئيس التحرير الأستاذ الدكتور: مبارك سيف الهاجري

صدر العدد الأول في رجب ١٤٠٤ هـ - أبريل ١٩٨٤ م

- * تهدف إلى معالجة المشكلات المعاصرة والقضايا المستجدة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.
- * تشمل موضوعاتها معظم علوم الشريعة الإسلامية: من تفسير، وحديث، وفقه، واقتصاد وتربية إسلامية، إلى غير ذلك من تقارير عن المؤتمرات، ومراجعة كتب شرعية معاصرة، وفتاوى شرعية، وتعليقات على قضايا علمية.
- * تنوع الباحثون فيها، فكانوا من أعضاء هيئة التدريس في مختلف الجامعات والكليات الإسلامية على رقعة العالمين: العربي والإسلامي.
- * تخضع البحوث المقدمة للمجلة إلى عملية فحص وتحكيم حسب الضوابط التي التزمت بها المجلة، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين في الشريعة الإسلامية، بهدف الارتقاء بالبحث العلمي الإسلامي الذي يخدم الأمة، ويعمل على رفعة شأنها، نسأل المولى عز وجل مزيداً من التقدم والازدهار.

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

ص ب ١٧٤٢٣ - الرمز البريدي: 72455 الخالدية - الكويت هاتف: ٤٨١٢٥٠٤ - فاكس: ٤٨١٠٤٣٤

بدالة: ٤٨٤٦٨٤٣ - ٤٨٤٢٢٤٣ - داخلي: ٤٧٢٣

العنوان الإلكتروني: E-mail - JOSAIS@KUC01.KUNIV.EDU.KW

issn: 1029 - 8908

عنوان المجلة على شبكة الإنترنت: <http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/JSIS>

اعتماد المجلة في قاعدة بيانات اليونسكو Social and Human Sciences Documentation Center

في شبكة الإنترنت تحت الموقع www.unesco.org/general/eng/infoserv/db/dare.html

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية



فصلية - أكاديمية - محكمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في تخصصات السياسة والاقتصاد والاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية والجغرافيا وعلوم المكتبات والمعلومات

رئيس التحرير: الدكتور خالد أحمد الشلال



توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية

جامعة الكويت

ص.ب 27780 الصفاة، 13055 - الكويت

تليفون: 00965-4810436

فاكس 4836026

E-mail: JSS@kuc01.kuniv.edu.kw



تفتح أبوابها أمام

✿ أوسع مشاركة للباحثين الاجتماعيين العرب

للإسهام في معالجة قضايا مجتمعاتهم.

✿ التفاعل الحي مع القارئ المثقف

والمهتم بالقضايا المطروحة.

✿ المقابلات والمناقشات الجادة

ومراجعات الكتب والتقارير.

✿ تؤكد المجلة إلتزامها بالوفاء والانتظام بوصولها في

مواعيدها المحددة إلى جميع قرائها ومشركيها.

الاشتراكات

الدول الأجنبية

الكويت والدول العربية

15 دولاراً

أفراد

3 دنانير سنوياً ويضاف إليها
دينار واحد في الدول العربية

أفراد

60 دولاراً في السنة
110 دولارات لسنتين

مؤسسات

15 ديناراً في السنة
25 ديناراً لمدة سنتين

مؤسسات

تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً نقداً أو بشيك باسم المجلة مسجوباً على أحد المصارف الكويتية ويرسل على عنوان المجلة، أو بتحويل مصرفي لحساب مجلة العلوم الاجتماعية رقم 07101685 لدى بنك الخليج في الكويت (فرع العدلية).

Visit our web site: <http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jss>

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٧٥

رئيسة التحرير

د. فاطمة حسين يوسف العبد الرزاق

ترحب المجلة بنشر البحوث والدراسات
العلمية المتعلقة بشؤون منطقة الخليج
والجزيرة العربية في مختلف مجالات
البحث والدراسة (باللغتين العربية
والانجليزية).

ومن أبوابها:

- البحوث (باللغتين العربية والانجليزية)
- عرض الكتب ومراجعتها
- البيبلوجرافيا العربية

المراسلات

توجه جميع المراسلات باسم رئيسة تحرير
مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية
ص. ب : ١٧٠٧٣ الخالدية
الرمز البريدي ٧٢٤٥١ الكويت
تلفون : 4833215 - 4984066 - 4833705 (+965)
فاكس : 4833705 (+965)
E-mail: jotgaaps@kuc01.kuniv.edu.kw
Http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jgaps

الإشتراكات

داخل دولة الكويت
٣ دنانير للأفراد - ١٥ دينار للمؤسسات.
الدول العربية
٤ دنانير للأفراد - ١٥ دينار للمؤسسات.
الدول غير العربية
١٥ دولار للأفراد - ٦٠ دولار للمؤسسات.
ترسل قيمة الاشتراك للأفراد مقدماً باسم مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية مسحوب على
أحد المصارف الكويتية

ISSN: 0254-4288

المجلة العربية للمعلوم الإنسانية

أكاديمية - فصلية - محكمة

بحوث باللغة العربية والإنجليزية
مناقشات - عروض كتب - تقارير

رئيس التحرير: د. مرسل فالح العجمي

مجلس
النشر
العلمي



P.o.Box: 26585-Safat.13126 kuwait

Tel: (+965)4817689 – 4815453 Fax: (+965) 4812514

E-mail: ajh@kuc01.kuniv.edu.kw <http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajh/>



مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية

جامعة الكويت - تأسس عام ١٩٩٤



مديرة المركز أ. د. أمل يوسف العذبي الصباح

يصدر عن المركز مايلي :

- * سلسلة الإصدارات الخاصة .
- * سجل الأحداث الجارية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية وجوارها الجغرافي .
- * مجلدات وثائق مختارة لمنطقة الخليج والجزيرة العربية وجوارها الجغرافي .
- * سلسلة إصدارات لنشر بحوث الندوات والمؤتمرات .
- * مطبوعات خاصة بنشر ملخصات الأطروحات العلمية (المجستير ، الدكتوراه) .

سلسلة الإصدارات الخاصة

سلسلة علمية محكمة - صدر العدد الأول عام ١٩٩٧ م .
يرحب المركز بنشر الأبحاث والدراسات التي تهدف إلى إبراز الخصوصية البيئية للمنطقة الخليجية ورصد قضايا التنمية بأبعادها الحضارية الشاملة وفي ضوء المتغيرات العالمية.

قواعد النشر :

أولاً : أن يكون البحث أو الدراسة معنياً بشئون منطقة الخليج والجزيرة العربية في المجالات الآتية :
السياسة ، الاقتصاد ، الجغرافيا ، التاريخ ، علم النفس ، الاجتماع ، التربية ، اللغة العربية وآدابها ،
البيئة ، القانون ، الإعلام ، التراث (الآثار والحضارة والفنون) .
ثانياً : أن تمثل الدراسة إضافة جديدة إلى حقل التخصص .
ثالثاً : لم يسبق تقديمها للنشر إلى جهة أخرى .
رابعاً : ألا يقل عدد صفحات البحث أو الدراسة عن ١٠٠ صفحة ولا يزيد على ٢٠٠ صفحة .

نوع الاشتراك	الكويت	الدول العربية	الدول الأجنبية
الأفراد	٣ د.ك	٤ د.ك	٦٠ دولاراً
المؤسسات	١٥ د.ك	١٥ د.ك	٦٠ دولاراً

الاشتراكات

توجه جميع المراسلات باسم مديرة المركز

ص.ب ٦٤٩٨٦ الشويخ (ب) الرمز البريدي (٧٠٤٦٠)

هاتف : ٤٨١٦٧٩٩ - ٤٨١٦٨٠٧ - ٤٨١٦٨٢٤ - الفاكس الدولي : ٠٠٩٦٥ - فاكس : ٤٨١٤٢٩٥ - ٤٨١٠٤٧٤

www.cgaps.net

العنوان الإلكتروني لصفحة المركز

gulf_center@yahoo.com

البريد الإلكتروني للمركز

المراسلات

محتوى المحلّة الرابعة والعشرين :

- ٢٠٢ - شعر أمّين بن خريم الأسدي. (جمع وتحقيق) د. عبدالله القتم
٢٠٣ - أثر التدريب في سلوك الموظفين كما يراه رؤساء العمل «دراسة ميدانية مقارنة بين الجهات الحكومية والجهات الخاصة بدولة الكويت» د. فهد يوسف الفضالة
- ٢٠٤ - التحول الوبائي في دولة الإمارات العربية المتحدة «دراسة في الجغرافيا الطبية» أ. د. محمد مدحت جابر عبدالجليل
- ٢٠٥ - عولمة الأنشطة الإعلامية قضايا وآراء. (بحث مستكتب) أ. د. حمدي حسن أبو العينين
- ٢٠٦ - (السرديات) مقدمة نظرية. د. مرسل فالح العجمي
- ٢٠٧ - تعاطي المواد المؤثرة في الأعصاب بين طلاب مرحلة التعليم الجامعي بدولة الكويت «دراسة وبائية» د. فريخ عويد العنزّي، ود. الحسين محمد عبدالمنعم
- ٢٠٨ - في مخدّات العقل العمراي الخلدوني. (بحث باللغة الإنجليزية) د. محمود بن حبيب النواوي
- ٢٠٩ - «الباذة» هوميروس الملحمة الأنهوذج أو ينبوع الإلهام الشعري منذ القدم إلى اليوم. (بحث مستكتب) أ. د. أحمد عثمان
- ٢١٠ - العلاقة بين الأمان العاطفي والاستقلال عن المجال الإدراكي لدى أطفال الروضة الكويتيين في ضوء إدراك الأمهات والمعلمات. د. معصومة أحمد إبراهيم
- ٢١١ - (ذات القوافي) قصيدة في ثلاثين قافية بهدح سيد الوجود محمد ﷺ، لعلي بن محمد بن عبدالعزيز الحروف ب (ابن الدريهم). (تحقيق) د. محمد حسان الطيان
- ٢١٢ - المرأة في البلاط الأموي في الأندلس (١٣٨هـ/ ٧٥٥م - ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي. د. يوسف بن أحمد حوالة
- ٢١٣ - الأشياء وتشكلاتها في الرواية العربية. د. مصطفى إبراهيم الضبع
- ٢١٤ - اتجاهات الشباب والمراهقين نحو العمل الفني الصناعي في الجنتح القطري. د. كلثم علي الغانم.
- ٢١٥ - التاريخ السياسي لإمارة بني مسافر في أذربيجان والران وبعض مظاهر الحضارة (٣٣٠-٤٢٠هـ / ٩٤١-١٠٢٩م). د. سليمان عبد الله الخرابشة
- ٢١٦ - (موت النص) جدلية التحقيق والتخييل في النص الشعري في ضوء النقد الأدبي القديم، والنشء النقدية. د. محمد أبو الفضل بدران

محتوى المجلد الخامسة والعشرين:

- ٢١٧- سلوك تدخين السجائر لدى طلبة جامعة الكويت: دراسة في شخصية المدخنين د. بدر محمد الأنصاري
- ٢١٨- مصادر المياه و دورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في دولة الكويت: دراسة في الجغرافيا الاقتصادية د. عبيد سرور العتيبي
- ٢١٩- قراءة نقدية في شعرية القصيدة الجديدة في الكويت ملامح من المستويات الأسلوبية والتعبيرية والدلالية والمعنوية د. محمود جابر عباس (رحمه الله)
- ٢٢٠- بناء القصيدة العربية في العصر المملوكي: البنية الإحالية د. يوسف إسماعيل
- ٢٢١- موقف ابن الشجري من شعر المتنبي د. ليلى خلف السبعان
- ٢٢٢- ديانة شهداء نجران قراءة جديدة للمصادر الأولية د. عائشة سعيد أبو الجدايل
- ٢٢٣- دور بني العباس في إدارة البلدان، وإمارة الحج في العصر العباسي الأول (١٣٢هـ/ ٧٥٠م - ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م). د. فيصل عبد الله بني حمد
- ٢٢٤- تجاوز ضفاف المؤلف: دراسة في شعر الأعشى الكبير د. نسيم راشد الغيث
- ٢٢٥- أصول النحو عند البغدادي: دراسة في شواهد الخزائن د. فاطمة راشد الراجحي
- ٢٢٦- وثائق الوقف الكويتية وأهميتها التاريخية (١٢٦٣ - ١٣٨٢ هـ / ١٨٤٧ - ١٩٦٣ م) د. فيصل عبد الله الكندري
- ٢٢٧- من ظواهر الأشباه بين اللغويات العربية والدرس اللساني المعاصر "الترادف" د. عبد الرحمان بودرع
- ٢٢٨- ظاهرة السفر للسياحة خارج الكويت أسبابها والعوامل المؤثرة فيها: دراسة تحليلية تطبيقية في جغرافية السياحة د. غانم سلطان أمان
- ٢٢٩- التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء د. جاسم سليمان حمد الفهيد
- ٢٣٠- النظرية القصصية في المعنى عند جراس د. صلاح إسماعيل
- ٢٣١- العلاقات المصرية الختية في عصر الدولة الحديثة (١٥٥٠-١٠٦٩ ق.م) بحث مرجعي د. فايزة محمود صقر

صوليائت الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسائل ذات الصلة بدولة الكويت:

- ١٠ - الروابط العائلية - القرابية في مجتمح الكويت العاصر
- ٣٥ - اتجاهات الآباء والأمهات الكويتيين في تنشئة الأبناء وعلاقتها ببعض المتغيرات
- ٥٧ - التغير الاجتماعي في الدول المنتجة للنفط (مجتمح الكويت)
- ٦٣ - نجاح الشيخ أحمد الجابر في الإفادة من التنافس الإنجليزي الأمريكي بشأن نفط الكويت
- ٦٧ - النفط والنمو الحضري بدولة الكويت - دراسة حضرية
- ٧٢ - خبرات الكويت: توزيعها، نشأتها، تصنيفها
- ٧٧ - الاتجاه نحو الدين وعلاقته ببعض سمات الشخصية لدى عينه من الطلبة الجامعيين في الكويت
- ٨٢ - مشكلة الحدود الكويتية بين الدولتين العثمانية و البريطانية (١٨٩٩-١٩١٣ م)
- ٩٤ - الاغتراب في الشعر الكويتي
- ٩٦ - سياسات الاتصال في دولة الكويت
- ٩٨ - موقف المشاهدين في دولة الكويت من القناة الفضائية المصرية بعد التحرير (دراسة ميدانية)
- ١٠٠ - شعر العدوان في مرايا بعض معاصريه
- ١٠٤ - اتجاهات الكويتيين نحو ظاهرة الزواج من غير الكويتية
- ١٠٥ - انتخاب المجلس الوطني الكويتي لعام ١٩٩٠ (دراسة في الجغرافية السياسية)
- ١٠٨ - الأعراض الاضطرابية المصاحبة لشكلة الطلاق في الأسرة الكويتية بعد صدمة العدوان العراقي
- ١١٦ - المهارات الاجتماعية في علاقتها بالقدرات الإبداعية و بعض المتغيرات الديموجرافية لدى طالبات الجامعة
- ١١٨ - قياس الحرج الموقفي: لدى طلاب المرحلة الجامعية من الجنسين وعلاقته ببعض متغيرات الشخصية في المجتمح الكويتي
- فهد ثاقب الثاقب
- عبد الفتاح القرشي
- نورة الفلاح
- ميمونة خليفة العنزي الصباح
- أمل يوسف العنزي الصباح
- عبد الحميد أحمد كليو
- نزار مهدي الطائي
- ميمونة خليفة العنزي الصباح
- سعاد عبد الوهاب العبد الرحمن
- نبيل عارف الجري -
- علي الدشتي (باحث اعلامي)
- (البحث باللغة الإنجليزية)
- محمد معوض إبراهيم
- وياسين طه الياسين
- نسيمة راشد الغيث
- فهد عبد الرحمن الناصر
- جاسم محمد كرم
- بشير صالح الرشيد
- عبد اللطيف محمد خليفة
- بدر محمد الأنصاري

تابع صوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسائل ذات الصلة بدولة الكويت:

- ١٢١- اتجاهات المواطنين الكويتيين نحو الآثار المرتبة على العمالة الوافدة
نضال حميد الموسوي
- ١٢٥- تفضيلات الاختيار الزواجي ومواقفه في المجتمع الكويتي
خالد أحمد مجرن الشلال
- ١٢٧- الاتجاه نحو بعض وظائف الأسرة الكويتية
عدنان عبد الكريم الشطي
- ١٣٠- الآثار الاقتصادية للغزو العراقي (دراسة مسحية تحليلية)
غانم سلطان أمان و فتحي عبد الله فياض هادي مختار رضا
- ١٣٢- عدم الاستقرار الأسري (دراسة ميدانية مقارنة بين الزوجات المتفرغات (ربات البيوت) والعاملات في المجتمع الكويتي
محمد محمود العبد الغفور
- ١٣٧- الطفل، المدرسة، التلفزيون: دراسة تحليلية لمحتوى برامج الأطفال في تلفزيون دولة الكويت ودورها في دعم القيم المراد غرسها في طفل المدرسة
عويد سلطان المشعان
- ١٣٩- دافع الإنجاز وعلاقته بالقلق والاكتئاب والثقة بالنفس لدى الموظفين الكويتيين وغير الكويتيين في القطاع الحكومي
حصّة عبد الرحمن الناصر و عبد اللطيف محمد خليفة
- ١٤٢- نسق المعتقدات حول تدخين السجائر وعلاقته ببعض سمات الشخصية لدى عينة من طلاب جامعة الكويت (دراسة مقارنة بين المدخنين وغير المدخنين)
عبد الله حمد محارب فهد عبد الرحمن الناصر
- ١٤٣- الثقافة في الكويت والغزو العراقي
١٤٦- مظاهر السلوك العدواني لدى طلبة المدارس الثانوية في دولة الكويت (دراسة استطلاعية)
- ١٥٣- بعض الأدلة التاريخية والشواهد الجغرافية على استقلال دولة الكويت
١٥٧- المخاوف المرضية عند طلاب الجامعة الكويتيين
- ١٦٢- قراءة في ديوان "قصائد في قفص الاحتلال للشاعرة غنية زيد الحرب" نهوذج من شعر المقاومة الكويتية
١٦٦- الآثار والانعكاسات المتزايدة للأمن الاجتماعي في المجتمع الكويتي

تابع حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسائل ذات الصلة بدولة الكويت:

- ١٧٤- حجم وأنهاط استهلاك المياه بدولة الكويت
والعوامل الجغرافية المؤثرة فيها (دراسة
تحليلية نقدية في جغرافية الاستهلاك).
- ١٩٢- " التفاضل والتشاور " قياسها وعلاقتها ببعض
متغيرات الشخصية لدى طلاب جامعة الكويت
- ١٩٨- مستويات المرجعية وتجلياتها التراثية في
الشعر الكويتي الحديث
- ٢٠٣- أثر التدريب في سلوك الموظفين كما يراه رؤساء
العامل (دراسة ميدانية مقارنة بين الجهات
الحكومية والجهات الخاصة بدولة الكويت)
- ٢٠٧- تعاطي المواد المؤثرة في الأعصاب بين طلاب مرحلة
التعليم الجامعي بدولة الكويت دراسة وبائية
- ٢١٠- العلاقة بين الأمان العاطفي والاستقلال عن
الجال الإدراكي لدى أطفال الروضة الكويتيين
في ضوء إدراك الأمهات والمعلمات
- ٢١٧- سلوك تدخين السجائر لدى طلبة جامعة
الكويت: دراسة في شخصية المدخنين
- ٢١٨- مصادر المياه ودورها في التنمية الاقتصادية
والاجتماعية في دولة الكويت: دراسة في الجغرافيا
الاقتصادية
- ٢١٩- قراءات نقدية في شعرية القصيدة العربية
الجديدة في الكويت ملامح من المستويات
الأسلوبية والتعبيرية والدلالية والمعنوية.
- ٢٢٦- وثائق الوقف الكويتية و أهميتها التاريخية
١٩٦٣م - ١٣٨٢هـ / ١٨٤٧ - ١٩٦٣م
- ٢٢٨- ظاهرة السفر للسياحة خارج الكويت أسبابها
و العوامل المؤثرة فيها دراسة تحليلية
تطبيقية في جغرافية السياحة
- ٢٣٦- توجهات المرأة الكويتية بشأن المشاركة
السياسية (دراسة استشرافية)
- ٢٣٨- تحديد الاحتياجات التدريبية ودورها في تخطيط
المسار الوظيفي والتدريب في المؤسسات
الحكومية بدولة الكويت (دراسة ميدانية على
مؤسسات العمل الحكومي بدولة الكويت)
- ٢٤١- تطور الكثافة السكانية بمدينة الكويت الكبرى
في الفترة (١٩٧٥-٢٠٠٠م)
- غانم سلطان أمان
- بدر محمد الأنصاري
- سعاد عبد الوهاب العبد الرحمن
- فهد يوسف الفضالة
- فريح عويد العنزوي
و الحسين محمد عبد المنعم
معصومة أحمد إبراهيم
- بدر محمد الأنصاري
- عبيد سرور العتيبي
- محمود جابر عباس الجنابي
(رحمه الله)
- فيصل عبدالله الكندري
- غانم سلطان أمان
- خالد أحمد الشلال
- فهد يوسف الفضالة
- نايف بشير منيف الدوسري

**Ibn Al-Khatib: from *coup d'etat* to
Assassination omened ministry
(760 - 776 A.H)
(1359 - 1374 A.D)**

Abstract

This study aims at looking into some important aspects of Lissan Addin Ibn Al-Khatib's life, one of the most learned Andalusian scholars. He was truly an authority in politics, history, literature, philosophy, Sufism, and even in medicine.

The research first introduces the unexpected *coup d'etat* plotted against him and his Sultan Mohammed 5th Al-Ghani Billah, in that this big event represented a decisive historical turning point in Ibn Al-Khatib's political life. Based, on his long experience and great competence as a Minister he since then had launched very challenging political reactions, which led to his total destruction. His miserable ending was a useful reminder and serious warning against total exposure to politics.

The Research adopts an approach which favours induction, excogitation, and interrogation, making use of data analysis (texts) to cover Lissan Addin Ibn Al-Khatib's life in detail. The study is therefore a reliable reference book, especially for those who want to introduce an artistic work on drama that develops an understanding of Ibn Al-Khatib's experience, along with his political and social surrounding.

Author:**Prof. Rabah A. Al Maghraoui**

- Ph.D., Medieval History of Maghreb and Andulsia, University of Mohammed I, Morocco, 1996
- Professor of Islamic History and Civilization, Faculty of Arts, University of Mohammed I, Oujada, Morocco.
- Member and Founder of 'Almunataf Magazine', and Member of its Editorial Board.

Publications**Article**

- 1 - "Characteristics of Ibn Khaldoun's Methodology in History Writing", *Almunataf Magazine*. 3-4, 1992.
- 2 - "New Approach of Al Mourabitin's Experience in Political Change", *Journal of the Faculty of Arts*. 5, 1995.
- 3 - "Aspects of Civilization in the Kingdom of Granada as Depicted in the Book of Al-Ihata by Ibn Al-Khatib (713 - 776 A.H), *Annals of the Arts ans social Sciences*, University of Kuwait, Monograph 140, Volume 20, 2000.
- 4 - "The Allegiance Loward a child between Islamic Law, History and ibn Alkhatib's Book AL-A'laam", *Annals of the Arts anssocial Sciences*, university of kuwait, Monograph 200, volume 23, 2003.

Monograph 247

**Ibn Al-Khatib: From *coup d'état* to
Assassination Omened Ministry
(760 - 776 A.H)
(1359 - 1374 A.D)**

Prof. Rabah A. Al Maghraoui

Department of History - Faculty of Arts,
University Of Mohammed I - Morocco

Advisory Board

Prof. Ibrahim Al-Sa'afin

Department of Arabic Language and
Literature - University of Sharja

Prof. Hayat N. Al-Hajji

Department of History
University of Kuwait

Prof. Ahmed Etman

Department of Greek and Latin
Studies - University of Cairo

Prof. Abdul Qader Al-Fasi Al-Fehri

Department of Arabic Language and
Literature - University of Mohamed V

Prof. Ismail S. Muqlad

Department of Political Science -
University of Assiout

**Prof. Marie-Therese Abdul
Messieh**

Department of English Language and
Literature - University of Cairo

Prof. Imam Abdul Fattah Imam

Department of Philosophy
University of Ain-Shams

**Prof. Mohammed Ghanem
Al-Rumeihi**

Department of Sociology
University of Kuwait

Prof. Hamdi Hasan Abul-Enein

Dean, Faculty of Mass Communica-
tion Misr International University

Prof. Mohammed M. I. Al-Dib

Department of Geography
University of Ain-Shams

Prof. Mahmoud Al-Sayed Abul-Nil

Department of Psychology - University of Ain Shams

Editorial Board

Dr. Nassima R. AL-Ghaith

Editor-in-chief

Prof. Ahmed Abdul-Khalek

Department of Psychology

Prof. Abdullah Sayed Hadya

Department of Political Science

Prpf. Mohammed A. AL-Daly

Department of Arabic Language
and Literature

Dr. Yagoub Yousif Al-Kandari

Department of Sociology

Dr. Obaid Surur Al-Utaibi

Department of Geography

Dr. Hussain Al-Messri

Department of History

**Dr. Al-Zawawi Baghurah
Bin Al-Sa'di**

Department of Philosophy

Dr. Antony Johae

Department of English Language
and Literature

Dr. Hesham Mahmoud Mesbah

Department of Mass Communication

Haifa'a H. AL-Meshari

Managing Editor

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

ISSUED by the Academic Publication Council - UNIVERSITY of KUWAIT

A REFEREED ACADEMIC QUARTERLY THAT
PUBLISHES MONOGRAPHS ON TOPICS RELE-
VANT TO THE SCHOLARLY CONCERNS OF THE
VARIOUS DEPARTMENTS IN THE FACULTIES OF
ARTS AND SOCIAL SCIENCES:

FACULTY OF ARTS & HUMANITIES:

- Department of Arabic Language and Literature.
- Department of English Language and Literature.
- Department of History.
- Department of Philosophy.
- Department of Mass Communication

FACULTY OF SOCIAL SCIENCES.

- Department of Sociology
- Department of Geography
- Department of Psychology
- Department of Political Science

Volume 26, 2006

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

Ibn Al-Khatib From *coup d'etat* to Assassination Omened Ministry

(760 - 776 A.H)

(1359 - 1374 A.D)

**Academic
Publication
Council**



Prof. Rabah A. Al-Maghraoui

Department of History - Faculty of Arts
University of Mohammed I - Morocco

ISSN: 1560 - 5248

Monograph 247 - Volume 26

1427 A.H - 2006 (June)